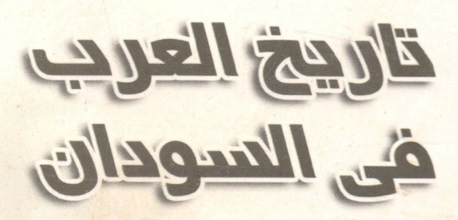


(بما فيهم الشعوب التي سبقتهم وسكان دارفور)

الكتاب الأول

المؤلف هارولد أ. مكمايكل

تعريب الأستاذ: سيد محمد علي ديدان

سيد علي ديدان

- ليسانس القانون جامعة القاهرة بالخرطوم
- عمل قاضياً بالهيئة القضائية من 1976 حتى 1990
- عمل في مجال الترجمة والاستشارات القانونية بسلطنة عمان
- يعمل حالياً بالمحاماة



سيد علي ديدان

- ليسانس القانون جامعة القاهرة بالخرطوم
- عمل قاضياً بالهيئة القضائية من ١٩٧٦ حتى ١٩٩٠
- عمل في مجال الترجمة والاستشارات القانونية بسلطنة عمان
- يعمل حالياً بالمحاماة

لوحة وصور الغلاف :خالد حامد : تصميم /أصال قزح للتصميم الفني



تاريخ العرب في السودان

[١]

تاريخ العرب في السودان

بمن فيهم الشعوب التي سبقتهم وسكان دارفور

(الكتاب الأول)

المؤلف:

هارولد أ. ماكمايكل

تعريب الأستاذ:

سيد علي محمد ديدان



مركز عبد الكريم ميرغني الثقافي

تاريخ العرب في السودان [1]

First Published in March 2012

الطبعة الأولى:
مارس ٢٠١٢م

إهداء

إلى سمُر الجباه، بيض النوايا، أنقياء السرائر

إلى من يستمدون هويتهم من لون بشرتهم،

أهدي هذا الكتاب.

ثم إلى روح المؤلف

وأسرته من بعده تقديراً لهذا الجهد الكبير.

فهرس الكتاب الأول

مقدمة المترجم

حقيقة إن ما دفعني لترجمة هذا الكتاب أهميته الكبيرة حيث إن أي كتاب يتعلَّق بأصول القبائل السودانية لا يخلو عن إشارة له، هذا إذا لم يكن معتمداً عليه كلية، ولهذا السبب رأيت إن خلو المكتبة السودانية من ترجمة له قد يحرم بعض الباحثين العرب في الحصول على ما بين أسطره من معلومات قيّمة إذ إن تأليفه بالإنجليزية ربما يحول دون البعض من نهل ما يحويه من معارف.

وإذا جاز لي التعليق على ما حواه الكتاب من معلومات فإنني أنظر بمزيد من التقدير للكثير من الرحالة الأوربيين والإداريين البريطانيين الذي عملوا بالسودان إبان فترة الحكم الثنائي لما بذلوه من جهد في الكتابة والتأليف ولما تناولوه من مواضيع هامة خصوصاً فيما يتعلق بنظم الإدارة والجغرافيا والاقتصاد والتاريخ والأصول الإثنية لقبائل السودان الأمر الذي أوجد مراجعاً هامة تصلح للبحث والتمحيص بما يمكِّن القارئ أو الباحث السوداني من الإلمام بالكثير من المعلومات القيِّمة المتعلِّقة ببلاده وسكانها، لا أنكر إن ترجمة هذا العمل كانت شاقّة للغاية خصوصاً وإن الكثير من العبارات والمسمّيات التي استخدمها المؤلف كانت ممعنة في المحلية وإن تلك المرجعيات تستمد أصلها من الوثائق الأهلية القديمة ولذا كان من الشاق جداً تحقيق أصل بعض المسمّيات والبلدان.

هذا من ناحية، أما من الناحية الأخرى فقد ألحق المؤلف كل مخطوطة مما ورد في الجزء الثاني من الكتاب بمذكرات وقد رأينا أن نلحق بالحواشي وبالقدر الذي يضيف للقارئ على أن نستبعد غير المقيد من تلك المذكرات. يلاحظ القارئ إن بعض العبارات الواردة في الجزء الثاني من الكتاب جاءت بلغة دارجية بحتة وبالذات في المخطوطة د (٣) المتعلقة بطبقات ود ضيف الله وذلك لأن الكثير منها منقولة من الأصل بخلاف

المخطوطات الأخرى التي اعتمدنا فيها على الترجمة مع العناية بتحقيق ما ورد فيها من آيات قرآنية وأحاديث، وما لم نقع عليه من حديث أوردنا مضمونه واضعين في الاعتبار إن لب هذه المؤلفات وغايتها هو الأنساب ولا شيء غيرها.

قبل أن أختم هذه المقدمة أود أن أسجل فيها اعتذاري لأية قبيلة مسّها الكاتب بشيء من الذم لقناعتي بأن هذا الذم لا يقلل من شأن أي قبيلة سودانية وذلك - وببساطة - لأن أي صفة ذميمة أو حميدة لا يمكن أن تشمل القبيلة كلها كما وإن كل قبيلة لا بد أن يكون من بين أفرادها الحميد والذميم وهذه صفة من صفات البشر عموماً.

كما إن القبائل السودانية شرقاً وغرباً جنوباً وشمالاً سواء من الشايقية أو الفور أو الجوامعة وغيرهم كلها عُرفت بحسن خصالها وعلو شأنها بحيث لا يقدح في سمو مكانتها ما ورد على لسان الكاتب، بيد أن الأمانة العلمية تقتضي أن ننقل ما جاء في الكتاب بكل صدق حتى لو كان ذلك خلافاً لقناعتنا الشخصية، ونفس هذا الاعتذار ننقله للكثير من القبائل التي يشكك المؤلف في أصلها رفضاً للرواية الشفوية المتداولة، علماً بأننا شعوب لم تعرف التدوين أو التوثيق حتى تواريخ حديثة ولا تضع للوثائق ذات الأهمية التي يتطلبها المؤرخون، ومع ذلك تتواتر الرواية لفظاً ونظماً بحيث تحفظ الكثير من الوقائع والتواريخ بالقدر الذي يلغي الكثير من العفو على الحقائق التاريخية.

أرجو أن أكون قد وُفّقت في أن أقدم كتاباً شغل الكثير من حواشي مؤلفات الأنساب السودانية بالقدر الذي ييسر تناول ما ورد بين أسطره كما لا يفوتني أن أتقدم بالشكر للدكتور ضيٍّ النور بكلية التربية جامعة الخرطوم الذي أعانني في بعض المقتطفات الواردة باللغة الفرنسية والشكر موصول للأستاذ محمد محجوب حسين الذي مهّد لهذا الأمر. والشكر أجزله للأستاذ هشام مصطفى حميدة المحامي الذي اضطلع معي في مهمة تحقيق بعض الآيات القرآنية والأحاديث ثم إلى الأستاذة: منيرة الطيب حبيب الله التي ذاقت الأمرّين من طباعة وتصحيح وتنسيق لفترة تجاوزت قرابة الثلاث سنوات.

والله ولي التوفيق

مقدمة

الكتاب الأول

إن أولى أهم الخطوات لمن يرغب في دراسة أمة ما، عليه أن يطلع على المخطوطات الأهلية وذلك بالقدر المتاح، ثم بعد ذلك عليه أن يقيّمها كوسيلة للإثبات.

والتزاما بهذا المنهج - عند دراسة تاريخ العرب في السودان - قد يندهش المرء عندما يجد توافقاً كبيراً للأهالي بما في أيديهم من قصاصات يعتبرونها ذات أهمية تاريخية. وغالباً ما يكون حائز المخطوطة أمياً، ومع ذلك - لغرض الإثبات - يمكنه إخراج رزمة من الأوراق المهترئة التي لا تحمل أي قيمة. بعض تلك الأوراق عبارة عن عقود تتعلّق بزراعة قطعة من الأرض أو ملخّصات لصلوات أو أدعية أو سندات، بينما يشتمل البعض الآخر على سلسلة أسماء تمثّل شجرة نسب حائز المخطوطة لتبلغ به حتى العباس عم الرسول (ص) أو غيره من الأسماء المرموقة، وإذا سئل حائز المخطوطة عن مصدر تلك الشجرة لا يخرج رده عن أحد أمرين: أما إنه وجدها ضمن مخلفات والده أو إنها منسوخة من عمل أحد الفقهاء. وفي الحالة الثانية كثيراً ما يأمل المرء في أن يكون العمل مستمداً من مرجع كبير يبلغ عمره عدة قرون كأن ينسب للسمرقندي مثلاً، لكن العلم عند الله إذ يظل المرء في بحث دائب عن هذا الفقيه دون جدوى حتى يصحو من هذا الوهم. أحياناً تكون الإجابة بأن المخطوطة قد فقدت أو احترقت أو إنها أعيرت لأحد الأقرباء في أقصى أقاصي البلاد أو إن الأرضة قد قضت عليها. ثم في بعض الأحايين يقرّ الفقيه بحيازته للمخطوطة ثم يعرض - بحرص شديد - القليل من الأوراق التي يرجح أن تكون قد كتبت في العقود القليلة الماضية. وفي هذه الحالة غالباً ما يحال الباحث للمخطوطة الأصلية التي في يد فقيه آخر الذي ربما يكون بعيد المنال أو أن يكون قد توفي منذ عدة سنوات.

أحياناً قد يسمع المرء عن فقيه في متناول اليد وتكون المخطوطة التي في يده عبارة عن مُزقة مهملة بسبب تداولها، ومنها يستقي المرء بأنه هو أو أبوه قد نسخ هذه النسبة من خمسة عشر أو عشرين سنة مضت من نسخة في حيازة فكي (فقيه) آخر.

ثم أحياناً نجد نسبة لدى بعض الأسر بيد أنني لم أر مخطوطة بلغ عمرها القرن أو أكثر رغم احتمال وجود مثل تلك الوثائق.

والسبب الرئيس لفقدان المخطوطات لا يرجع في الغالب لتردد الفقهاء في تسليم ما في أيديهم للغرباء، ومع عدم غياب هذا العامل قبل نشوء الثقة، بل تبقى الحقيقة الراسخة هي إن المهدي والخليفة - على وجه الخصوص - أمرا بوجه صارم بالتخلص من كل الكتب والمخطوطات الحديثة. وكان خوف المهدي منصباً على منع البحث خوفاً من أن يؤدي ذلك لإبطال إدعاءاته بأنه المهدي المنتظر. أما الخليفة - وهو تعايشي من دارفور - فقد انصبّ مبلغ اهتمامه في أن لا تذهب مخطوطات الأنساب لتجعل منه أدنى أصلاً من رعاياه. نتيجة لهذه الأوامر تم إحراق الكثير من الوثائق أثناء فترة المهدية كما تم دفن الكثير منها مما أدى لفقدانها أو إتلافها بفعل الأرضة، ولم يبق منها في وقتنا الحاضر إلا القليل.

إن أول انطباع خرجت به من دراسة تلك القصاصات المستمدة من تلك النسخ وملخصاتها هو إنها لا تسوى شيئاً، بيد إن الإطلاع المتأني يظهر - من ناحية - بأن هناك كثير من أشتات ملحوظات ومؤشرات التي لها قيمة حقيقة، ثم - من الناحية الأخرى - إن بعض المقاطع التي تستحضرها الذاكرة هي في الغالب منقولة كلمة بكلمة من نسبة أطول وترجع لمصدر عام أصلي يرجع لحوالي القرن السادس عشر.

وقد أصبح في غاية الوضوح - بصرف النظر عن خطأ التفاصيل - إن أغلب تلك المخطوطات القبلية وخصوصاً تلك المقترنة بالسمرقندي تحتوي من الناحية النسبية على معلومات قيّمة عن تداخل وتصاهر القبائل السودانية.

حتى لو سلّمنا بقلّة القيمة الحقيقة لتلك المخطوطات، يفرض الواقع على من

يرغب في إجراء دراسة تاريخية أو اجتماعية لبلد ما أن يتبنى خيارين أحلاهما مر، فعلى المرء إما أن يبطئ في عمله لجمع نماذج لتلك المخطوطات من مختلف أرجاء البلاد ثم يعكف على دراستها لاستقصاء مدى الإفادة منها، أو أن يهمل تلك البيّنات الوثائقية تماماً. وهكذا إذا كان في مقدور الباحث تحمُّل التأخير فالأرجح إنه سوف يختار الخيار الأول، وفي هذه الحالة سيجد نفسه غارقاً في لجّة من المتناقضات وعدم الدقّة قد لا يخلّصه منها عاماً أو عامين. ثم يقوم بدراستها لاستقصاء مدى فائدتها، أو أن يرفض البيّنات الوثائقية بالمرة. فإذا كان في مقدوره تحُّمل التأخير فالأرجح إنه سينتهج الخيار الأول وهكذا سرعان ما يجد نفسه يغوص في لجة من المتناقضات وعدم الدقة والتي من نتاجها سيجد إن سنة أو سنتين قد لا تخلّصه مما بدأ فيه من عمل. ولتفادي هذا المأزق وتيسير طريق البحث بالجمع والمقارنة والتعليق على تلك الوثائق كما وجدتها أثناء عملي بمختلف مناطق السودان، جعلت من تلك المخطوطات الهدف الذي حددته في المقام الأول لنفسي. ولئن تجاوزت الحماسة الهوجاء التروي الحكيم فإنني أتمنى أن يتصدى شخص أوسع إدراكاً بضرورة المادة العلمية والتاريخية أكثر مني ليتناول تلك المهمة الشاقة غير المكتملة التي تعرَّضنا لها في ما يلي من صفحات. وتتمثَّل الخطة العامة لعملنا في الآتي: أولاً: تناول الخصائص العرقية لشعوب السودان التي عاشت في مختلف أرجائه الشمالية قبل قدوم المسلمين وقد تم تناول ذلك في الجزء الأول حيث تنتمي لهم كل العناصر غير العربية من السكان الحاليين بصفة رئيسة. أما مدى أثر الرق في التكوُّن العرقي لعرب السودان اضطررنا لتجاهله، وتقدير ذلك هو معرفة مسلّم بها لا أملكها عن هؤلاء أنصاف الزنوج الموجودين في أواسط أفريقيا. ثم في المقام الثاني فإن واقعة حدوث تعديلات عرقية وثقافية بعينها بسبب استيلاد الإماء بصفة رئيسة من نساء النوبة والدينكا والفور والفرتيت تتطلَّب أن تظل عالقة بالأذهان على الدوام، وتحديدها على وجه الدقة وتصنيفها يُعد من المسائل قليلة الأهمية.

ثانياً: انصرفت النية - في الجزء الثاني - لمتابعة التاريخ المبكرِّ لبعض أشهر القبائل العربية التي استقرت فروع لها مؤخراً في السودان وتبيان درجة التقارب أو

التمايز العرقي القائم بينها.

ثم مزيداً من الاعتبار الخاص لثروات العرب في مصر من القرن السابع حتى القرن الخامس عشر مع تبيان بعض الظروف التي دفعت بهم جنوباً وكذلك الظروف التي صاحبت هذا التحرُّك وقد ورد كل ذلك في الفصل الثاني. وفي نفس الوقت التقصي عما إذا كانت هناك أي معلومات في المتناول، علماً بأننا أوردنا بعض المذكرات عن مجرى الأحداث في السودان خلال ذات الفترة.

يشتمل الجزء الثالث على سلسلة من المذكرات عن تاريخ وتركيبة القبائل العربية الحالية في السودان.

جاءت افتتاحية الجزء الرابع بفصل يتعلق بالقيمة الأصلية للمخطوطات الأهلية وحدودها، تتلوها ترجمة لأثنين وثلاثين مخطوطة أهلية تلازمها مذكرات تفسيرية وملاحق وأشجار نسبية.

ما تجدر ملاحظته هو أن بعض تلك المخطوطات عبارة عن مقتبسات غير ذات جدوى كان ينبغي تجاهلها كلية، لكن هناك اعتبارين دفعاني لتضمينها. ففي المقام الأول قد يعنينا إيراد هذا الجزء باعتباره تجسيداً بسيطاً لنماذج المخطوطات في البلاد أكثر من كونها مصدراً للحقائق التاريخية. ثم في المقام الثاني إنه لمن المجدي الإلمام بمدى ما حدث من توافق وتصادف على السواء في تقديم ذات الوقائع عبر عدد من الوثائق التي في أغلبها إما أن تكون منسوخة إحداهما من الأخرى أو إن مصدرها واحد. لا يقتصر علم المرء على بعض الشيء عن دقّة أو عدم دقّة معلومات بعينها فقط - مع شحّها غالباً - لكنها تمكّن من التقويم بمزيد من الثقة عن درجة إمكانية التعويل على المخطوطات الأهلية بصفة عامة عندما لا تسمح الظروف بتطبيق أي معيار مقارن.

هـ أ. ماكمايكل.

٥ أكتوبر ١٩٢١م

الجزء الأول

سكان شمال السودان قبل الفتح الإسلامي

الفصل الأول

العنصر العربي قبل الإسلام

لا يعنينا في هذا البحث كل تلك المنطقة التي تقع - بوجه تقريبي - جنوب الخط الموازي لخط العرض الثاني عشر، بل ما يعنينا هو منطقة محددة تقع خارج نطاق الوجود العربي. صحيح إن القبائل العربية ترعى مواشيها في مواسم معيَّنة جنوب هذا الخط مع ممارسة القليل من الزراعة أحياناً، وخير نموذج للتدليل على هذا القول هو قبائل البقارة جنوب كردفان ودارفور ثم قبائل سليم في النيل الأبيض، لكن هناك استثناءات قليلة لتلك القاعدة مردودة لملاءمة المناخ شبه المداري لتربية الماشية. وهكذا يصح القول بأن المنطقة التي تقع جنوبي خط العرض الثاني عشر لم تتعرَّب بعد بالقدر الذي جرى على تلك المناطق الأكثر جفافاً في أقصى الشمال والتي استقرت حيازتهم لها.

سنعطي فكرة عامة - في هذا الفصل - عن التكوين العرقي لسكان ذلك الجزء الشمالي من السودان عن الفترة السابقة لظهور الإسلام.

أن مما يجب الاستيثاق منه سلفاً هو إن واقعة هجرة واستقرار المسلمين في السودان أحدث تعديلاً عرقياً في التركيبة السكانية الأصلية، وهو أمر يلقي بشيء من العتامة على واقعة أخرى مماثلة وعلى درجة من الأهمية، تتمثَّل في إن العنصر العربي قد عبر إلى مصر والسودان قبل الإسلام بزمن طويل، وهكذا ينبغي أن ننظر أولاً في الهجرة من الجزيرة العربية للسودان لفترة ما قبل الإسلام خلال تلك الحقبة الموغلة في القدم.

كان الأمر سيبدو مدهشاً إن لم يكن الاتصال بين جانبي البحر الأحمر حميماً منذ فجر التاريخ وذلك لأن سكان هذه المنطقة متشابهين[1] لحد كبير من حيث التكوين العرقي بسبب إن المرور كان سهلاً وقتها.

لقد شق التجار الطرق وازدهرت تجارة البخور والعاج والذهب مع موانيء مصر والسودان والحبشة منذ عهد قديم. ترتب على هذا النشاط التجاري استقرار هؤلاء التجار على تلك السواحل حيث كانوا يذهبون بتجارتهم حتى النيل عن طريق وأدي حمامات الذي يمتد من الشرق للغرب بين البحر الأحمر وطيبة وفي هذا الصدد يقول البروفسير «اليوت سمث»[2] ما يلي «من النقوش التي على الصخور الواقعة على طول هذا الطريق يتضح بأن كانت هناك حركة عبور في عهد الأسرة الخامسة، مما يكشف التقارب بين النيل والبحر الأمر الذي يجعلنا نجزم بأنه كان طريقاً عاماً للتجارة إلى ما قبل عصور الأسرات، وكيفما كان الأمر فهو طريق عمومي فيه التقى العرب وقدماء المصريين وامتزجوا مع بعضهم البعض، وإن الانتشار الواسع للأصداف البحرية في مقابر الأسرات الحاكمة في مصر العليا والنوبة - والفرض إنها استجلبت من شواطئ البحر الأحمر - لهو دليل حي على وجود هذا التداخل».

يرى آخرون بأن الأسرات المصرية ممن احتلوا مصر وعبدوا الإله «حورس» هم في الأصل من العرب الذين دخلوا أفريقيا عن طريق ميناء مصوَّع، وفي معرض تطوَّر هذه النظرية يستدل بروفسير «نافيل»[3] بأقوال «جوبا» التي دونها «بلني»[4]، وخلاصة هذا الرأي هو إن المصريين ينحدرون أساساً من الأصل العربي، أما فيما يتعلق بسكان وادي النيل من «سين» (أسوان) حتى «مروى» فهم ليسو من عنصر أثيوبي بل عربي أيضاً، وحتى معبد الشمس الذي لا يبعد كثيراً عن «ممفس» قيل إن

(١) إليوت سمث، «قدماء المصريين» ص ٨٧.

(٢) إليوت سمث المرجع السابق ص ٨٨.

(٣) أصل الحضارة المصرية Smithsonian Rep 1907 الصفحات ٢٤٩- ٥٦٤.

(٤) pliny, BK.VI, 34.

الذين شيدوه هم العرب. وحتى لا نناى بعيداً فأنه يمكننا القول بأن بدايات سيطرة تلك الأسرات الحاكمة شهدت دخول العرب مصر بأعداد كبيرة عن طريق الساحل الأريتري واستيطانهم هناك، وإن جل هؤلاء المهاجرين قد اتخذوا مواطن لهم في الأراضي المصرية وإلى الجنوب نحو الأراضي السودانية المتاخمة لمصر. وإن بعض هذه التحركات ألقت بظلالها على تلك الأحداث الأمر الذي نجمت عنه تلك الرواية المتداولة والقائلة بأن الملوك الأوائل لمصر كانوا من أصول أثيوبية، وأغلب الظن هو إن عبارة أثيوبي ترادف كلمة «زنجي». والمؤكد تماماً هو إن الألفية الثانية قبل الميلاد شهدت استعماراً عربياً للهضبة الأثيوبية من قِبل عرب جنوب غرب الجزيرة العربية، ثم تلي ذلك توسُّع تلك الهجرة وانتشارها حتى بلغت ذروتها إبان سيطرة المعينيين وسبأ (١٥٠٠ - ٣٠٠ق.م)[1]. خلال تلك الحقبة كان الجزء الأكبر من التجارة العالمية يمر عبر الحبشة وساحل البحر الأحمر حتى النيل[2]، وحتى العنصر البشري على جانبي مضيق باب المندب أصبحوا متشابهين - بالتدريج - ويصدق هذا القول إبان فترة ازدهار تجارة البطالمة أيضاً.

تتوفَّر أدلة قاطعة بأن هناك مراكز تجارية للعرب في القرنين الأول والثاني الميلاديين على الساحل من باب المندب حتى خليج السويس[3].

أما فيما يتعلَّق بالهجرة العربية براً نحو مصر، فبينما يؤكد بعض المؤرخين نظرية قدوم الأسرات الحاكمة في مصر عبر أثيوبيا، يري البعض الآخر بأنهم أتوا من الجزيرة العربية إلى مصر عبر شبه جزيرة سيناء[4]، بيد أن هذا النظر مشوب بكثير من الشكوك، والثابت إنه منذ بداية نشوء الأسرات الحاكمة فإن الجانب الشرقي للدلتا

---

(١) Sir H. Johnston in Journ. R.A.I. xl, lll 1913 P. 385 Winkler in world `s history P. 249.

(٢) Schurtz in world `s history P. 433.

(٣) Periplus and Pidemaeus, passin.

(٤) E.q. Lepsius q.v.ap Navile L oc. Cit.

كان هدفاً للغزاة «البدوين» من سيناء وسوريا[١]، وهناك عدة نقوش تُظهر الفرعون وهو يدحر البدوين «سكان الرمال» عن مناطق المعادن في سيناء[٢]. خلال فترة حكم الأسرة الثانية عشر أي حوالي ألفي سنة قبل الحقبة المسيحية وتُظهر الآثار بأن للمصريين تجارة مع البدو (حاجة القبائل السامية في آسيا المجاورة الذين يتحدَّرون من شعوب متمدِّنة أصلاً أعطت متسعاً للتجارة[٣] وهكذا فإن الصورة المشهورة في معبد أمنحتب الثاني في «بني حسن» تصوِّر وصول رهط من التجار البدوين)[٤].

إن أكثر الأدلة على التسامح السائد - وقتها - وردت في رحلة «سنهو» إلى فلسطين أثناء حكم تلك الأسرة حيث جاء فيها (لقد جئت إلى جُدر الحاكم التي شُيدت لصد البدوين، تقدمت ثم سقطت من الظمأ. شددت العزم وجمعت أوصالي وبمجرد أن هدأ خوار الأبقار دنوت من البدوين، وقد تعرَّف على زعيمهم الذي كان في مصر فسقاني ماءً وقدم لي طعاماً من اللبن وذهبت معه إلى قبيلته وقد عاملوني معاملة حسنة[٥].

حوالي عام ١٦٥٧ق.م غزا الهكسوس مصر[٦]، ويرجع أصلهم للحثيين، وربما كانوا من عناصر عربية[٧]، بيد أن الدلائل ترجِّح الرأي الأول، لكننا - على كل حال - نفترض إن الجزيرة العربية قد ألقت بسهمها من البدوين على أثر هؤلاء الغزاة[٨] وكان ذلك

---

(١) Elliot Smith loc. Cit. pp. 92/93.

(٢) Breasted, A. R.I, 168, 236. 250, 267, 311, 315. أوائل تلك التواريخ من الأسرة الأولي يدخلون جميعهم ضمن فترة الأسرات الست الأوائل.

(٣) برستيد المرجع السابق ص ١٥٩.

(٤) Ibid. p. 158 and A.R.I., 620. Schurtz, loc. Cit. P.619.

(٥) برستيد (تاريخ مصر القديم ص.٤٩٣) وهوكس- في الأصل الهيرغلوفي - هيك وشلو أي ملوك الرعاة

(٦) برستيد المرجع السابق ص ١٧٩, ٤٤٢.

(٧) Von Luschan Journal R. A. I. XLI, 1911,P.242.

(٨) برستيد تاريخ مصر القديم ص ١٨١، ويعلق بأن العبرانيين في مصر ربما لم يكونوا سواء تحالف لجزء من البدوين من قادش أو الهكسوس.

في عهد الهكسوس، ومن ثمار ذلك الغزو أن ازدهرت التجارة بين الشرق والغرب إلى أقصى مدى وأكثر مما كان من قبل.

وعندما كانت الإمبراطورية في أوج مجدها والحرب بين سوريا وتحتمس الثالث (١٤٧٩ - ١٤٤٧ق.م) أوهنت تلك الحواجز المتبقية، فإن كل العالم تاجر في أسواق الدلتا[١] والنقوش التي على معبد حورمحب (١٣٥٠ - ١٣١٥ق.م) تُظهر - على وجه الخصوص - بأن هناك استقرارا للعرب في مصر في زمن ما، ومما دُون في هذه النقوش هو إن اللاجئين من فلسطين التمسوا من الفرعون ملجأً لهم في مصر بقولهم (كعادة أجدادك منذ القدم[٢] والآن أيضاً فإن «الشاسو» و«الخبيري» ساميو الصحراء بما فيهم العرب والعبرانيين والآراميين انتشروا في سوريا وفلسطين حتى عهد إخناتون (١٣٧٥ - ١٣٥٨ق.م) حيث أصبحوا حكاماً على الحدود الشرقية لمصر[٣]. بيد أن تلك السلطة قد تم كبحها على أيدي «سيتي» (١٣١٣ - ١٢٩٢ق.م) كما إنهم تأثروا - دون شك - بحملات «رمسيس الثاني» (١٢٩٢ - ١٢٢٥ق.م) على الحثيين.

عند وفاة «رمسيس» تم أسرِ العديد من الأعراب في الحرب واقتيدوا لمصر كعبيد أو كمرتزقة[٤]. بدأ نفوذ مصر وقوتها في الاضمحلال. وخلال حكم الأسرات التاسعة عشر والعشرين والحادية والعشرين غمر الليبيون مصر حتى عام ٩٥٠ق.م) واستولوا على السلطة[٥]. والافتراض هو إن بعض البدوين الشرقيين الذين لا يختلفون كثيراً عن الليبيين انتهزوا هذه السانحة للإقامة والتزاوج معهم في الدلتا كما تزاوجوا مع المصريين من قبل.

في العهد النوبي الذي تلا تلك الحقبة، بلغ الآشوريون أوج قوتهم وأخضعوا

(١) برستيد (تاريخ مصر القديم ص ٢٤٤، ٢٥٣).

(٢) برستيد A. R. III, ١٠,١١ (تاريخ مصر القديم ص ٢٦٣، ٢٨٤، ٢٨٥).

(٣) برستيد تاريخ مصر القديم (٢٦٣، ٢٨٤، ٢٨٥).

(٤) .Ibid. pp. 254, 317 -318

(٥) and cp. A. R.III ,570; IV, 35, 83,84 Ibid pp 298 ,327, 328, 333 pp

مصر، وفي بواكير هذا العهد كان «بسمتشوس الأول» - على وجه الخصوص - مركزاً للسلطة ولكن عندما أطاح البابليون بحكم الأشوريين استطاع أن يحقق استقلالا عنهم بحيث استطاع أن ينوِّع علاقاته الخارجية مع القوي الموجودة في الشمال والشرق، وحذا حذوه خلفاؤه من بعده. بعد ستين سنة من موت «بسمتشوس الأول» أسس «سايروس» الإمبراطورية الفارسية الوسطى. وفي عام ٥٢٥ق.م احتل «كامبسس» ملك الفرس مصر.

يبدو أن نفوذ العرب قد قوى في مصر إبان فترتي الآشوريين والبابليين. ويحدثنا «هيرودتس» عن «سيناشريب» (كملك للعرب والآشوريين كما يحدثنا عن جيشه كجيش للعرب) وقد انتهى حكم الفرس بعد مائتي عام. وهنا أيضاً فالافتراض هو إن هذا الوجود الأسيوي كان يتضمَّن جزءاً من العنصر العربي، ومما يقوِّى هذا الاعتقاد هو إن الإسكندر الأكبر عندما احتل مصر في عام ٣٣٢ق.م عين «كولمنيوس» و«نوكراتس» كحكام على العرب حول «هيروبولس» تحت مسمى (عربارش) وقد كان هذا المنصب من الأهمية بمكان بحيث يكون شاغله - بجانب مسئولياته الأخرى - مسئولاً أمام الإسكندر عن كل خراج مصر[١].

وفي بداية حكم البطالمة سمعنا بأن العرب كانوا يقدمون قطعاناً كبيرة من الجمال لغزو أنتيقنوس[٢] الذي تم إجهاضه، ولا شك في أنهم انتقلوا وهاجموا على الجانبين بالتعاقب عبر كل الحروب التي خاضها البطالمة المنتصرين على الجبهة السورية، ولكن إلى أي مدى اتخذوا من مصر موطناً مستديماً لهم - خلال تلك الحقبة - فهو أمر يستحيل القطع به. في هذه الأثناء دعونا لا ننسى التداخل الممتد في عمق الجنوب، الذي لا يقتصر على العلاقات التجارية بل كان القحطانيون والحميريون - من جنوب الجزيرة العربية - يمثلون العروة الوثقى بين العرب والزنوج سكان

(١) المعني تاريخ مصر الصفحات ٢٠، ٢١.

(٢) المحفي المرجع السابق ص (٤٩).

الحبشة[1] الذين كانوا يغزون وادي النيل على فترات. لسنا في حاجة لتسليط الضوء على قصة شدَّاد الحميري ملك عاد الذي غزا مصر في عهد «أشمون» حفيد حام بن نوح وكيف إنه بني الأهرامات والخزانات قبل أن يرُد على أعقابه[2]، بيد أن الرواية عن غزو عبد شمس سبأ أحد ملوك اليمن القدماء ومؤسس سد مأرب لمصر[3]، تشير على الأرجح للغزو الآتي من الجنوب الغربي خلال العهد النوبي. ثم إن من الوقائع الجديرة بالذكر هي حملة «أبرهة ذو المنار» «وأفريكوس». فالأول ولد في ١٣٤ ق.م بحسب رواية «كاسن دي بيرسيفال» وكان ملكاً لليمن، وهو أخ أو ابن للصعب ذو القرنين[4] الذي يُقال إنه قاد غزوة للسودان حتى «مُغراب». هذه الرواية تؤكد حملة الحِميريين عن طريق الحبشة.

أما أبرهة ابن أفركوس أو ابن أفريكي، فقد غزا شمالي أفريقيا في عام ٤٦ق.م تقريباً.

إن هناك أساساً للاعتقاد بأن تلك الغزوات تلتها موجتان متميزتان لاستقرار الحِميريين في المناطق الداخلية لأفريقيا.

في الأول استقرت أعداد كبيرة منهم غرب مصر مع القبائل الليبية وآختلطوا بهم تحت مسمى «بربر»[5] وهو العنصر الذي يرجح أن يكون قد تحوَّل إلى فرعي

---

(١) المحفي المرجع السابق ص ٤٩.

(٢) المقريزي الجزء الثاني ص ٥٢٣.

(٣) أبو الفداء ص ١١٧.

(٤) سمي كذلك لإرساله لضفائره أو للطاقية التي يرتديها ويخلط بينه والأسكندر ذو القرنين عن طريق الخطأ وربما هناك علاقة بين هذه التسمية وطاقية الفونج ومك بجراس الواردتين في هذا السِفر..

(٥) يقال إن أول من قطنوا بربري هم خمسة مستعمرات من السبأيين تحت إمرة أبن أفريقي ملك اليمن وكونوا ستمائة قبيلة من البربر وتلك المستعمرات الخمس كانت هي الصناهجة والمعمورة والزناتة والعمارة والهوارة، ونضيف واستنتج ابن بطوطة من تشابه الطعام والغذاء بين الصناهجة والمغرب وحدة الأصل الحميري.

الصناهجة والقتامة وفي هذا السياق تجدر الملاحظة بأن عرباً من اليمن شاركوا في معركة «أكتيوم» وحاربوا مع أنتوني على مراكب كيلوباترة.

ثم في المقام الثاني يبدو من الثابت إن هناك مستعمرات للحميريين الذين استقروا في النوبة وعلى الرغم من ذلك يبدو من الصعب القول بأن الأثر الناجم عن نفوذهم قد نشأ هناك، والذي سنلاحظه فيما بعد قد حدث إجمالاً منذ ذلك الوقت أو في فترة لاحقة. وخلال تلك الفترة انتشرت عبادة الشمس في جنوبي الجزيرة العربية ووسط المستعمرين الحِميريين على شمالي الحبشة وإن عبادة نفس الإله التي تبقت في تالمس (كلبشة) حتى عهد جستنيان أوجدت وثاقاً من الحميمية بين الحِميريين والنوبة عبر الوسيط المتمثِّل في شعب الحبشة الأمر الذي شجع على التمازج.

لقد سبق ورأينا «بلني» وهو يقتبس من «جُوبا» شارحاً لهذا النظر الذي ذهب لحد القول بأن سكان النيل من أسوان حتى مروى ليسو من الأثيوبيين بل من العرب، ومثل تلك الأقوال بالرغم من احتوائها على قدر كبير من المبالغة إلا إنها يمكن أن تُؤخذ باعتبار إنها تحوى - على الأقل - شيئاً من الحقيقة. هناك واقعة مفادها إن «أبا مالك» - أحد المتأخرين من الأُسر الحميرية المالكة - ، شن حملة على ديار البجة بحثاً عن الزمرد، ولكن تم سحق أغلب قواته. وهكذا فإن ما تطرحه هذه الرواية من وقائع ترجِّح الاعتقاد بأنها حدثت في العقود الأُول للحقبة المسيحية.

في القرن الخامس والعشرين قبل الميلاد دفع «أغسطس» بباليوس جالوس حاكم مصر لاحتلال تلك المنطقة اعتقادا منه بأن الجزيرة العربية هي مصدر التجارة التي يجلبها العرب لموانيء البحر الأحمر. فشلت تلك الحملة ولكن بعد حوالي ثلاثين سنة علم بأن أغلب التجارة ذات القيمة يجلبها العرب من الهند، ورغبة في احتكار السفن القادمة من الموانيء المصرية فرض الرومان نسبة ٢٥٪ كمكوس على البضائع الواردة من الموانئ العربية وحطموا عدن المركز التجاري الرئيس لكل تلك البضائع. وعلى مدى قرنين تطوَّر الأسطول التجاري الروماني على حساب العرب بيد أن حرية التنقل بين الساحلين لم تتأثر. وفي عهد ديوكلتيان (٢٨٤ - ٣٠٥م) استعاد الأكسوميون الأحباش وحِميريو اليمن سيطرتهم الكاملة على التجارة.

هذان الشعبان اللذان تربطهما وشائج القُربى والدم، أصبحا مرتبطين الآن بوثاق الدين أيضاً حيث اعتنقت أكسوم المسيحية - أخيراً - على أيدي «غرمنتوس» في حوالي عام ٣٣٠م، ومن ثم انتشرت العقيدة الجديدة بسرعة حتى عمت كل بلاد الحبشة، أما اليمن فقد سبقتها لهذا الدين بنصف قرن من الزمان وكانت تُعتبر بلاداً مسيحية أسماً حتى حوالي عام ٥٠٠م حيث تبني الملك «ذونواس» سليل أبرهة الديانة إليهودية.

لقد بعث كل من «إنستاسيوس» (٤٩١-٥١٨م) و«جوستنيوس الأول» (٥١٨-٥٢٧م) بالسفراء للحِميريين أملاً في القضاء على غارات الفرس المتزايدة وذلك قبل أن تتفاقم، إلا أن هذه المخططات فشلت نسبة للإشكالات التي نشبت بين الحِميريين والأكسوميين الناجمة عن اضطهاد ذي نواس للمسيحيين.

غزا إلسبان ملك أكسوم اليمن وأخضعها وذلك في حوالي (٥٢٢م) ومنذ ذلك الوقت ظلت تخضع للأحباش حتى نهاية القرن تقريباً رغم إن الإدارة الفعلية كانت بيد الحميريين.

آخر هؤلاء الحكام الحميريين هو «سيف بن ذي يزن» وهو حفيد «ذي نواس» المذكور آنفاً. تمكّن هذا الحاكم - بمساعدة الفرس - من دحر الأحباش عن أرض اليمن واستعبد من تبقى منهم، بيد أن بعض هؤلاء قد تمكّن من اغتياله في عام ٦٠٨م حيث وُري الثري في صنعاء. ثم احتل الفرس البلاد حتى أُستردت منهم بواسطة المسلمين في عام ٦٣٤م.

وما يثير الاستغراب أن هناك زعم بأن سيف بن ذي يزن[1] هو المؤسس لمملكة كانم، بيد أن هذا الزعم لا أساس له من الصحة. صحيح إن خصلة التنقّل والترحال هي صفة عربية شائعة إلا أن سنوات التشويش التي لازمت القرن السابع في الجزيرة العربية ثم الحقبة الإسلامية التي تلتها مباشرة تُرجِّح الاحتمال بأن تكون هناك هجرة

(١) يظهر بأسماء سيف بن ذي يزن ومحمد سيف الله أو سيف بن حسن.

فعلية من اليمن نحو أفريقيا، بالتالي ليس مستبعداً أن يكون بعض هؤلاء المهاجرين الحِميريين قد توغلوا في مسيرتهم حتى أقصى الغرب وادعوا الانتساب للأُسرة اليمنية الحاكمة، وقد تم قبولهم بهذه الصفة نسبة لجهل شعوب تلك المناطق[1].

أما إذا عدنا للفرس، فقد كانت جيوشهم نشطة إبان القرن السادس الميلادي في الشمال، كما في اليمن على حد سواء. وقد ازدادت ضغوطهم على مصر حتى تمكّنوا في عام ٦١٦م من انتزاع تلك المنطقة إضافة لكل آسيا الصغرى من أيدي الرومان.

والفرس أنفسهم كسلالة، لهم صلة دم بالغزاة الآراميين الأوائل، ولكن يُوجد بينهم الكثير من القبائل السورية والعربية، وكانوا- دون شك - على ود ووئام مع هؤلاء المجانسين لهم ممن سبق لهم الاستقرار في مصر.

انتهى حكم الفرس في مصر بعد عشر سنوات حيث فقدوا مناصرة العرب بسبب الحركة الإسلامية. وفي عام ٦٢٦م أجلاهم هرقل من مصر. أما الآن فقد وهنت قوة كل من الفرس والرومان معاً بسبب الحروب المستديمة وبدأ العرب يحتشدون على التخوم المصرية. لقد تم إخماد تحركاتهم في البداية ولكن في عام ٦٣٩م دخل عمرو بن العاص بجيشه وهزم الحاكم «ثيودروس» في «هيليوبوليس» ودفع بالرومان نحو الدلتا.

وفي عام ٦٤١م سقطت بابليون وتم حصار الإسكندرية، تلي ذلك اتفاق على شروط بعينها. وفي سبتمبر ٦٤٢م استسلمت الإسكندرية وهكذا وقعت مصر في قبضة العرب. إن نجاح العرب في الاستيلاء على مصر بهذه السرعة قد لا يُعزى بكلياته

(١) CP. Carbou , Loc. cit and Barth. ii 269 أنني أفترض إن السلطان بيلو كان يشير لتلك الحركة عندما كان يتحدث عن عبيد من البربر بعينهم ومجندين في اليمن تمردوا ضد الحميريين ونتيجه لذلك هُجروا لشاطئ أفريقيا وذهبوا واستقروا في كانم كأغراب تحت حكم الطوارق ذوي العلاقة بهم ممثلين في قبيلة تسمي اماكينات ولكنهم سرعان ما تمردوا عليهم واستولوا على البلاد وإزدهرت دولتهم لبعض الوقت وإمتد نفوذهم للممالك المجاورة مثل باقرمة ووداي وديار الهوسا.

للحماسة الدينية، صحيح إن نسبة من هذا النجاح كانت - بلا شك - بسبب هذا الإيمان الجديد، ومع ذلك فإن الكثيرين قد هبوا لعدة اعتبارات، في مقدمتها إنهم يحررون بلاداً تنتمي نسبة من سكانها لأناس ذوى صلة بهم عرقاً ونسباً من النفوذ الأجنبي. هكذا رأينا كيف إن فترة ما قبل الإسلام شهدت موجات من الهجرة العربية المباشرة نحو مصر، والأرجح إنها امتدت حتى ليبيا عبر شمال سوريا، ثم لازم ذلك تدفقاً مماثلاً نحو السودان عبر الحبشة، فضلاً عن طريق تجاري من منتصف ساحل البحر الأحمر حتى طيبة، بما يجُوز الاعتقاد بأن يكون هذا التسرُّب العربي المتزايد قد تم عبر هذه المحاور الثلاثة فضلاً عن الحركة المتقاربة ذهاباً وإياباً عبر طريق النيل سواء كانت تلك الحركة بسبب التجارة أو بسبب البحث عن المراعي، مما أدى - في بداية القرن السابع - إلى غرس الجنس العربي في عدة أماكن وسط شعوب شمالي السودان حتى لو لم يكن أصلهم الإثني محققاً.

الفصل الثاني

النوبيون والنوبة والليبيون

أصبح الطريق ممهداً الآن لتبيان الأجناس غير العربية ممن وجدهم العرب المسلمون في السودان. لقد أطلق هؤلاء الوافدون على كل الأهالي - باستثناء البدو من البجة سكان الصحراء الشرقية - تسمية هلامية وهي (نوبة)، وإن أول استخدام لهذه التسمية - في المراجع - كان للجغرافي «أراتستنس» المولود في ٢٧٦ق.م الذي تحدَّث عن (النوبات) ثم استقر أخيراً اسم (نوبادس) أو (نوباتي) على اللفظ اللاتيني.

أصل هذه العبارة مجهول لكنها - فيما يبدو - ذات أصل قديم، وقد تكون ذات صلة بالعبارة القبطية (نوتبد) وتعني (يضفر) وتتسق مع لفظ (نيبيد) تلك العبارة التي وردت في نقوش تحتمس الأول (١٥٤٠ق.م) تعريفاً بـ(ذوي الشعر المضفور) الذين أطاح بهم جوار الشلال الثالث. جاء في تلك النقوش ما يلي: (لقد أطاح بملك النوبيين الزنجي «نيحس» الذي أصبح لا حول له ولا قوة بحيث لم يتبق أحد من ذوي الشعر المجدول ليعاود الهجوم[1]. وفي تقديري إن العرب استخدموا الاسم الذي

---

(١) يقول سلقمان بالنظر للعبارات الوارده في مسلة تحتمس الأول التي اعتبرت ذوي الشعر الأجعد كمترادف لزنجي (نحس) والتي كتبت مبكراً في ذلك الأثر، فإن من الضروري الإلتزام بشيء من الحذر لأن مس موري تذكر بأن تلك الكلمة تقرأ نيبد، والمقرر بخصلة الشعر، أي الشعر المجعد تعني النيبد ذو الشعر، ولكن نيبد استناداً على برقس لا تعني مجعد بل تعادل الكلمة الفرنسية «ضفيرة» المطابقة للكلمة القبطية نوبيد. وعلى أية حال فإن سلقمان لا يلمح لإحتمال الجمع بين نوبيد ونوبة. وعبارة نوبة تشتق أحياناً من نوبو وتعني الذهب.

وجدوه متداولاً في مصر للإشارة لتلك الأجناس التي استوطنت جنوب الشلال الأول[1]، ولم يكونوا مهتمين بالفوارق الإثنية الكائنة وسط هذه المجموعات، وحتى سنوات متأخرة ظل الأمر غامضاً تماماً.

السكان الحاليين لنوبيا

يمكن وصف سكان «نوبيا» الحاليين بأنهم القوم الذين يعيشون على طول وادي النيل من أسوان جنوباً حتى خط العرض الثامن عشر تقريباً، أي على تخوم الدبة وكورتي[2]. واستقر الأمر بأن أُطلق على الفئة التي على الشمال اسم «برابرة» والذين إلى الجنوب اسم «دناقلة» أي سكان دنقلا[3].

تشمل عبارة برابرة الكنوز بين أسوان وكورسكو - والذين سنرى فيما بعد إنهم من عنصر مختلف - وكذلك النوبة حول حلفا والسكوت والمحس الأصليون والدناقلة. وتمتد ديار الدناقلة شمالاً حتى حدود جزيرة أرقو لكنهم لا يقرون بأنهم برابرة.

أما من ناحية التكوين واللغة فأن السكوت والمحس يكوِّنون مجموعة واحدة ويختلفون عن الكنوز والدناقلة، أما الأخيرون فيتشابهون فيما بينهم ويتحدثون لغة واحدة أيضاً، وتُعزى هذه الحقيقة الملفتة - من دون شك - للخصائص الجغرافية للمنطقة فيما بين كورسكو ودنقلا على وادي النيل والتي جعلت من المحس والسكوت

(١) يقول اليوت شمث، لا يوجد تبرير لتسميتنا لكل من السكان الأوائل والمتأخرين لنوبيا بالنوبيين، ففي الواقع إن من المشكوك فيه ما إذا كان يتوجب علينا تطبيق الأسم لسكان ما قبل الفترة الهيلينية على وادي النيل بين أسوان ومروى ويتحدث د. لبقيوس عن ترجيح عدم صحة إطلاق اسم نوبة على كل الأراضي التي يجلب منها الرقيق للشمال.

(٢) الحدود الجنوبية لكوشن الفراعنة الأسرة الثامنة عشر عملياً هي ذات الحدود Breasted , A.R,II 1020.

(٣) مفردها دنقلاوي وعلى الأرجح فإن هناك إرتباط بين الدناقلة والدناقيل على ساحل شمال الصومال (أنظر جونستون في بحث النيل ص ٣٤، ٤٢).

- بطريقة أو بأخرى - في عزلة عن الباقين[١].

جميع هؤلاء القوم مسلمون وتجري في شرايينهم الدماء العربية بيد أنهم ظلوا محافظين - بإصرار - على خصائصهم العرقية المستمدة من أسلافهم من غير العرب، ويبدو هذا جلياً وسط المحس والسكوت. أما الكنوز والدناقلة فهم الأقرب للجنس العربي. في نفس الوقت فإن استجلاب المُسترقات من الجنوب والذي استمر لقرون دون انقطاع أضفى قدراً من التجانس الزائف على كل تلك الشعوب النوبية.

أما فيما يتعلق بالبرابرة بصفة عامة فمن المؤكد بأن لا أساس لربطهم عرقياً بالنوبة الذين يقطنون جنوب كردفان كما أعتقد «ربل» و«روسي» و«كيني». صحيح أنهم يماثلون - في شكلهم - نوبيي الفترة الوسطى الذين عاشوا لحوالي ثلاثة آلاف إلى أربعة آلاف سنة - على التوالي - في نفس الموطن، بيد أن هذا الأمر ليس له دلالة على العلائق العرقية مع نوبة الجنوب كما هو الحال بالنسبة (للبرابرة - دناقلة)، الذين هم على تباين تام مع نوبة الجنوب سواء كان ذلك من ناحية التكوين أو الثقافة.

قد يكون الأمر - كما يترجَّح لدينا - بأن النوبة الجنوبيون يمثلون - لحد ما - النموذج الحالي للعنصر الزنجي، أي هؤلاء الذين احتلوا دنقلا ومنطقة الشلال جنوب حلفا بصفة مؤقتة إبان فترة المملكة الوسطي والإمبراطورية القديمة، والذين كوَّن المتجانسون معهم - فيما بعد - جزءاً من جيش الأسرة الأثيوبية الحاكمة التي احتلت مصر وحكمتها لما يقارب القرن، بيد أن هؤلاء الزنوج لم يكونوا سوى أجانب في شمال السودان وإن أكثرهم رُدوا على عقبيهم نحو الجنوب، وقد حلَّ محلهم - في النوبة السفلي - سكانها الأصليون والمهاجرون من مصر.

والراجح أن هؤلاء الزنوج وجدوا في «دوديشانيوس»[٢] صعوبة في الحلول

---

(١) يقول بركهارت بشأن إنطباق اسم برابره على الدناقلة «سكان النوبة ووادي الكنوز حتى دنقلا يُعرفون في مصر باسم برابرة - مفردها بربري - بيد إن هذا اللقب نادراً ما يستخدمه الأهالي أنفسهم عندما يتحدثون عن أصولهم»

(٢) أسوان.

محل السكان الأصليين لكنهم تمكّنوا من ذلك مؤقتاً على المنطقة الواقعة جنوب حلفا، وبالتالي استطاعوا تغيير التركيبة العرقية للسكان. ومع ذلك فإنه نسبة لفترات الاضطرابات، يصح القول بأنه منذ عهد الإمبراطورية الوسطى (٢٠٠٠ - ١٦٠٠ق.م) ثم بعد ذلك بقرون وخلال الفترة المروية والبطلمية والفترات الكلاسيكية،ثم عبر السنوات التي أعقبت إخضاع العرب للسودان، كان هناك تسرُّب مصري كثيف، تلاه - فيما بعد - تسرَّب للأجناس المصرو-عربية، وقد حطّت هذه الهجرات في شمال السودان بانتظام ودون إعاقة، ويقابل ذلك من الناحية الأخرى - تناقصاً في العنصر الزنجي في الإقليم. وسنرى فيما بعد إن هذا التسرَّب الممتد نحو الجنوب كان أكثر من مجرّد عودة للسكان القدماء الذين أجبرهم وافدون جُدد للعودة لمواطنهم السابقة على النهر.

عندما أطاح العرب بمملكة دنقلا القديمة وحلوا محلها، اندمجوا مع النوبيين المحليين بسرعة ثم تفرَّع منهم مُهجرَّون آخرون انطلقوا إلى أماكن شتى حتى بلغ الأمر إن البرابرة المهجنين مع العرب دخلوا كردفان واستوطنوا أقصى شمال جبال النوبة وتزاوجوا مع الزنوج الذين هم - على الأرجح - أحفاد لهؤلاء الذين سبق واحتلوا بلاد النوبيين[١].

لقد فرض المهاجرون الجدد لغتهم على السود المجاورين، وهكذا يمكن تفسير الترابط اللغوي الذي أشكّل على أجيال من المحققين. وباختصار فإن التشابه اللغوي بين البرابرة والنوبة سكان المناطق الشمالية لجنوب كردفان، ليس بسبب إن هؤلاء الزنوج سبق واحتلوا نوبيا فحسب - علماً بأن للزنوج لغتهم أو لغاتهم الخاصة التي قد تكون موجودة حتى الآن على تلك المعاقل الجبلية في أقصى الجنوب - بل بسبب إن البرابرة استعمروا المنطقة الواقعة على السفوح الشمالية لجبال النوبة. على أية حال فإن الخلاصة سبقت التسبيب مما يستدعي الرجوع.

(١) هناك معلومات لاحقة في هذا الشأن سنجدها في الجزء الثالث الفصل الأول حيث نورد شرحاً مفصلاً للبديرية والدناقلة الآخرين.

السكان الأوائل لبلاد النوبيين

فيما يتعلّق بالعصر الأول فقد ثبت أن هؤلاء السكان المبهمين لشمالي نوبيا الذين يُعرِّفهم علماء الآثار بالمجموعة (أ)، كانوا معاصرين لمن سبق من الأُسرات المصرية الحاكمة، حيث إن كليهما يدفنون موتاهم بطريقة واحدة كما إن هناك قواسم مشتركة بينهما في الثقافة.

يعني هذا أن هذين الشعبين لا بد أن يكونا متماثلين[1] تماماً وبالتالي فإن أصولهم قد ترجع لتمازج عرقي من مصر والحبشة والنيل الأزرق. ويتميَّزون بدقة الحجم والشعر الفاحم والعيون السوداء والبشرة الملساء ولهم تماثل حميم مع ليبيي موانئ جنوبي البحر الأبيض المتوسط، وكانوا في عصور مبكِّرة خالين من أية مسحة زنجية.

دخول العنصر الزنجي

مؤخراً وفي عهد الأُسرة الثالثة بدأت العناصر الزنجية استيطان النيل شمالاً حتى أسوان، والأجيال الناشئة من الآن فصاعداً هم خليط من النوبيين الأوائل مع السلالة المصرية الحاكمة مضافاً إليهم العنصر الزنجي المتنامي في المنطقة والمتمثل في الآتي:

أ- عنصر بحر الغزال:

يتميَّز هؤلاء الزنوج - في الغالب الأعم - بقصر القامة والرأس العريض نسبياً، وهم من جنس يشبه سكان جنوبي مديرية بحر الغزال الحاليين ويختلفون تماماً عن غزاة عهد الإمبراطورية.

ب- النيليون:

النيليون - طوال القامة - أي الشلك والدينكا والنوير، سكان وادي النيل الأبيض

---

(١) اليوت سمث المصريون القدماء ص ٦٦.

الذين يتوسَّطون بحر الغزال والنوبة، ويختلفون عن بقية المجموعتين، ويبدو عليهم الانتماء للبانتو. والذين لم يتمكّنوا من الحصول على أوضاعهم الحالية عند الغزو المبكِّر لبحر الغزال[١]، والأرجح إنهم وفدوا خلال الألفية الثانية قبل الميلاد أو بعد ذلك.

ج- المجموعة ج في النوبة السفلى:

بحلول عهد الأسرة الثانية عشر أنتج انصهار الأعراق في النوبة السفلى تجانساً عرقياً متفرِّداً نتيجة لتمازج تلك الإثنيات التي مَيزت شعب الإمبراطورية الوسطى - الأسرات من الثانية عشر حتى السابعة عشر - أي المجموعة (ج)، وهو ذات النوع الذي يمثله - في شكل مُعدل - وفي ذات الموقع، البرابرة الحاليون.

التأثير الليبي المبكر على النوبة

تلازماً مع التصاهر الزنجي المبكر في بلاد النوبيين يرجح الافتراض بأن هناك تعديلاً عرقياً لاحقاً حدث باستيطان الليبيين (تيمحو) القادمين من الواحات الغربية وسهول شمالي كردفان على النيل.

ففي عهد الأُسرة السادسة (٢٧٥٠ق.م) ذهب «حرقوف» حاكم المنطقة المحيطة بأسوان إلى «يام» - أي النوبة السفلى - في ناحيتها الغربية[٢] وقال (وجدت ملك يام متوجهاً نحو أرض تيمحو وضربته[٣]) ثم إن «حرقوف» ذهب جنوباً عبر النوبة العليا ثم عَبر إلى الضفة الشرقية ثم قفل راجعاً لمصر محمَّلاً بالبخور والأبنوس والزيت والقمح وجلود النمور والعاج وعصي الرماية[٤].

---

(١) Seligman.loc. cit. p. 624

(٢) سلقمان المرجع السابق ص ٦١٣.

(٣) .Breasted A.R.I , 335

(٤) .Ibid P. 336

مناصرو نظرية الليبيين يستدلون بهذا القول على إن الليبيين (تيمحو) عاشوا بين الشلالين الأول والثاني، ولكن وفقاً لما يبديه جيوفريدا -روجيري من ملاحظات، فلا تزال هناك الإمكانية التي يراها «هردليكا» بأن هؤلاء التيمحو عاشوا في الواحات الداخلة والخارجة التي على الصحراء الليبية. أما «بدج» فيرجح - استنادا على الموارد التي جلبها «حرقوف» - بأنه اقتحم كردفان ودارفور عبر واحتي «كُركر» و«سليمة». أما البروفيسور «نافيل» فيعتمد مدونات «حرقوف» كدليل على احتلال البربر الليبيين لكردفان ودارفور، ويرى فرضية أن يكون هذا الاحتلال قد أمتد حتى «بُركو» أيضاً، كما يعتقد بأن الزنوج قد ردوا هذا الاحتلال في وقت لاحق. بينما يرى «رسني» إن «حرقوف» تتبَّع النهر، ويتشكك في أن تكون حملته قد تجاوزت سنار، وإن ما أتى به من أسلاب يمكن الحصول عليه عن طريق التجارة بين دنقلا وسنار، بصرف النظر عن المصدر.

وعلى أية حال وبما إن أعداداً كبيرة من العرب الأثرياء آثروا استيطان صحراء بيوضة لعدة قرون، فمن المحتمل أن تكون هناك أجناس بنفس السجايا والميول قد سبقتهم على احتلالها، وإن هناك أدلة تكفي للقول بأنهم - أي هؤلاء المحتلين - من العنصر الليبي، وإذا صح ذلك فإلى أي مدى يمكن القول بأن هؤلاء القوم قد استقروا في النيل وامتزجوا مع النوبيين في عهد النوبة الوسطى؟ تظل الإجابة أمراً يفتقر للدليل[1]. لقد شاب الاختلاط أجناس النوبة الوسطى أيضاً والأرجح إن هذا الاختلاط تم - في غالبه - مع سلالات من البجة من ذوي البشرة الحمراء الوافدين من الصحراء الشرقية، ولكن عموماً كانت المنطقة من أسوان حتى جنوب حلفا، منطقة شبة زنجية رغم أن سكانها - بالتأكيد - لم يكونوا من الزنوج النقيين.

---

(١) يذهب بيتس في مؤلفه «الليبيون الغربيون» إلى حد تصنيف نوبيو الفترة الوسطي بأنهم من عنصر ليبي أكثر من زنجي.

النوبة في عهد الأسرة الثانية عشر

أثناء فترة حكم ملوك الأُسرة الثانية عشر العظماء (٢٠٠٠ - ١٧٨٨ق.م) حدثت وقائع بشمالي السودان في غاية الأهمية، حيث وُجهت ثلاث حملات عسكرية - على الأقل - من قبل «أمنمحات الأول» في ١٩٧١ق.م و«سيسوس ترس الأول» في ١٩٦٢ق.م و«سيسوسترس الثالث» في ١٨٧٩ق.م. وقد لازم تلك الحملات بناء سلسلة من الحصون والحاميات التي شُيدت من حدود مصر حتى الحدود السفلى لمديرية دنقلا الحالية. ونشأت مستعمرات مصرية على العديد منها وبالأخص في «سمنه» و«كرمة» (أنبو - أمنحات). وخلال هذه الحقبة أضحى المركز الواقع ما بين أسوان وسمنه مزدهراً وعامراً، بحيث أصبح بجانب أي وادٍ تقع قرية أو مجموعة من الأكواخ. وإن أيِ متر مربع من تلك الأراضي ذات الإطماء العالي كان لا يُترك دون زراعة. أما من أمَّها فهم من النوبيين، وربما كانوا سلالة من بقايا شعب الإمبراطورية القديمة إضافة للمهاجرين من المناطق المنبسطة جنوب سمنة.

أما من الناحية الثقافية فهم ما زالوا غير متمدنين، وحرفتهم الزراعة والرعي وصيد الطرائد والأسماك، وفنونهم صناعة الفخار ونسج الملابس وصناعة الحُصر والسلال وكلها من الصناعات اليدوية التي لا تدخل فيها إلا أبسط أنواع الأدوات.

كانت الأحوال جنوب «سمنه» مضطربة وبالتالي كانت الحملات التأديبية - من وقت لآخر - ضرورية لرد الأمور إلى نصابها.

ويبدو إن حملة «سيسوترس الأول» أسفرت عن إخضاع كامل للبلاد حتى مراقي النهر على حدود مديرية دنقلا، وربما حتى مديرية بربر. وقد شهد العام ١٩٦٢ق.م احتلالاً حقيقياً لشمال أواسط السودان، ونتج عن ذلك توسيع حصن كرمة وزيادة الاستيطان، وما ترتَّب على هذا الأمر من نتائج تم الكشف عنها في تنقيب «رسنر» الذي جرى مؤخراً. هذه الاستكشافات أثبتت إن هناك حضارة محلية وتبديل غريب للثقافة المصرية، بحيث أضحت تلك الحضارة متأثِّرة بقوالب محلية وبمواد وأعراف نالت حظها من التطور والنجاح.

في حوالي عام ١٨٧٩ق.م تم إجلاء قوات أمنحات كنتاج طبيعي لتمرُّد أو غزو من الجنوب. قاد «سيستروس الثالث» جيشاً ضد السودان وسحق المتمردين ونصب المسلَّة المشهورة في «سمنه» على بُعد سبعة وثلاثين ميلاً جنوب حلفا، التي تحوي أمراً يقضي بمنع الزنوج من تخطي النهر إلى ما بعد المسلَّة إلى الأبد. منذ ذلك الوقت وحتى عصر الإمبراطورية الحديثة لم يرد ذكر للنوبيين في الآثار المصرية، بيد أن هذا لا ينفي إن الاحتلال استمر - دون أدنى شك - مما يؤدي للاستنتاج بأن هناك شروطاً محلية كانت أساساً لتسوية ما.

عاد الاستقرار لكرمة وأصبحت مركزاً إدارياً، ولكن يبدو أن عام (١٦٠٠ق.م) قد شهد حرقها ولم يُعّد بناؤها.

النوبة وتمصيرها في عهد الأُسرة الثامنة عشر

استمر تمصير شمال السودان بإيقاع منتظم في عهد «أحمس الأول» مؤسس الأُسرة الثامنة عشر (١٥٨٠ - ١٣٥٠ق.م) تحت حكم خلفائه من بعده. أخضع أحمس الأول النوبة السفلى (واوات) وجعلها تحت إدارة حاكم مصري، أما خليفته أمنحوتب الأول فقد عُين في ١٥٤٨ق.م كأول حاكم من تلك السلسلة الطويلة للحكام المصريين الذين حكموا أثيوبيا في عهدي الأُسرتين الثامنة عشر والتاسعة عشر.

لازم الفترة التالية - أي عهد «تحمتس الأول» - ذلك التمرُّد الكبير الذي أشرنا لكيفية إخماده من قبل.

أما في عهد «تحمتس الثالث» فقد أُدير شمال السودان باثنين من الحكام الأدنى رتبة أحدهما في كوش (الجنوب) والآخر في واوات (الشمال). وقد عملت الحكومة في مجال المناجم وجمعت الضرائب وازدهرت التجارة مع المراكز الأخرى بحجم مُعتبر.

أما خلال الحقبة منذ عام ١٥٤٨ حتى حوالي ١٠٩٠ق.م لحوالي ٥٥٨ سنة كانت أثيوبيا تُحكم عن طريق حكام مصريين يدفعون الخراج لمصر، وأتبع المصريون احتلالهم العسكري والسياسي بأن حشدوا الأرض ببني جنسهم من عسكريين

وموظفين وكهنة وتجار وحرفيين وأُنشئت المعابد في جنوب «فيلة»، وزُخرفت وصِينت تلك التي في «كلبشة» و«جرف حسين» و«كوبان» و«إيسبوا» و«امادا» و«الدر» و«أبرم» و«أبوسمبل» و«حلفا» (بوهين) و«سمنه» و«صنب» و«دلقو» (سيس) و«كاو» و«جبل البركل» ومناطق أخرى غيرها. وكانت كل هذه المواقع مركزاً للدعاية ومجتمعاً للكتبة الذين أتقنوا مهنة الطب المصري والدين، فضلاً عن الصنَّاع الذين تخصصوا في مختلف فنون المصريات. وخضعت أجود الأراضي الزراعية حتى جنوب سمنة لدعم المعابد ثم آلت - بعد ذلك- للمهاجرين من مصر وخلفائهم من بعدهم. وظل الحاكم وخاصته من موظفيه ورئاسته يتنقلون من «الكاب» أي «الفانتين» إلى «سمنه» أو «ناباتا» متى اقتضت الظروف أو الضرورة الإدارية ذلك. واستوطَن أغلب المصريين المنطقة بصفة دائمة واستقدموا عائلاتهم

نمت العوائل المستعبدة إلى مجتمع من الخانعين المتأثرين - عرقياً - بالتزاوج مع الطبقة الحاكمة وهكذا تمصَّروا، وتمصَّرت كل المنطقة بالكامل وبالذات من الناحية الدينية.

لم تسقط أسماء الآلهة المحلية عن الذاكرة فضلاً عن إن معابد آلهة المصريين كانت تشكِّل مزارات في الاحتفالات الخاصة بهم كذلك، ومع ذلك ظل الإله الكبير هو «أمون رع» إله عائلة «الطيبيين» الذين احتلوا أغلب العالم. فهو يقطن قلب الجبل المقدَّس الذي نسميه الآن جبل البركل. وفي الأيام التي تتنزَّل فيها أحكامه تتقرر المصائر وتطال حتى ملوك أثيوبيا.

الآن لا يُوجد وصف تصويري للنوبيين إلى ما قبل فترة الأُسرة الثامنة عشر، بيد أن هنالك إيحاءً غريباً[1] مفاده بأنه اعتبارا من تاريخ هذه الأُسرة حتى عهد الأسرة العشرين - أي ذلك الزمن الذي علمنا فيه بأن نوبيي الفترة الوسطى يماثلون في تكوينهم النوبة الحاليين - فإن النوبيين الذين أخضعهم الملوك العظام للإمبراطورية الجديدة، والذين يرجح أن يكونوا من نفس شاكلة هؤلاء الذين كانوا يحادون

(١) Selig man Loc. cit P. 617.

«سنوسرت» أي «سيسوسترس الثالث» منذ حوالي ثلاثة قرون قبل الاستقرار في سمنة، هم اللذين يشار إليهم عادةً بـ«ذوي الدماء الزنجية الصرفة والملامح الخشنة». وهذا - فيما يبدو - أمراً طبيعياً تماماً. عاش الزنوج جنوب الشلال الثاني خارج نطاق المنطقة التي كانت هدفاً للغارات المتعاقبة على شمالها، ثم أجلاهم «سنوسرت الثالث» ورسم حدودهم إلى ما وراء حلفا، بيد أن هؤلاء الزنوج سببوا المزيد من الاضطرابات مما دفع «تحمتس الأول» للجوء لخيار الحسم العسكري، الأمر الذي أدى لتراجعهم إلى ما وراء الشلال الثالث. والراجح إن هؤلاء الغزاة من الزنوج والذين ورد وصفهم - من الأسرة الثامنة عشر حتى العشرين - ليسو من السكان المستديمين للنوبة السفلي الوسطي أو أهاليها الأصليين.

الجنس الزنجي في النوبة إبان حكم الأسرات من الثانية عشر والثامنة عشر - الجنس الكردفاني؟

هناك بعض الشواهد تدعو للاعتقاد بأن الزنوج الذين هزمهم «سنوسرت» وحرَّم عليهم المرور شمال حلفا، وهؤلاء الذين وصفوا بذوي الشعور المضفورة والذين أجلاهم «تحتمس الأول» - فيما بعد - إلى الجنوب، فضلاً عن هؤلاء الذين وصفوا بطول القامة، وخشونة الملامح، والدماء الزنجية الصرفة، يرجح أنهم أقارب لجنس «المساتسفيلوس» طوال القامة، الموجودون الآن في شمال كردفان، والذين يُؤرخ لوجودهم منذ عهد الأسرة الخامسة والعشرين (تهراقا، تاتون أمون... الخ)، وربما قبل ذلك. وهم ذات الذين وُجدوا مؤخراً في جبل موية وجبال أخرى في الجزيرة. ومما لا شك فيه إنهم تابعوا النيل - في تحرُّكهم شمالاً -، وربما أُجبروا على ذلك من قبل النيليين الذين من خلفهم، ولكن - بنفس القدر - يجب أن نضع في الحسبان إمكانية وفود بعضهم براً عبر كردفان عن طريق وادي المقدَّم.

وفي تقديري إن الاسم «نوبة» معني به - على الأرجح - هؤلاء الـ«نيبت» ومما تجدر ملاحظته هو أن العرب الحاليين نادراً ما يطلقون هذه التسمية على القبائل النيلية في الجنوب، بينما يستخدمون تلك العبارة بطريقة تلقائية على المجموعة

الكبيرة للسود في جنوب كردفان، وعلى الهجناء في جبل الحرازة وكاجا وغيرها من جبال شمال كردفان، ثم على السكان الأصليين الذين أبادهم الفونج - في بداية القرن السادس عشر - في الجزيرة والمناطق المجاورة لشلال السبلوقة.

وعلى أي حال لم يعد إطار اسم «نوبيا» ينطبق على المنطقة التي أتي منها هؤلاء الزنوج، ولكن انتسابا لمسرح انتصاراتهم الكبرى، ثم لوادي النيل فيما بين الشلال الأول و«نباتا». ليس هذا فحسب، بل -ولسخريةِ القدر -ورغماً عن إن الجزء الشمالي لذات المنطقة والتي كانت على مدى عهود الأُسرات المبكِّرة والمتأخِّرة، وعبر عصري البطالمة والرومان، ثم في عهد المماليك، تُعتبر تابعة لمصر، وتعج بمستعمرات المصريين فإن استخدام اسم «نوبيا» كان يميل أكثر فأكثر لأن يقتصر عليها أكثر من الجزء الجنوبي. وسوف نرى إن الاسم في عهد ابن سليم - أي في خواتيم القرن العاشر - كان يُشيع انطباقه - دون منازع - على ذلك المركز في أقصى شمال السودان، الذي يُطلق عليه اسم مريس وينتهي شمال الشلال الثاني تقريباً.

العنصر الليبو-مصري من النوبة
واحتلال النوبة لمصر

في عام ٩٤٥ قبل الميلاد نجح الليبيون الذين كان لهم وجوداً معتبراً - عبر القرون - في مصرِ السفلي والدلتا والذين تمَصَّروا جزئياً، نجحوا في انتزاع العرش من الفراعنة وكوَّنوا الأسرة الثانية والعشرين. أما ما هي تداعيات هذا الأمر المباشرة على السودان فهو أمر غير معلوم، بيد أن ما يتضح من آثار عام ٧٥٠ق.م فإن شمال السودان لم يعد محافظة مصرية بل أصبح مقراً لمملكة جديدة صارت «طيبة» المحافظة الشمالية لها.

يعتقد «رسني» أن ملوك الليبيين عندما وهن سلطانهم - فيما بعد - وصارت السلطة لإمركزية أعلن «كاشتا» الليبي والقائد الذي يمثِّل السلطة في شمال السودان وعضو الأسرةِ الحاكمة، أعلن الاستقلال، ولم يكتف بذلك بل قام بغزو مصر، ومدد نفوذه شمالاً حتى «طيبة» بعد أن كان مقر عاصمته في نباتا (جبل البركل)، والافتراض أنه رغم كونه وأرباب دولته من المصرو-ليبيين، إلا إن أغلبية شعبه من النوبيين

الحاليين أي من ذوى البشرة الأغمق في الشمال إضافة للزنوج وأشباههم في الجنوب.

خلف «كاشتا» ابنه «بعنخي» (٧٤٤ - ٧١٠ق.م). وقد استغل هذا الملك الانهيار الذي أصاب مصر وتمم العمل الذي بدأه والده وذلك بأن تسيَّد كل البلاد وجعلها تابعة له.

ثم حل محل «بعنخي» أخوه «شباكا» في حوالي عام ٧١٠ق.م. ولم يقتصر نفوذ هذا الملك على أخذ الجزية فقط بل بسط سلطانه على كل الديار المصرية.

ثم خلف «شباكا» الملك «شبتاكا»[١] وكان ذلك في العام ٦٨٨ق.م. ثم «تهراقا» - ابن بعنخي - الذي كان قائداً للجيش في أثيوبيا إبان عهد «شبتاكا»، ذلك الجيش الذي أرسل - فيما بعد - إلى فلسطين لمساندة «حزقيال» ضد آشوريي (سيناشريب) الذين يقتربون الآن من الحدود المصرية.

خطر الآشوريين

كان هم «تهراقا» الأكبر وطوال فترة حكمة مكرّساً لصد خطر الآشوريين، بيد أنه لم يُوفق، إذ تمكن «آسرحدون» في عام ٦٧٠ق.م من شق طريقه نحو الجبهة المصرية وأفلح في إلحاق هزيمة نكراء بـ«تهراقا» أجبرته على التراجع جنوباً تاركاً الدلتا و«ممفس» في أيدي الآشوريين.

لم يوطِّد «أسرحدون» أركان حكمه في مصر بل سرعان ما انسحب شمالاً مما مكّن «تهراقا» من إعادة احتلال «ممفس» وجدد مكائده مع ملوك فلسطين. بوفاة «أسرحدون» في ٦٨٨ق.م استمر ابنه «آشور بانيبال» في الحملة التي بدأت ضد «تهراقا» وحقق عليه نصراً حاسماً في شرق الدلتا. تراجع «تهراقا» - مجدداً - نحو الجنوب وواصل الآشوريون تقدمهم حتى احتلوا «طيبة» وأعادوا سلطان الليبو-مصريين كحكام على مصر وأنشأوا الحاميات، ثم عاد «آشور بانيبال» بغنائمه إلى

(١) جعل منه مانتيو إبناً لشباكا بيد إن رسنر يعتقد إن هذا أمر مشكوك فيه. بعانخي وشباكا وشبتاكا جميعهم مدفونون في جبل الكرو بالقرب من البركل.

(نينوه). بعد ذلك بقليل توفي «تهراقا» وحلَّ محله «تانوت أمون» - ابن «شباكا» - المتزوج من أخت تهراقا وهو آخر ملوك الأُسرة الخامسة والعشرين وكان ذلك في ٦٦٣ ق.م، وبالرغم من إنه حكم مصر والسودان - اسما - إلا إن محاولته لاسترداد مصر السفلى أسفرت عن اندحاره ونهب الآشوريين لطيبة.

بحلول عام ٦٥٤ق.م توفي «تانوت أمون» ودُفن بجانب أبائه العظماء «بعنخي» و«شباكا» و«شبتاكا» بجوار (جبل البركل) وهكذا أُسدل الستار على حكم السودان لمصر.

العهد المروي وما بعده

بالإنفصال النهائي لأثيوبيا عن مصر فإن «بسمتك الأول» المؤسس للأُسرة السادسة والعشرين والذي يصفه الآشوريون كملك على «سيس» و«ممفس»، لم يعد منشغلاً بأمر السودان وبنفس القدر صوّب حكام السودان أنظارهم جنوباً، ودُعمت محافظة مروى وتم تطويرها بجوار ملتقى عطبرة والنيل. وأصبحت جزءاً مُكملاً لأثيوبيا التي كانت - فيما مضى - جزءاً من مصر. لقد تأثوّبت مروى كنتاج لتأثير الثقافة المصرية الموروثة منذ عهد الولاة، ولكن هذه الثقافة المصرو-أثيوبية تأثرت هي الأخرى - دون شك - بسبب امتدادها إلى مروى وهكذا يمكن القول بأن مروى تأثوبت أكثر من كونها تمصَّرت.

حوالي عام ٤٤٠ق.م وبالتأكيد قبل عام ٣٥٠ق.م - كما يرى «رسنر» - إن مروى بدورها استوعبت أثيوبيا نفسها كما استوعبت أثيوبيا - البلد الأم - مصر، قبل ثلاثة قرون خلت، وأصبح الانحطاط الثقافي متسارعاً بقدر تسارع تبدُّل الأعراق.

لقد حل محل العنصر المصري عناصر أخرى من (ليبين ونوبيين وزنوج) وخلافهم. وهكذا فإن الخواص المميِّزة للمتعلمين وذوي المهارات من المصريين قد زوت عياناً في تلك الملامح الخشنة لتلك العناصر الزنجية التي يتراخي أمر إسقاطها من الذاكرة مع إنه لم يكن في مقدورها إضفاء أية لمسة خلاقة للفن أو التعليم أو الدين.

أصبح في أيدينا الآن - كنتيجة لأعمال «رسنر» في «نوري» وما جاورها - قائمة

كاملة بأسماء الملوك منذ عهد «تانوت أمون» الذين لا حاجة لذكرهم هنا، لكن الحقيقة الأهم تتجلي - بلا شك - في عهد«ناستاسين» الذي حكم من عام ٢٩٨ - ٢٧٨ق.م - والأرجح إنه في حوالي عام ٤٤٠ق.م - أصبحت «مروى» العاصمة السياسية بينما ظلت «نباتا» العاصمة الدينية كما هي.

معابد نباتا بأشخاصها - المُغدق عليهم من كهنة وحرفيين راسخين في علوم «المصريات» - ظلت تمثِّل الإشعاع لثقافة المملكة، بينما صارت «مروى» مركزاً للثروة والسلطة السياسية.

لم يتأت لحكام «مروى» الإلمام بعناصر النهضة العلمية أو الفنون المتأثِّرة بمصر البطلمية، أو أن يجعلوا من عاصمتهم مرتكزاً ثقافياً لأثيوبيا - لأول مرة - إلا بعد ما يقارب الجيل من رحيل «ناستاسين».

هناك بعض الملاحظات عن «مروى» وشعبها سنتعرَّض لها في الفصل القادم، لكننا قبل أن نتجاوز سكان نوبيا الأصليين، علينا أن ندلف أولاً على الجغرافيين الكلاسيكيين للفترة البطلمية الذين يُوردون وقائع بعينها تُعتبر ذات قيمة. لقد رأينا إن «رانوستينس» هو أول من استخدم لفظ «نوباي» وذلك في القرن الثالث قبل الميلاد، ويقول«استرابو»[١] - نقلاً عنه - (يعيش النوباي على الجزء الأيسر لنهر النيل وفي ليبيا كجنس عظيم من مروى حتى منحنيات النهر، وهم ليسو أتباعاً للأثيوبيين بل يعيشون على استقلال مقسَّمين على عدة ممالك).

ضمَّن «أقاسميروس» - القرن الثالث قبل الميلاد - «النوباوي» ضمن قائمة جريئة للأجناس الأفريقية كمستوطنين على ضفتي النيل.

يقول «بلني» إن جزيرة «سمبرتاي»[٢] على النيل تخضع لحكم ملكة. ثم إن رحلة ثمانية أيام شمالاً تفضي للنوباي الأثيوبيين ومدينتهم «تنبسس» التي تقع على النيل.

---

(١) جغرافي روماني (٦٦- ٢١) قبل الميلاد.

(٢) ربما كانت المنطقة فيما بين كسلا والقلابات.

أورد «بطليموس» عدداً من القبائل الأثيوبية التي تتضمَّن أسماءاً غريبة لا تلقي ضوءاً للتعرُّف عليها بخلاف إن تلك القبائل عاشت على النيل في جزيرة «مروى» وما وراءها وعلى السهول الغربية.

يقول بركوبيوس عن الفانتين (أسوان) في النصف الأخير للقرن السادس «يعيش هناك - بجانب العديد من الأجناس الأخرى - قبائل البليميين العظيمة والنوبتاي. يحتل البليميون المناطق الداخلية للبلاد بينما يستوطن النوبتاي وادي النيل». وفي هذا الصدد يقول «ديوكلتين» (٢٨٤ - ٣٠٥ ميلادية) بجانب ما يُدفع للقبيلتين من ضريبة التاج، فقد مُنح النوبتاي منطقة على حوض النيل وعهد إليهم «بديدوكشنس» وهو المركز الذي يقع جنوب أسوان.

فيما يتعلق بالسودان المصري يقول «بدج» عن هؤلاء النوبتاي أو النوبة «بأنهم قبيلة قوية من الرُحَّل الذين يعيشون في الصحراء الغربية ويضيف» يبدو إن النوبتاي وفدوا من دارفور وكردفان وامتد استيطانهم - في عهد ديوكلتين - حتى واحة الخارجة». ثم يُعرف القوم الذين استوطنوا الصحاري الواقعة غرب النيل لدى الكُتَّاب الكلاسيكيين باسم نوباي أو نوبيون ونوبادلي أو نوبتاي. وفي عهد الرومان كان النوبيون يتألفون من عُصبة للقبائل الكبيرة في الصحراء الغربية.

القول بامتداد استيطان النوبة حتى واحة «الخارجة» يستند على ملاحظات «بروكبيوس» والتي ذهبت لحد القول بأن النوبتاي الذين وطَّنهم «ديوكلتين» بين مصر والبليميين، عاشوا أساساً حول واحة «سيتي» أي «الخارجة». قُوبل هذا الرأي بالرفض لأن سكان تلك الواحات كانوا - دون أدنى شك - من الليبيين، والنوبتاي عناصر من الأجناس النيلية، وبالتالي لم يكن في مقدورهم التوجُّه حتى الشمال، وهكذا فإن «بروكوبيوس» لم يكن على صواب. بيد أن هذا التوجُّه في النقاش محفوف بالمخاطر أيضاً حيث لا يُوجد دليل يُرجع أصل النوبتاي للنيليين، والأرجح هم امتزاج للجنس الليبي القديم والتيمحو القدماء والنوبات - سواء كانوا على النهر أو غربه - ببعضهم البعض والثابت عبر التاريخ هو ارتباط بدو الغرب والليبيين أو البربر بعلائق حميمة مع سكان وادي النيل وبالتالي يمكن أن يكون في «الخارجة» - ليبيين ونوبات أو مهجنين - لهذين الجنسين

أما فيما يتعلق بديانة هؤلاء النوبيين فلا تزال البينات قاصرة. يذكر «برسكوس» في عام (٤٥٢ ميلادية) بأن السلام قد حلًّ بين «ماكسمن» والجنرال الروماني والبليميين والنوبيين، وإن أحد البنود يلزم الرومان بأن يسمحوا للآخرين - اعتمادا على أعرافهم القديمة - أن يزوروا «فيله» لارتياد معبد «إيزيس» وأن يأخذوا تمثال الإله على أن يعيدوه في موعد معيَّن. الآن بدأت زهرة المسيحية تتفتح في نوبيا وتجد لها أتباعاً، وتفيد أقوال «ايوسيبيوس» بأن الأمر كان مبكِّراً في عهد«كونستانتين» (٣١٣- ٣٣٧م) حيث غزت المسيحية الأثيوبيين والبليميين، في إشارة للأحباش الترقولديين[1] الذين نُصرِّوا على أيدي «فرمنتيوس» في الشرق. ولكن بالرغم من ذلك يبقى الاحتمال بوجود مسيحيين في «نوبيا» في نفس الفترة. ومدونات «كسموس اندكوبلستنس» تثبت بأن هناك بعض منهم في القرن الخامس.

شهد القرن السادس انتشار المسيحية على نطاق واسع. هناك قس يُسمى «جوليانوس» أولى اهتماماً كبيراً لذلك الشعب الأسود في «نوباديس» ممن يقطنون الحدود الجنوبية لطيبة، ولما كانوا يعتنقون الوثنية فقد رغب في أن يدخلهم في الإيمان. وبناء على ذلك ألحَّ على «ثيودورا» إمبراطورة «جستنيان» بأن تبعثه لنوبيا. وهناك علَّم الملك والنبلاء وعمَّدهم، وهكذا آمن كل شعب «الكوشيين» بالأرثوذكسية وأصبحوا أتباعاً لتاج الإسكندرية.

بحلول النصف الأخير من ذات القرن انتظم شمال نوبيا في مملكة مسيحية تحت قيادة الملك «سلكو» الذي وُجدت نقوشه الإغريقية في معبد «تالمس» أي «كلبشه». ومن المحتمل أن يكون هو المهتدي الحقيقي على أيدي «جوليانوس»، وهو - بكل تأكيد - المؤسس لدنقلا التي ظلت عاصمة لنوبيا لسبعة قرون متتالية، كانت خلالها العقبة الكأداء أمام تقدُّم العرب ودينهم الجديد لأعالي وادي النيل. إلا أن كل ما يمكننا قوله هو إن المتاح بشأن الحال في نوبيا في عهد «سلكو» أو عن القوم الذين حكمهم وأجناسهم وعاداتهم ونظام الحكم يمثل النذر القليل. ويبدو إنهم كانوا في حالة حرب

(١) أي سكان الكهوف.

دائمة مع الوثنيين من البليميين[1] الذين احتلُّوا وادي النيل الأدنى من بريميس (أبرم) حتى تخوم مصر. وهنا أيضاً يروي سلكو عن غاراته ضد النوباد أي الجنوب. ويسمي نفسه «ملك النوبة والأثيوبيين». وإننا لو افترضنا صحة إدعائه وتحميله أكثر مما يحتمل، فقد برزت بمرور - الوقت - بوادر عدم الانسجام، وكان الملوك الصغار (الملوك) الوارد ذكرهم في أثار «أكسوم» و«تالمس» - دون شك - نماذج لنوعيه الملوك الذين حكموا نوبيا. وقد ظل الحال كذلك حتى القرن التاسع حيث لا يزال الاسم موجوداً وسط الجموعية وبعض القبائل العربية الأقل شأناً في وادي النيل حتى عهدنا الحاضر.

المخطوطة رقم (د، ٤) التي كتبها بربري من حلفا، تبيِّن العاصمة القديمة للنوبة أو النوبيين - حيث يستخدم الاسم بالتبادل - بأنها جبل الحرازة بشمال كردفان، وواضح من مفرداتها - أي المخطوطة - بأنه يشير لفترة الأُسرة الخامسة والعشرين أي عهد النوبيين. لكني ميَّال للاعتقاد بأن هذا لا يمت للحقيقة بصلة كما يبدو لأول وهلة. إن سكان (جبل الحرازة وأبو حديد وأم درق) والتي تبعد حوالي مائة وخمسين ميلاً غرب تقاطع النيل، ما زال يُسبغ عليهم اسم (نوبة) بالرغم مما طرأ عليهم من تغيرات عرقية باختلاطهم بالدناقلة من وادي النيل، وإن كل من الجبال الوارد ذكرها وكذلك تلك الجبال غير المأهولة حولها تزخر بآثار السكان القدماء كالقرى الحجرية على المنحدرات، والركائم القديمة التي يرجح أن تكون قبوراً رُصت على جانبي المجاري النهرية الصغيرة التي تخترقها المياه في موسم الأمطار، ثم على قمم الجبال. تُوجد مثل هذه الركائم بعد كل فرجة وأخرى بين الفينة والأخرى على طول ذلك النهر الكبير المُسمى بوادي المقدَّم الذي ينبع من قرب بقباقي - سبعون ميلاً شرق الحرازة - ويعبر صحراء بيوضة حتى كورتي على الحدود الجنوبية للمنحني الكبير لنهر النيل.

تبلغ المسافة من الحرازة حتى كورتي مائتي ميلاً تقريباً وتسهل الرحلة عبر هذا الطريق، ويمكن للمرء أن يلتزم - في سيره - مجرى وادي المقدَّم لجل تلك المسافة

---

(١) يقول سلكو في النقوش «لقد وصلت معهم للسلام وقد أقسموا لي بمعبودهم» وقد آمنوا بعد زمن قليل فيما بعد.

حيث يتوفَّر الماء وعلى أعماق ضحلة على طول مجرى الوادي. كما يمكن للمرء أن يختار الطريق الآخر - أي المباشر - الذي سلكه الأتراك عام ١٨٢١م وظلت تسلكه أغلب القوافل العربية كذلك، مستعيناً بتلك الآبار الصحراوية الأكثر عمقاً في الصافية والهوبجي والعلاي. وإلى الغرب على متوازي وادي المقدم - تقريباً - ينساب الوادي الرصيف وهو وادي الملك الذي ينبع من حدود دارفور ليصب في النيل لدى مدينة الدبة على بعد خمسة وأربعين ميلاً غرب كورتي.

في منطقة «العين» علىٍ مجرى هذا الوادي، وأبو سفيان غربها تُوجد - بالمثل - آثار لأناس قدماء استوطنوا المنطقة وهو أمر معروف للبدو، ثم على حدوده الجنوبية على مقربة من حدود دارفور تنتشر مثل هذه الآثار أيضاً.

لقد شحت الأمطار في السنوات الأخيرة في هذه المناطق بدرجة مؤثرة، علماً بأن تساقطها كان أكثر غزارة في الماضي، واعتقد إن وجود أشجار التبلدي[1] العملاقة التي تمتد أعمارها لمئات السنين، كان في حكم المتعذر أن تظل حية طوال مراحل نموها الأولى إذا كان حال الجفاف كما هو الحال عليه الآن، مما يدل على غزارة الأمطار في تلك الحقب الضاربة في القِدم.

قبل بضعة قرون ربما كانت المناطق الواقعة على ضفتي هذين الواديين الكبيرين الوارد ذكرهما صالحة للسكني طوال العام.

لقد أصبح من المؤكد الآن بأن الدناقلة قد هاجروا من منطقة النيل - لقرون خلت - واستوطنوا الحرازة، ثم تبعتها هجرات حديثة لاحقة خلال السنوات الأخيرة. كذلك يعتقد سكان جبل الميدوب في دارفور - مائة وأربعين ميلاً غرب وادي الملك - بتحدُّر أسلافهم من المحس والدناقلة على النيل، وكما قال البروفيسور سلقمان هناك تشابه لغوي شديد بين قائمة مفرداتهم التي أحصيتها في عام ١٩١٢م مع تلك اللغة التي يتحدثها البرابرة في منطقة وادي النيل.

---

(١) يقول المؤلف خلال السنوات الستة التي مررت فيها على شمال كردفان لم اشاهد نبته صغيرة لهذه الشجرة، وهذا ما يقر به العرب ايضاً ويضيفون بأن التبلدي موجود من عهد نوح عليه السلام.

لذا يجوز أن يكون المهاجرون من البرابرة قد وصلوا جبل الميدوب عن طريق الحرازة وكاجا، والأرجح أن يكون ذلك عن طريق وادي الملك. لكن إذا استطاع البرابرة من كورتي والدبة - فيما بين الشلالين الثالث والرابع على بُعد عدة أميال فقط من أهرامات البركل - استيطان الحرازة بالوجه المتقدِّم ذكره، وعلى جبال الميدوب كما ترجَّح لدينا، فليس هناك مبرر لإنكار احتمال وجود هجرات مقابلة عبر نفس الطُرق من الاتجاه المعاكس في أزمان أخرى، وأنا ميَّال للاعتقاد وبشدة بأن «النوباتي» كانوا أسياد بيوضة وما تاخمها من المناطق الواقعة إلى الجنوب منها، وربما كان أسلافهم الزنوج هم الذين أجلوا العنصر الليبي من قبل، أو أن يكونوا - على الأرجَّح - قد امتزجوا معهم.

أما نِحس «سينوسرت الثالث» و«تحتمس الأول» وإلى الحد المعدَّل لأغلب العناصر من الغربيين والجنوبيين من الأُسرة النوبية التي حكمت مصر، ربما كانوا منتمين لنفس الجنس، كأسلاف لهؤلاء الزنوج من «نوباتي» وسلالتهم من المهجنين - جزئياً - بشيء من الدماء الليبية، فإذا كانت الأصول واحدة، فمن الطبيعي الافتراض بأن مدى واتجاه تلك الهجرة من النهر وإليه كانت في حقب زمانية مختلفة، وإن هذه الهجرة كانت تحكمها ظروف الضعف والقوة للأجناس الأخرى المعادية التي تعيش على النيل.

فعلى سبيل المثال عند صد الغزو النوبي من شمالي النوبة في عهد الإمبراطورية الحديثة لا بد إن الكثيرين قد تقهقروا على طول النهر، ولكن لوجود الزنوج النيليين الأجانب في طريق التراجع أو لأي أسباب أخرى، أُجبر البعض للتوجه غرباً حيث تكوَّنت عشائر لهم هناك ولم تزل. فإذا صار هذا الجنس الذي تمازج مع الليبيين قوياً - في تاريخ لاحق - بالوجه الذي مكَّنه من مناصرة إمبراطورية النوبيين في «نباتا» والأرجح أنه كان يسود شمال كردفان أيضا، فلا بد أن هناك اتصالاً قد حدث بين هؤلاء النيليين والمجموعات التي في الغرب حتى القرن الثالث قبل الميلاد، عندما جمعهم أراتوستنيس تحت مُسمى «نوبات».

على أية حال هناك من الأدلة ما يثبت الارتباط الوثيق بين غُزاة الزنوج في الألفية الثانية قبل الميلاد وقائمة سلسلة النوبيين الذين احتلوا مصر تحت زعامة الأُسرة الخامسة والعشرين وسكان الجزيرة - أثناء تلك الحقبة - وسكان جبال النوبة

الحاليين في جنوب كردفان ونوبتاي النوبة السفلى ومن يُطلق عليهم النوبة في شمالي كردفان. أضعف حلقات هذه السلسلة ربما تتمثَّل في ربط شمال كردفان بجنوبها لكن حتى هذه العلاقة - حالياً - بالرغم من الاختلاف التام في الخواص فإن هناك ذخيرة مُشتركة من المعتقدات الخرافية المرتبطة بمستنزلي المطر والأفاعي والتماثل الملحوظ في شكل الجمجمة. هناك شواهد ثانوية يمكن الاستعانة بها في ربط سكان أواسط وشمال كردفان القدماء بمن كانوا في الجزيرة إبان حكم الأُسرة الخامسة والعشرين، فضلاً عن أولئك الذين إلى الشرق منهم كذلك. تتمثَّل هذه الشواهد أولاً في وضع «الركامات» على المقابر والذي يماثل تلك الركائم التي أشرنا إليها في كل من جبال كرري - القريبة من أم درمان - وعلى تلك المجموعات الجبلية الصغيرة مثل «الكيهيد» حول ود حسونة وأبودليق. ثانياً في التماثل[1] الذي يشمل محتويات بعض التلال التي شاهدتها في الفرجاب في أواسط كردفان بالقرب من بارا وبعض الأغراض الموجودة في جبل موية (مثل بيض النعام والخرز) وفي مروى[2]. وثالث تلك الشواهد هو وجود تلك الحلقات من الأحجار المسطَّحة، والتي يُعتقد بأنها رؤوس لصولجانات كانت تُستخدم في الطقوس الدينية أو كأسلحة في بعض الأحيان، لكنني أعتقد إنها مثاقيل تُستخدم للوزن أو مقاعد لجرار دائرية مقعَّرة وذلك في كل من الجبال الشمالية لكردفان وجبل موية وجبل جيلي على - طريق الخرطوم كسلا - وأمام المحراب في الباسا، أو بالأصح على كل جزيرة مروى. هكذا يمكن القول بأن العرب عندما احتلوا النوبة السفلى - في القرن السابع الميلادي - وجدوا أناساً من أجناس ما قبل الأُسرات المصرية السابقة وأشباههم من عناصر حامية منصهرة مع الأُسرة المصرية والأجناس الليبية والتي تعدَّلت مراراً وبعمق عبر أربعين قرناً من الامتزاج بالدماء الزنجية. أحد هذين الجنسين الزنجيين الرئيسين يرجح تحدُّره من كردفان والجزيرة، ويتمثَّل - في العصور

---

(١) يقول بالم (ص ١٦٥) بأن الناس في جبل تقلي والداير درجوا على أن يربطوا حول خصورهم زينات من قطع قشر بيض النعام وفي تقديره أن في ذلك عنصر للربط بين المجموعتين. ويقال إن الشلك أيضاً يستخدمون أحزمة مماثلة.

(٢) هناك تماثل بين تلك القطع الحجرية من جبل جيلي مع تلك المنطقة من شمال كردفان

الكلاسيكية - بالشكل المعدَّل للنوباتي أو النوبة. وكدليل أضافي للتمازج بين النوبة والعناصر الليبية في بيوضة وغربها يمكن إيراد حقيقة أخرى.

ففي حقبة متأخرة جداً، أي حوالي القرن السابع عشر الميلادي ظلت بيوضة معروفة - كما كان الوضع إلى ما قبل قرن من عصر «ليو أفريكانوس»[1] - بأنها صحراء (القوران أو القرهام أو القرهان) وهي أسماء ترتبط بالقرعان وفي تقديري الخاص إن لها ارتباط بالـ«جراما» و«الجرامنتيين».

هؤلاء القرعان الذين يصنِّفهم «الحمداني» ضمن النوبة والزنوج والزغاوة - باعتبارهم أحفاد «كنعان بن حام» - هم خليط من التبو والزنوج، ويمثلون الآن قطاعاً كبيراً من الرُعاة في الصحارى الواقعة شمال دارفور وودَّاي[2]، حيث يصنِّفون بحسبانهم «تبوقرعان»، ويتحدَّثون لهجة التبو، ويقول عنهم كين (يتحدَّر التبو من الجرمنت وموطنهم الأصلي في تبستي حيث اكتسبوا اسم تبو، أي سكان الجبال)، وهناك فرعان متميزان من التيدا الشماليين - يذكر الاسم بتيدا مناسي كفرع من الجرمنت الذين وطَّنهم «بطليموس» في مكان ما بين «طرابلتانا» و«فزانيا» أي فزان - والدازا الجنوبيون الذين عن طريقهم ذاب «التبو» تدريجياً في الأعراق الزنجية الموجودة في أواسط السودان. بدأ الاختلاط بهؤلاء السود منذ عصور سحيقة بحيث أبدي «بطليموس» ملاحظات مفادها إن الجرمنت - على ما يبدو - أثيوبيون أكثر من كونهم ليبيين وإن «التبو» النقيين هم في الأصل من الحاميين[3].

إن ما ذكره «هيرودوتس» و«بطليموس» و«بومبنيوس ميلا»، يترك انطباعا مؤداه أن الجرمنت - كأجناس بدوية - تمتد مواطنهم من شمال فزان جنوباً حتى نوبيا. يقول «هيرودوتس» (للجرمنتيين عجلة تجرها أربعة خيول طاردوا بها الترقلوديت

---

(١) هو الرحالة العربي حسن الوزان

(٢) اسم القرعان يوجد في الجزيرة العربية أيضاً كفرع من الحويطات بالقرب من ديبا على ساحل البحر الأحمر.

(٣) يقال إن أصلهم بربر لاماتا.

الأثيوبيين) ويقول «بطليموس» (إن بعض الأجناس العظيمة التي تستوطِن «لابيا» هم الجرمنتيون الذين تمتد مناطقهم من منابع «باقرادا» حتى بحيرة النوبة).

ثم بعد أكثر من ألفية من الزمان ها هو «ليو» يقول: (نوبيا محسوبة في الجانب الجنوبي لصحراء القوران ويشن ملك نوبيا حروباً ضد هؤلاء القوم المتحدًرين من شعب يُسمى «زنجاني» يسكنون الصحراء، ويتحدًثون لغة لا تفهمها أمة أخرى، فضلاً عن إنهم يغيرون على شعب آخر بعينه «أي البوجيها» أو «البجة»).

واستنادا على ما ورد أعلاه يجوز الافتراض بوجود اختلاط واتصال بين النوبيين السود وأجناس الليبيين المتحدًرين من «تيمحو» على تلك الرقعة الواقعة بين دنقلا ودارفور وذلك قبل الحقبة المسيحية، كما شهدت نفس الحقبة اتصالاً مماثلاً بين النوبة «نوباد» والتبو على هذا الإقليم.

إن هناك أسباباً قوية تدعم هذه الفرضية ويمكن الاستشهاد بما سبق ذكره عن جبل الميدوب، حيث يُوجد زنوج حاميون يدعون بأن لهم علاقة بالنوبيين في النيل ويتحدًثون لغة مماثلة لهم[1].

يمكن استنباط المزيد من الأدلة باستنطاق الصور الصخرية في «شلاشي»، أحد مجموعة التلال الصغيرة المكٍونة لجبل الحرازة على الهدب الجنوبي - مكان التقاء هذين الجنسين - حيث تتماثًل هذه النقوش الحجرية بنقوش شبيهة لها في أماكن أخرى على نطاق هذا الجزء من شمال أفريقيا الذي أُخضع - بصفة رئيسة - للنفوذ الليبي. أما متى حلً العرب محل هذا الهجين من النوبيين على تلك السهول في شمال كردفان فهو أمر يصعب التكهن به. بيد أن الكبابيش يصًرون على إن أجدادهم هم المسئولون. تصلح تلك المنطقة لرعاية الإبل الأمر الذي لم يخف على العرب عند بداية استقرارهم في السودان وذلك لتوافر كافة الظروف من حيث الطبيعة الجبلية، والمناخ الجيد، وتوفُر الماء والنبات، في شمال وأواسط كردفان وبجانب تشابه تلك

(١) أي البرقد جنوب أواسط دارفور الذين يتحدثون لغة مقاربة جداً للغة البرابرة كما يتضح فيما بعد.

الهضاب اللافت بهضاب الجزيرة العربية بحسبانها أراضٍ ذات تحدرات ومراعٍ ومياه يسهل الحصول عليها بما يلبي حاجة هؤلاء الرُحَّل القليلة. فهي غير مشغولة ًبالزرَّاع، ولا تتخللها السلاسل الجبلية الشاهقة التي تعوق تجوالهم. مع ذلك فقد ظلت المنطقة حتى عهد «ليو» - أي بواكير القرن السادس عشر - موطناً لهؤلاء السود الذين سبق وتعرَّضنا لأصولهم.

دخل العنصر العربي البلاد - في القرنين السادس والسابع - من اتجاهين. ففي المقام الأول أتي البدو من اتجاه دنقلا، وسرعان ما سادوا السهول التي تقع شمال خط عرض قبائل كاجا.

أما من يُطلق عليهم الآن اسم «نوبة» والذين يتراوح جنسهم ما بين الزنوجة وأدنى من العروبة، مع شيء من دماء الدناقلة، ما زالوا يستمسكون بأكبر الجبال وهي (الحرازة وكاجا وكتول وأبودرق وأبو حديد)، ويستأثرون وحدهم بمصادر المياه التي تفي بمتطلباتهم. فهم يعيشون في وئام مع البدو ولا يترددون في أن يشيدوا قراهم جوار الجبال بدلاً عن تحدُّراتها - كما كانوا يفعلون من قبل - ويمارسون الزراعة والرعي في السهول دون خوف أو وجل. ثم بعد أجيال قليلة أصبحوا لا يختلفون عن المستقرِّين من أهالي أواسط كردفان.

من الناحية الأخرى شهد القرن السادس عشر انتزاع القوات المتحالِّفة من الفونج والعرب لسوبا وقرِّي، من أيدي العنج أو النوبة، وأسسوا مملكة سنار، التي ما فتئت تتوسَّع شمالاً وغرباً. وبحلول منتصف القرن التالي بدأوا في ترسيخ أقدامهم في أواسط كردفان. وقد كان العنصر البشري هناك لا يزال - على الأرجح - من النوبة، لكنهم ربما تمسَّحوا - لحد ما - بأجناس دارفور الزنجية[1] التي لا تزال بقاياها موجودة على الجبال الشمالية وأقصى الجنوب.

---

(١) لا زال هؤلاء يُعرفون بالنوبة ولا زالوا يعرِّفون أنفسهم بهذا الاسم. وتشير أسماؤهم لاصول طوطمية، وخمسة منهم لا يزالون يتسمون بأسماء جنس البقر وجنس الفار وجنس الغنم وجنس الحطب وجنس الحصان

الفصل الثالث

البجة والبليميين ونوبة مروى

فلنتجه الآن نحو الصحراء الشرقية فيما بين النيل والبحر الأحمر. حيث عاش هناك البجة الحاميون في القرن السابع، والذين ربما يكونوا في العهود الضبابية الموغلة في القدم قد وفدوا من الجزيرة العربية، وربما تحمل أشكالهم الحالية تماثلاً كبيراً وأشكال الأسرات المصرية القديمة.

تمثِّل قبائل البشاريين والهدندوة والبني عامر - في الوقت الحاضر - القبائل الكبيرة المكوِّنة للبجة، ولا زال البشاريون والهدندوة يتحدَّثون «التبداوي». أما قبيلة البني عامر التي تستوطِن جنوباً على الحدود الحبشية - فتتحدَّث لغة التقراي «السامية». ومن منظور قومي فهم الأقل تجانساً عن الهدندوة وذوي قرباهم من القبائل. كما إنهم يختلفون تماماً - من ناحية التكوين - عن بقية البجة. هناك ارتفاع مطَّرد في المؤشر الراسي من ٧٤,٧ جنوباً (البني عامر) إلى ٧٩ في الشمال (البشاريين). فالبني عامر أقصر قامة ويحملون سمات أقل زنوجة ومزيجاً أرمنياً أكثر من غيرهم، فضلاً عن إنهم أكثر البجة المحدثين استطالة في شكل الرأس.

إعتبر البروفسير «سلقمان» الهدندوة نموذجاً لجنس البني عامر الذي تعدَّل بصفة رئيسة بالامتزاج مع زنوج وادي النيل طوال القامة، كذلك وتحت كل الاحتمالات مع أجانب الآراميين ذوي الذقون الطويلة والرؤوس المستديرة الذين أفلحوا منذ الألفية الثالثة قبل الميلاد - إذا لم يكن قبل ذلك - في تحقيق السيطرة على مصر كنتيجة طبيعية للتداخل المتزايد مع شمالي سوريا. ويضيف بأن استدارة رؤوس الهدندوة

والبشاريين أكثر من البني عامر تُعزى لخضوعهم للسيطرة الآرامية وليس بسبب هجرة عرب الحجاز واليمن قصار الرؤوس واسعي الجبين وذلك للآتي:

«عندما اختلط الساميون (العرب) بالحاميين، تبني الحاميون لغة العرب، وبتطوُّر هذا العنصر الهجين يمكن القول بأنهم أصبحوا أكثر عروبة من كونهم حاميين، والواضح إن لا شيء مما ذُكر قد جرى في إقليم البحر الأحمر في السودان، ويبدو جلياً أنه بينما أصبح البشاريون أكثر تهجناً مع هؤلاء العناصر من الأجانب ذوى الرؤوس المستديرة، بقي البنو عامر الأقل تأثراً بحيث يمكن القول - بصفة مطلقة - بأن خصائصهم التكوينية يمكن أن تُؤخذ بحسبانها السمات البدنية للبجة الأصليين سكان الصحراء الشرقية»[1].

في هذا الصدد يلاحظ المرء بأن روايات العناصر من غير البجة كما هي محفوظة في مخطوطات الأنساب المحلية، تتطابق في إلحاق البني عامر بالعرب، وهو مما يُنكر ويُنفى عن البشاريين والهدندوة. واسم «بني عامر» ذو مدلول عربي صرف أيضاً. فإذا كان شيوع قصر الرأس واتساع الجبين وسط البشاريين والهدندوة يعود للهجرات العربية فالأمر لا يخلو - على الأرجح - من أن يكون إقراراً بواقع أكثر من كونه تناقضاً يشوب تلك الروايات.

بإجراء مقارنة للخصائص البدنية للبجة الحاليين والأسرات المصرية السابقة والنوبيين المعاصرين لهم نجد أن هناك تماثلاً ملحوظاً بينهم. يقول البروفسير سلقمان، يبدو من المبرر القول بأن البني عامر هم الأقل تهجناً من بين قبائل البجة كنماذج حديثة لعصر ما قبل الأسرات المصرية القديمة والأجناس النوبية، وسيظهر لاحقاً إن هذا التعديل الذي أحدثه النوبيون عبر سبعة آلاف من السنين أو أكثر كان قليلاً جداً.

أقرب الأقربين لقبائل البجة هم العبابدة الذين يستوطِّنون المنطقة من أسوان وقنا حتى البحر الأحمر فضلاً عن فرع أصغر يستوطن شرق بربر.

---

(١) سلقمان المرجع السابق ص ٦٠٣ و٦٠٤.

يقارنهم «رسنر» بنوبيي العصر الأوسط (أي المجموعة ج) من ناحية، ثم بالبدوين الحاليين في مصر السفلى من الناحية الأخرى. وهم مثل الأوائل قد طرأت عليهم تعديلات بالتزاوُج مع الزنوج وبالتالي صاروا يماثلون البرابرة في الجنس، بيد إن الرواية الشفوية إذا كانت تصلح كدليل فإن الدماء العربية التي تجري في شرايينهم أكثر مما لدى البرابرة[1].

هكذا يمكننا القول - وباختصار - بأن العرب عند غزوهم للصحراء الشرقية التقوا في الداخل بعناصر من المصريين الأوائل الأكثر تهجناً بالدم الزنجي والآرامي في الشمال، أكثر من الجنوب، بما يماثل شعوب النيل تماماً. كما يمكن أن نضيف - وسنورد تبريراً لاحقاً لذلك - بأنه إذا لم تكن هناك آثار تسرُّب حميري بين قبائل البجة في أقصى الجنوب، ستكون واقعة لافتة للغاية.

أما في الفترة الكلاسيكية فهناك عدة تلميحات لقوم يُدعون البليميين على الضفة الشرقية للنيل والافتراض هو أنهم يمثلون نفس شعب البجة الحالي، بيد أن الأمر لا يزال في الإطار النظري غير المُحقق حتى الآن والذي يعوزه البرهان والدليل. «كلوديان» (المولود في ٣٦٥ ميلادية) و«أميونوس مارسلينوس» (٣٢٠ - ٣٩٠م) «وسلبشس سفروس» و«بالاديوس» و«أولمبيودروس» أشاروا لهؤلاء البليميين ووصفوهم بأنهم بالقرب من «سيني» (أي أسوان) والشلالات.

زار «أولمبيودروس» منطقتهم فيما بين الأعوام ٤٠٧ - ٤٢٥م، وقد خص «بريميس» (أي ابرم ٦٠ إلى ٧٠ ميلاً أدنى حلفا) كآخر مدنهم في النيل. وفي نقوش «سلكو» الذي حارب معهم في القرن السادس ما يعضِّد هذا الذي ذهبنا إليه. ويبدو جلياً إنهم قوم من الغُزاة استطاعوا إخضاع السكان النوبيين والزنوج القدماء معاً، وسادوا طيبة.

ينطبق اسم البليميين على بدو الصحراء الذين يُفترض إنهم البجة المتاخمين للبحر الأحمر، لأننا عندما نقرأ قوانين شهداء ريث[2].(Acts Martyrs of Raithe)

---

(١) إن فرعاً كاملاً منهم انضم للعرب السودانيين على الأقل مثل الكواهلة في كردفان وإندمجوا فيهم.

(٢) بالقرب من سيناء.

نجد إن حوالي ثلاثمائة من البليميين أبحروا في حوالي عام (٣٨٧ الميلادي) على السفينة «إيلا» من ساحل أثيوبيا على طول البحر الأحمر للهجوم على «ريث». بيد أنه ليس من الصواب الإصرار استناداً على هذا السبب للقول بأن بدو الصحراء الشرقية هم من تأتّى منهم هذا الاسم لأنه من الأخطاء الشائعة أن يُسبغ اسم معروف على أقوام غير معروفين لمجرّد إنهم يبدون في الظاهر مماثلين لهم. «أراتوثنيس» و«سقراطي» و«بطليموس» و«بروكبيوس» و«فوبسكس» يشيرون للبليميين بعبارات تجعل من موطنهم الرئيس حول أسوان ثم يمتد بعيداً نحو الجنوب، ثم شرقاً تجاه مقاطعات «أكسوم» و«أدوليس». وهكذا يتضح جلياً بأنهم يشيرون للمنطقة التي كانت وما زالت موطناً للبجة.

رغم أن آثار «أكسوم» و«أدوليس» تتناول شعوب ما بين الحبشة ومصر- الذين أخضعهم ملك أكسوم - إلا أنها لم تشر للبليميين بالاسم بل تحدثت - بدلاً عن ذلك - عن التانقيتس والبوجتيس (البجة).

هكذا يتفق المرء مع «ليترون» بأن من أُطلق عليهم اسم البليميين عاشوا أساساً في وادي النيل أدنى النوبة على تخوم مصر، وإن شعب الشرق والجنوب الشرقي - أي ما بين النيل والبحر الأحمر - الذين أسبغ عليهم المؤرخون المذكورون هذا الاسم بوجه مبهم، هم في الواقع يتسمَّون باسم آخر وكان أوائل الكُتَّاب المسيحيين متوافقين في إطلاق هذه التسمية أي استخدامهم لاسم البليميين في إشارة للبجة الحاليين، والذين يبدو إنهم من نفس النوع البشري.

البجة في الأساس قبائل من الرَّحل أما البليميين[1] فمن النهريين المستقرين ومع ذلك يبقى الظن بأن يكون البليميون - في أصلهم - فرعاً من البجة الذين استقروا على ضفاف النهر وهجروا حياة الترحال.

هناك توجُّه مماثل ما زال ملحوظاً بشدة على طول وادي النيل. إذ سبق القول

(١) يقال إن الخرائب القديمة التي تُسمي كرنوج بالقرب من أبرم هي أطلال لقصر زعيم بليمي.

باحتمال وجود صلة مماثلة في وقت ما على الجانب الغربي بين النوبيين النهرين والرُحَّل من النوباتي، ثم في عصور أحدث فإن أسلاف الكثيرين من العرب الحاليين الذين استقروا - في والوقت الحاضر - على النيل ظلوا ميالين ولعدة أجيال متتالية لممارسة حياة البدو في المناطق الباطنة، بيد أن هذا لا ينفي وجود عدة تحركات في الاتجاه المضاد، وربما كان هذين التحركين معاصرين لبعضهما البعض، وإن الباعث لتلك التحركات هو بالقطع - في كل حقبة بعينها - كان وليداً للظروف السياسية المحيطة.

متى ما ذكر المؤرخون الكلاسيكيون أو مؤرخو القرون الوسطى اسم البجة أو البليميين يدفعني هذا للاعتقاد بأن هناك اتصالا بين ضفة النهر الشرقية مع الصحراء الشرقية. هناك رأي يذهب إلى وجود بجة وبليميين غرب النهر أيضاً بيد أن هذا الرأي يصعب الأخذ به.

إن الفقرة التي أوردها «بومبونيوس ميلا» كان من الطبيعي أن تفسر - كما فعل «كواتريمير» و«لترون» ظاهرياً - كدليل على وجود البليميين أو بعضهم غرب النهر. إذ يقول (أعلى تلك البقاع التي يغمرها البحر الليبي، يُوجد الليبو-مصريون والليوكوايثيبوس وأمة الجيتولي العظيمة بفروعها المتعدِّدة. وخلف هذه المنطقة إقليم واسع وخالٍ على مداه، ثم خلفه أجناس أخرى. إبتداءً من الشرق يُوجد أولاً القرمنت ثم الأوقيلي والتراقولديون، وأخيراً في أقصى الغرب الأطلنطس، أما في المناطق الداخلية فهناك أناس - إذا جاز للمرء أن يصدق - يصعب وصفهم بالآدميين بل أشبه بأنصاف الضواري ونعني بهم الأجبانيس والبليميين والجامفاناتيس والساتيري الذين يتجوَّلون في المنطقة دون مُستقر، بل يمكن القول بأنهم محتلون أكثر من كونهم مستوطنين في المنطقة).

بيد أن ما سبق ذكره لا يعني أن البليميين كانوا غرب النهر، ولا ينبغي أن نسلم بصحة الأمر، لأننا - كما رأينا - هناك أدلة لدى جمهور الثقاة من الكُتَّاب تشير للعكس. فإذا كان «ميلا» يرى أن الجزء الأكبر من البليميين كانوا في غرب النيل فهو بالتأكيد مخطئ، وإن كان غير ذلك تبقى المقالة غير ذات قيمة كبينة على وجودهم هناك. يقتبس إسترابو الذي إرتقى النهر مع «اليوس جالوس» في العام الرابع والعشرين قبل

الميلاد من «اراتوسثينيس» ما يلي: (أسفل الضفتين من مروى وعلى طول مجرى النهر نحو البحر الأحمر يُوجد الميقاباري والبليميون من رعايا الأثيوبيين وجيران المصريين. ولكن على الجانب الأيسر من مجرى النيل يعيش النوباي).

بمجرد أن استوطَن البليميون نهر النيل تأثَّروا - بقوة - بحضارة مروى الأثيوبية المعاصرة. يقول كروفوت: (من المؤكد إن ملوك البليميين كانوا يتحدَّثون الإغريقية وذلك في القرن الخامس أو قبل ذلك، واتبعوا الكثير من الطقوس المعَّقدة في البلاط البيزنطي، وبحكم الحروف المشتركة والمنن المتبادلة مع مصر، بقوا على علائق وثيقة مع حكام مروى).

الأهمية التي أولاها «أولمبيودروس» في بداية القرن الخامس وشروط السلام التي دونها «برسكوس» بحسبان أنها قد أبرمت بعد سنوات قليلة بينهم والرومان، ثم نقوش «تالمس» في القرن الذي يليه، تدل على إنهم حتى النصف الأول من القرن السادس كانوا على الوثنية. لقد عبدوا - ظاهرياً - «إيزيس» في«فيلة» قبل إيمانهم. ولكن كتابات «بروكوبيوس» في حوالي منتصف ذات القرن - وهو يذكر ذلك - لا يلبث أن يضيف بأنهم درجوا على تقديم قرابين بشرية للشمس أيضاً. ومن المسلّمات أيضاً إن مقرَّهم الديني الرئيس كان في «تالمس» حيث يُوجد معبدهم المكرَّس لعبادة الشمس تحت مسمى (ماندلس) ولهذا السبب أختيرت «تالمس» بواسطة الغازي «سلكو» كموقع لنقوشه.

ربما كان اعتناق البليميين للمسيحية نتاجاً طبيعياً لحملة «سلكو»، وربما كان «سلكو» نفسه أو خلفاؤه من بعده هم الذين سحقوهم وحالوا بين أن يبقوا ككيان عرقي قائم بذاته. وعلى أي حال عندما غزا المسلمون المنطقة الواقعة جنوب أسوان - بعد أقل من قرن - لم يرد أي ذكر للبليميين بل كان السكان نوبيون ومسيحيون[1].

هناك معضلة أخرى أكثر تعقيداً تتمثَّل في المنطقة التي تقع قليلاً نحو الجنوب.

(١) يقسم هيرودتس الجنس الأثيوبي إلى أثوبيين شرقيين ذوي شعر مستقيم وهم البجة وامثالهم، والأثيوبيين الغربيين - من ليبيا - ذوى الشعر المجعد وهؤلاء هم الزنوج وكلا الفريقين يتحدث لهجة تختلف.

وكما سبق وذكرنا فإن «نباتا» كانت عاصمة ملوك الليبيو-نوبيين الذين احتلوا مصر في القرنين الثامن عشر والسابع عشر قبل الميلاد وكذلك خلفاؤهم المباشرين، لكن الراجح إن العاصمة السياسية نُقلت في ٤٤٠ق.م لمروى - وعلى بعد حوالي مائتي ميلاً جنوباً بالقرب من تقاطع نهر عطبرة مع النيل - بيد أن العاصمة الدينية بقيت كما هي في نباتا.

ربما كان العنصر البشري للسكان الأصليين في المنطقة حول مروى أو على الأقل تلك المناطق التي تقع جنوبيها وشرقها من ذات الجنس (أحمر-أسمر) الذين سبق لهم واحتلوا وادي النيل وجنوب غربي ساحل آسيا وساحل البحر الأحمر، ولكن بحلول الألفية الأولى ق.م - ما لم يكن قبل ذلك بكثير - فالمفترض ذوبان هذا الجنس في القبائل الزنجية التي تسرَّبت من الجنوب وحققت سيطرة على وادي النيل. تثبت المخلفات القديمة في مروى بأنه على الرغم من إن العنصر السائد في القرنين الرابع والخامس ق.م كان هو العنصر الزنجي، ظلت المذاهب المصرية في الفنون والعادات هي السائدة واستمر الحال كذلك حتى القرن الثالث الميلادي.

رواية «هيرودوتس» عن مروى ٤٥٠ق.م، تنهض دليلاً على نفس النتائج، ولكن قبل أن نتعامل مع هذا الأمر وتلك المعلومات الشحيحة التي تركها لنا الجغرافيون المتأخرون من الإغريق والرومان، فثمة استطراد ضروري للإشارة - ظاهرياً - لوجود تأثير ثقافي آخر ظل فاعلاً بجانب تأثير مصر.

لقد سبق وأوضحنا بأن هناك صلات مستمرة بين الأحباش ووادي النيل واليمن في الجزيرة العربية، ويرجح أن تكون تلك الصلات قد بدأت قبل أربعة أو خمسة ألف سنة - على أقل تقدير - من بزوغ نجم الحقبة المسيحية، ثم أصبحت تلك الصلات حميمة خلال الألفية الثانية والأولى قبل الميلاد.

إن معبد مروى ومعبد الشمس ومعبد الأسد والمعبد الأصلي للإله «إيزيس» والتي تنتمي للعهد المروي القديم، ثم الأسود الحجرية الرابضة (الباسا والنقعة والمصورات وأم سعودة وسوبا) كلها ترتبط - بالتأكيد - مع معبد الشمس في «تالمس»

ومع الأسدين الرابضين أمام البوابة العظمى لمعبد «إيزيس» في «فيله»، ثم يفترض المرء وجود صلة بين كل ذلك والكلبين الرابضين الذين رآهما بروس في الحبشة والذين اتفقت حولهما آراء «هيرين» و«كروفورت» بأنهما أسدين من ذات نوع الأسود التي في الباسا وخلافها من الأماكن التي ورد ذكرها.

يرى «بينت» إن المسيحية في الحبشة تغلَّبت على نوع من عبادة السبأيين للشمس، إذ إن كل الأحجار الأثرية والمذابح تدل على هذا. ومن شعائرهم في الكنائس يمكن أن نستجلي آثار تلك الطقوس، فالخدمات الليلية التي لا تنتهي إلا مع بزوغ الشمس، ثم الكنائس الدائرية ذات الأبواب الأربعة الشرقية المطلة على نقاط البوصلة الأربعة، والحدائق المقدسة المطوِّقة للكنائس، ورقصة الكهنة، كل هذا يعود لما يُعرف بعبادة «بعل» ذات العلاقة الوثقى بعبادة الشمس السائدة في جنوب الجزيرة العربية.

ويعلق بينت على إيحاءات «هيرودتس» بالآتي: (تُحد أثيوبيا بالبحر الجنوبي وإن قرص الشمس في أثيوبيا هو المرج الكائن أسفل جدران مدينتهم المليئة بلحوم الحيوانات المطهية).

وإن العاصمة الحبشية القديمة لهذه المستعمرات السبأية أو الحميرية كانت «آفا» أي «ييها» حيث تُوجد المسلات، وهي مجموعة ضخمة من النقوش الحميرية. كما يُوجد معبد الشمس، ومؤسسيه هم (الأفاليتي) الذين يُفترض أنهم كانوا تجاراً في بادئ أمرهمٍ ولكن بعد أن تزايد نفوذهم وعددهم مُعززين ببني جلدتهم من البحر الأحمر، تمكّنوا من بسط لغتهم وشعائرهم الدينية مع إضفاء شيء من خصائصهم العرقية على شمال الحبشة كما يفترض ارتباط اسم «آفا» بعبادة السبأيين لـ«بعل آفا». لقد تم نقل العاصمة لاحقاً لاكسوم فضلاً عن منشآت حميرية أيضاً مع المسلة الأثرية وشكل لحجر تعبُّدي مُتقن الصنع مرتبط بقرابين الشمس.

التماثل بين المعمار المروي المتأخِّر كالذي في المصورات وغيرها والذي بدأ منذ حوالي - القرن الثالث الميلادي - وما عاصره من معمار أكسوم، يبرز حلقات الترابط

بين وادي النيل والحبشة الذي أصبح وثيقاً على مدى الأجيال التي تلت. مذكرات «كروفوت» - على وجه الخصوص - تشير بأن هناك تماثلاً تاماً في فكرة الطابق الأعلى لكنيسة دنقلا العجوز مع تصميم «الإندا جيورجس» بالقرب من عدوة.

ومع وضعنا لهذه الحقائق في الاعتبار فإننا سننفذ الآن لأوصاف مروى التي دوَّنها الجغرافيون الكلاسيكيون. ففي عصر«هيرودوتس» عبد المرويون «جوبتر» أي (أمين رع) «وباخوس» أي (أوزريس)، ومارست القبائل الأثيوبية المجاورة الختان والشلوخ كما استخدمت الأقواس المصنَّعة من فروع النخيل والسهام المزودة برؤوس حجرية والرماح المسننة بالقرون كما استخدموا العصي الخشبية ودرجوا على طلاء أجسادهم قبل الدخول في أية معركة.

وحتى جنوب مروى - ومروى نفسها تقع جنوب أسوان - تُوجد المنطقة التي سكنها «الأتومولوي» أو «الاسماش» المتحدِّرين من المائتين وأربعة ألفا من المرتزقة الذين أرسلهم «بسمتوش الأول» (٦٦٣ - ٦٠٩ق.م) لحماية مصر العليا من أثيوبيا. وعن هؤلاء الأتمولوي يقول «هيرودتس» (إن إلمامهم بالطبائع المصرية أدى إلى تمدُّن الأثيوبيين).

تحدَّث «أراتوثينوس» - في القرن الثالث قبل الميلاد - عن الأتومولوي أو السمبرتاي - كما يسميهم - وقال بأنهم يُحكمون تحت زعامة ملكة لكنهم يعترفون بسيادة مروى. ثم يحدثنا «أرتميدروس» - بعد ذلك - بأكثر من مائة سنة عن إقليم يرجح أن يكون ما بين كسلا والقلابات بحسبانه موطناً للسمبرتاي، ووصفهم بأنهم تحت إمرة ملكة (تخضع لها مروى أيضاً). تلك وقائع - إذا صحت - فهي تشير لثورة فيما بين القرنين الثالث والأول ق.م أدت لإطاحة المستعمرات الجنوبية بالسلطة في مروى. من المفهوم هو إن التدابير العنيفة «لأرقامنيس»التي لم يتقبلَّها الشعب كانت هي السبب في سقوط حكمه.

في عام ٣٢٣ق.م اعتلى «بطليموس الأول» عرش مصر وكان عهده مزدهراً وقد انعكس جزء من هذا التطوُّر على مروى بحيث بدأت الأفكار الهيلينية تسود العاصمة لتحل محل التأثير المصري القديم. وتتمثَّل مظاهر هذا التوجُّه في الكثير من القطع

الأثرية التي كُشف عنها وفي الأسلوب المُعدَّل للعمارة، فضلاً عن إن الدليل المباشر على هذا الأمر أورده أيضاً «ديودوروس» في روايته عن «أرقامنيس».

كانت كتابات «ديودوروس» في عهدي «يوليوس قيصر» و«أغسطس» تشير للأثيوبيين في مروى باعتبارهم من أوائل البشر الذين استوطنوا المنطقة، وقد تعرَّض لعادات الأثيوبيين التي تقضي بأن يأمر الكهنة ملك مروى بالانتحار عندما يضيقون به، وهذه العادات - على حد قوله - استمرت حتى عهد «أرقامنيس» المستنير، أي (أرك آمين) الذي عاصر «بطليموس الثاني» (٢٨٤ - ٢٤٧ق.م) وكان قد تلقى تعليماً إغريقياً. مال «الأرقمنيس» للإقرار بسلطة الكهنة لدرجة إنهم - أي الكهنة - يحكمون عليهم بالموت.

يعطي إسترابو معلومات مماثلة عن مروى مستنداً - إلى حد كبير - على «أراتوستنيس». أما بالنسبة لهؤلاء وغيرهم من الجغرافيين من الإغريق والرومان فإن الأثيوبيين الذين لم يستقروا داخل مروى نفسها واستوطنوا المناطق المجاورة لها، كانوا مجرد أهماج أي «كوش التُعساء» كما أطلق عليهم الفراعنة.

بعد بزوغ الفترة المسيحية مباشرة بدأ العهد العظيم لمروى الذي تلازم مع الملكة «الكنداكة»، تلك الشخصية التاريخية البارزة - وليست أسطورية - التي أرتقت سدة حكم نباتا. وكانت من القوة بحيث احتلت سين «أسوان» بحصنها الروماني المؤلف من ثلاثة فيالق من العسكر، وذلك في - العام الرابع والعشرين الميلادي -، ولكن في السنوات التالية هزمها «بترونيوس» ودمَّر نباتا.

في حوالي العام الستين الميلادي، بُعث قادة المائة «لنيرو» بغرض اكتشاف منابع النيل فوجدوا كنداكة أخرى تعتلي سُدة الحكم في مروى. وذكروا بأن ملوك أثيوبيا كانوا خمسه وأربعين أيضاً، وإن المنطقة ما بين مروى وأسوان قد هُجرت تقريباً، وتبقَّت آثار قليلة لكل تلك المدن والحضارة المزدهرة التي ذكرها الجغرافيون الأوائل. تزامنت وفترة الانهيار التي اجتاحت مصر مع خراب مماثل لحق بأثيوبيا وهذا دليل آخر على تبعية تلك الدولة الجنوبية لجارتها الشمالية العظمى.

لم تكف مروى من أن تتنامى كمركز تجاري هام، بحيث ظل مركزها المالي صدىً لما يجري في مصر. وفي الجزء الأول من القرن الرابع أي في عهود الأباطرة«فلافيان» و«إنطونين» انتعشت التجارة بين البلدين. المباني التي شُيدت - في هذا العهد - في الباسا والمصورات والنقعة (أي المعبد الإغريقي الروماني) يرجح أن تكون كلها أعمال أسرةٍ واحدة، وقد تمثَّلت في عبارات كروفوت التي تقول (إن المنتجات العرضية المتعلِّقة بازدهار الإمبراطورية تُعزى - مباشرة - لما فاض من ثروات اعترت العهد «الرومانو-مصري» مما عبر بهذه الثروات إلى ما وراء حدود الإمبراطورية).

هكذا أصبح لدينا انطباعاً عاماً عن مقاطعات جزيرة مروى كمواقع للسكنى في القرون التي سبقتها - مباشرة - ثم تلك التي أعقبت الفترة المسيحية وعن شبه الرحُل وشبه المستقرين، هؤلاء الأهماج الذين يعيشون على القنص وفلاحة الأرض. تُوجد في الجنوب المستعمرات التي شيدها الأتومولوي والسمبرتاي الذين يرجح أن يكونوا من المصريين أو ربما كانوا عناصر ليبية. ثم إلى الشمال حيث تُوجد رصيفتها مدينة مروى الأكثر مدنية والتي تتجلى فيها مظاهر السيادة المتعاقبة وتأثيرات كل من المصريين والإغريق والرومان إضافة لبعض الفضل المنسوب لحميريي جنوب الجزيرة العربية.

يبدو إن هناك القليل من البينات للاستدلال على التوقيت الذي حقق فيه حكام مروى السيطرة الدائمة على الأراضي الداخلية وجنوباً إلى ما بعد جبل جيلي وجبل موية[1].

تقع مروى على ملتقى للطرق التجارية الهامة ويعود معظم ما نالته من مكانة ورخاء لشهرة أسواقها وقربها وإمكانية الوصول إليها من الشمال والجنوب حيث يمتد الطريق النهري، وغرباً طريق نباتا وشرقاً طريق القوافل الذي يعبر عطبرة حتى موانئ

(١) هناك صخرة في جبل جيلي تحوي نقوشاً لملك أثيوبي ويذكر المؤلف إنه وجد رسماً في ١٩١٢ يُعتقد إنه الأسد ذو الرأس المعروف بأرسونفيس أو أبادماك. ومن نقوش ناستاستني (٢٩٨ - ٢٧٨ق.م) يجوز أن يكون الملك قد غزا كردفان وإن مسافة بهذا القدر من مروى تعني أن الجزيرة أو جزء كبير منها كان تحت الاحتلال المستديم للأثيوبيين.

البحر الأحمر، ثم جنوباً طرق الوادي التي تُحد أراضي القمح والرعي في هوَّاد وأبودليق. وبذلك نالت موقعاً مدنياً هاماً وأصبحت سوقاً يباع فيه الرقيق والعاج والذهب تلك السلع التي يمكن الحصول عليها عن طريق المقايضة. ولكن في حوالي الأعوام (٣٤٠ - ٣٥٠ ميلادية) - كما علمنا من أحد النقوش الأكسومية[1] - كانت هناك حملة وُجهت بواسطة «إيزانيس» أو «إيزانا» ملك أكسوم العظيم ضد حاكم النوبة في أراضي مروى بدعوى تعديه على حدوده، وقد جاء في هذا الأثر «لقد نزلت ضده في الحلبة اعتماداً على قوة الرب وضربتهم في تاكاز وراء كمالكي وهناك انسحبوا لمسافة تتبعتهم ثلاثة وعشرين يوماً وغنمت منهم أسرى وأسلاب وأخذت الأسرى بعيداً عن مواطنهم وكذلك الأسلاب وأثناءها عاد جنودي الذين ذهبوا للحرب، وفي هذه الأثناء حُرقت مدنهم المبنية باللبن والمشيدة من القش ونهب رجالي غلاله وأسلحته ومعادنه وهدموا أصنام معبده ومئونته من بيادر القمح ورموها في نهر سيدا، وهناك من القوات من أهلك خمسة وكاهن، وقد بلغت النهر حيث ضربتهم وأبدتهم في ملتقى نهري سيدا وتكاز، وفي اليوم التالي وصلت وأرسلت مجموعة للنهب فنشروا الخراب حتى سيدا والمدائن التي من صنع البنائين ومن القش ثم عادوا في أحسن حال. عندئذٍ أرسلت فرقة، هلين وداكن وسابرات حيث غنموا وخرَّبوا أسفل نهر سيدا ومنازل النوبة الأربعة المشيدة من القش للناقوسو وتلك المدن المشيدة للكاسو والنوبة والنازاتو وأدركوا حتى ديار النوبة الحُمر وعاد جنودي وهم في أحسن حال وبسطت سلطاني حتى ملتقى نهري سيدا وتاكاز على مرأى من المدينة المشيدة والجزيرة التي وهبها لي رب السماء». هنا وردت ثلاثة أجناس أولهم النوبة في جزيرة مروى وشرقاً حتى عطبرة و«الكاسو» شمال

---

(١) يقول كوفوود إن هذه الحملة كانت ضد النوبة الذين احتلوا مدينة مروى حديثاً ويبدو إن هناك موجه لعدوان زنجي من الجنوب غمر جنس الأحمر في الجزيرة وحتى شمالها احتل فيه السود مدينة الكاب وشيدوا بجوارها مدينة من الأكواخ كما هو حال الزنوج حتى الآن وقد غزوا جيرانهم دون سبب ولثلاث مرات لم يحترموا عهدهم واهانوا تعهد ملك الملوك بعدم عبور نهر عطبرة. ويسرد الملك كيف إنتقم بحصار المدينة المشيدة والأكواخ وارسل حملاته أعلى واسفل النهر من تقاطعه مع نهر عطبرة.

غربي ملتقى نهر عطبرة والنيل ثم ثالثاً النوبة الحُمر على مسافة أبعد عند منحدر النهر. يبدو أن النوبة والكاسو كانوا يقيمون مع بعضهم البعض عند منحدر النهر مباشرة وبعد المقرن. إن من العسير تجنب المجاهرة بالرأي القائل بأن تعبير «النوبة الحمر» قد يكون المقصود به المستعمرات الجنوبية للبليميين. أما فيما يتعلّق بالفرق بين الكاسو والنوبة الوارد في النقوش فمن البديهي أن يعتمد على مدى صحة تفسير «مولر» أو «لتمان» و«كرينكر»، ولكن في كلا الحالتين فالكاسو - فيما يبدو - هم الأكثر تمدُّناً حيث مصَّروا طابع مروى والأجانب من أزناج النوبة. بيد أن الأمر يبقى - في مجمله - محاطاً بالشكوك.

يبدو إن منتصف القرن الرابع الميلادي - على أقل تقدير - شهد أسوأ سنين مروى حيث حلَّت أعوام التفكك، ومن الآن فصاعداً ليس لدينا ما نقوله عن تاريخ هؤلاء القوم الذين يستوطِنون جنوبي ملتقى نهري النيل وعطبرة حتى عصر المسعودي وإبن سليم الأسواني اللذان كتَبا في القرن العاشر الميلادي عن النوبة. ولا نعلم متى تنصَّرت شعوب مروى. اعتنقت الحبشة الديانة المسيحية في ٣٣٠م، أما النوبة الشمالية فبعدهم بحوالي قرنين، بيد أن انفصام عرى الصداقة بين البلدين في منتصف القرن الرابع صار يلقي بظلاله - من الآن فصاعداً - كمؤشر لانتشار المعتقدات الدينية فيما بينهما وظلت الأحوال على هذا المنوال حتى عمَّت المسيحية النوبة - أخيراً - في القرن السادس عن طريق مصر.

في كل الأحوال فقد شهدت نهاية القرن نفسه أو ربما القرن السابع اعتناق علوة للمسيحية. كانت سوبا أو علوة مركزاً مهماً حتى العهد المروي لوجود معبد[1] بها منذ تلك الحقبة. ورغم إن «ألوت» في مسلة «ناستاسنين» يشير دون شك لذات المركز، فمن الطبيعي الافتراض بأن عاصمته هي المدينة التي ذاعت شهرتها فيما بعد والتي تحمل ذات الاسم. بذيوع المعتقدات المسيحية في علوة تحوَّلت المعابد الوثنية إلى

(١) يوحي اسم سوبا بالأسم «أستاسوباس» الذي عرَّف به استرابو النيل الأزرق، أنظر بدج المجلد الثاني ص ٣٤.

كنائس، وبانتشار التعاليم المسيحية والكتب المقدَّسة شاع الاستخدام الواسع للكتابة اليونانية لأغراض نشر الدين الجديد وطقوسه وهكذا تفتَّحت آفاق للمستقبل بين الإسكندرية وقرى النيل الأزرق[١]، وحتى وقتنا الحالي هناك آثار لحضارة قديمة، ربما سبقت حضارة سوبا، مثل المباني الأثرية المشيَّدة من الطوب الأحمر بالقرب من ألتي[٢] وكترانج والكسمبر وبرنكو والحصاحيصا والتي يرجح أن تكون بقايا كنائس قديمة مجهولة التاريخ، ويبدو إنها تنتمي لنفس فترة انتشار المسيحية في سوبا. أما في الشمال ولما أخذت سلطة مروى في الاضمحلال بدأ ولاء الحكام الصغار الذين يسمون «بالمكوك» ممن كانت لها السيادة عليهم، بدأ في التلاشي مرة بسبب الجذب من جهة الحبشة وأخرى بسبب تلك المملكة النوبية المنافسة التي تمركزت في دنقلا.

ومتى ألقينا نظرة خاطفة على هاتين القوتين في القرنين السابع والثامن[٣] - مثلاً - سيتضح إن هناك تنازعاً بينهما، أما الأمراء الصغار الذين توسطوا هاتين السلطتين يرجح أن يكونوا قد حظوا بشيء من الاستقلال المحلي وبصرف النظر عن الولاء الاسمي الذي يبدونه، فإن من الصعوبة بمكان وبدون الحصول على معلومات علمية لاحقة الوصول لشيء بخلاف تلك الانطباعات المبهمة حول الجنس الذي ينتمي إليه مختلف سكان المنطقة حول مروى للفترة التي سبقت احتلال العرب مباشرة.

---

(١) ورد اسم علوه في اتفاقية البقط عام ٦٥٢ بين المسلمين وملوك النوبة وبحلول القرن العاشر أصبحت أهم مدينة في السودان جنوب دنقلا واستمرت كذلك لقرنين أو ثلاثة حتى إنهارت الدولة المسيحية فبدأت تفقد أهميتها بيد أنها ظلت عاصمة «النوبة» حتى تغلب عليهم الفونج في بداية القرن السادس عشر.

(٢) يقال إن أصلها أنتي وقيل إن إنتي ورودس كانا أخت وأخ، سكن رودس الضفة الشرقية على الموقع الحالي للبشاقرة شرق وأنتي على الضفة الغربية. تحدث ابن سليم والمسعودي عن قبائل جنوب سوبا كما جاء به الجغرافيون والكلاسيكيون واسموهم عبدة القمر والنجوم والنار والأشجار والبهائم «العراة السود كالزنج» لكنهم يشيرون - في الواقع لقبائل في المناطق الباطنة البعيدة عن النهر.

(٣) أرسل بطريارق الأسكندرية رسالة يحض فيها ملوك النوبة والحبشة على الوئام، في ٧٣٧ كتب البطريارق لسرياكويس ملك النوبة بعدم مهاجمة صعيد مصر ويقول ريناندوت بأن نفوذ هذا الملك إمتد ليشمل ثلاثة عشر ملكاً آخرين.

هناك أربعة أجناس بارزة - على الأقل - التقت هناك، ففي الأراضي الباطنة إلى الشمال والشرق البجة، والنوبة في الشمال الغربي ثم الأحباش في الجنوب الشرقي، ثم جنوباً وعلى طول النيل الأبيض ونهر السوباط، يُوجد هؤلاء القوم الذين تمثِّلهم حديثاً قبائل الشلك التي سبق وذكرنا بأن لهم انتماء للبانتو، ويبدو إنهم قدموا نحو المنطقة الواقعة جنوب نهر السوباط والمراقي العليا للنيل الأبيض - على الأرجح - في أو قبل الألفية الثانية السابقة لميلاد المسيح ولم يمدوا توطُّنهم إلى أدنى النيل الأبيض نحو مناطق الكوة والدويم حتى بواكير القرن السادس عشر الميلادي تلك الفترة التي شهدت نشوء دولة الفونج[1].

نما لعلم بروس - في سنار - إبان القرن الثامن عشر الميلادي، بأن الفونج يتحدَّرون من الشلك، وإن «وسترمان» قدم الأدلة - فيما بعد - والتي تتعلَّق بصحة هذه الرواية. فإلى أي مدى استطاع هؤلاء الزنوج النيليون تعديل المكوِّن العرقي لسكان جزيرة مروى - إذا صح الأمر أصلاً - فهو أمر غير معروف، ولكن هناك بعض المؤشرات لهذا الارتباط، والتي ربما تتمثَّل في ممارسة عادة قتل الملك في مروى التي ظلت سائدة حتى القرن الثالث ق.م وذلك عندما يقتنعون بأنه لم يعد فاعلاً لإدارة دفة الحكم بالوجه الكافي. يكوِّن هذا المسلك افتراضاً ومثالاً آخر للاعتقاد القديم في إن الملوك يجسِّدون الروح الإلهية، وهم يُقتلون من فترة لأخرى مخافة أن تتأذى الروح بالبقاء في جسد هرم، ولما كان الأمر كذلك فالأرجح بأن للمسلك ارتباطه - من جهة - بـ«سيد» أي احتفال قدماء المصريين والذي يسود الاعتقاد بأنه يقام أساساً احتفاءً بموت الملك، ثم من الجهة الأخرى يتأكد ارتباطه بتلك العادة المتأصِّلة لدى النيليين من الشلك والدينكا - حتى الآن- والتي تقضي بقتل ملوكهم قبل أن يهن منهم الجسد. ظل هذا التقليد يلقي بظلاله لدى الفونج في سنار حيث يُوجد في

(١) إمتد سكن هذه القبيلة الزنجية سابقاً أبعد من موقعهم الحالي على جميع المناطق الداخلية أما الآن - ١٨٦٩- فانهم لا يكادون يتجاوزون بقواربهم - استثناءاً - خط الطول (١٢، ٣٠) أي حتى مدينة كاكا.

بلاطهم شخص مميَّز يُعهد له أمر تسيُّد المسكن ويبدو أن هذه العادة كانت سائدة لدى العبدلاب في قرِّي[1].

يقول «بروس» عن الفونج: إن واحدة من التفردات التي يتميَّز بها هؤلاء الأهماج هي إن الملك عندما يعتلي سدة الحكم يتضمَّن تتويجه إقراراً منه بأنه قد يُقتل بوجه مشروع بواسطة شعبه أو عبيده عن طريق مجلس لكبار الضباط إذا قرروا بأنه ليس من مصلحة الدولة استمراره في إدارتها. هناك ضابط من عائلته ينفرد بإراقة دمه ويُسمى هذا الضابط (سيد القوم) أي سيد حاشية الملك أو سيد خدمه، بيد أنه لا يملك صوتاً في عملية خلع الملك أو إدانته، هناك أعداد من الملوك الذين قُتلوا بنفس الطريقة.

لا يبدو - حتى بداية القرن السادس عشر - إن الزنوج قد تمكَّنوا من فرض أية سيطرة على جزيرة مروى مقارنة ببقية المجموعات الثلاث التي أوردناها والتي تتقدَّمها - على الأرجح - مجموعة النوبة.

يُطلق اسم العنج على كل من سكان سوبا القدماء وجزيرة مروى وجبال كردفان الشمالية وذلك حتى يومنا هذا. كما يستخدم الأهالي هذه التسمية في مخطوطات الأنساب المحلية - كما سنرى فيما بعد - مرادفة لاسم «نوبة»، رغم إن هذه التسمية - من الناحية العرقية - قاصرة على التعريف بفرع معيَّن من النوبة الذين أصبحوا شبه مستقلين.

العنصر النوبي كان أكثر العناصر العرقية فعالية في جزيرة مروى منذ عهد الأُسرات المصرية حتى وصول المسلمين، رغم إن على المرء أن يضع في الاعتبار ما لحق بهم من تهجين لتزاوُجهم مع البجة والأحباش فضلاً عن الاختلاط الطفيف بالزنوج النيليين في الجنوب.

---

(١) أنظر المخطوطة (د - ٥ - أ).

الفصل الرابع

الأجناس غير العربية في دارفور

الدراسة المتعلِّقة بالقبائل التي استوطنت دارفور قبل العرب تُعتبر أمراً صعباً للغاية - من جهة - ويُعزى الأمر لانعدام البحوث العلمية الحديثة، أما من زاوية أخرى فإن ما يعطي الأمر سهولة هو إن تداخل العرب مع هذه العناصر الأصلية كان طفيفاً لدرجة إنه يمكن التعرُّف على غير العربي بسهولة ويسر. زار العديد من الرحَّالة المغامرين تلك المنطقة وعادوا بالكثير من المعلومات القيِّمة، بيد أن علم الأنثربولوجي لم يشهد - وقتها - تلك الطفرات الجبارة، كما هو الآن، ولذا فإن معلوماتهم لم تكن مستندة دائماً على أسس علمية كتلك التي توفَّرت لمصر والنوبة السفلى. أبحاث بارث ناختقال والملاحظات الدقيقة للتونسي هي التي ألقت بشيء من الضوء على هؤلاء السكان الأصليين في دارفور قبل دخول العرب.

البديات:

يقع الجزء الشمالي لدارفور ضمن ذلك الفضاء الفسيح شبه الصحراوي المكِّون للجزء الشمالي لأفريقيا والذي تُرك - بالطبيعة - لهؤلاء الذين يحيون حياة الرعي، المنتشرين في شكل مجموعات صغيرة جنوباً حتى كبكابية وكتم. لكنهم يتحوَّلون نحو أقصى الشمال في إقليم أنيدي الذي يقع خارج حدود دارفور. ونعني بهؤلاء القوم قبيلة البديات وهم أهماج خالصو البداوة وعلى علاقة بالزغاوة، وموقعهم الجغرافي بين القرعان (إلى الشمال) والزغاوة (إلى الجنوب) يلقي الضوء أيضاً - وبوجه

تقريبي - على وصفهم السلالي. يطلق عليهم بارث «التيراوي» ويقول إن العرب يسمونهم «اووا»، بينما يسميهم عرب كردفان ودارفور «بديات»، ويبدو إن «الاووا» هي التسمية التي يطلقها عليهم القرعان وإن اسم تيراوي أو تيروة اسم يطلقه عليهم عرب دار برقو فقط.

يقسِّم «لفتنات فيرناندي» البديات إلى (أ) المجموعة الشمالية و(ب) المجموعة الجنوبية التي تُسمى «بليا»، ويقول بأنهم كانوا على المسيحية بحسب ما يزعمون، أما في أيام «بارث»، فقد كان أغلبهم على الوثنية إلا أنهم الآن يعتنقون الإسلام[1]. تكتسح جماعات من هؤلاء البديات - على فترات - تلك الصحراء التي تفصلهم عن العرب وينهبون الجمال والنساء والأطفال، بل ويتجاسرون على فعل ذلك حتى على تلك الأقاليم التي على النيل ودنقلا، وتطال أيديهم الكل، بيد أن ما تجدر ملاحظته هو أن لهم قدرة على الصمود وحاسة شديدة جداً في التدبير لدرجة إنه تصعب مباغتتهم.

عرفهم سلاطين إبان خدمته للحكومة التركية في دارفور قبل المهدية. وبعد أن وصفهم بأنهم وثنيون في كل شيء عدا أسماءهم أضاف الآتي (تحت ظلال شجرة أهليج[2] وارفة، جرى تنظيفها بعناية وفُرشت بالرمل، طفق البديات يتضرَّعون لإله مجهول طلباً للهداية والحفظ من الخطر. فضلاً عن هذا فإن لهم أعيادهم الدينية في تواريخ غير معلومة، وفيها يصعدون على قمم الجبال التي يطلونها باللون الأبيض ويقدمون قرابينهم من الذبائح).

يتميَّز البديات بدقة الملامح فضلاً عن قوة البنية، شُجعان، ذوو ألوان غامقة للغاية بملامح معتدلة وأنف مستقيم وفم صغير ويشبهون العرب أكثر من الزنوج وتشتهر نساؤهم بالشعر الطويل المسُدل، وينتشر وسطهم الكثير من الحُسن والجمال كما يشاهد المرء وسط الحرائر من نساء العرب. أما عن ملبسهم فيكتسون

---

(١) يقول عنهم التونسي بأنهم ليسو من أصل عربي رغم عاداتهم ونمط حياتهم ولا تتجانس لغتهم مع العرب ويصنفهم كبدو من الزنوج.

(٢) بالنسبة للشعائر المرتبطة بالأشجار والحجارة في دارفور أنظر ما سيرد عن الداجو والفور.

بفراء يأتزرونه حول أوساطهم وخصائرهم، عدا علية القوم والنساء الذين يكتسون بالجلابيب المصنوعة من أقمشة دارفور القطنية البيضاء. أما عن غذائهم فهو بسيط، فالمعروف إن القمح لا ينمو في بلادهم أو على الأصح غير معروف، لهذا يجمعون بذور القرع البري الذي ينمو بكثرة وينقعونه في أوعية خشبية تُوخذ من لحاء الأشجار، وبعد نزع القشرة الخارجية يتركون البذور حتى تفقد مرارها ثم يخلطونها بالتمر ويطحنون هذا الخليط ويصنعون منه دقيقاً يُطبخ مع اللحم ويمثِّل هذا الطبق غذاؤهم الرئيس.

للبديات عادات غريبة في الإرث والاستخلاف. تقع المقابر عادة على بعد مسافة من المساكن. فعندما يموت الأب يتولى الأقارب عملية الدفن وبانتهاء المراسم تُعطى إشارة معينة يبدأ بعدها الجميع في العدو، كل بما أوتي من قوة نحو منزل الميت، أول من يصل ويغرز رمحه أو سهمه في الدار، يُعد الوريث الشرعي للميت ولا يقتصر الإرث على الأبقار بل حتى الزوجات وغيرهن باستثناء الأم. وللوارث مُطلق الحرية في أن يتزوَّج بمن يرغب وأن يخلي سبيل من لا يرغبها. مسكن الزوجية وكيفية إدارته يتوَّقف على مدى يسار أو فقر رب الأسرة.

وكما سبق وذكرنا فما زال أغلب أفراد هذه القبيلة موغلين في العادات الوثنية وقد أضحكني كثيراً المدعو صالح دُنقس الذي حَسُن إسلامه، حيث أنكر وجود مثل هذه العادات في قبيلته، فباغته بسؤال عن شجرة الأهليج الوارفة التي مررت بها في اليوم السابق عندما كنت أعبر الخور على صهوة جوادي، وسألته لماذا طُرح تحت ظلالها الرمل الناعم؟ بهت للسؤال ووجم للحظة ثم أجاب بأن هذه الشجرة هي الموقع المعتاد للتجمُّع ومناقشة شئون القبيلة، فقلت له إن عرب المهرية كانوا ينوون الرعي بجوارها ولكنني عندما علمت بأن الشجرة مخصصة لغرض معيَّن منعتهم. شكرني بحرارة، ورغم إنه مسلم متعصب آثر أن يحترم العادات والتقاليد القديمة لآبائه. علمت - فيما بعد - بأنه هو الذي يتولى الشجرة المقدَّسة بالرعاية. من بين فروع البديات في دارفور - البريرة والجالجيركي والكوتيرا والسار والأورديه.

القرعان:

يتمَّركز أغلب القرعان شمال البديات ثم خارج دارفور أيضاً، غير إن القليلين منهم يعيشون في شتات بين البديات والزغاوة. واحتمالات تصنيفهم ضمن القرمنت القدماء والمنتمين لهم من الأجناس الأخرى أمر تم تناوله في فصل سابق. ومع ذلك يمكن الإضافة بأن من قابلتهم في دارفور يصنِّفون أنفسهم ضمن الدازا، ويقولون بأن تلك المسمَّيات لا تعدو أن تكون مجرد مترادفات، أي إنهم فرع من التيدا أو (أنكازا). ويعترفون فقط بعلائق بعيدة بالبديات مع ارتباط أقل بالزغاوة مع جهلهم للغات تلك القبائل، ويذكرون بأنهم يتحدَّثون لغة مماثلة للتبو الذين على شمالهم إلا إن لغاتهم لا تتطابق تماماً[1] وينفون أية علاقة لهم بالطوارق «الكِينِّين». فروع القرعان الذين ذُكروا لي كالآتي:

بُلتا	دونزا
قيدا	كِليا
براسا	دوديرنيا
كوكردا	جقادا (في الغرب)
مُردنقا - أو - مُرديا	

الزغاوة:

تختلط قبائل الزغاوة مع البديات لكنهم يقطنون بصفة رئيسة إلى الجنوب منهم وذلك في شمال دارفور وتعود تلك القبيلة الكبيرة في أصلها لأخلاط من التبو

(١) يقول المؤلف من الغريب أنني عندما سألت بعض البديات والقرعان والزغاوة عن القبيلة المعنية التي يرتبط بها التبو أجابوا بأن المظنون هو قرابتهم - في عصور سالفة - للهدندوة في شرق السودان، والقاسم المشترك بينهم هو الحامية.

(الحامين) والزنوج[1] فضلاً عن انتماءات عرقية للبربر الليبيين، وهم معروفون لجغرافيي القرون الوسطى من العرب، بيد أن السواد الأعظم منهم - إبان تلك القرون - كانوا يقطنون غرب موطنهم الحالي وعلى نفس خط العرض. ولغتهم هي لغة «التبو» إلا أن أغلبهم يستطيعون التحدث بشيء من العربية.

لقد ورد ذكرهم لدى «هيرودتس» العرب - أي المسعودي - في عام ٩٤٣م، عندما كان يتحدَّث عن المتحدِّرين من كوش بن كنعان وسماهم «بالحبشة والأحباش» الذين هاجروا غرباً بعد الطوفان ثم انقسموا لفرعين رئيسين. فالنوبة والبجة والزنوج أصبحوا منفصلين عن الآخرين الذين اتجهوا غرباً نحو ديار الزغاوة والكانم والماركا والكوكو وغانا وغيرها من بلاد الدمادم السُود. ثم يتحدَّث أخيراً عن هؤلاء المهاجرين الغربيين أنفسهم موضحاً بأنهم يشملون الزغاوة والكوكو والكراكر والمديدة والميلانا والكوماتي والدوايلا والكرما. ومن عناهم - بالطبع - هي تلك الأجناس الأثيوبية التي عاشت في مراحل تاريخية مبكِّرة جداً ثم شقوا طريقهم غرباً نحو تلك البلدان التي تُحد بالنيجر - غرب بحيرة تشاد - والتي عُرفت لاحقاً بالزغاي وغانا الخ.

كتب الإدريسي[2] - العالم الجغرافي - في ١١٥٣م بعد أن قام بزيارات امتدت لغرب أفريقيا، عن صحراء (تيسر) وعن قبائل الزغاوة والفزان، وتناول هؤلاء القوم شبه الرُحَّل والمشكوك في أصولهم بأن قال (تُعتبر منطقتي «سقوة» و«شامة» أهم مناطق استقرار الزغاوة وتقيم بهما قبيلة من الرُحَل تُسمي «صدراية» ذات أصول بربرية ويشبه أفراد هذه القبيلة لحد ما الزغاوة. إذ إن لهم نفس العادات ويعتزون بأصلهم كما أنهم يتعاملون معهم في التجارة ويلجأون أليهم في احتياجاتهم الخاصة. وشامة بلدة كبيرة الحجم إلا أن عدد سكانها يقل كثيراً اليوم إذ أن معظمهم رُحِّلوا إلى «كوكو» وهي مدينة تبعد مسافة ستة عشر يوماً. ونسبة لأن المياه شديدة الملوحة

(١) ينكر ناختقال على - أسس غير كافية - انتمائهم لأصل التبو (أنظر الرحلة إلى ودَّاي ص ٧٣).

(٢) هو أبو عبد الله محمد الإدريسي، وُلد في المغرب عام ١١٠٠م هو أعظم جغرافي في الإسلام. برع في علم النبات والصيدلة. توفي عام ١١٦٦م.

فإنهم يتناولون كثيراً من الألبان ويأكلون اللحوم المقطعة في شكل شرائح طويلة المجففة بحرارة الشمس كما أنهم يتغذون أيضاً على الزواحف التي يصطادونها بكثرة ثم يطبخونها بعد قطع الرأس والذيل.

ويُعرف هؤلاء القوم في كل أرجاء السودان ولدى كل القبائل بشدة البأس والحنق، وبهذه السمة يسهل عليك التعرُّف على أي فرد منهم في الحال. ولو إنهم امتنعوا عن أكل الثعابين لانتفت عنهم تلك الصفات السيئة.

ومن عاداتهم فإنهم يتجولون عراة الأجساد لكنهم يغطون عوراتهم بقطع من جلد الجمال والأغنام تأخذ شكل أشرطة مدلاة تُضفي عليها بعض الزينات. يُوجد جبل في هذه المنطقة يُطلق عليه «لوقيه» وهو جبل وعر وشاهق الارتفاع. على الرغم من أنه يتكّون من أرض بيضاء رخوة إلا أن كائن من كان لم يستطع أن يقترب من كهوفه ومغاراته الموجودة في قمته دون أن يهلك. ومما يروى عنه وجود ثعابين ذات أحجام ضخمة تهاجم قافزة في وجه كل من يقترب. مما جعل كل سكان المنطقة يهابون ويتجنبون ذلك الجبل. وهم في الأصل زغاوة من بدنة تُدعى «ساكوات» مقيمون غير رُحَّل، يمتلكون قطعان كثيرة من الجمال ذات الأصول المعتبرة، ويصنعون ملابسهم وخيامهم محلياً من صوفها ويتغذون على لبنها وزبدتها ولحومها، أما الخضار فيندر عندهم حيث أنهم يزرعون الذرة وهي كما نعلم المحصول الوحيد الذي ينتجه الزغاوة. وأحياناً يجلبون القمح من «وارجلان» أو من غيرها من المناطق. قيل إن الزغاوة في - أواخر القرن الرابع عشر - أصبحوا تحت حكم البلالة.

يتحدَّث ابن خلدون (١٣٣٢-١٤٠٦م) عن الطوارق كفرع من البربر الصناهجة الذين يضمون تحت لوائهم عشائر من اللمتونة والزغاوة واللامته، وبأنهم ألفوا تلك الأصقاع التي تفصل مناطق البربر عن السود منذ زمن بعيد سابق للإسلام، ثم يذهب للاقتباس من ابن سعيد (١٢١٤-١٢٨٧م) لحد القول بأن هناك زغاوة يعيشون بعد النوبيين - أي في أقصى الشرق - وإنهم مسلمون ومنهم فرع يُسمى «تاجوا».

يقول المقريزي (١٤٠٠م) نقلاً عن ابن سعيد «كل الأمم بين الأحباش في الجنوب والنوبة في الشرق والبركة في الشمال والتكرور في الغرب يسمون زقهاي».

أشار «ليو أفريكانوس» (١٥٢٨م) - بجلاء - للزغاوة وأنسبائهم من القرعان في معرض حديثه عن خطورة الرحلة ما بين القاهرة وبرنو، ذاكراً بأن ذلك يعود للنهب الذي يمارسه لصوص معيَّنون يُسمون «زنجاني». كما ورد في نفس المقالة ما يلي: «يشن ملك النوبة حروباً مستمرة تارة ضد «القوارن» الذين يتحدَّرون من شعب يُدعى زنجاني، وهم قوم يسكنون الصحراء ويتحدثون لغة لا تعرفها أمة غيرهم، ثم ضد جنس آخر بعينه تارة أخرى[1].

كان الزغاوة كثيري العدد في زمن «ليو» في أماكن تواجدهم الوارد ذكرها، إلا إن إعراب البدو توسَّطوا بينهم والنوبة وبأعداد كبيرة، وتبقَّت لهم مستعمرة وحيدة الآن بين دارفور والنيل وهي كجمر في كردفان، ويبدو إن هذا الاستيطان قد تم في بواكير القرن الثامن عشر، ويتمركَز في جبال الزغاوة وفي الرويان والعطشان. وإنهم يسيرون الآن بخطى حثيثة نحو التعرُّب، وينطبق نفس القول - بدرجة أقل - على الزغاوة في دارفور الذين لا يدعون أنهم عرب ولم يتبنوا أنساباً عربية زائفة بعد، إلا إنهم يتحدثون العربية. وبسبب الإسلام تبنوا الكثير من العادات العربية. وعلى أية حال لا يزال الزغاوة متمسكين - حتى الآن - بإله المطر «هوقي»[2]. يتميز الزغاوة بالرشاقة وقوة البنية، نشطين لهم نفس ملامح التبو، حالكو السواد، مُغرمون بالإغارة ويدمنون سفك الدماء.

يطلق عليهم الفور اسم «مريدا» ويسميهم الميدوب «كيبادى» كما يسميهم التاما والأرنقا «كويوك» أما هم فيطلقون على أنفسهم اسم «بري» ولكن لدى الداجو

(١) يرى سير سي ولسون أنه بالرغم من أن الزنجاني قد يكونوا عرب الكبابيش الذين لم يتعرَّبوا وقتها، فإن أقلية الغجر في سوريا وآسيا لا زال يُطلق عليهم زنجين.

(٢) نفس هذه العبارة مُستخدمة في سهول همبوري في أعالي النيجر لصنَّاع المطر والمشعوذين (المؤلف).

وغيرهم يُسمون بالزغاوة فيما عدا البرقد الذين ينطقونها (زغو).

أورد التونسي الكثير من التفاصيل المتعلِّقة بالزغاوة وذلك في بدايات القرن التاسع عشر، وتتسم ديارهم الواقعة شمال شرق دارفور باتساعها الشديد، ويحكمهم سلطان يخضع لسلطنة دارفور، ويتبع له أثنا عشر ملكاً. تُعرف ديارهم باسم دارتكنياوي[١] وتشمل ديار برتي التي تقع شرقهم مباشرة. ورغم الجوار فهم مختلفون من حيث الخصائص، والأفضلية - من حيث المظهر والأخلاق - للبرتي. والزغاوة على عداء مستديم مع عرب المحاميد. ينقسم الزغاوة - في الوقت الحاضر - إلى عدة فروع كبيرة والرئيسة منها[٢] هي:

أرتيت

مِرة

أكابا

كيتنقا، يقطن هذا التجمع القبلي الكبير على مقربة من شمال كتم، ويعتقدون - كما يعتقد غيرهم - بانتمائهم للتنجر من ناحية الأصول، وإلى الزغاوة من ناحية الأم، وهم غير ميالين للاعتراض على اسم «زغاوة» ورغم إنهم لا ينفون هذا الانتماء بوجه قاطع، مع ذلك يتحدثون عن أنفسهم بحسبانهم قبيلة قائمة بذاتها، كما لا ينسبون أنفسهم للتنجر.

كوبي (ويشملون الكبقا): ويقطنون أقصى شمال غرب دارفور وشمال شرق ودَّاي، كما تُوجد مستوطَنة للكبقا مع غيرهم من كوبي بالقرب من كبكابية ويُعرفون بـ«ناس فِرتي» إلا أن موطنهم الأصلي يقع في الإقليم الجبلي الكائن بشمال غرب دار تاما. ينقسم الكوبي إلى أنقو وميرا ونورا وويرا وبابيلا وكيرايكو وبريارا وبورسو وسقيرلا وقودي، كما ينقسم الكبقا إلى بيجي وإيرلا وهوتيليا وديربولا وبرقابلا.

---

(١) تعني ذراع السلطان الأيسر بينما يقول الفور أنها تعني العجيزة.

(٢) يعتبر الزغاوة البديات كبطن منهم.

كاليبا

نيكيري

جلجيرت أو جنجلجيرا (تحت الكاليبا). أولاد دكين وأولاد دوره وأندر (تحت الأكابا). وحتى الجزء الأخير - من القرن الثامن عشر - كان الأكابا تحت نحاس أولاد دكين.

تخضع مختلف فروع الزغاوة الرئيسة - في الوقت الحاضر - لملك لا يخضع لأي سلطان أو أي حاكم زغاوي أعلى، ويمتد موطنهم الأصلي على كل المنطقة الواقعة أقصى شمال دارفور وجزء من شمال ودّاي. والمراكز الواقعة أقصى جنوبهم - في دارفور - مأهولة وبكثرة بقبائل الفور والتنجر.

الميدوب:

يقع جبل الميدوب على بعد أربعمائة ميل غرب الخرطوم وثلاثمائة وخمسون ميلاً غرب جنوب غربي الدبة على الركن الشمالي الشرقي لدارفور. سبق وتعرَّضنا لهذه القبيلة لكون لهم أصول نوبية ويتحدَّثون لهجة تماثل لغة البرابرة.

ديارهم عبارة عن سلسلة تتكَّون من خليط من الكتل الجبلية بركانية الأصل بمحيط يبلغ حوالي المائة أو المائتي ميل، تتخللها وديان صغيرة لا حصر لها. الأهالي شبه رُحَّل وينقلون معسكراتهم - أغلب فصول السنة - من مكان لآخر داخل جبالهم وعلى تخومها بحسب ما تقتضيه حاجتهم للمراعي. والذين يتخلَّفون منهم في موسم الأمطار بالقرى لممارسة الزراعة قليلين جداً، بينما تذهب الغالبية العظمى بقطعانها بعيداً على تلك المنطقة الشاسعة غير المأهولة والتي تقع شرق جبالهم وغرب وادي الملك حيث يفد الكبابيش بجمالهم وأغنامهم - في ذات الموسم - من الاتجاه المعاكس.

والميدوب رعاة أغنام وماعز ويمارسون القليل من الزراعة ويحصلون على أغلب حاجتهم من الغلة بالشراء من قبائل البرتي جنوبهم، وللميدوب مستوطَّنة صغيرة

لكنها قديمة شمالي تباقو (أي جبال البرتي).

الأكواخ التي تتكوّن منها قرى الميدوب لافته للنظر، وتبدو لي غريبة في تصميمها. ولا تتسم بمزية المسكن المستديم لأن بنيانها متداعٍ، ويهجرونها عند مقتضيات تغيير الموقع، أما من حيث الشكل فالكوخ مستدير ولا يختلف في مظهره عن خلية النحل. ومن حيث محتواه فهو يزيد قليلاً عن «التُكل»[1] العادي لدى القرويين في كردفان ودارفور. تُشيَّد جنبات الكوخ من الأعواد الطويلة التي تُغرز على الأرض بطريقة مُهملة بحيث تكاد رؤوس هذه الأعواد لا تلتقي في أعلاها كما ينبغي، مما يجعل الكوخ صغيراً جداً ويُملأ الفراغ في أعلى الكوخ بنسج من الفروع الصغيرة الأفقية من مشعبة إلى مشعبة على شاكلة عش الغراب يُدعم السقف بواحد أو أكثر من الجذوع الغليظة من أعواد السقف المتشعِّبة. والتي تُغرز جنباً إلى جنب تباعد بينهما أقدام قليلة من منتصف الكوخ. ثم تُنثر فروع أصغر على شعب هذه الأعواد الأكبر، وتُملأ الفِرج بالحشائش وأعواد الذرة بطريقة فجه. يُفتح الباب باتجاه الجنوب وعادة ما يكون منخفضاً ومؤطراً بشعبتين. الكوخ ليس واسعاً من الداخل - كالتُكل - وعند الدخول من الباب يسير المرء عبر ممر يمتد بحسب طول الجزء المُثبت في السقف، يتكوَّن هذا الممر من حاجز عالٍ منسوج من الأعشاب «شرقانية» على الجانبين، ويصل حتى السقف تقريباً. يستمر الحاجز أعلى أحد الجوانب في شكل زاوية معتدلة على طول الخط الموازي لخشبة السقف حتى الجدار، وعلى ذات النهج حتى يكِّون غرفة خاصة، وينتهي في الجانب الآخر بالقرب من منتصف الكوخ تقريباً، وهكذا يُترك ثلاثة أرباع الجزء الداخلي مفتوحاً. تقع كل القرى على السهول لكنها عادة ما تجاور الجبال.

الأهالي مسلمون لكن هناك عدة آثار لعادات ومعتقدات أقدم. فعلى سبيل المثال، لا زال النظام الأمي في الميراث والخلافة مستمراً. فعند وفاة الملك يخلفه ابن أخته. يحكم الميدوب اثنان من المكوك أحدهما شمال الجبال (أي

---

(١) كوخ صغير يُستخدم للطبخ.

قسم أورتي) والآخر في الجنوب (قسم شيلكوتا)، ولا يختلف القسمان في الطباع والممارسات.

أما في الميراث فقد جرت العادة - في سبيل التوفيق ما بين الشريعة الإسلامية والمعتقدات القديمة - بأن يهب الرجل كل ثروته لابنه حال حياته، وهكذا يُحرم ابن الأخت. يحمل وجهاء القبيلة السيف ويكتفي العامة بالرماح والعصي المروسة، ورغم شيوع حمل عصي الرماية[1] في أرجاء دارفور إلا أن الميدوب لا يستخدمونها.

يُمارس الختان بالنسبة للصبية والفتيات. ورغم إن الزواج بابنة العم أمر عادي وسط البدو من العرب إلا إنه محرَّم لدى الميدوب، ومع ذلك تُجيز شرائعهم الزواج من ابنة الخال.

يقيم ميدوب الشمال والجنوب معاً عيداً سنوياً على درجة من الأهمية، ويبدأ - كما يُقال - في اليوم الثامن للشهر القمري عندما يصبح الحقل يانعاً بحيث تُقطع كمية قليلة من السنابل وذلك قبل اكتمال نضج المحصول. ثم يذهب الشبان والبنات - سكان الجنوب - إلى خور «أودنقار» ويعسكرون لخمسة عشر يوماً يمتعون أنفسهم بالرقص والفروسية وركوب الخيل. أما من هم أصغر سناً فيكتفون بالمشاهدة وتزويد الكبار بالطعام والشراب، وبعد شهر - أي اليوم الثامن من الشهر الذي يليه - يذهب الشبان (من الجبال الجنوبية) إلى خور «تات» ليمارسوا أنواعاً من الرياضة الرجالية مثل الجري وركوب الخيل... الخ، وتكتفي الفتيات والنساء بالمشاهدة، وفي المساء يقفز كل الشبان على الخور ثم يتوجَّهون بعد ذلك للمنازل.

بمجرد حلول التاريخ في الشهر المحدد - كما أُخبرت في ديار الميدوب فضلاً عن مشاهداتي أثناء مروري هناك - يدهن الشبان رؤوسهم خصيصاً لهذا الاحتفال. لكنني في عام(١٩١٨ م) بينما كنت مسافراً بصحبة بعض الميدوب لاحظت إن أحدهم - وهو

(١) وهي عصي معقوفة تُعرف محلياً بالسفروك.

شاب في سن التاسعة عشر تقريباً - مرسلاً شعره في شكل ضفائر غليظة مقسومة عند مفرق الرأس تقليداً لشبان البديرية، مع جمع الضفائر في مؤخرة الرأس، مما دفعني لإجراء المزيد من التحريات التي أسفرت عن مزيد من الحقائق، منها إن تلك الاحتفالات تُعرف باسم (بازا)، فإذا كان حصاد الموسم رديئاً (بُكالي عربياً، وأورونقول بلهجة الميدوب) فإنهم يحجمون عن إقامتها.

عملية جدل الشعر (ديروا أوتروي بالعربي[1]، وروفان بلغة الميدوب) تُعتبر من المظاهر الهامة في هذه المناسبات، إذ درج صبيان الميدوب على إرسال شعورهم، ثم بحلول الربيع يولونها المزيد من العناية بالجدل والدهن، وعندما يحين موعد احتفال النصف الثاني بالعيد يُمنح الصبية الإذن بدهن شعورهم (التي تم تقصيرها قبلاً) وذلك إذا ما حكم الآباء بأن الحصاد كان جيداً ويستحق الاحتفال به. يتزيَّن الشُبان بزينات النساء كالأسورة والخرز وخلافه ويحملون الطبل ويسيرون في شكل موكب ويزورون القرى المجاورة على إيقاع الطبل داعين البقية للمشاركة.

في سنوات الرغد يحتفل بالبازا حوالي خمسين أو مائة من الشبان. أما في سنوات الجدب فربما يتقلص العدد إلى اثني عشر شاباً أو ما قارب ذلك. ومن المسائل التي تدعو للتفاخر في الحياة الأخرى أن يكون المرء أحد صبية سنوات الرخاء. وقد تباهى أحد محدثي بأنه كان واحداً من ثلاثة وستين شاباً نالوا هذا الشرف، وذكر الآخر بأنه كان ضمن خمسة وأربعين. أما إذا كان الموكب كبيراً قُسم إلى موكبين منفصلين بدلاً عن موكب واحد.

وقبل أن يخرج الشبان في سلسلة الزيارات التي قد تمتد لما يزيد على الأسبوع أو الأسبوعين - بحسب عدد القرى التي يودون زيارتها وبعدها عن بعضها البعض - يتم اختيار أثنين من بين الأكبر سناً من أفراد القبيلة (بارقاسرقي) - أي شيوخ الصبيان - للاستعانة بهم كمستشارين وذلك لمقدرتهم في الحكم على الأمور، ويُبرر اختيار

(١) بالرغم من إن البديات يعتبرونها كلمة عربية الإ إن الأصل قد لا يتجاوز كونها تحريفاً لعبارة عربية

أثنين من المستشارين وليس واحداً لاعتقادهم بأن رأي الاثنين - في المسائل الدنيوية - أفضل من الرأي الواحد. ومن الأمور الشكلية هي أن يرفض هؤلاء المختارون التكليف في البداية، ولا يرضون الاضطلاع بهذه المهمة إلا بعد إلحاح والتزام من قبل الصبية بحسن التصُّرف وتجنُّب الشغب والشِجار وسوء السلوك. فإذا ما تلقوا المواثيق اللازمة يقبل الرجلان ويبدآن في إرشاد الصبية على أفضل الوسائل لإقامة تلك الشعائر. لا ينبغي لهذين المستشارين تولي هذه المهمة لأكثر من مرتين فقط.

بالإضافة إلى ما سبق، يقوم الصبية باختيار مرشحين منهم لقيادة الموكب، أو الموكبين - بحسب الحال - ويُشترط فيمن يقع عليهما الاختيار أن يكون أبويهما على قيد الحياة مع خلو أبدانهما من العاهات. وأثناء الطواف على القرى المجاورة ينصاع الصبيان لأوامر هذين القائدين.

وهكذا يخرج الموكب طائفاً بالقرى على إيقاع الطبول، مع جمع ما يُهدى لهم من غلال ونقود وخراف ومنسوجات... الخ، كما يجوز للبنات اللاتي لم يبلغن سن البلوغ أن يسرن خلف الموكب، لكن لا يجوز هذا لأي شخص آخر بحسب ما تقتضي العادات.

عند نهاية الاحتفالات تُسلم العطايا للمستشارين الذين يتولون - بدورهم - مهمة قسمتها بحيث يؤول الثلث للصبية مع احتفاظهما بالثلثين، أما قادة الموكب فلا تزيد حصتهما عن بقية أقرانهما.

يعود الصبية بعد ذلك لدورهم ويقوم الأب أو الأخ الأكبر - في حالة غياب الأب - بقص الضفائر ثم تُسلَّم لأم الصبي التي تعلقها - بصورة دائمة - في البيت.

حلق الشعر هو خاتمة الطقوس، وعلى أي ميدوبي ذكر ممارسة تلك الشعائر في مستهل صباه وذلك مرة في حياته دون تحديد عمر، ولا علاقة لهذه الشعائر ببلوغ الحلم أو الزواج.. الخ.

ينتظر الفرد منهم سنة الرخاء، ويمتنع على أبناء الأم الواحدة الاشتراك في احتفال واحد، لا ينسحب هذا المانع على أبناء الرجل الواحد متى ما كانا ينتميان لأمين مختلفتين.

وحتى تمام عملية حلق الشعر، ليس من المقبول أن يغادر الصبي الجبل، ومن لم يستوفِ قص شعره - كالذي قابلته - لا يقدم على ذلك إلا مضطراً ومع ذلك يبقى خَجِلاً من هذا المسلك.

قبيل موسم الأمطار يقيم ميدوب الجنوب طقوساً مختلفة تماماً على تلك الصخرة المقدَّسة في جبل (أدرو)، وهي صخرة جرانيتية غير مستوية الجوانب، يبلغ طولها حوالي القدمين ونصف القدم على جبل أدرو، الذي يسميه العرب (مقران). يشكِّل هذا الجبل سلسلة من التلال المبعثرة على ذلك الجزء الجنوبي من ديار الميدوب وتُسمى الصخرة المقدسة بلغة أهل الشمال «تيلي». أما أهل الجنوب فيسمونها «ديلي» وتعني بلغة الميدوب (الله). على تلك الصخرة كوخ من القصب يُصان. قبل الاحتفالات. بيد أنه يُترك دون صيانة بقية شهور السنة.

عندما رأيت هذه الصخرة في يوليو ١٩١٧م كانت لا تزال مدهونة بالسمن، وهناك أخرى أصغر بالقرب منها مدهونة بنفس الكيفية متوَّجة ببعض الحجارة وروث الأبقار. يُشار لتلك الصخرة بأنها «الابن أو الأخ الأصغر» للصخرة الكبرى. ويرجع سبب تقديسها لأن الكوخ المشيد على الصخرة الكبرى أصبح متداعياً، مما حمل الناس للاعتقاد بأن الصخرة الكبرى نالها العذاب لإهمال تلك الأصغر وبالتالي أصبح الأهالي - وفي السنوات الأخيرة - يعاملون الصخرتين بالمثل. أما الحجارة والروث التي على قمة الصخرة الصغيرة فهي من صنع الأطفال أثناء لعبهم.

تباشر الشعائر في (أدور) عجائز النساء من فرع (أوردارتي) واللاتي يتوارثن هذه المهمة من أم لابنتها. أما العطايا المكونَّة من اللبن والسمن والدقيق واللحم يتولى الكهنة تسليمها لهؤلاء النسوة اللاتي يضعنها على الصخرة، أما الباقون فيظلون على مبعدة يمضون الوقت في القفز والرقص والغناء.

يُقال إن هناك حجر مقدس آخر تُجرى له طقوس مماثلة على بعد مسيرة يوم من جبل «أبو نكته» ويطلق عليه اسم «تيلي» «وديلي» أيضاً.

سوف نرى - فيما بعد - بأن هناك مناطق أخرى في دارفور تجرى فيها طقوس

مماثلة بغرض إدرار المطر والوسيط دائماً هو المرأة العجوز. ينصب التضرُّع عادة على صخرة أو شجرة بعينها. أما الميدوب - كما تبيَّن لي حتى الآن - فلا يعتقدون في وجود الأفعى - المعتادة - أو أي شيطان آخر تحت الصخرة. الفروع الرئيسة الثلاثة التي ينقسم لها الميدوب هم الأورتي (الجبال الشمالية) والتورتي أو الدورتي والشلكوته (الجبال الجنوبية). بيد أن فروعاً معروفة جداً مثل الأورداتي والجنانة والذين يُعدون من ذوي الدماء العربية والتركيدي والأسوتي والكاجيري، يدَّعون جميعاً - عدا الجنانة - بأنهم محس من دنقلا، لكنهم لا يحتفظون بمخطوطات ولا حتى بروايات شفوية تشير للزمان الذي استوطنوا فيه تلك الديار ولا عن الظروف التي دفعتهم للهجرة. يطلق البديات على أنفسهم اسم «تيدي».

تتمركز جبانات الميدوب القديمة عند سفح الجبل وتتميَّز المقبرة بركام صخري. تنتشر مثل هذه الركامات بين ديار الميدوب ووادي الملك، وفي كاجا وكتول على وادي المقدم أيضاً وعلى جبال غرب أم درمان، ثم على تلك الجبال فيما بين النيل الأزرق وأبودليق.

البرتي:

يستوطِّن البرتي شرق دارفور، جنوب الميدوب، وهم خليط من الأعراق المختلفة ويُعرفون لدى الفور (بالكورومو)، ويطلق عليهم البرقد اسم «السلقو»، ويسميهم الميدوب «بايتي». أما هم فيسمون أنفسهم «سيقاتو». يدعي من ينتمون للطبقات العليا منهم انتسابا مبهماً الجعليين - على النيل - وبأن أصولهم من الهوارة مع الانتماء لمجموعة «دار حامد» بالتزاوُج. لكن من حيث المظهر فهم جميعاً زنوج. الموطن الأصلي للبرتي هو جبل «تباقو» بين الميدوب والفاشر ولكنهم حالياً - بسبب ضغوط سلطان الفور من جهة، وسنوات القحط من الجهة الأخرى - استوطنت أعداد كبيرة منهم جنوب شرقي جبل الحلة ومركز الطويشة، حيث كوَّنوا مستوطِّنات قليلة الأهمية، ثم في غرب كردفان كذلك، وهم يعيشون حياة الاستقرار. ووصفهم التونسي - بصدق - بالهدوء والاتزان والأخلاق الحسنة. بيد أن العرب يحتقرونهم على أساس الخنوع والجبن. تتمثَّل صناعتهم الوحيدة - بجانب الزراعة - في صُنع

الجرار التي تُستخدم لحفظ الماء والمريسة ومنهجهم في صنع تلك الفخاريات هو نفس المنهج المُتبَّع في شمال كردفان، وذلك بوضع كرة طينية على خرقه حصير، ثم تُجوَّف من الداخل. أما الفوهة والعنق فتصنعان على استقلال ثم تُركبا فيما بعد. الحدادون ممقوتون - كالعادة - على نطاق دارفور، بيد أن كلاً من الزغاوة والبرتي يأوون مستوطنات صغيرة للعبيد الحدادين الآتين من الغرب[1].

هناك صخرتان أو ثلاثة تقدسها القبيلة، فضلاً عن وجود أشجار في جبل «تباقو» أو بالقرب منه يُمارس عليها شيء من الشعائر مرة أو مرتين في السنة وذلك قبيل هطول الأمطار بقليل، ولا غرابة في أن تُمارس مثل هذه الوسائل في تلك البقاع حتى أثناء موسم الحصاد - أي قبيل جمع المحصول مباشرة - والهدف هو الحصول على إنتاج وفير من الغلال ومواشٍ شبِعة مُسمَّنة. وهم مثل الميدوب وسيطتهم هي إحدى عجائز النساء التي تتمتَّع بهذا الحق الذي ينتقل من الأم لابنتها. بيد أن الابنة لا تستطيع مباشرة تلك الشعائر حتى يكون لها أطفال، أو أن تتقدم بها السن. وتبدأ الطقوس بأن يتم تنظيف المكان حول الشجرة أو الصخرة بعناية وتُذبح القرابين من الخِراف، وُيقدم اللحم واللبن والسمن والدقيق ومن ثم تبدأ الطقوس. يُسمح لأسرة المرأة التي تباشر الشعائر بالجلوس على مقربة للمتابعة بينما يبقى الآخرون بمنأى عن الموقع. نفى أحد محدثي أن يكون هناك اعتقاد بوجود روح أو حيوان يعيش تحت الشجرة أو الصخرة المقدسة. بيد أن آخرين ذكروا لي - عكساً لذلك - بأن هناك عفاريت لكن لا فكرة لهم عن شكلها أو مصدرها. وُيقال إن العجائز من النساء يحادثونها وهن يضربن على تلك الصخور - لاسترضائها - إلا أن أفراد القبيلة الذين نالوا شيئاً من التحضُّر - بسبب اتصالهم بالعرب، يعتبرون الأمر برمته كضرب من ضروب الشعوذة، كما يبدو إن ممارسة تلك الشعائر أصبح وقفاً على المجموعات المتخلِّفة. ينقسم البرتي إلى فروع عديدة لا حصر لها، وإن أسماء السواد الأعظم لتلك الفروع يتطابق مع أسماء جبال

(١) إحداهما في الصباح - أي الشرق - وأخرى على تل صغير يسبغ اسمه على كل سلسلة تباقو، والأخير هو الأكثر أهمية في كل الموقع.

«تباقو» أو ما جاورها من جبال، لكن الشرتاي الذي زودني بتلك القائمة أصر على إن الجبال هي التي سُميت على أسماء تلك الفروع وليس العكس.

تحمل لهجة البرتي سمات لغة الزغاوة.

١- واماتو	٢١- كمرشوات	٤١- بوانتو
٢- كامدرتو	٢٢- أدبرتو	٤٢- اوداتو
٣- سنقاتو	٢٣- كمالكوا	٤٣- كارنتو
٤- دبيرتو	٢٤- مسبعات	٤٤- هوباتو
٥- بشنان تو	٢٥- كوديل	٤٥- مادنكرتو
٦- ودارتو	٢٦- أمباتو	٤٦- ويماتو
٧- أبدنتو	٢٧- كيراتو	٤٧- كورنتو
٨- دوكوتو	٢٨- أمزاتو	٤٨- سلباتو
٩- فوباتو	٢٩- هندلتو	٤٩- بورماتو
١٠- كواتو	٣٠- كركا	٥٠- مرارتو
١١- أمنكاتو	٣١- مينا	٥١- منقلتو
١٢- دارماتو	٣٢- باسنقا	٥٢- سوارانتو
١٣- توفيتو	٣٣- ورل	٥٣- وارتو
١٤- أمباتو	٣٤- كاملنقا	٥٤- ساندلتو
١٥- كوليات	٣٥- وزاتو	٥٥- سمبنقاتو
١٦- وارمرتو	٣٦- كشرتو	٥٦- وراتو
١٧- ماسنديات	٣٧- كبرانتو	٥٧- لبابيس
١٨- كايلنقا	٣٨- بوبرتو	٥٨- كناتو
١٩- أرمديات	٣٩- مسمارتو	٥٩- أم زرارتو
٢٠- ودكنيات	٤٠- ويمارتو	٦٠- شوكانتو

التنجر:

ورد ذكر التنجر لدى بارث حيث قال أنهم وفدوا أصلاً من دنقلا حيث انفصلوا عن البطالسة تلك القبلية المصرية المعروفة التي تقيم أصلاً في بينيس، وبطالسة هي صيغة الجمع لبطلوس (اللفظ العربي المقابل «لبطليموس»)، وتقول الأسطورة بأن

التنجر شعب قديم في نوبيا وإلى ما قبل دخول العرب. وباستقراء العادات المتبقّية فيهم يستنتج المرء بأنهم - عند هجرتهم غرباً - كانوا على المسيحية. يقول «كاربو» (تذكر روايات التنجر بأن لهم وجود قبلي على حوض بحر النيل أيضاً). ويلاحظ المرء - تعضيداً لهذا النظر - بأن ظل اسم التنجر حيّاً على بعد اثنين وسبعين ميلاً جنوب وادي حلفا. أما فيما يتعلق بوصولهم لدارفور فالراجح إنه جرى في القرن الخامس عشر أو السادس عشر[1]، حيث اتخذوا مواطن لهم في المراكز الشمالية والوسطى للإقليم. وورد على ألسنة الرحّالة بأن التنجر هم من أجلوا الداجو من دارفور، لكن من المؤكد إن هناك سوء فهم في هذه النقطة. تقول روايات الأهالي بأن الداجو حكموا أولاً ثم التنجر ثم الفور، لكن ما يعنونه هو إن كل من قبيلتي الداجو والتنجر كانتا يوماً ما مركزاً للقوة في البلاد. وليس بالضرورة أن تكون إحداهما قد أخضعت الأخرى أو إنها احتلت ذات الجزء من دارفور. فعلى سبيل المثال لم تكن للداجو أية سلطة أو سيطرة على شمال دارفور أو جبل مرة، كما لم يكن للتنجر أي ارتباط بأقصى مراكز دارفور الجنوبية أو جبل مرة، وإن المناطق الرئيسة للقبيلتين مختلفة دائماً عدا التقاؤهم وتداخلهم الحتمي بأواسط شرق دارفور على تخوم حاضرتها الفاشر. أنا أيضاً ميّال للرأي القائل بأن هناك سوء فهم اكتنف التنجر. تحدث ناختقال عن آخر ملوك التنجر - شودورشيد - وذكر بأن مقر إقامته كان في جبل سي. يُستنتج من تلك الواقعة أن التنجر - كلهم أو جزء منهم - سكنوا هذه الجبال، وكانت عاصمة ملكهم هناك، لكن الثابت إن (جبل سي) تسمية ذات مدلول واسع جداً، إذ لا تقتصر على تلك المنطقة الجبلية الوعرة فقط - أي الامتداد الشمالي لجبل مرة - بل تشمل كل تلك المنطقة الرميلة الخصبة ذات النتوءات الصخرية الأصغر التي تحيط بتلك السلسلة، والتي توازي مسيرة يوم أو نحوه شرقاً وغرباً. وحتى عهد السلطان علي دينار - ولوقتنا الحاضر - فإن رئيس شراتي مركز جبل سي لا يقيم في الجبل بل على

(١) ربما يكون قبل القرن السادس عشر إلا أن ليو لم يذكر التنجر في بداية القرن السادس عشر، ويعتقد ناختقال بأنهم دخلوا دارفور في القرن الخامس عشر.

تلك البقعة الرملية الخصبة الواقعة شرقه. لا تُوجد مخطوطات أو روايات شعبية تمكِّن المرء من التحقق عن جبل سي نفسه للاستدلال على استحواذهم أو سِبق أقامة عاصمتهم فيه. والواضح من تاريخهم إنهم لم يشغلوا أنفسهم ولم يكن لديهم الاستعداد لاقتحام تلك الأجراف الصخرية الوعرة أو الإقامة فيها. ثم لماذا يقدمون على ذلك مع وجود تلك المنطقة الخصبة في الشرق وربما في الغرب أيضاً والتي تلائمهم تماماً. يبدو إن التنجر - عند وصولهم لشمال دارفور - تخيَّروا (فرح) في دارفرننق شمال غرب كتم كعاصمة لهم، وتؤيد ذلك كل الروايات المحلية، ثم امتد نفوذهم للسهول الشرقية لجبل (سي) بحيث أرهبوا هؤلاء الأهماج من سكانه، وربما ألزموهم بشيء من الجزية مع عدم وجود دليل قطعي إلا على حقيقة التزاوّج الكثيف بين الفور والتنجر في هذه الأصقاع الأمر الذي لا يتطرَّق إليه الشك.

اسم «شودورشيد» مألوف في جبل سي - حتى وقتنا الحاضر - إلا إن الغموض حول التفاصيل لم يبرح مكانه، وهناك انقسام في الرأي حول من هو تنجراوي أو فوراوي أو انه أحد (الطُرّة) - أي شعوب ما قبل التاريخ - الذين تقول الروايات بأنهم سبقوا الفور إلى جبال سي وطُره (أي أقصى الجزء الشمالي لجبل مرة وجنوب جبال سي مباشرة)، ويرجع هذا التضارب - بداهة - لذلك الاختلاط الناتج عن التزاوًج فيما بين الفور والتنجر، إذ ما زالت هناك ظلال مماثلة من الشك تحيط بأعراق أهالي دار فرننق أنفسهم حتى وقتنا الحاضر.

لا يدَّعي التنجر قِدم المكوث في دارفور. بيد أنهم - في أقل من قرن - بدأوا يبسطون سلطانهم على ودَّاي حتى حدود باقرمة. ومما يبدو متسقاً هو إنهم بمجرد أن توجهوا غرباً ارتخت قبضتهم على أغلب الجزء الشرقي لمناطق نفوذهم وهكذا حلّ محلهم فرع «كيرا» من الفور الذين تزاوجوا معهم[1]. أما في الغرب فقد هُزموا

(١) يلاحظ إن والدة دالي وليس أبوه هي التي يدور الحديث عنها كأم لأول سلطان ينتمي لأسرة كيره، أما الأب فكان ينتمي للتنجر (كاربو المجلد الأول ص ٧٧) أما عبد الكريم (أي مؤسس سلطنة ودَّاي) فيقال أنه تزوج إبنة سلطان التنجر

في النصف الأول للقرن السابع عشر على يد عبد الكريم المؤسس لإمبراطورية ودَّاي الإسلامية، ومن هناك توجهوا نحو كانم حيث هزموا البلالة وأجبروا القبائل العربية على دفع الجزّية لهم. وفي هذا الوقت - إن لم يكن قبله - اعتنقوا الإسلام، ثم في زمن لاحق خضعوا لسلطة برنو إلا أنهم في منتصف القرن التاسع عشر استعادوا السيادة بمساعدة سلطان ودَّاي. ثم بعد مضي مدة قصيرة غزا منطقتهم أولاد سليمان واخضعوهم لسلطانهم ومنذ ذلك الوقت أصبحوا قليلي الأهمية.

الرواية التي أوردها سلاطين تشير إلى أن التنجر وفدوا من تونس - في الشمال - تحت قيادة أحمد المعقور[1] الذي ينتمي لبني هلال ويُعد جداً للفور الكيرا، بيد أن هذه الرواية حُبكت لتتسق مع خرافة أبي زيد أو بني هلال الشائعة في مصر والسودان، وبالتالي فإن روايات التنجر والفور يشوبها التشويش ويُعزى ذلك لمدَى التزاوُج الذي تم بينهم في شمالي دارفور بحيث يتردد المرء في قبول أي من مفردات تلك الرواية كحقيقة تاريخية موثوق بها.

وعلى أية حال يُعتبر التنجر ذوو قربي حميمة ببني هلال وبالرغم من إن هذا النظر قد لا يكون إلا صديً لرواية كيرا، وقد تصح الرواية، ومع ذلك يظل الاحتمال أيضاً بأنه في حوالي القرن الخامس عشر أو السادس عشر الميلادي أو حتى قبل ذلك، بأن غادر بعض «العرب» أو «النوبة - عرب» من ذوى قربي بني هلال إقليم الشلالات في النيل وتوجَّهوا غرباً نحو دارفور، ثم اختلطوا بالأجناس المحلية وأنتجوا ما يُعرف بالتنجر[2]، وهذا الرأي لا يعوزه التعضيد وفقاً للروايات الشعبية.

وهناك احتمال أيضاً بأن يكون للتنجر علاقة بقبائل البربر الذين طردهم بنو

(١) يقال إنه عربي هلالي عقر أخوه قدمه لفتنه من زوجة ذلك الأخ الأكبر التي كانت مفتونة به وعند ما صدها إفترت عليه فخرج من تونس غاضباً ودخل دارفور وإليه ينتمي سلاطين الفور.

(٢) يعتبر السير جاستون بأن جزء كبير من الهلاليين الغزاة شقوا طريقهم من أقليم الشلالات في النيل عبوراً لدارفور ووداي وبرنو وباقرمة الذين تمثلهم الآن مجموعات الشوا وهناك آخرون تصاهروا مع الحاميين والزنوج مما نتج عنه الفونج التي حكمت سنار.

هلال من الشمال الأفريقي، وربما عبر هؤلاء يكون الانتماء لبني هلال أنفسهم. ومما يمكن تخيُّله - أيضاً - إنهم ربما يمثِّلون متوازياً للهوارة الذين استقروا في الفاشر وبالقرب منها. وتعود أصول الهوارة للبربر في مصر العليا، ويمثلهم في دنقلا وفي كردفان بدو الهواوير، ويُعرف من اختلطوا منهم بالدم الزنجي بالجلاَّبة الهوارة.

كلمة «تنجر» تعني عند البرابرة أو النوبيين «القوس». وكانت بلاد النوبة تُعرف لدي الفراعنة بـ«تاسيتي» أي أرض القوس. يقول المسعودي بأن النوبيين هم الذين يستخدمون القوس العربي ويطلقون منه السهام كتلك التي تستخدم في الحجاز واليمن وفي سائر البلاد العربية. حتى يذهب للقول «بأن العرب يسمونهم رماة الحدق». وعن ارتباطهم بدنقلا وبني هلال فهم لا يزالون محافظين على عادة استخدام علامة الصليب كما ورد في الملحق الخامس، كذلك ظل اسمهم متداولاً في النيل لمدى طويل. فإذا وضعنا كل هذه الأمور في الاعتبار فعلى المرء أن يتقبَّل مثل تلك الأدلة كعلامة مضيئة للأصل النوبي لهؤلاء التنجر، وإذا صح هذا النظر فإنه ينطبق - بنفس القدر - على البرقد أيضاً والذين سنتعرَّض لهم فيما بعد

اعتاد الرحَّالة وصف هؤلاء التنجر بالعرب، وهم لا يزالون - على إثر أسلوب الجعليين في التزييف - يدعون الانتساب لبني العباس، وعلى أية حال فإن من الصعوبة بمكان التوفيق بين هذا الإدعاء والقرابة ببني هلال.

أما في دارفور وكردفان فالمألوف أن ترى الملمح الزنجي الخالص وكذلك النموذج العربي ذو اللون الغامق وسط التنجر. لكن في ودَّاي لاحظ ناختقال بأنهم ذوو بشرة مائلة للبياض ويتحدثون العربية، ويُعرفون هناك بأنهم عرب. تحدث مستر كاربو عن التنجر الذين في الغرب باعتبارهم عنصراً وسيطاً بين العرب والكانمبو والتبو مختلطين بقبائل أخرى عاشوا بينها. وقال عن مظهرهم «بأن سحنتهم مثل العرب إلا أن اللون الذي يُوصف بالأخضر هو الشائع بينهم - أي برونزي غامض - ويندر بينهم اللون الأسود». ويقول بأن زعيمهم يُعرف بالـ(فوقبو) وهي كلمة ذات أصل كانمي.

يستوطِّن أغلبية التنجر كانم، وهناك آخرون في برنو وودَّاي (في دار زيود وغيرها) ودارفور. يستبعد كاربو فكرة نزوحهم من الشرق ويعتقد بأنها محاطة بشيء من الشك لكنه يرى إن هناك أسس جيدة تدعم إدعائهم بقرباهم لبني هلال وبأنهم أتوا من تونس. لا يمارس التنجر عادة ختان الإناث كما يفعل العرب وشعوب ودَّاي.

ذكر التونسي التنجر - في دارفور - ضمن السلطنات الصغرى في البلاد باعتبارهم جيران للبرقد، وتقع مناطق استيطانهم ما بين جديد رأس الفيل وتبلدية وأضاف بأن التنجر معهم بعض دين وبعض عقل يمنعهم[1]، وخلافاً لما هو الحال بالنسبة لصغار السلاطين، يتميَّز حاكم التنجر بلبس العمامة السوداء حداداً على المجد الذي ولى كما ذكر للتونسي.

وكما سبق ورأينا فقد اتخذ التنجر - في بواكير حكمهم - من (فرح) بشمال شرقي كتم - بالقرب من جبل سي عاصمة لهم، بيد أنهم شقوا طريقهم جنوباً ومن حينها اتخذوا من جبل حريز - جنوب الفاشر - كإحدى عواصمهم.

لا تزال هناك العديد من المستوطنات المقدَّرة للتنجر حول كتم وحريز. وباستثناء هؤلاء الذين يغمض انتماؤهم (أي التنجر- فور) في فرننق، يتحدث البقية العربية فقط ولا يُعرفون لدى مختلف قبائل المنطقة الذين يتحدثون لهجات مختلفة بغير اسم التنجر. ينقسم التنجر لعدة أقسام أغلبها صغيرة ومجهولة، إلا أن من ترد أسماؤهم فيما بعد هم الأكثر أهمية. وسنورد هنا الأوسام الأكثر استخداما لحيواناتهم، بيد أن الكثيرين من مختلف الفروع الصغيرة يخالفون هذه الأوسام (أ) كيراتي (الأسرة الحاكمة في حريز، النموذج (أ) و(ب)

ويسمونه - بالخطأ - العنقريب.

---

(١) راجع تشحيذ الأذهان بشيرة بلاد العرب والسودان للتونسي تحقيق د. خليل محمود عساكر ود. مصطفي محمد سعد.

(ب) داولونقا الأسرة الحاكمة في كتم ويستخدمون الدنِقر (أي «طبل الحرب» الصغير) مصحوباً بعصي كما في الشكل

(ج) كيروا يستخدمون التوكودي (سكينة سكب القصب) (أ) أو قد يختلف للشكل (ب) أو (ج)

(د) كركواري، ويستخدمون العنقريب كما في (أ) أو الشكل (ب) لكنهم في هذه الحالة يسمونه «نقارة»

(هـ) نمينقا ويستخدمون الرمز

(و) امكواريك ويستخدمون وسم رجل الغراب .

(ز) سوكورتي، يستخدمون رجل الغراب بالوجه الذي سبق بيانه

(ح) وارنقا، ويُقال أنهم فرع من سوكوري والشكل يبين وسمهم والذي يُقال إنه يمثل مقبض السيف مع خط إضافي حتى رمزاً للغمد

(ط) أنجنجا، ويُقال إنهم فرع من الكيراتي ووسمهم - حول كتم - حسب الشكل .

الداجو:

من أقدم الأجناس في دارفور ويمثلون مع البرقد والبيقو - بأواسط دارفور - مجموعة زنجية متباينة الخواص بشرق وجنوب شرق جبل مرة، شمال ديار البقارة. أما أسس وإمكانية التعرُّف على الداجو وربطهم مع «التاجو» - فرع من الزغاوة - الذين أورد ذكرهم ابن سعيد كمستوطِنين على بعد خمسة وأربعين يوماً شرق (تاميكا) التي تقع على المنطقة الجبلية شمالي أقاديس، يترجَّح لديَّ بأنه قول غير سديد، ولا يؤيد هذه النظرية الداجو ولا الزغاوة أنفسهم سواء كان ذلك عن طريق رواياتهم أو بخصائصهم الوراثية المعروفة.

من الشمال حيث أُجلوا عن ذلك الجزء من أفريقيا الذي يقع الآن - اسمياً على

الأقل - ضمن أملاك تونس، بيد أن هذه الرواية نفسها لا تجد ما يعضّدها. يشير «بروان» أيضاً لتقليد يتبعه الداجو عند تتويج ملوكهم وذلك بإشعال نار يبقونها متقدة حتى وفاته، هذا العُرف موجود في يوغندا[١].

يذكر «التونسي» الداجو والمساليت والميما والكشامرة والقرعان باعتبارهم القبائل الخمس الأصلية في ودّاي، ويقول عن الداجو «هم في جهة الجنوب وبينهم وبين الكوكا مسافة قريبة، لأنهم يتاخمونهم في الأراضي وهم أناس غلب السواد على أجسامهم واستولت الوحشية على قلوبهم، فهم عند الودّاي بمنزلة البرتي عند الفور، إلا إن البرتي يسكنون شمال الفور والداجو في الجنوب»[٢]. وواضح إن التونسي لم يكن يتحدّث عن داجو دارفور بل داجو دارسلا - جنوبي ودّاي - أما عن هؤلاء الذين في دارفور فيقول بأنهم يستوطنون مجاورين للبيقو تحت سلطان منهم.

يقول «بارث» عن الداجو بأنهم استوطنوا دارفور في القرن العاشر الهجري وفي زمانه (١٨٤٩-٥٥) كان يُطلق عليهم «ناس فرعون»[٣]، وإنهم عنصر يختلف تماماً عن الزغاوة، ورغم احتمال وفودهم من جبال فازوغلي - جنوب سنار- وانطواء رواياتهم عن هذه النظرية على شيء من الوجاهة مع ذلك تُوحي جل عاداتهم بالارتباط بالبانتو.

---

(١) يقول براون إن هذه العادة قد تلاشت الآن، وربما كانت تستند على إن «نار» تعادل السيادة، هكذا يُقال إن قبيلة كذا وكذا في نار قبيلة أخرى، أي أنها تخضع لها، أو إن قبيلة كذا وكذا عُينت في نار قبيلة كذا، أي إنها مُنحت سلطان عليها. وعند ما سألت الداجو - والقول للمؤلف - عن حقيقة رواية بروان، أنكروا ذلك ولكنهم تحدثوا بإبهام عن عادة مشابهة يعتقدون أنها سادت وسط داجو دار سلا، وأستشهد أحد الرجال بواقعة إن السلطان نجيب أبو ريشة سلطان سلا. والذي أزاحه الفرنسيون في سنة ١٩١٦ ضبط عبيده - والراجح إنهم من الفراتيت - ست مرات وهم يوقدون مثل هذه النار ضد إرادته وأمر بإطفائها.

(٢) رحلة إلى ودّاي للتونسي تحقيق د. عبد الباقي كبير طبعة دار منكوب ص ١٠١.

(٣) يُطلق هذا الاسم - في مخطوطات ودّاي على التبو - أنظر «التاريخ الخامس وهي مخطوطة محلية في ودّاي» اشار لها كاربو ص ١١٦ المجلد الأول.

يقول «ناختقال» (١٨٧٢) الذي قابلهم في تخوم دارفور ووداًي، بأن الداجو الغربيين - أي داجو سلا - حالكو السواد أقوياء يتميَّزون بعدم الملاحة. أما عن ثقافتهم فهم مسلمون بالاسم ويؤمنون بالكثير من المعتقدات ذات الأصل الوثني. وإن لهم مزار للإله يزودونه بالمريسة، ويستفيد خُدَّام المعبد من هذه الهبات. ولديهم شجرة مقدَّسة كذلك يروونها بالمريسة، فضلاً عن حجر مقدَّس أيضاً. وعادة لا يردون الموت لأسباب طبيعية أو لمشيئة الله بل يسندونه لأعمال السحر والقوى الشريرة، ومتى اكتشفوا الفَعَلة بعون من الله أو بأي وسيلة من وسائل السحر، فإنهم يقضون عليهم دون رحمة ويصادرون أموالهم وتُرسل نساؤهم للاستعباد في ودَّاي. الشجرة المقدَّسة والحجر المقدَّس تُذكِّر المرء بالتفاصيل التي أوردها «بروس» عن العبيد من قبائل النوبة المجلوبين من جبال الداير وتقلي - في كردفان - الذين قابلهم في سنار، الذين كانوا يعبدون القمر والأشجار والحجارة. وقال عنهم «رغم إنني لم أتَّعرف على نوع هذه الشجرة أو الصخرة إلا أنها لا تُوجد في منطقة سنار بل يقتصر وجودها على مواطنهم الأصلية فقط ولكن كحقيقة - كما سبق ولاحظنا عند تناولنا لقبائل البرتي والميدوب - فإن هذه الطقوس واسعة الانتشار بدرجة تكاد أن تكون عامة في دارفور. وسنعطي اعتباراً لممارسة الفور لمثل هذه الشعائر - فيما بعد - والتي تعتمد لديهم - كما لدى الزغاوة - على فكرة استرضاء بعض الكائنات الشريرة التي تأخذ - بصفة عامة - شكل الثعبان الذي يُعتقد بأنه يعيش تحت الشجرة أو الصخرة المعنية. ومن نافلة القول إن انتشار الإسلام ساعد في تحوير تلك الخرافات عن صيغها القديمة وإعادة صياغتها في أُطر مقبولة - حتى ولو لم تكن متوائمة مع صحيح المعتقد - بما يلبي حاجة المؤمنين المحليين الذين لا يقصِّرون في تقديم صلواتهم للإله الواحد ولكن يتمركَّز جل تخوُّفهم - حقيقة - حول هذا الشيطان المختبئ المعروف منذ عهد الأسلاف. إن الوضع - من وجهة نظر المتعلمين في دارفور- ربما يبدو أكثر وضوحاً بطرح مضمون الحوار الذي جرى بيني والمقدوم شريف والذي يشغل منصب وزير السلطان في شمالي دارفور، الذي جرى كالآتي:

س: هل للزغاوة أماكن مقدسة في ديارهم؟ وإذا كان كذلك فمن أي نوع؟

ج: نعم إذا رغب المرء في شيء أو تعَّهد بأي أمر يتضمَّن مخاطرة فإنه يزور صخرة أو شجرة بعينها ويقدم لها القرابين من اللحم والدهن ثم يذكر مطلبه.

ج: هل تفي بالغرض صخرة بعينها أم أي صخرة؟

ج: لا، هناك ثلاثة أو أربعة صخور وأشجار بعينها في ديار الزغاوة.

س: ولمن يتوجَّه الطالب - بالتضرُّع؟

ج: لله طبعاً.

س: أليس للطالب شيطاناً معيَّناً في ذهنه؟

ج: نعم كان هناك مثل هذا الاعتقاد أما الآن فإنهم يتضرَّعون لله فقط.

س: هل اقتبس الزغاوة نظام الأماكن المقدَّسة من الفور؟

ج: لا بل هو أمر عام في دارفور، فالداجو والبرقد والفور والزغاوة والبديات كلهم يفعلون ذلك وهي ممارسة عامة باستثناء العرب.

س: هل هناك أي وسيط؟

ج: نعم وعادة ما يكون إمراة وتنال هذا المركز عن طريق الإرث من الأم للابنة بصرف النظر عن عمرها ويطلق عليها الزغاوة اسم (بادا).

س: هل هناك موسم بعينه أفضل من غيره؟

ج: لا ولكن في مثل هذا الوقت أي في يونيو - شهر الأمطار - فإن أغلب الأهالي يصلُّون ويمارسون التضرُّع. أما داجو سلا فيقيمون احتفالا منتظماً يحضره السلطان وحاشيته مع جمع الفرسان، ثم يضعون الدهن في حضرة الكل على صخرة معيَّنة ثم ينتظرون، فإذا خرجت نملة يُعد فأل حسن يسعد به الجميع، أما إذا لم تخرج فيعتبرونه فألاً سيئاً. وفي تقديري إن هذه الطقوس تقتصر على دار سلا. أما في دارفور فيقتصر الأمر على الصلوات وتقديم القرابين في أماكن بعينها والغرض من الصلوات هو تحقيق النجاح.

يعيش الداجو - في دارفور - على الزراعة وتربية الماشية على تلك البقاع الخصبة حول نيالا والتكلة غرب دارا، ويحكمهم سلطان وراثي يخضع لسلطان دارفور، ويُعد أحد أذرعه اليُمني (السامبي)، وهم نوع من الرؤساء القبليين المباشرين للشيوخ أو الدمالج الذين يصرِّفون أغلب الأعباء، وتخضع كل بطون القبيلة لأوامر (السامبي) عدا خاصة السلطان وأثنين أو ثلاثة آخرين من ذوي الصلة الوثيقة به. ومنصب السامبي ليس وراثياً بل يُملأ بالانتخاب بحيث يختاره الأهالي بالتراضي من بين أفراد القبيلة بما يشبه الإجماع. ومن الناحية النظرية يُمكن للسلطان أن يعزله ولكنه - من الناحية العملية - مُحصَّن ما دام يحصل على ثقة الأهالي.

بالإضافة للمواطن الرئيسة للداجو في دارفور ومستوطَناتهم في دار سلا، هناك مجموعات أصغر في دار المسيرية في كردفان، وعلى الحواف الشمالية الغربية لديار النوبة المعروفة باسم جبال الداجو، إضافة لعدة مجموعات صغيرة تعيش في مستوطَنات مشتتة أقصى الشرق جوار الأبيض[١] ويُقال بأن هناك مستوطَنات أخرى شرق تقلي[٢].

يطلق داجو دارفور على أنفسهم اسم «فننجا» ويسميهم الفور «مِرنقا» والبرقد «نشقي» كما يسميهم المساليت «برجي».

بالنظر لنظرية «بارث» التي تعرَّضنا لها من قبل، والتي تشير لإمكانية وفود الداجو من جنوب سنار، وفقاً لرواياتهم، أليس هناك علاقة بين اسم فننجا - مفردها فنجي - والفونج؟ وما تجدر الإشارة له هو أن فترة سيادة الداجو على دارفور تتزامن مع تأسيس الفونج لسلطنتهم في العام ١٥٠٤ الميلادي، حيث امتد سلطانهم ليشمل المناطق المجاورة.

يدعي الداجو التحدُّر من «البدوين» في الحجاز، ويقولون بأن جدّهم الذي هجَّرهم من الجزيرة العربية هو (قدير)[٣] الذي سُمي عليه «جبل قدير» المشهور

---

(١) يعتبرون في كردفان من حيث الأصل كهمج ونوبة - أنظر كاربو المجلد الأول ص ٣٧١.

(٢) يقول المؤلف: أنا لم أقابل هؤلاء بل سمعت عنهم في دارفور.

(٣) إختيار المهدي في ١٨٨١ جبل قدير كبداية لحركته وسماه جبل «ماسة» لأن في إعتقاد المسلمين بأن

بجبال النوبة الذي يقع غرب المراقي العليا للنيل الأبيض جنوب خط العرض الحادي عشر شرق تلودي. ومن جبل قدير - بحسب روايتهم - توجَّهت القبيلة غرباً مخلِّفين مستوطَنات صغيرة سبق واتخذوها مواطن لهم في كردفان حتى دارفور.

وخلفاء قدير - على التوالي - هم ماي وزلف وكامتنيني[1] وعمر وعبد الله بحور وأحمد الداج. أما الثلاثة الأوائل فلا تُوجد أية مخطوطات بشأنهم، بيد أن «عمر» هو الذي أخلى قبائل «الفورقي» من ديار الداجو الحالية التي كانت وطناً لهم، ودفعهم نحو الجنوب الغربي إلى موطنهم الحالي في ديار «الفراتيت»[2].

ومما يُروى عن أحمد الداج - رغم عدم علاقته بالأمر[3] - قيل إن غرورة دفعه للتخلي عن امتطاء الخيل أو أي دابة أخرى، واختار ركوب التيتل الذي فر به بعيداً إلى دار سلا حيث اختفى من دارفور. وهكذا يفسرون وجود مستعمرة للداجو هناك[4]. لقد بات من المستحيل الوصول للتاريخ الحقيقي لهذه الواقعة، بيد أن مستوطنة سلا قد انفصمت عن القبيلة الأم وذلك منذ عدة قرون حتى أصبحت لغة كل فرع مستعصية على الفرع الآخر[5]. من المسلّم به إن الداجو كانوا الجنس

المهدي الحقيقي سيظهر في جبل يسميى «ماسة».

(١) تنيني تعني بلغة الداجو البقرة سواء في دارفور أو سلا.

(٢) يلاحظ إن الفور يُعرفون في دار تاما باسم «فوروق» وخريطة ناختقال تبين دارفوروق -على سبيل المثال -في دار أبو دما شمال ديار التعايشة. يسميهم التونسى فوروقي.

(٣) يقول المؤلف أنه سمع هذه الرواية عن السلطان عمر ليل الذي قتل في وداي في ١٧٣٩. والصحيح إن لا هذا ولا ذاك والشائع إن الرواية تحكي عن السلطان كسفروك بجبل أم كردوس من أعمال نيالا ولاية جنوب دارفور.

(٤) يقال إن الداجو كانوا يتبعون التيتل الفا، وأينما وجدوا قطعة من أشلاء السلطان يبقي جزء منهم جوارها وهكذا انتشروا حتى دار سلا. يطلق داجو سلا على أنفسهم اسم «كوسا» بدلاً عن اسم فننجا السائد في دارفور.

(٥) تشمل القائمة الآتية بعض الكلمات العامة التي جمعت عشوائياً لتوضيح مدى الإختلاف مضافاً لها العبارات المشابهة في لغة البيقو أيضاً عربية: =

الحاكم في أواسط دارفور والمؤسسون الأوائل للسلطنة(١)، وقد أزاحهم التنجر حوالي القرن السادس عشر(٢)، وكان لوصول التنجر الأثر المباشر في انحسار الداجو لديارهم الحالية.

وينقسم الداجو في دارفور للفروع الآتية:

في الشرق:

=

الكلمة	داجو دارفور	داجو سلا	بيقو
واحد	نِواني	أنقون	وِاني
أثنين	فدا	بداك	فدا
ثلاثة	كودوس	كودوس	كودوس
أربعة	كاشفي	تشيك	أران
خمسة	مُدك	مُدك	ميديك
سته	أران	أران	تيشويت
سبعة	فاهتندي	فاشتندي	فاتندي
ثمانية	كوسوندا	كوهنداك	كوسوندا
تسعة	أسنق	بستنداك	تبشتيندا
عشرة	بوهي	أسن	أسن
رجل	وشتاندا	يوهي	فابانق
حشيش	نيارتي	نيركي	نيرتي
رأس	أسي	إيسي	إيسي
اسود	جل	جيرا	يوديا
أحمر	فِر	بيرا	كيلي

(١) يجمع المؤرخون بأن سلطتهم لم تكن مطلقة على كل دارفور بل تقتصر على منطقة الجبال.

(٢) يوجد في هذا فرع من يُسمون السامبلنق ويقال إنهم فرع من الشنابلة انضموا للداجو في تاريخ غير معروف.

تلند جقركي (العائلة المالكة حاملة النحاس)	سمبناتج
كورتنيج - وهم ذوو قربي الأوائل	بُهاركى
كالويك	دُفيقى
(ب)المناطق حول نيالا وجنوبيها	دامبوجى
تامبوجى	تاروينجى
كيلواركى	دورننجي
أداجونجى	

يستخدم الداجو وسمي «الكنديري» أو «اللوهني» والأول كالرمز (a) والآخر كالرمز (b).

البرقد:

يعيش البرقد شمال وشرق الداجو والبيقو بين جبل حريز وديار الرزيقات، وهم قبيلة كبيرة تفوق هاتين القبيلتين عدداً ولهم مستوطّنة صغيرة أيضاً على بُعد مسيرةِ يوم شمال شرق الفاشر في (تُرزا) بالقرب من سانية (كِلدنقي)، فضلاً عن مستوطّنات أخرى في ودَّاي. ويصفهم التونسي بأنهم أحط القبائل وأكثرها زراية. وقال عنهم«يألفون الخيانة والفضيحة وأكثر بضاعتهم السرقة والخيانة بل لا يعرفون المودة والأمانة، وهم أناس سود الأبدان، نحاف قصيرهم أكثر من طويلهم وعزيزهم في الطبع كحقيرهم فهم آفة بلاد الودَّاي ومنهم الحدادين والصيادين، وهم أقل الناس اعتبارا وأحقرهم عند الودَّاي مقداراً لأخلاقهم الخبيثة وطباعهم الخسيسة»[1].

وفي معرض حديثه عن البرقد في دارفور فإنه يصنِّفهم ضمن التنجر ورأيه عنهم

(١) رحلة إلى ودَّاي للتونسي المرجع السابق ص (١٠١).

بأنهم «خائنون، سُراق ليلاً ونهاراً لا يخافون الله ولا رسوله»[1]. كذلك ذكرهم بارث باسم «بركت» ضمن القبائل الزنجية على حدود ودّاي ودارفور.

أما ناختقال فقال[2] عنهم «تتكَّون هذه القبيلة من عبيد سلطان ودّاي وبقيت بمنأى عن الاختلاط. والبرقد قوم سود البشرة المائلة للرمادي وألوانهم أغمق من المبا، ذوي ملامح زنجية ويتحلّون بخصائص وعادات شعوب أواسط أفريقيا ولهم لهجتهم الخاصة». وفروعهم في دارفور هي:

مدارجاركي (الأسرة الحاكمة)[3]	تورنجي
تودقي (يقال أنهم هلاليون)	فليكي
سرنديكي	عريقات - أي عرب العريقات الذين يساكنون البرقد
تقونقي	عرب العريقان الذين
كامونقا	يعيشون مع البرقد
ميروقي	تنقولكي
كلدوكي	كجورتجي
أزمانديكي	مررولكي
	ساسولكي

هناك فروع أقل أهمية. والأقسام المكوِّنة لتلك الفروع في نظر غيرهم من

(١) تشحيذ الأذهان المرجع السابق ص (١٤٩).

(٢) هم الآن يتحدثون العربية بجانب لهجتهم التي تختلف عن لهجة الداجو.

(٣) سمي وسم هذا الفرع عليهم، مقارناً بوسم عائلة الفور المالكة والتنجر الذي يظهر فيه النحاس والعصي. يُلاحظ بأن سرار بكر (رعاة ماشية) بجبل الحرازة شمال كردفان يستعملون أيضاً وسماً يسمى بيت النقارة. النماذج(أ) و(ب) على التوالي.

القبائل بأنهم مجرد أجانب تشربًوا بخصائص البرقد.

وفي العهد المزدهر لدارفور كانت بلاد البرقد إقطاعية لذوي المقام الرفيع من الفور المعروفين باسم (أُرندلو) الذين يعينون - بدورهم - أربعة من الملوك كمتحصِّلين للضرائب.

يختلف البرقد عن البيقو والداجو والزغاوة والبرقو والميما والتنجر إذ يبدو بألا سلطان منهم على رأس القبيلة الآن بخلاف عمدة أو شرتاي. وهكذا يجوز الافتراض بألا نحاس لهم، وبالتالي ليس لهم ملك أو وزير يوازي (الدنقر) لدى المساليت أو «سامبي الداجو»، ولكن لهم عدد من الدمالج تحت إمرة الشرتاي.

عُرفت منطقتهم باسم كجَّار - المصطلح الذي يُقال بأنه يشمل أراضي الداجو والبيقو أيضاً - ولا زال البرقد يُعرفون لدى الفور باسم «الكجَّارة» ويسميهم الداجو «كاجورجي»[1] والبيقو «كاجرك»، أما هم فيسمون أنفسهم «مورجي».

هناك القليلون منهم بكردفان جنوبي الأبيض. والرواية المتداولة - في شمال كردفان- بأنهم كانوا حكاماً على جبال كاجا وكتول في حوالي القرن الثامن عشر وقد أجلاهم البديرية عن تلك الجبال.

يميل جيرانهم - بالقرب من الأبيض - لتصنيفهم ضمن «التُمام» و«الضُباب» الذين ينتمون للقبائل الزنجية التي تدَّعي الارتباط بـ«النوبي-جعليين» مثل الهمج أو أولئك المتحدِّرين من النوبة.

وبإحصائي للقليل من مفردات لغة البرقد بدارفور في ١٩١٧ وقفت على حقيقتين على شيء من الإثارة، أولاهما هي إدعاء «برقد ترزا» بأن سكان جبل الميدوب هم أقرب الأقربين لهم - في دارفور - والحقيقة الأخرى هي إن لهجة البرقد - في جنوب

(١) يرجح أن يكون اسمهم هو السائد على ذلك الوادي الكبير «كجَّار» (في الخرط كجا وكايا) الذي يجري فيما بين دار مساليت ووداي.

دارفور[1] - تحمل سمات التشابه مع لهجة النوبيين والكنوز التي جمع بعض مفرداتها «بركهات». تسفر هاتين الحقيقتين - رغم استقلالية مصدر كل منهما عن الأخرى - عن أصل البرقد. ومما يجدر ذكره، هو إن الميدوب يدَّعون بأن ديارهم هي في أصلها مستوطَنة قديمة للمحس والدناقلة من النوبيين وإن لغتهم تماثل لغة البرابرة. وهكذا يبدو إن البرقد قد شقوا طريقهم إلى دارفور من بلاد نوبة الشمال أيضاً.

إذا وضعنا في الاعتبار علاقتهم بالميدوب، ثم التشابه في مسميات (كجار وكاجورجي وكجريك الخ، باعتبارها أسماء للبرقد)، وكاجا[2] وكاجيدي كأسماء لأفرع الميدوب، ثم امتهان الحدادة في الحرازة - بين كاجا ودنقلا - بما يتوافق مع حقيقة إن برقد ودَّاي من الحدادين[3]، فضلاً عن الرواية التقليدية لدى الكاجا والقائلة بأن البرقد سبق وحكموا هناك إضافة لجبال كتول، كل هذه الشواهد تثبت إن هجرتهم كانت عن طريق شمال كردفان.

تُوجد كذلك مؤشرات لفترة قدومهم حيث رأينا إن «التونسي» يجمع دائماً ما بين البرقد والتنجر[4]، وبأن هناك فرعين من البرقد يتسمَّون باسم بني هلال. الترابط التقليدي بين التنجر وبني هلال وثيق للغاية لكن يصعب الإلمام بتفاصيله. والثابت إن البرقد غارقين حتماً في هذه اللجة العرقية الشائكة، وحيث لا يُوجد ما يدل على إن التنجر سبق وتداولوا أي لهجة بخلاف اللغة العربية، وبما إن البرقد لا يزالون يتحدثون لساناً أعجمياً بجانب العربية، ولا يتميَّزون اجتماعيا عن الداجو الذين

---

(١) يتحدث برقد ترزا العربية فقط. ويقولون أن اجدادهم كانوا أعاجم كما هو حال البرقد في الجنوب الآن. والأخيرون قبيلة كبيرة وليسوا أقلية تعيش وسط العرب كما في تُرزا.

(٢) يُطلق اسم كاجا على سلسلة جبلية تشكل جزءاً من منظومة كتول، كاجا، وكاجا سروج في شمال كردفان ومنها أشتق اسم كاجاوي إشارة لمواطن هذه المنطقة.

(٣) لم تعد صناعة صهر الحديد موجودة في الحرازة حالياً، بل كان ذلك قبل جيل مضي، ويقول المؤلف بأنه لم يلق اعتباراً لهذه الجزئية بسبب إن صناعة الحديد شائعة في كردفان وربما يرجع الأمر لأجناس أخرى خلاف البرقد.

(٤) يقول المؤلف ان من الغريب أن تُلحق المخطوطة د (١) الداجو بشعوب كاجا وكتول

سبقوا التنجر إلى دارفور، وبما إنهم قد نسوا كل شيء عن ارتباطهم بالنوبيين وأصبحوا من سكان جنوب أواسط دارفور منذ تاريخ غير معروف، ولما كان معلوم إن التنجر من القبائل المهاجرة وليست الأصلية، يجوز أن يكون البرقد قد سبقوهم إلى دارفور. وفد التنجر لدارفور في القرن الخامس عشر أو السادس عشر، أما البرقد ربما تكون هجرتهم من نوبيا عقب انهيار المسيحية مباشرة - أي في القرن الرابع عشر - أو ربما قبل ذلك، فضلاً عن إن هناك فرع منهم يُسمَّون بالهلاليين يرجح أن يكونوا من التنجر الذين تصاهروا معهم في دارفور، أو ربما يمثلون عناصر من بني هلال انضموا للبرقد بنفس الكيفية التي انضم بها الآخرون للتنجر.

يُوجد من الدلائل ما يجعلني أعتقد بأن إطلاق اسم «كجَّار» على البرقد يعود للقرن السابع عندما كانوا في نوبيا. بعد وصف ابن سليم للسودان مباشرة، أورد المقريزي ما يلي: «لاحظت في خطاب من بعض القبائل معنون لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب أُشير فيه إلى إن البجة (خاجة)[1] قبائل شريرة ولكنهم قليلو النهب والسلب وكذلك البجة. ولا يُعرف كثيراً عن الخاجة إلا ما كتبه عنهم عبد الله بن أحمد المؤرخ النوبي».

وابن سليم الأسواني هو عبد الله بن أحمد الذي كتب فيما بين ٩٧٥ - ٩٩٦م ولكن ما قاله عن (كجَّارة) أمر غير معلوم لدينا لأن ما استشهد به المقريزي في كتاباته لا يحوي عنهم شيئا.

البيقو:

البيقو جيران للداجو والبرقد، وقال سلاطين إنهم ينتمون لأُسرة «منليك» الذين هاجروا من بحر الغزال منذ القدم وحازوا على أراضٍ في دارفور تحت شروط تقضي بأن يقدموا لحريم السلطان فتاةٍ عذراء سنوياً، ولما كانت أم السلطان محمد الفضل (١٨٠٠ - ١٨٣٨م) منهم، فقد أُعلن عتقهم نهائياً وحُرِّم بيعهم وشراؤهم، وشرَّع

(١) الإشارة لكجار ويبدو إنها تحرَّفت لنقلها من الفرنسية.

السلطان عقوبة الإعدام كجزاء لهذا الجُرم. أما الآن صار البيقو ينكرون - كالعادة - وصمة العبودية أو الانتماء للأصل الزنجي، بل يشعرون بالفخر لمصاهرتهم أُسرة الفور المالكة. البيقو كقبيلة لا يدَّعون الانتساب للعرب ولكن كما جرت العادة في دارفور تدعي الأسرة الحاكمة فيهم - أي حاملة النحاس من فرع التركت حجر من الصبحانيين - التحدُّر من أصول جعلية، وإن منسوبتهم «أم بوسة» هي زوجة والد السلطان محمد الفضل[١].

لا يعلم البيقو عن ماضيهم إلا القليل، بيد أن الرواية المتداولة بينهم تفيد بقدوم أسلافهم من الشرق مروراً بجنوب كردفان وبلاد النوبة بالتزامن مع البقارة على أقل تقدير، وهذه الرواية مبهمة بحيث لا تنطوي على أية قيمة حقيقية. وقد عرَّف «بروان» البيقو بأنهم أقارب حميمين للداجو الذين هم الآن - أي في ١٧٩٩م - أتباع لتاج دارفور ولكنهم كانوا قبائل مستقلَّة إبان حُكم الداجو للبلاد[٢] في حقبة سابقة، ومع ذلك فإن لهجات البيقو والداجو - في نفس الوقت - متطابقة تقريباً، ومما أثار استغرابي هو إني عندما سألت سلطان البيقو الحالي عن شجرة نسبه، فصَّلها لي حتى أحمد الداج الذي سبق وتعرَّفنا عليه كسلطان للداجو. وبيَّن تسلسل أجداده كالآتي: محمد كبكبى بن أبكر ناقا بن عمر بن حسين بن أبًا بن نافع بن حجر بن أحمد الداج. ثم نفى - في الوقت ذاته - أي صلة لهم بالداجو وعزا تطابق اللهجات لطول الجوار بين القبيلتين في دارفور

من المحتمل أن تكون هجرة البيقو متزامنة مع هجرة الداجو ومن نفس الاتجاه، إذ لا خلاف بينهما من الناحية التكوينية. أو إن الداجو بعد أن أتوا من الشرق انضم إليهم هؤلاء الزنج من البيقو في دارفور - من ناحية الجنوب الشرقي - وأخذوا

---

(١) أي السلطان عبد الرحمن الرشيد.

(٢) يقول براون ص ٢٨٥ ذكر ابن سعيد (أنظر ابو الفدا ص ١٥٨) عن أمة تُسمى تاجو ذات صلات بالزغاوة وقد أشكلت هذه العبارة على بارث (المجلد الثالث ص ٤٢٦) وفي رأي المؤلف إن المقصودين ليسو البيقو.

لسانهم مع احتفاظهم باستقلالهم عنهم.

تتشابه لغة الداجو مع اللغات النوبية لكنها - في هذا المنحى - تبعد كثيراً عن لغة البرقد[١]. ويبدو إن البيقو لا يختلفون الآن كثيراً عما كانوا عليه أيام «التونسي» ولكن لا يُروى عنهم الكثير بخلاف إنهم يُحكمون بواسطة سلطان صغير منهم. أما الوكيل القبلي أو النائب أو رؤساء مجالس الشيوخ (الدمالج) أو السامبي لدى الداجو، يطلق عليهم البيقو اسم (جندي) جمعها (جنادي) ووظيفته الرئيسة - خارج نطاق الإدارة - هي الإطلاع بمهام مراسم تتويج السلطان الجديد. للبيقو عدة فروع، إلا أن ما يُذكر منها في الوقت الحاضر قليل. ينقسم البيقو لمجموعتين رئيستين، صبحانيين (أي شرقيين) وغربانيين (أي غربيين) ويشملون الآتي:

تركت حجر (الأُسرة الحاكمة)	تركت مارشوت
كروبيكي	فامكي[٢]
ترتوشكي أو ترتجيك	ماسيك
لودكي[٣]	تلانجي
ديسيك	شرمتكي
تايقلوقول	مهنقي
كلاكليكا	

(١) مثلاً نبين الآتي من بركهارت:

عربي	بيقو	داجو دارفور	داجو سلا	ميدوب	نوبة	كنوز
بقرة	تيني	تيني	تينى	تور	تيقا	تيق
حصان	مرتابي	مُرتابي	مورتي	بورني	مورتيقا	كوكي
جحش	كاتشني	كاشني (أو كاكني)	كاشي	أوتشي	كاتجا	هانوب
فم	ايكونجا	أكي	أوكي	آل	أكا	أجلك

(٢) هم الصبحانين.

(٣) هؤلاء هم الغربانيين أو الجنادي يعجز البيقو عن نطق الغين فينطقونها هربانيين.

ويُقال إن هناك أعداداً من البيقو خارج دارفور مع الداجو بين تقلي والنيل الأبيض في «دار كبير»، فضلاً عن مستعمرة مُعتبرة للنايوقلول الذين يُقال بأنهم عاشوا لعدة أجيال في «كفيا قنجي» ببحر الغزال[1].

يطلق البيقو على أنفسهم اسم «بيوق» ويُعرفهم الفور باسم «بقونقا» ويسميهم التاما «بيقوكنق» كما يطلق عليهم الداجو اسم «بيوق» والبرقد «بيكي».

يُوجد في دارفور عدد من القبائل الوافدة من الغرب وهم الفلاتة والتكارير والبرقو والبرنو والميما وأبوسنون والمراريت، وأقدم تلك المستعمرات هي مستعمرة الميما.

الميما:

- ذكر ابن بطوطة - في منتصف القرن الرابع عشر- مدينة الميما وهي لا تبعد عن غربي «تنبكتو»، وقال بأن أغلب سكانها من الميما أو من قبائل يُطلق عليهم اسم الملثمين[2] (أي الطوارق والبربر) والواضح إن هذه القبيلة أو بعض بطونها توجّهوا في فترة لاحقة شرقاً، إذ يقول عنهم التونسي في ١٨٠٣م «تتكوّن مجموعة الميما من عدة قبائل تتفرّع لأقسام. بشرتهم داكنة السواد بلون المداد، وتقع مواطنهم جنوب ودّاي مباشرة أعلى خط الميما مع الداجو والكوكا» ثم يُلمّح بأن هناك فرعاً منهم تحت إمرة سلطان يدفع الجزية لسلطان دارفور[3]، ويصفهم «ناختقال» بأنهم قبيلة كبيرة في ودّاي، بيد أن جلّهم تشتت بهم السبل جنوبي تلك البلاد وفقدوا هويتهم القبلية. حافظ المتبقون منهم على لغتهم التي تشبه لغة الزغاوة والقرعان. وللميما ملك منهم[4]، وأما عن مكانتهم الاجتماعية فهم مبغوضين مثل الزغاوة الذين تزاوجوا

---

(١) يلقب زعيمهم بالمقدوم.

(٢) يسميهم الكتاب الذين سبقوا أبن بطوطة بأسم «أميما».

(٣) هؤلاء على عداء مع بني عُمران.

(٤) يطلق عليهم البعض اسم ميمي أو مُتتو (أنظر كاربو المجلد الثاني ص ١٩٩).

كثيراً معهم.

تُوجد حالياً مستوطَنة للميما حول «فافا» و«ودعة» في دارفور، وأخرى في مركز «أبو دازا» على الحدود الغربية لكردفان، وثالثة في المجرور شمالي بارا (أواسط كردفان).

وكقاعدة تتميَّز ألوانهم بالسواد الفاحم وملامحهم غليظة وتتسم وجوهم بكثرة الشعر شأنهم شأن مجموعة البرقو بما يزيد عن المعتاد لدي بقية قبائل السودان الزنجية الشمالية. الفروع الرئيسة للميما في دارفور وكردفان وهي:

ننكو (الأُسرة الحاكمة)	بورا
داري	أبكي
فرا	مهادي[1]
أولاد زيت	كوستا
كراتنديلو	مدرونق
قورو	بابا
باكا	قلمي

وجميعهم يتحدثون العربية

المراريت:

- المراريت[2] وأبو سنون عبارة عن مستوطنات صغيرة لعناصر من البرقو على

(١) يدعي هؤلاء بأنهم عرب. وحتى لو صح ذلك فهم مُحتقرون. ولا وجود لهم كقبيلة في أي مكان آخر بل يشكلون دائماً أفرعاً لقبائل أخرى، حيث يوجد بعضهم وسط المساليت وأخرون وسط الهبانية في دارفور.

(٢) مفردها مراتي.

التخوم الغربية لدارفور، ولكن لا يُوجد ما يدل على تاريخ توطُّنهم هناك. استوطن المراريت وسط الأرنقا والمساليت. البرقو الأصليون (أي الودَّاي) وكذلك البرنو لهم عدة مستوطَنات في شرقي وأواسط دارفور، بيد إن معظم هجرتهم لا تتعدى سنوات عدة، وتُعزى أسباب تلك الهجرة للاحتلال الفرنسي. هناك - بالطبع - آخرون مثل التكارير الذين استقروا في كردفان وشرق دارفور في مواقعهم الحالية منذ عدة أجيال.

الفلاتة:

- للفلاتة وجود كبير في دارفور رغم إن بعضهم لم يدخل هذه البلاد إلا عبر الأجيال الحالية، ومع ذلك استوطن الكثيرون منهم منذ زمن بعيد، ويُقال إن هجرتهم الرئيسة كانت في عهد السلطان أحمد بكر وذلك في خواتيم القرن السابع عشر. وللفلاتة ديار خاصة بهم على الحدود الجنوبية لجبل مرة، حيث تصاهروا مع عرب البقارة دون قيد. يعيش بعضهم حياة الاستقرار وهم الوافدون الجُدد الذين هاجر أغلبهم للسودان بسبب الحج. أما الأغلبية فمن البدو رعاة الماشية. وكما هو حالهم في غرب أفريقيا فهم يعيشون تحت إدارة قبلية منظَّمة، ويتحدثون العربية ويتفرَّعون إلى فرعين رئيسين «الأبا» و«الإكا»[1] تبقَّت قبائل الحدود الغربية والعبيد وقبائل الفور أنفسهم وسنتعرَّض لتلك القبائل على التوالي.

القِمِر:

- تقع ديار القمر شمالي ديار المساليت وشرق دار تاما. وعلى شمال وشرق ديارهم تُوجد منطقة واسعة تقطنها مجموعات متفرقة من الزغاوة الرحَّل من فرعي

---

(١) يسميهم التونسي «فلان» وبهذا الاسم يُعرفون لدى العرب والهوسا في غرب أفريقيا، ويسميهم الكانوري فلاته، ويُعرفون لدى علماء الأجناس عموماً باسم فلب أو فل أو بول، أما في السودان فيُطلق اسم فلاته عليهم ويشملون معهم الهوسا. (أنظر التونسي ص ١٢٩ و١٣٤ وبارث المجلد الرابع ص ١٤٣).

«كوبي» و«كبقا». وتشكِّل ديارهم بقعة صغيرة فقيرة الموارد، بعض أجزائها رملية والأخرى حجرية، يعيش أهلها على زراعة الدخن وتربية الأغنام والماشية، وتتوفَّر مياهها بمقادير معقولة وتزخر بمعدن الحديد خصوصاً في «بابري».

يدعي السكان بأنهم من أصل عربي وينتمون لجعليي المتمة، ولكن بصرف النظر عن واقعة لسانهم العربي - باستثناء فرع أبو جوخة الذين يتحدثون لهجة التاما - وعدم وجود لهجة خاصة بهم، لا يُوجد أي سبب آخر يقوي هذا الاعتقاد.

اسم القمر مثل «إرمبلي» - الذي يستخدم بديلاً له في ودَّاي - يعني طير القُمري. هناك روايات مختلفة تشير للقِمر باعتبارهم السكان الأصليون لديار تاما والمساليت أو - كما يقول الفور - بأنهم من التموركة (أي من الفور) ممن بدلوا اسمهم إلى القمر.

يطلق الفور على القمر اسم «أورانقا» أما التاما والداجو فيسمونهم «قمروك» وقومروك. ولما لم يكونوا من القبائل المحاربة، فقد قاسوا الأمرَّين من قُطاع الطرق من الزغاوة والمساليت والفور. أما سياسياً فهم يشكِّلون جزءاً من سلطنة دارفور محافظين - ما استطاعوا - على استقلالهم حتى الآن. كان لهم سلطان صغير منهم منذ أمد بعيد وشُعبَهم الرئيسة هي :

١ / ميجي (الفرع الحاكم)

أ - ذرية طاهر

ب - ذرية حسين

ج - ذرية ناحيت

د - دريت بولاد

هـ - ذرية موسي

و - ذرية هاروت

٢ / أبوجوخا

أ - إيفري

ب - شوا

ج - لجام

٣ / كربو

٤ / لك

أ - جدير ونك
ب - أونقا
ج - صابر
د - رميلة

أ - أولاد حجر
ب - أولاد سكين
ج - أولاد مدي
د - كيرا

٥ / باقي
٦ / جرموك
٧ / موك
٨ / جننبيوك
٩ / تلنقبيوك
١٠ / ميلا
١١ / بلقيرو
١٢ / اكيرموك
١٣ / ليرك

التاما:

- تقع دار تاما غرب دار قمر على حدود ودّاي، وهي أراضٍ خصبة تتميَّز بكثافة سكانها، بما يفوق ديار المساليت والقمر، وكانت مسرحاً للنزاع بين سلاطين ودّاي ودارفور حيث تبادلوا إخضاعها في فترات متباينة، فضلاً عن إن التاما استطاعوا - في بعض الأوقات - الحفاظ على شيء من استقلالهم، وكان لهم دائماً سلطاناً منهم.

وقال عنهم ماتوسي «إنهم قوم طوال القامة - تقريباً ١٨٠ سم - معدل قطر الرأس ٣٥٠، الزاوية الوجهية منفرجة للغاية (٨١)».

وقد رأى فيهم «ناختقال» تماثلاً حميماً مع الداجو (المفترض داجو سلا) وربما

يمثِّلون هجيناً لهم مع المستوطنين الأوائل من القمر.

يقول «ناختقال» تطابق لهجتهم لغة أسنقور ودَّاي[1] ولهجات الداجو والبرقد، بيد أن هذا القول ينطوي على الكثير من الشك والريب حول صحته خصوصاً فيما يتعلق بالقبيلتين الأخيرتين، إذ إن لهجتهم تختلف تماماً في مفرداتهما عن أي لهجة في دارفور باستثناء الأرنقا في دار مساليت فقط.

المساليت:

- تتراوح مساحة دار مساليت[2] فيما بين السبعة آلاف والسبعة آلاف وخمسمائة ميلاً مربعاً، تحدها من الغرب ودَّاي ومن الجنوب دار سلا ومن الشمال دار تاما والقمر ومن الشرق دارفور. والمناطق الوسطي من ديارهم غير مأهولة وطبيعتها رملية مع العديد من النتوئات الصخرية، أما الجزء الجنوبي طابعه جبلي. المراكز الشمالية - أي ديار الأرنقا وجبل مون - تزخر بالصخور غير الخصبة وسنتعرَّض لها على استقلال في الفصل القادم.

يشكِّل واديا «باري وكجا» الكبيران شرقاً وغرباً - على التوالي - مصدراً ممتازاً للمياه القريبة من سطح الأرض، ثم إن هناك آباراً تُحفر في المناطق الباطنة أيضاً يغذيهما هذان الشريانان وهي ذات إنتاج مائي متذبذب.

تتكاثر أعداد السكان في المراكز الوسطي بنسب معقولة. واجتماعيا تُعد المنطقة بنفس مستوى شرقي دارفور، أما في الجنوب فالكثافة السكانية أكبر بيد أن السكان أقل تمدناً. تمثل المواشي والأغنام الثروة الرئيسة للمساليت، ويمثِّل الدخن غذاؤهم الرئيس كما يُوجد الحديد بكثرة وعلى نطاق الديار. وعموماً تتميَّز ديار

(١) ربما يُصَّنف السنقور مع قبائل الأسنقور الذين هم فرعاً للأرنقا. ومن ناحية اللهجة تتطابق لغة التاما والأرنقا.

(٢) هم يتسمون باسم مُسلات - كقاعدة - ولكن عادة يُعرفون لدى الغير باسم «مساليت» ويطلق عليهم التاما اسم مسراك.

المساليت بالفقر لولا الطريق التجاري من أبشي للفاشر الذي يمر عبرها، وإلا لكانت أكثر ركوداً.

كانت ديارهم - مثل التاما - مسرحاً للنزاع بين ودَّاي ودارفور، بيد أن ودَّاي لم تُحظ بأي حقوق عليها بل كانت تكتفي بالإغارة عليها من وقت لآخر باعتبارها أكثر مناطق دارفور قرباً منها.

كانت دار مساليت جزءاً من المركز الغربي - قبل الغزو المصري لدارفور - وتخضع لنائب للملك (أي مقدوم الغرب).

تُعتبر مراكز الأرنقا ومون في الشمال جزءاً من مركز (مادي) التابع للفور، أما المساليت الذين يقطنون شرق وادي باري فيقعون تحت إدارة «كرني» وتتبع البقية الباقية إدارة «فيا» وتحت إمرة شرتاي المركز. وفي الوقت الحاضر بينما يخضع القِمر - تحت إدارة مادي أيضاً بما فيهم فرعين من الأرنقا - لسلطان محلي، فإن للمساليت فرشة فقط، وكلا المنصبين أدنى درجة وأقل أهمية من الشرتاي. لم يكن للمساليت أمير فردي إلا في عهد المهدية حيث اتحدت تحت إدارته قبائل الأرنقا والمون والمساليت، ولم يُلقب بـ«سلطان» إلا بعد انتهاء عهد الدراويش حيث ادعى الاستقلال التام.

أما الآن يخضع الفَرشة الحاكم لمختلف مجموعات «الأرنقا» و«المون» في الشمال والشرتاي الذي يعلوه درجة، لمقدوم سلطان المساليت، وهذا النائب مملوك دينكاوي نال الثقة وتسنَّم أعلى الدرجات. تم تقسيم الشُعب المختلفة للمساليت لإقطاعيات تحت إدارة أعضاء الأسرة الحاكمة أو كبار موظفي الدولة، إلا إن السلطان يعلو على الكل. يساعد الفرشة - لدى المساليت والأرنقا والمون على السواء - «دملج».

يُقال إن لأي فرشه بدار مساليت - إبان عهد الفور - سامبي «أي رئيس تنفيذي وممثل تابع له» كما جرى العرف لدى سلاطين الداجو. ولكن منذ أن أصبح رئيس فُرش المساليت سلطاناً، ألغى هذا النظام.

الشُعب الرئيسة للمساليت كالآتي:

فوكنينق	أسمونق	داجو (دون شك هم مستوطنون من دارسلا)
مسترن	أبدورق	أمنونق
سيربونق	كيريونق	منديرا
مراريت	كوسوب	مانجري
نيرنونق	فورنق	
منجري	أجمونق	

وجميعهم يتحدثون لغة واحدة تختلف عن أي لهجة في دارفور، ويُقال إنها تنتمي للغة «المبا» في الغرب. يدعي المساليت إدعاءً مبهماً بأن أسلافهم من العرب من بني خزام والمسيرية (كلا القبيلتين من البقارة)، لكن الواضح أنهم أكثر من «أنصاف زنوج» مع مسحة عربية طفيفة[1].

المساليت مقاتلون ذوو تكوين حسن وذكاء لكنهم يُعاملون بالزراية من قبل قبائل دارفور وكردفان وذلك لمقدرتهم على التخلُق وبصفة خاصة في هيئة ضبع.

ويقول عنهم «ناختقال» بأنهم «كثيرو الخضوع للكهنة، ويتسمون بالتعصب ومتهمون بأكل لحوم البشر، وإن هذه التهمة ليست دون أسس بل إن المساليت أنفسهم اعترفوا لي بذلك، رغم إن هذا الأمر يقتصر على شُعبة «أم بوس» والذين لهم القدرة في التحوُّل إلى غيلان بعد الموت. كما إنهم يتحوُّلون إلى قرناء للموتى ويبعثون من قبورهم لافتراس كل قاصية، حيث يعتقدون إن التهام أحشاء خصومهم النيئة تُكسبهم الشجاعة والتخلُص من رقاقة القلب.

(١) هناك مجموعات صغيرة من المحاميد والترجم والتعالبة والدوروك والمهادة في ديار المساليت إلا إنهم مستقلين عنهم.

وأضاف سلاطين بأنهم يستخدمون جلود خصومهم كقرب للماء، وأقر رئيسهم (أي الفرشة) هجَّام بوجود هذه العادة في وقت ما. أما في الوقت الحاضر فأكثر هذه الممارسات الوحشية قد طواها النسيان، إلا إن الناس يقولون بأنها عادت مرة أخرى في عهد هجَّام.

إضافة لذلك فإن للمساليت - الذين على الحدود - مستوطَّنة معتبرة على استقلال بجنوبي دارفور على الحدود الشمالية لمنطقة البقارة «الهبانية»، ويرجع تاريخها لمدة تنيف على القرن ونصف القرن. وفي أيام «التونسي» كانوا تحت إدارة أربعة ملوك (أي مكوك) وكانوا يتبعون لدار أبو أمة. أما الآن فهم تحت إدارة سلطان صغير من حملة النحاس إلا أن الإدارة الحقيقية - فيما يبدو - للوكيل أو الدنقر[1] وهو اسم يُسبغ على الملك أو الفرشة الذي يحمل نفس السلطات. يُصرِّف السلطان الأعباء ويصدر أوامره عن طريق «الدنقر» الذي يباشر نوعاً من النيابة في الإدارة. الفرع الحاكم (أي حملة النحاس) في هذه المستوطَّنة التي في جنوب دارفور هم «السيربونق» والذين ينقسمون إلى شُعب وهي (السقربو وكندرنق وكيدونق وبيالونق)، فضلاً عن فروع أخرى، بيد أن الفروع الآتية يُعتبرون تُبَّعاً للدنقر وأهمهم:

المونقير	أمبر تشونق	قنكونق	أوننق
أم بوس	فوكانيونق	ميركرين	

وتتحد لهجتهم مع المساليت الغربيين ولكن الروايات المتداولة تشير لاختلاف في الأصل القبلي. ويُقال إن عُمَّار المستوطَّنة الموجودة في جنوب دارفور وفد أسلافهم من اليمن عبر شمال دارفور، والحقيقة إن أي من فرعي القبيلة ليس لديهم أدنى فكرة عن مواطنهم الأصلية قبل الهجرة إلى دارفور، بل الراجح إن ما يُقال هو من باب التخمين مما لا يستدعي الالتفات.

(١) طبل خشبي صغير.

بالإضافة لهاتين المستوطِنتين الرئيستين السابق ذكرهما هناك بعض المساليت في ودّاي وآخرين في دارفور في المراكز الواقعة جنوب غربي الفاشر، تحديداً في دبو وطويلة وجبل حريز الخ، حيث عاشوا وتصاهروا مع الفور والتنجر. والراجح إن آباءهم جُلبوا كأسرى حرب ووُطنّوا هنا وهناك كعُمّار من قبل سلاطين الفور.

الأرنقا والمون:

- تحدثنا عن هاتين القبيلتين باعتبارهم مستوطِنين في الجزء الشمالي لما يُعرف الآن بدار مساليت. هناك تماثل بين لغتي الفريقين، وتتطابق تلك اللغة - لنفس الأغراض والمعاني - مع تلك اللغة المُستخدمة في دار تاما. المون أو المول عبارة عن مجموعة صغيرة جداً ليس لها أكثر من ستين قرية صغيرة. أما الأرنقا فأعدادهم مُعتبرة ويسمون أنفسهم «بيرونق» إلا أن جميع بقية القبائل يُطلق عليها اسم أرنقا[1]، أما المون فيطلق عليهم الأرنقا اسم المون وبالعربية «أهل الجبل» وجبروك «أي جبلوك» كما يُطلق عليهم اسم «مون أوجبلتا». والشعب الرئيسة للأرنقا هم:

شال	مراريت[2]	أروا	دارومي
أسنقور	دُلا	جرجا	نانيدنقور

يحكم الأورا والمراريت سلاطين منهم أما البقية فيترأسونهم فُرش فقط.

---

(١) يقول المؤلف لا أعلم مصدر اسم أرنقا بيد أن الكلمة تعني لدى المساليت «العرب»، وعلى الأرجح أن يكون مجرد صدفة بأن أرنقا هو اسم عائلة شعب الثعبان لدى قبائل تيرا الأخضر بجبال النوبة الجنوبية، بينما يطلق الأرنقا اسم «آر» على المطر أو السماء علماً بأن كلمة «آرا» تعني المطر لدى نوبة الدلنج بالجبال الشمالية و«آري» تحمل نفس المعنى لدى الميدوب.

(٢) هناك مراريت وسط المساليت الأصليين.

الحداحيد:

- مشتتون في دارفور إلا أن لهم مستوطَّنات صغيرة بالأخص على تخوم ديار تاما والمساليت، وامتد وجودهم في تلك المناطق لعدة أجيال، ويُعتبرون - إذا صح الأمر - جزءاً من شعب الفور، بيد أن أصول الغالبية منهم تعود لودَّاي أو إلى الغرب منها، ويقرون - عند التقصِّي - بذلك. وكالعادة فهم مُحتقرون في أواسط أفريقيا من شرقها حتى غربها. لدرجة إن الأهالي لا يتزاوجون معهم. والشعور بالمقت ضد هذه الطبقة يبدو بشكل أقوى لدى الزغاوة الذين لا يأنفون مصاهرتهم فحسب بل لا يؤاكلونهم أو يجالسونهم. والحدَّادون طبقة منغلقة على نفسها ويطلق عليهم الفور اسم مرو (مفردها مر).

ومما جمعته من معلومات بشأن مشاعر الاحتقار المتوارثة ضدهم، يمكنني القول بأن الأمر لا يعود - على إطلاقه - لاشتغالهم بالحديد بقدر ما يعود لاستخدامهم للنار في أعمالهم[1].

قبائل العبيد:

- يمكن تقسيم قبائل العبيد لقسمين، أولاهما مستوَّطنات الجنوب الخاصة بالزنوج من غير المواطنين الذين جلبهم السلاطين المتعاقبين ككل ثم استوطنوا البلاد لقرن أو قرنين خليا، ويصدق هذا القول تحديداً على عهد السلطان «تيراب» في خواتيم القرن الثامن عشر. والفئة الثانية هم فئة الزنوج الذين لهم مواطن في دارفور. بجانب هاتين الفئتين هناك أعداد لا تُحصى من الدينكا والفراتيت والنوبة والنيام نيام وغيرهم من قبائل بحر الغزال الذين جُلبوا زرافات ووحدانا، بعد أن دُمرت أسرهم واستولدت زوجاتهم وبناتهم أطفالاً لأسيادهم وذلك منذ أزمان بعيدة

---

(١) سجل ناختقال معاملة الحدادين في برنو وودّاي ودارفور ووسط عموم قبائل التبو، وفي ودّاي لا يفكر أي شخص في الإقتران بإمرأة منهم أو أن يُواكلهم أما سلطان الحدادين فهو ملك فخري ليس إلا.

وحتى الآن. ولا أعتقد أننا في حاجة للمزيد عن هذه الفئة.

تنتمي الفئة الأولى من الفئتين المشار إليهما للتروج الذين ترجع أصولهم لجبال تقلي في كردفان، وقد استجلبوا بواسطة السلطان تيراب، ثم مجموعات العبيدية حول كبكابية وكتم وهم أرقاء من قبائل كردفانية أيضاً استقدمهم ذات السلطان، ثم الدادنقا[١] الذين يُقال إن موطنهم الأصلي - إلى ما قبل المائتي عام الفائتة - هو برنو ثم أقاموا مؤقتاً في دار تاما لفترة زمنية محددة قبل استقرارهم بدارفور.

أما الفئة الثانية - في أقصى الجنوب - فتقع ديارهم في دارفور وبحر الغزال وتمتد حتى أفريقيا الوسطى الفرنسية. وبين قاطني دارفور تُوجد - إلى الشرق - قبائل المندلا او البندلا والشات ويستوطِنون ديار الرزيقات وشمالي بحر الغزال، ثم إلى الغرب حيث تُوجد أعداد من (الكارا والبنقا والبنده والدِجا والفورقي والفنقر الخ).

والمواطن الرئيسة للمجموعة الأخيرة بغرب بحر الغزال والمستعمرات الفرنسية الواقعة غربها، ويُطلق عليهم اسم هلامي وهو «الفرتيت» لكني أؤمن بأن هؤلاء الزنوج المكوِّنون لتلك المجموعات يختلفون عن المجموعة الغربية وجميعهم يتحدثون نفس اللسان ويتكوَّنون من السارا والكارا والقُلا والميدي والكويو والفور[٢] والدود والبنقا والرُنقا والفيري، ويُصنَّفون جميعاً تحت مسمى «يير»، ثم هناك مجموعة شرقية - منفرطة - من الفرتيت تتكوَّن من الدقا والبيا والكريش والشير والبنقو والبلندة الخ.

ُصنِّفت كل تلك المجموعات - لدى العرب - ضمن العبيد حيث إعتادوا الإغارة عليهم منذ القدم. وجميعهم يدخلون تحت مسمى «فرتيت» ويبدو إنهم ينتمون

(١) لهم أو لملكهم وسم خاص حسب النوذج (أ) و(ب) والمعنى الملك محمد الدادتقاوي الذي كان اكثر الرجال إحتراماً في دارفور في عهد السلطان علي دينار وكان من إبرز قادته ومستشاريه.

(٢) بالقطع إن المعنين ليس قبيلة الفور الحالية إذ ورد حرف الفاء معطشاً.

لمجموعة «البانتو».

حالياً يتواتر القول في دارفور - أحياناً - بأن الموطن الأصلي لهؤلاء الفراتيت هو جبل مرة وأن الفوراوي ما هو إلا هجين منهم، أو يُقال أحياناً - وهي النظرية الأرجح - بأن العنصر الفوراوي البدائي كان جنساً مختلفاً رغم إندماجه مع قبائل الفرنتيت في ذلك الإقليم الذي يقع غرب وجنوبي جبل مرة فضلاً عن الجبل نفسه ثم شمالاً حتى جبل سي[1].

الفور:

بصرف النظر عن أصلهم، منهم تستمد دارفور اسمها[2]، ويمثلون الآن أكبر المجموعات السكانية المستقرة عدداً في النصف الغربي لدارفور فضلاً عن إن لهم وجود في جميع أرجاء دارفور عدا المنطقة الرملية الممتدة لحوالي مائة وثلاثين ميلاً عبر المنطقة المتاخمة لكردفان.

ليس هناك من شك في أن مهد ومعقل هذا الجنس يقع على تلك السلسلة الواسعة لجبل مرة - المصدر الرئيس للمياه في دارفور -، ولا زالوا يمثِّلون سكانه الأصليين بدءاً من أطرافه الجنوبية حتى جبل سي في الشمال.

أما في وقتنا الحاضر فإن فور جبل مرة وجبل سي، فضلاً عن المستقرين في غرب البلاد وعموم قبائل الفور - باستثناء فرع الكنجارة - يُعتبرون الفئة الأدنى من الناحية

---

(١) هناك فرع من الفور في جبل سي يسمون بالكرنقا والذين يقرون بإنتمائهم للكارا من الفرتيت. من عادات الفور ذات نكهة زنوج بحر الغزال هي لف الرأس ثلاث مرات كتعبير عن الإمتنان ويقول المؤلف إن الفكي بحر الدين اكبر معمري الفور في جبل مرة فعل معه ذلك تعبيراً عن أواصر العلاقة وكان يبلغ من العمر ١٢٠ سنة.

(٢) يتسمى الفور بأسم فراكنج مفردها فردنقو ويسميهم داجو دارفور «أوناج» مفردها «ودج» ويسميهم داجو سلا «يارج» والبرقد «كادرجي» والتاما «فوروق» والمساليت «فُرتا» والزغاوة «كورا» وللفرتيت اسماء مختلفة أيضاً إذ يُطلق عليهم الدقا اسم «أورا» (أي العبيد) والبندا «بورو» والارا «دم» والكارا «دلا» والقلا «لالي».

التكوينية والإجتماعية والذهنية من معدل بقية القبائل التي تجاورهم في الشرق أو الشمال. ولكن ما ناله الكُنجارة - الذين دانت لهم السيادة من أسلافهم على مدى الثلاثة قرون الماضية - من رفعة يُعزى للدماء العربية التي تجري في عروقهم. والكُنجارة - بصفة عامة - ذوو تكوين أفضل وذكاءاً أعلى ويختصون بالنظافة أكثر من بقية فروع القبيلة وأحسنهم إسلاماً.

وينحصر أغلبهم الآن في شرقي جبل مرة، رغم إن الكثيرين من الفور الأصليين في الجنوب والغرب يدَّعون بأنهم كنجارة، أو على الأقل إنهم يحملون شيئاً من دماء هذه الشُعبة.

إعتمد الكنجارة - حفاظاً على سلطانهم - على القوة الهائلة لجيش العبيد الشرس، وذلك منذ بواكير القرن السابع عشر. بيد أن قوتهم الأساسية تكمن في الدماء العربية التي تجري في عروقهم التي منحتهم خصائص القيادة. فضلاً عن خاصية إضافية أكسبتهم الهيبة تتمثَّل في إرتباط فرعهم الحاكم «كيرا»[1]- من الجانب النسوي - ببني العباس وبني هلال.

الوقائع كما تُروى عادة - رغم ما يشوبها من الخطأ - تشير بإختصار إلى إن الفور الذين يعيشون في جبل مرة بما في ذلك طرة وسي... الخ، ثم هؤلاء الذين على الجبال الواقعة إلى الجنوب الغربي منه، وتلك التي على غربه، كانوا على درجة من التوحُّش حتى وفد إلى تلك الأصقاع بعض من عرب بني هلال تحت قيادة أحمد المعقور المتحدِّر من أبي زيد الهلالي، والذي يتحدَّر بدروه من بني العباس[2]. وإن أحد أحفاد أحمد المسمى بسليمان الملقب بصولون (وأصل الكلمة سلونقا وتعني العربي) استطاع أن يحقق السيادة أخيراً على الفور وجمعهم تحت وحدة سياسية

---

(١) هذه التسمية من الجانب النسوي.

(٢) يقول المؤلف بأن هذا لا يصح لعدم وجود علاقة بين بني العباس وبني هلال ولعل هذا الرأي سديد.

وأصبح المؤسس للأسرة الحاكمة[1]. وقد حكم هو وابنه موسى من طرة بين جبل مرة وسي[2]. يدعي السكان الأصليون هنا وفي جبل سي بأنهم (طرة) لكن ليس هناك

(١) وبادعائهم الأنتماء لبني العباس فإن هذا يعني إنهم يدعون الانتساب للجعليين ويظهر إدريس جالي أو إدريس جعلي كجد قبلي لسليمان صولون، ونفس العلاقة بالجعليين ترد في رواية تقول إن سليمان كان ابن لتيموركي (فوراوي) وأم عربية من بديرية كردفان والبديرية ينتسبون عادة للجعليين وهناك دعاوي مماثلة مفضلة أيضاً لدى أغلب الممالك الأفريقية غرب دارفور - كودّاي - على سبيل المثال إذ إن جعلياً من شندي يُدعي بأنه عباسي هو عبد الكريم بن جامع (الجامعي) من أصل جعلي (جد الجوامعة). الروايات المتعلقة بسلسلة سليمان صولون مبهمة جداً ومتعددة، ويذكر المؤلف بأنه سمع عنه بأنه عربي من بني هلال إقترن بأميرة فوراوية ويظهر أحياناً كإبن لاحمد المعقور وأحياناً حفيداً له من الجيل الثاني أو الثالث أو أبعد من ذلك وتختلف الروايات حول أمه إذ يرد القول مرة بأنها من العرب ومرة من المساليت ولكن ليس هناك أتفاق سوي انه عربي أرتبط بالفور بالمصاهرة. بينما يقر كل الفور الكنجارة والتنجر بأنهم مختلفين من حيث الأصل ويدعون التحدر من أحمد المعقور من بني هلال، لكن يبدو اتحاد العرب والفور (من فرع كيرا) كإتحاد العرب مع البجة في شرق السودان، حيث تزاوجوا مع التنجر كمرحلة لكسبهم في شمال وغرب دارفور في نهاية القرن السادس عشر. شجرة فستر هلموت (تاريخ العلم ص ٥٨٥) المبنية على رواية ناختقال وسلاطين تظهر فورا كإبنة زعيم من الكيرا زوجت لوالد شودورشيد آخر سلاطين التنجر في جبل سي ثم لأحمد المعقور جد التنجر في دارفور وولدت للأول ابنها شو وللثاني دالي جد سليمان صولون. يدعي التنجر بأن أحمد المعقور جدهم تزوج بأخت آخر سلاطين الداجو وكانوا حكام دارفور حتى وصول التنجر وخُص صولون بأم عربية (سلاطين الفصل الثاني) بنفس القدر يقول المسبعات بأن أحمد المعقور هلالي زُوج ابنة آخر سلاطين التنجر الرواية التي يتفق معهم فيها داجو دارفور (أنظر القبائل للمؤلف ص ٥٦).

(٢) طرة جزء من سلسلة جبل مرة وتحوي مقابر سليمان وموسى وأحمد بكر ومحمد دورة وأبوالقاسم وتيراب وعبد الرحمن الرشيد ومحمد الفضل وحسين، وشيد تلك الأضرحة علي دينار في ١٩١٠ من الطوب المحروق بسقوف من القش على انقاض مبانيها التي كانت من الحجر والطين. مقبره سليمان وابنه موسى في موقع منعزل على الشمال، ولعبد الرحمن ومحمد الفضل وحسين موقع واسع والبقية كل في مقبره منفردة بالقرب من مقبرة سليمان وموسى مسجد من الحجر بناه السلطان أحمد بكر (١٦٨٢ - ١٧٢٢) لا يزال بحالة جيدة. هناك جامع مماثل يسمى جامع «كرو» بالقرب من«بلدان» بين كبكابية وكلكل شمال غرب جبل مرة يقال إن مؤسسه هو السلطان أبوالقاسم (١٧٣٩ - ٥٢) وهو صرح عالٍ جيد البناء من الطوب المحروق مدعم بالطين وشرائح الأحجار بأبواب ونوافذ مقوسة.

المزيد ليُعرف عنهم، فضلاً عن إنهم لا يختلفون - في عاداتهم - عن بقية الفور الأصليين[١].

على مشارف خواتيم القرن السابع عشر أصبح للفور قوة بالقدر الذي مكّنهم من مغادرة الجبال. أما المسبعات فهم فرع من الكنجارة الذين سلكوا طريقهم لكردفان[٢]، تُوجد العاصمة الملكية لبقية الفور الآن في تلك المنطقة الخصبة على السفوح الشرقية لسلسلة طرة بالقرب من«تِنه»، ولم تقتصر سلطة الفور على شرق دارفور فحسب بل في النصف الثاني من القرن الثامن عشر غزا تيراب كردفان وسحق الإنفصاليين من المسبعات وتقدَّم شرقاً حتى أم درمان وشندي[٣] على النيل. بعد هذا التوسُّع صار الوضع الطبيعي أن يتم إختيار عاصمة في منطقة أكثر توسطاً، وهكذا إختار عبد الرحمن الرشيد (١٧٨٥ - ١٧٩٩) الفاشر[٤]، وتقع على بعد مسيرة يومين شرق جبل مرة على منطقة رملية فسيحة تصلح للزراعة وتتميَّز بوفرة المياه. وهكذا هجر الكنجارة - الأكثر تمدُّناً في القبيلة - المناطق الوعرة الواقعة على تلك السلاسل الجبلية والمنطقة المهمَّشة خلفها لإخوتهم البدائيين من أهماج الفروع الأخرى للقبيلة.

قسَّم التونسي الفور - بوجه صحيح - إلى كنجارة وكراكريت وتموركة. يقطن الكنجارة الشرق رغم إن لهم حضور ومصاهرة مع بقية الفور في الغرب.

الكراكريت هم سكان جبل سي الأصليون. أما التموركة فيوجدون في الجنوب

(١) يقول أهالي طرة بأن التسمية تأتت من عظاية ضخمة أو ورل (أي - بلغة الفور - وارنا) لا زال لفظ «تو» هو لقب شراتي البرقد.

(٢) تونسام الجد التاريخي للمسبعات هو عم لسليمان صولون يتجسد في «تنسيم» أو «تلزم» كما تسمى الآن وهى موقع في التلال الواقعة بين طرة وتنة. وفي كردفان حرَّف المسبعات اسم تنسام لمحمد تمساح وتاريخ نزوح المسبعات نحو الشرق كان في زمن سليمان صولون وأصل الكلمة مُصبِّح أي المتجه شرقاً وحُرفت بسبب العجمة لمسبع وأشتق منها جمع وهو «مسبعات».

(٣) يقال إن اسمي شندي والمتمة مأخوذات من لغة الفور.

(٤) اشتراها من قبيلة الأسَّرة مقابل سبعين ناقة ليستخدمونها في جلب المياه، واسمها تندلتي وكلمة فاشر تعني مجلس السلطان أي العاصمة.

الغربي وراء جبل مرة. لكن كحقيقة ليست هناك خطوط جامدة للتمييز بين تلك الشُعب الثلاثة، وإن عناصر الشُعبة الأولى - على وجه الخصوص - مشتتون بعيداً حتى خارج مواطنهم الأصلية. ومع إحتمال وجود عناصر أساسية يُعروفون بالفور أصلاً، هناك أسس تقليدية للإفتراض بأن مختلف قبائل الفرتيت قد تطعَّمت - لحد ما - بهذا الجنس لحد القول بأن الفور الحاليين يحملون في تركيبتهم العرقية الكثير من دماء الفرتيت بقدر ما تجري في عروقهم من دماء فوراوية حقيقية.

إن من يزور دارفور ليتقصَّى عن التصنيف والتداخل لدى قبائل الفور، يجد إن فروعهم باستثناء الشُعب الرئيسة - الكنجارة والكراكريت والتموركة - محليون أو طوطميون بالأصل أكثر من كونهم منضوين تحت خط مستقيم واحد[1]، وإن أسماءهم غير مستمدة من سلف عام بل تُنسب عادة لجبل أو وادي أو لنوع من الطيور أو وحش أو حشائش بعينها. بعد تسليط الضوء على القليل من الملحوظات العامة عن الكنجارة والتموركة يكون من المستحسَن أن نرتب المعلومات عن الفور مركزاً لمركز بدلاً عن ملاحقة كل أسرة على حدة.

تتضمَّن شعبة الكنجارة - بجانب أسرة كيرا الحاكمة - مجموعة المسبعات الكبيرة الذين توجَّهوا في القرن السابع عشر شرقاً واحتلوا كردفان، واستمروا في الحكم إلى أن أزاحهم الكنجارة من دارفور في ١٧٨٤ - ١٧٨٥م. بسط الكنجارة سلطانهم على شمال وأواسط كرفان حتى الاحتلال التركي في ١٨٢١م. سبق وأوضحنا كيف أنهم زحفوا شرقاً حتى النيل خلال الفترة السابقة لإنهيار مملكة الفونج في الجزيرة. وهكذا أصبح لدينا - في وقتنا الحاضر - أشتات من الكنجارة والمسبعات في كردفان. ويُعزى لذات السبب - جزئياً وليس كلياً - حمل الجوامعة لبعض السمات الناتجة عن تأثير الفور.

يتفرَّع الكيرا إلى باسنقا وتلنقا لكن ليس للاسمين أي دلالة قبلية أو محلية،

---

(١) عندما يتحرى الشخص عن أسلاف العرب لا يخرج خالي الوفاض، أما الفور فتجدهم مترددين حذرين «المؤلف».

والباسنقا هم الأقارب المباشرون من جانبي الأب والأم لآخر السلاطين، أما التلنقا فهم الفرع الأبعد لذات السلالة. يسم الباسنقا جمالهم بحسب النموذج (أ)

ويطلقون عليه اسم (كيرا) أما السلطان فقد درج على إضافة طبل الحرب والعصي كما يبدو في الشكل (ب)[1]

أكثر ديار الفور إكتظاظاً بالسكان هي تلك المنطقة التي تقع جنوب غرب جبل مرة، وإذا جاز تصنيف هؤلاء الأهالي تحت مسمى واحد فإنهم تموركة رغم إن عليَّة القوم منهم يدعُون الانتساب للكنجارة. ظلت تلك المناطق - عندما كانت درافور تُحكم من جبل مرة - تحت إدارة نائب يعرف بـ(دما أو أبودما) وتُعرف دائرة نفوذه بدار أبودما[2] ويُعرف أتباعه باسم (دمنقة) ومفردها (دمنقاوي)، ولا زال رئيس الشيوخ - أي شرتاي المركز - يُعرف باسم (الدمنقاوي)[3] يشمل لفظ الدمنقا فرع التموركة ومدعيِي الانتساب للكنجارة وجميعهم تحت سلطة الدمنقاوي وتشمل المجموعة - فضلاً عن ذلك - عدة شُعب، ويُعد إنتماؤهم جغرافياً أكثر من كونهم ذوي قربي وهم:

مورجنجا او الموركي (شعبة الدمنقاوي)	هاجرنجا
برنا أو برنا باتنقا	سرونقا

---

(١) تجدر ملاحظة تماثل وسم البرقد والدادنقا، فالدادنقا يسقطون وسم رجل الغراب في حين إن البرقد يظهرونه. رجل الغراب من أبرز الأوسام بين بقيرة ودرهم من بطون الحرازة وكاجا وفي ذلك دلالة للربط بين سكان جبال شمال كردفان وقبائل دارفور (أنظر أوسام الجمال للمؤلف ص ٣٤).

(٢) حسب خرائط ناختقال وماسون (في الجزء الثاني من القرن التاسع) فإنها تضم - جغرافياً - ديار التعايشة والبني هلبة من عرب البقارة والمساليت والفلاتة الذين يستمدون حقوقهم من سلاطين الفور. يتوافق منصب أبو دما في الجنوب الغربي مع أبو أمة في الجنوب الشرقي وأبو دالي في الوسط والتكنياوي أو دما تعني الذراع الأيمن للسلطان وهو يسير بقواده على يمين السلطان وقد جرى العمل على تصنيف الوظائف حسب أعضاء جسد السلطان مثل التكنياوي كساعد أيمن والأرندلو الرأس بيد إن الروايات تختلف في مغزى هذا التصنيف.

(٣) مقره زالنجي غرب جبل مرة.

نيقونقا	مايرنقا
مدرينقا	تبيلا

عند تعرُّض التونسي لدار أبو دِما كموطن للتموركة، أثناء حديثه عن (أبو دِما) نفسه كأحد عليَّة القوم يقول «له إقليم واسع يُسمي تموركة وله ما للسلطان من الشارات والأبهة ما عدا النحاس، وطبله دنقار فقط، وهو كناية عن ساعد السلطان الأيمن[1]، ووظيفته أن يمشي هو وعساكره عن يمين السلطان». وذكر بأنه يُعيِّن في تلك المنطقة المطروقة والأقل جبالاً، وبأنه أصبح أكثر تمدناً من بقية الفور الذين يتميَّزون بحلكة السواد وحمرة العيون مع تصلب غشائها الخارجي، ويضيف بأن اسنانهم مشربة بالحمرة، شرسين عند الشدة خصوصاً عند السكر مع تميُّز بالغلاظة والفظاظة الممعنة. ربما رمي - بقوله هذا - مقارنتهم بفور جبل مرة الذين تنطبق عليهم الأوصاف التي استدللنا عليها، أو الأرجح إنه يشير لعناصر الكنجارة كما يجسِّدهم الرئيس الذي ربما يكون الوحيد الذي إلتقاه في دار أبو دِما. يُستخدم اسم تموركة الآن كإطار للعناصر الأقل تمدُّناً في أقصى الجنوب الغربي والذين يخشى جانبهم بمقولة إن لهم القدرة في التحوُّل لضواري فضلاً عن مقدرتهم على البعث بعد الموت وهو في الواقع نعت يرمي للإعابة ليس إلا، أما عن عاداتهم فسنورد الكثير فيما بعد. تمتد دار أبو دِما شمالاً تقريباً حتى أزوم الذي يتحدَّر من جبل مرة ويتجه غرباً حتى جبل موريي على حدود ديار المساليت ومن ثم يتجه نحو الجنوب الغربي حتى يتحوَّل لبحر السلامات.

تقع دار كرني شمال أزوم تحت إدارة مسئول من الفور يُطلق عليه اسم «نيامتون». وإلى الشمال والشمال الغربي من دار كرني[2] تُوجد مراكز «فيا»[3]

١-تشحيذ الأذهان المرجع السابق ص(١٨١). والدنقار المشار إليه هو طبل يُطلق عليه دِنقر وليس دنقار كما ورد في المتن.

(٢) تعني بلغة الفور السراويل.

(٣) تعني بلغة الفور الأرنب.

و«مادي»[1]. وبناء على إفادة النيامتون نفسه فإن جميع أتباعه من الأهالي - باستثناء القليلين - هم من الرُنقا وغيرهم من الفراتيت الذين وطّنهم سلاطين دارفور كعبيد للأرض، بل يصنِّف رئيس الشراتي نفسه بأنه من قبيلة الفرتيت. لسنا في حاجة لترديد إدعاءِ النيامتون بأنه يحمل دماءً عربية بالرغم من إنه يسمي نفسه «فوراوي»، ولا يزال أسيراً لتلك الخرافات والمعتقدات المحلية. أما عن الفروع القبلية فليس لديه الإلمام أو المقدرة على تمييز مجموعة عن الأخرى على أسس واضحة.

يسود الإعتقاد بأن تموركة دار أبو دِما من أنصاف الفور وأنصاف الفرتيت لكن الشراتي يُعينون - بصفة رئيسة - من الفور رغم إن عموم القرويين من الفرتيت، وبناء على أقوال النيامتون فإن أغلب هؤلاء الفراتيت المستوطَنين في أبو دِما ينتمون أصلاً لقبيلة الفوروقي الذين يقول عنهم الداجو بأنهم كانوا المستوطَنين الأوائل لشرق دارا[2] عندما وطأت أقدامهم البلاد، وهم الذين أجلوهم عنها. يقول النيامتون بأن «التبيلا» هم في الأصل من قبائل بنقا، وبما إن من الحقائق الموثوقة هي إن التبيلا - على وجه الخصوص - يختلفون نوعاً ما عن بقية أتباع الدمنقاوي، فإن هذا النظر قد ينطوي على شيء من الحقيقة. عليه، إذا كان قول النيامتون جديراً بالثقة فإن هذا يثبت إن كل من جبل مرة وغرب دارفور كانا - في زمن ما - موطناً لقبائل الفرتيت الذين أزيحوا منه - جزئياً - بواسطة الداجو، والتنجر والعرب[3]. فشل النيامتون في تفسير أسباب إطلاق اسم «فور» على هؤلاء الفراتيت وكيف تطابقت لغتهم والتي لا علاقة لها بأي لغة من لغات قبائل الفرتيت الذين قابلتهم سواء كان ذلك في جبل مرة أو في مختلف الأرجاء. حقيقة يجد المرء صعوبة في إيجاد أي تفسير بخلاف إن

---

(١) تعني الشخص الذي يسير أمام حصان السلطان.

(٢) أي نيالا الحالية أو بالقرب منها..

(٣) يقول المؤلف عن الفور بخلاف دار أبو دما وكرني فإن النيامتون أكد له بأن شُعب نورقينيا (السفوح الغربية لجبل مرة) أصلهم بنده أما الذين على السفوح الشرقية تعود أصولهم للبنقا والأمنقوي (شرق جبل مرة وبالجبل) من المكركا - ذوي قربي بالزاندي في بحر الجبل - وحتى الكراكيت في جبل سي تعود أصولهم للفرتيت.

الفور كانوا - منذ ازمان قديمة جنساً مستقلاً- ثم إندمجوا لاحقاً مع تلك القبائل من الفرتيت.

مركز «فيا» الذي كان تحت إدارة قدماء السلاطين يشمل الجزء الشمالي مما يُعرف الآن بدار مساليت ودار أرنقا والتي برغم انها تُعتبر - بصفة عامة - جزء من دار مساليت إلا أنها في الحقيقة تشكِّل مركزاً منفصلاً يقع ما بين ديار المساليت والقمر. يعيش العديدون من الأرنقا والمساليت - حالياً - بين قبائل الفور خارج ديارهم التقليدية.

يصِّنف فور دارفيا أنفسهم إلى منقونقا (على جبل موقو) وأندونقا (وأندو تعني بلغة الفور الكشَّاف) ومادرنقا وأبتونقا (على جبل أبتو) وإلقانقا (أي لوز الأطفال) إذ يُقال إن شعب فيا خبراء في استئصال اللُّوز من على حلوق الأطفال، والميلونقا (على جبل ميلو) وإساغونق على إساغة[1] تحريفاً لـ«إسحق» بلهجة أهالي دارفور.

إكتشفت إن شرتاي دارفيا - شأنه شأن النيامتون - ليس لديه أدنى فكرة عن تنوُّع أقسام القبائل، أي لا يستطيع تصنيف كل فرع من بين تلك المجموعات المحلية المختلطة الأعراق والمشارب على حدة.

يعيش الأمنقوي في الجزء الشرقي لجبل مرة ويستمدون هذا الاسم من أبو أمة «أي ذراع السلطان الأيسر» مثل الدمنقاوي الذي يتأتى اسمه من «أبو دِما»[2] ويُشار لشعبه باسم أمونقا. ويبدو إن دياره كانت تشمل اسمياً - ووفقاً للخرائط القديمة - ديار الرزيقات بمن فيهم بقية البقارة والبيقو والبرقد والداجو، لكنها الآن تقتصر على مساحة محدودة في الجبال.

وكما هو مُتوقَّع يدعي الأمنقوي بأنه وأغلبية أتباعه من الأهالي تعود أصولهم

---

(١) هناك أيضاً جبل يسمى جبل أساغة في فيا ولكن هناك نفي بتسمية الاساغونق على الجبل.

(٢) تحد مقاطعتة من الشمال بدار دالي أو أبو دالي (جزع السلطان) والتي تخضع بدورها للأبو شيخ وتمتد حتى التخوم الشرقية.

للكنجارة. ومما لا شك فيه إن بينهم عناصر من الكنجارة، وبالأخص فيما يتصل بالأسرة الحاكمة فضلاً عن المايرنقا الذين سبق وتعرَّفنا عليهم في ديار الدمنقاوي في الغرب.

قسَّم الأمنقوي قومه لتسعة «وراري» وتعني - لدى الفور - «بطون»، والتسعة «وراري» هي:

مايرنقا	تروج
كنجارا	ميري
زومي	سوني[1]
سومبي[2]	داللو

وانا (يتضمنون النيقونقا[3] والتُم)

والجدير بالذكر إن كل هؤلاء من المايرنقا. أما معلوماته عن أسلافهم ففي غاية الإبهام، عدا تصنيفه للدلو وسوني ووانا (أي واننقا) كجبَّالة (أي سكان الجبال)، ويعترف بأن الوانا أرقاء أصلاً، وإن أسماء جميع تلك المجموعات الثلاث منسوبة لجبال محلية. أما عن «الميري» فيقول إن أصلهم داجو إمتزجوا بقبائل الفور. أما «التروج» فقد سبق وورد القول عنهم عند التحدُّث عن قبائل الرقيق في دارفور. يُقال إن الزومي يختلفون عن البقية بيد إن الأمنقوي لم يستطع تبرير ذلك[4] بل يكتفي بتصنيفهم مع الباقين - عدا الوانا - ضمن شُعب الفور. أما عنه وبقية المارنقا فيدعي أن جدهم يدعي مايري لكنه يعود ويقر بأن المايري هو مجرد عُشب.

لقد سبق ورأينا النيامتون يصنِّف رعايا الأمنقوي بأنهم (مكركة) من بحر الجبل. أما أقصى الجزء الشمالي لجبل سي، والذي يُحد الجزء الرئيس منه جنوباً بجبل مرة،

---

(١) تعني الرمح.

(٢) تعني الرمح.

(٣) يُقال إن جدهم قتيتا بن صلاح ويقال إن قتيتا هو عبد لفرعون مصر.

(٤) يقال إن زومي تعني الشخص غير الفضولي السكوت.

فبالرغم من إن جميع الأهالي ينتمون لقبيلة الفور ويتحدثون لغة واحدة إلا أنهم يميِّزون باسم كراكريت (أوكراكريت أو روكوا)[١]، وينقسمون إلى كرنقا الذين يقرون بأنهم كارا من الجنوب ودقونقا[٢] وأورتونقا وسايرفينقا[٣] وكيرا. أما من حيث التمدُّن فهم متساوون مع فور جبل مرة ويبدو أنهم متطابقون عرقياً.

أما الرواية التي تقول بأن شو دورشيد (آخر سلاطين التنجر) كان يدير دفهة حكمه من على جبل سي سبق وناقشناها.

يدعي الفور على السهول الواقعة شرق جبل مرة ثم على تلك الجبال المنعزلة، الانتماء للكنجارة وكيرا أحياناً[٤]، فعلى سبيل المثال يُوجد في مراكز «دوبو» و«كولو» حول «مرنقال» وغرب «تِنه» حُكام أقوياء من عنصر الكيرا اختلط بهم بعض التموركة[٥] والجبَّالة والمساليت - والأغرب - يُوجد بينهم بعض المنتسبين للكبابيش من فرع اللبابيس[٦]. أما عن هؤلاء الذين بشرق دارفور المدعين الانتساب للكنجارة الذين يعيشون خارج مواطنهم على بُعدٍ من جبل مرة ربما كان أكثرهم أهمية هم الكونيانقا الذين ينتمون أصلاً لذلك المركز الشمالي الكبير المعروف بـ(التكنياوي) الذي تقطنه الآن قبائل الزغاوة والتنجر والعرب وغيرهم. هذا فضلاً عن إن لهم مستوطَّنات في أقصى الجنوب خصوصاً حول برنجل ودارا. ولا يُستبعد إدعاؤهم بأنهم من شعبة الكنجارة لأن زعيمهم القبلي يحمل الرتبة الوراثية المعروفة بملك النحاس (أي ملك طبول الحرب).

---

(١) لا توجد صيغة للمفرد، ويقول آخرون إن مفردها كردنقو ويقال إن أصل التسمية ناجم عن صوت الحجارة عند تسوية الأرض.

(٢) معناها البطيخ.

(٣) تعني السرف، أي المجرى المائي.

(٤) من بين بطونهم القورجي والتُماري.

(٥) بطن مرتال.

(٦) يدعون التحدر من كباشي يدعى عوم ويبدو أنها تحريف لـ«عون» لأن للكبابيش أولاد عون في كردفان بطن يسمون اللبابيس ويرجح أن ترجع أصول أولاد عون للشايقية.

إذا جاز لنا التحدُث عن عادات وتقاليد الفور فهناك الكثير مما يمكن أن يُقال. ففي المقام الأول هم مسلمون بالاسم، وكانوا كذلك عند زيارة التونسي أي قبل قرن. وقبل اعتناقهم الإسلام - على أيدي سليمان صولون - اشتهروا بَعبادة الحجارة والأشجار. ولديهم دائماً - كما شاهدت بنفسي - صخرة أو شجرة ذات صلة وثقى بـ«جِني» محلي مؤذٍ كانوا ولا زالوا يسترضونه.

ثم هناك مناطق معينة لهذا الجِني تُعد من المقدسات وتُعرف بالعربية (بمحلات العوايد)، و(أدنقالو) بلغة الفور. فعلى سبيل المثال عندما كنت أسوح في غرب دارفور (مركز كرني) في عام ١٩١٦م برفقة النيامتون تصادف أن مررنا مرتين على أحد هذه المواقع، وعندها آثر النيامتون - بالرغم من تحدُّره العربي ونظرته المتعالية لرعاياه من الفور - أخذ انحناءه على بعد أميال - في المرتين - تجنباً لتلك البقاع المقدسة رغم إن بقية مرافقي من الفور لم يتأثروا بالأمر. وعلمت بأن مراعاة هذه العادات يقتصر على رئيس المركز فقط دون سواه. فإذا كان النيامتون مستعداً لذبح كبش على تلك الأماكن سيكون الأمر على ما يرام ويمكنه العبور بسلام، وكان بمقدوره أن يبعث برسالة لأقرب قرية لمقابلته في الموقع وبرفقتهم تلك الذبيحة، ولكن إذا اقتضت ضرورات الرحلة أن يكون هذا الأمر غير ممكن فليس من سبيل سوى اتقاء المكان، إذ يعتقد جازماً بأن عدم التقيُّد بهذه الطقوس ستكون نتيجته الموت المفاجئ وخلال أشهر قليلة.

وقد برر لي هو وأصدقاؤه الموقف بما يلي: ففي أحد الأمكنة ويسمى (سرقتي)[1] تُوجد صخرة يقطنها شيطان ولا يجوز لرئيس مركز كرني أن يمر بها دون أن يقدم قرباناً لهذا الشيطان، وإن هذا الحظر لا ينطبق على غيره ولو كان سلطان دارفور أو شيخ لقرية. لا تُوجد بالموقع علامات تميز حدوده ولا ضير في الاقتراب منه من أي جهة كانت. يتخلَّق الشيطان في شكل ثعبان أبيض قصير ضخم الجثة يبلغ طوله

(١) بجبل كونجو على بُعد ميل من قلي على سفح مائل على شفير خور صغير بملتقى طرق مورد المياه وهي صخرة عادية لا تتميز عن بقية الصخور التي حولها للشايقية.

حوالي القدمين برأس كبير أسود اللون مُشعَّر في حجم قبضة اليد بأعين يقشعر لها البدن. هناك إمراة مسنة تعيش على الجوار في (قولي) يألفها هذا المسخ، ووظيفتها وراثية لكنها ماتت دون أن تخلِّف غيرها، وهكذا توقَّف الدور الذي كانت تؤديه. مجرد وصول النيامتون لتلك الصخرة عليه أن يذبح كبشاً[1] ويُريق دمه عليها - أي الصخرة -، ثم تُسحب الذبيحة عبر الممر الذي يتخيَّره لسيره ومن خلفه المرأة، وبعد أن يكمِّل عبوره تتولى المرأة صنع أقراص من الدم المخلوط بالطحين، ثم تقطِّع اللحم إلى قطع وتجهز لقيمات على الصخرة أو بجانبها لذلك الثعبان، وتحادثه، ويبدو إن ذلك الشيطان يظهر لها بدوره ويؤانسها ويستجيب لتضرُّعاتها، تستمر في مخاطبته بالقول (يا ولدي) وتدلله وتظلله من القيظ. وفي الصيف تقدم التضرعات لنفس الثعبان ابتغاءً للأمطار وأملاً في محصول جيد. ونسبة لوفاة تلك العجوز يتولى شيخ القرية وكبار السن مباشرة تلك الطقوس، بيد أن الشيطان لا يظهر لهم - بالطبع - ولا يحادثهم. هناك طقوس أخرى في مركز كرني حيث تُوجد شجرة حراز كبيرة على شفير وادٍ يخترق بعض التلال الصغيرة يختبئ تحتها هذا الشيطان، لكن ليس على صخرة كما جرت العادة. سمعت أيضاً عن بقاع أخرى بشرقي دارفور، وفي دوبو - على الجانب الشرقي لجبل مرة - تُحظى بمثل هذا التقديس لكنني لم أزرها.

تتعدد أنواع القرابين لدى الفور خصوصا في جبل سي (موطن الكراكريت) ويقدمها من ينوى القيام برحلة أو مهمة محفوفة بالمخاطر، والغاية منها استرضاء تلك الشياطين، والوسطاء في مثل هذه الأحوال عادة إحدى عجائز النساء في القرية.

لا يقتصر الاعتقاد في الثعبان المقدَّس على دارفور وحدها، بل أنا والبروفسير «سلقمان» وجدنا آثاراً لتلك الطقوس قبل سنوات مضت لدى الكاجا في شمالي كردفان، حيث يعتقد النوبة المحليون في وجود ثعبان كبير يعيش في جبل يُسمى «أبوعلي» درجوا على إرسال النساء لاسترضائه. نقل قرقرويوس الحبشي - في القرن

---

(١) يشترط في الكبش أن يكون أخضر، وأخضر الحيوان في السودان هو الذي يجري لونه بين ا رمادي والأسود.

السابع عشر- لجوب لودولفوس الخازن المنتخب للأمير الإمبراطوري بأن هناك اعتقاداً قديماً في الحبشة بموجبه عبد الأثيوبيون القدماء حية كبيرة - كإله - يسمونها (اروي مدري)، كما يُوجد نفس هذا النمط التعبُّدي في جنوب كردفان وسط قبائل النوبة في جبال تكيم والطير الأخضر حتى وقتنا الحاضر.

هناك نوع من العفاريت قليلة الأهمية تُوجد في دارفور يُسمى الواحد منها «الدمزوقة» وهي مخلوقات مؤذية وتغتبط بتخثر اللبن الحليب، ويقوم الدمزوقة بتحطيم الأواني المنزلية، لكن يمكن استرضاء هذه المخلوقات لتتولى حراسة المنزل وتمنع عنه السرقة وما شاكلها. اهتم التونسي اهتماماً شديداً بهذه المخلوقات ومعلوماته عنها بأنها نوع من الجن يستخدمهم الناس كحُرَّاس لما يُوكل لها حمايته من بشر ومتاع. ودوَّن في مذكراته كيف أخافه هذا الجن في جبل مرة عندما كان ينادي على صاحب المنزل حيث رد عليه الدمزوقة بصوت غليظ مرعب (أكِبا)، أي إن صاحب الدار ليس هنا. وقال في هذا الصدد: «من أعجب ما سمعته بجبل مرة إن الجن ترعى مواشيهم بدون راعٍ منهم وهذا هو الدمزوقة». وقد أُخطر - أي التونسي - في الفاشر بأن في إمكانه الحصول على الدمزوقة. واسترسل قائلاً «من أراد منها دمزوقاً يذهب إلى من يعلم إن عنده دمازيق فيشتري منه واحداً بما يرضيه، ثم يأتي بقرعة فيها لبن ويدفعها إلى رب المنزل فيأخذها ويدخل إلى المحل الذي هن فيه، فيسلم عليهن، ويعلق القرعة التي فيها اللبن في عُلاقة البيت، ثم يقول لهن إن صاحبي فلاناً لديه مال كثير وخائف عليه من السرقة وأراد مني حارساً، فهل إحدى منكن تذهب إلى داره لأن عنده لبناً كثيراً وخيراً غزيراً، وقد أتى بهذه القرعة مملوءة لبناً». تبدي الدمازيق في البداية رفضاً ولكن بإعادة الرجاء يستجبن إذ يقول التونسي في هذا الصدد «فيتحنن لهن ويتملق ويرضين فيقول من أراد الذهاب منكن فلينزل في القرعة. ويبعد عنهن قليلاً، وحين يسمع بصوت وقوعه في اللبن يغطي القرعة بطبق من سعف ويأخذها من عُلاقتها مغطاة ويدفعها لصاحبه المشتري، فيأخذها ويذهب بها إلى داره ويعلقها في بيته، ويوكل بالقرعة جارية أو امرأة، تأتي كل يوم على الصباح وتأخذ القرعة وتريق ما فيها من لبن، وتغسلها جيداً، ثم تضع فيها لبناً آخر محلوباً

في ساعته وتعلقها. وحينئذ يأمن الإنسان على ماله من السرقة والضياع»[١]. يعلق التونسي على تلك الرواية بقوله بأنه اقتنى إحدى هذه الدمازيق فقتل ابنا محبوباً له غافله ليسرق بعض الحلي لخليلته، فكسر الدمزوقة عنقه فقرر التخلّص منه فصنع وليمة وجمع الناس وقاموا بإطلاق الرصاص وهم يصيحون «دمزوقة أبيه» أي أين الشيطان بلغة الفور ففر وتخلص منه.

لكن بالرغم من ذلك فهي رواية مثيرة وتقدم دليلاً إضافياً للخصائص المقدَّسة للبن الذي سنتعرَّض له بالتعليق في نهاية هذا الفصل.

ثم روى التونسي - بخلاف المعتقدات الشائعة - كيف إن شعبة التموركة من الفور والمساليت لهم القدرة على التحوُّل لحيوانات بحيث يتحوَّل الأوائل لأُسود بينما ينقلب الأخيرون ضباعاً وقططاً وكلاباً. ثم يُقال بأن التموركة يبعثون بعد ثلاثة أيام من الموت ويهبون من قبورهم إلى ديار أخرى وفيها يتزوَّجون ويحيون حياة أخرى. تحت إمرة السلطان فرقة من هؤلاء السحرة يستخدمهم كرسل تحت رئاسة ملك يُسمى (كرتاب) وقد حذر رئيس التموركة التونسي من مغبة مهاجمة الأسود في ديارهم[٢] بقوله «لأن جميع ما ترونه من السباع في هذه الجهة منا»[٣].

---

(١) تشحيذ الأذهان المرجع السابق ص ١٦٥

(٢) يجدر التوقف لدى ملحوظات د. فليكن (مذكرات حول قبيلة الفور ١٨٨٤ - ١٨٨٥) وما تجدر ملاحظته بأن الحديث يدور حول المنطقة المحيطة بدارا فقط وإن أغلب السكان هنا من الداجو والبرقد مع الفور. يقول عبارة «كلمة» تتوافق مع فكرتنا عن الروح ويسمونها «قوة الكبد» لانهم يعتقدون إن الكبد هي مقعد الروح. ويعتقدون إن تمديد أجل الروح يتوقف على تناول أكباد الحيوانات. فعندما يُذبح حيوان يأكل الفور الكبد نيئاً مع تجنب مسها باليد لأنها مقدسة. لا يسمح للنساء بأكل الكبد بأعتقاد إنهن لا يملكن «كلمة» وعندما يموت الرجل يعتقد إن روحه تذهب لـ«أكرأ» وهناك يُخطر إن كان خيراً ليذهب لـ«مولو»، ومولو هو التعريف القديم لله لدى الأهالي، يضيف بأن قولو يُوجد في «جواي» أي السماء، كذلك إن «أورو» تقابل الجحيم وإنه ليس للنساء حياة أخرى، وإن شبح المتوفي يُسمى «مالان». فيما يتعلق بالمعتقد حول الكبد يجد التعضيد لدى التونسي، فهناك تفاصيل عن الأكل الطقوسي للكبد في حفل تولية السلطان.

(٣) تشحيذ الأذهان المرجع السابق ص ٣٣٠.

هناك اعتقاد سائد على نطاق دارفور بإسناد مُكنه التشكُّل لجميع الفور، وعبارة (نباتي)[1] تعبير عام أُسيء استخدامه، وتعني إن هذا الشخص يعيش حياة ثانية بعد موت سابق، وإنه بدلاً من أن يصعد للفردوس عاد ليحيا حياة ثانية.

أعطى التونسي معلومات دقيقة وموثوقة عن النظام السياسي السائد في دارفور تحت نظام السلطنة وعن الرتب وامتيازات البلاط بحيث لا حاجة لنا لتكرارها. بيد أن ما رآه من المراكز قليل وبالتالي لم يتطرَّق لاقتصادهم الداخلي. ونظامهم الحالي ليس هناك ما يدل على إنه قد تغيَّر عن ذي قبل، فهو على شيء من البساطة بحيث إن هناك شرتاي[2] (جمعها شراتي) على رئاسة أي مركز تتوازى درجته مع العمدة في أرجاء السودان الأخرى. ويكون تحت إدارة الشرتاي الأول عدد من الشراتي الأقل درجة، يتولى كل منهم إدارة عدد معين من القرى[3] وجميعهم موظفون عموميون من نفس القبيلة أو أحد فروعها ممن يتبع لها المركز. وتحت إدارة كل شرتاي عدد من الدمالج أيضاً (مفردها دملج) أي كبير القبيلة[4]. ثم هناك وظيفة الكرسي وتعني رئيس مجلس الدمالج.

أما عن تقسيم العائدات القبلية في جبل سي، يأخذ الشرتاي حصتين حصة له والأخرى للسلطان) ويأخذ الكرسي الحصة المتبقية والتي تقسَّم - بدورها - بنفس النسب بحيث يحصل الكرسي على الثلثين والثلث المتبقي للدمالج. يشغل الكرسي

---

(١) ربما المقصود «بعاتي» المستخدمة في السودان وأخطأ المؤلف في تهجئتها وللكلمة أصل عربي والمقصود بها «بعاثي» - أي من يبعث بعد الموت - ثم قُلبت ثأؤها تاء كعادة أهل السودان أحياناً.

(٢) يقال إن أصل الكلمة عربي لكنه أمر مشكوك فيه ويطلق الفور الأصليون على الشرتاي اسم «كيسو» أو كيسونق «جمعها كيسونقونق»

(٣) يسمى رئيس الشراتي بأسم «كيسونقونق كيري»

(٤) بحسب ما جاء في التونسي فإن كلمة دملج ذات أصل عربي وتعني نوعاً من الأسورة يلبس فوق المرفق. والاسم للدملج الصحيح لدى الفور هو «كليمو» والفرد «دلمونق» وذلك عند الحديث بلغة الفور. أما ملك فهي كلمة عربية، أما في لغة الفور فهي «ساقال».

وظيفة تنفيذية تتمثَّل في نقل توجيهات الشرتاي وجمع الضرائب... إلخ. وتلك الوظيفة - وفقاً للأعراف الوراثية - تنتقل إلى الأخ أو الابن لكن إذا انعدمت الكفاءة الشخصية يتم اختيار دملج آخر. يتلو الدملج في الرتبة شيوخ القرى ويُطلق عليهم اسم (ملوك) ومفردها (ملك). ثم هناك وظيفة مبهمة الاختصاص - لحد ما - لا تزال موجودة وهي (الأرندلو). لأي شرتاي في المواطن الأصلية للفور الأرندلو الخاص به، ونفس الشيء ينطبق على السلطان في الفاشر، أما عن اختصاصاته فلا تزال محل جدل. ففي دار أبو دِما وكرني يقارب اختصاصه اختصاص القاضي، وهو منصب ذو طابع ديني. فإذا نشب نزاع جنائي أو مدني ولم تكن الوقائع متنازع عليها يصدر الشرتاي الحكم، لكن إذا كان النزاع في حاجة لأدلة أو لتعزيز بأقوال الشهود، يُحال الأمر للأرندلو الذي يقدم حيثياته للشرتاي بما يمكِّنه من إصدار الحكم أو العقوبة. فإذا وُقِّعت عقوبة الغرامة تُقسم بينهما.

ومن ناحية أخرى فإنني لم أتمكَّن من أن أجد أي صفة دينية للأرندلو في جبل سي بل يُشار إليه هناك كوزير للشرتاي.

أما أرندلو السلطان أو أرندلو الفاشر، فقد عرَّفه التونسي بأنه (رأس السلطان) وهو منصب عظيم الشأن يُكنَّى حامله برأس السلطان، وللمنصب إقطاعيات كبيرة وبلاد، ولا يُحيًّا حامله إلا بعبارة «دونجراي دونجة»، وتُبسط أمامه السجادة كالسلطان. وإذا كان السلطان مسافراً أو قانصاً يمشي صاحب هذا المنصب بعساكره أمام الجيش ولا يسبقه أحد. وإذا رجعنا لعبارة رأس السلطان - المُكنَّى بها الأرندلو - نجد إنها تتعارض مع ما يقوله الأهالي في «أبو دِما» و«سي» و«كرني» بأنها تعني (حارس الأبواب) بحيث أن من يرغب في مقابلة السلطان أو الشرتاي - بحسب الأحوال - يجب أن ينال موافقته أولاً[1]. عند إعادة احتلال الفاشر في (١٩١٦م) كان

(١) يسمي الفور الباب «ور» أو «أور» والفكي «يور» وذات العبارة تعني الدقيق المستخلص من سحق الغلال بالمرحاكة التي تتكوَّن من حجرين أحدهما مسطح مثبت في الأرض والآخر صغير تسحق به الغلة.

هناك «أرندلو رمزي»، دون امتيازات أو سلطات، ولم يفوّضه السلطان أية اختصاصات بحيث اقتصر سند وجوده على الأعراف المورثة فقط. وبنفس القدر حلّ بالمراكز الخارجية المأهولة بالفور بعض التغيير بسبب الانتشار الواسع للمفاهيم الإسلامية، بحيث ازداد عدد الفقهاء، وهكذا أصبح من المعتاد استشارتهم مثل الأرندلو أو أكثر، وبالتالي فقد حاملو المنصب الكثير من أوضاعهم المميَّزة.

ثم نشأت - بعد ذلك - وظيفة القاضي المحلي الذي يعينه السلطان، وأصبح يمارس نفس اختصاصات الأرندلو بين القبائل الأخرى مسترشداً بالقليل من مبادئ الشريعة الإسلامية الأمر الذي يميِّزه على الأرندلو. فإذا توفي الشخص وفاة طبيعية في دار أبو دما فإنه يُدفن دون مسئولية على أحد، بيد أن هذا الشخص إذا قُتل في مشاجرة فيجب أن يدفع أقاربه ما يعادل نصف جنيه كرسوم دفن للأرندلو الذي يتقاسمه مع الشرتاي، ويُسمى رسم (شراء مقبرة)، إلا أن دفع هذا الرسم لا يعني شراء الأرض فعلاً، بل يتوجَّب دفعه ولو كانت أرض الدفن مملوكة للمتوفى نفسه[1]. هذا الرسم الذي يختلف عن الدية أو الغرامة يُقال إنه ابتُدع كوسيلة للردع عن الشجار، غير أن هذا التفسير غير مُقنع لأن هذه الغرامة تُحصَّل بصرف النظر عن وقوع المشاجرة، وذلك كأن يُقتل شخص أثناء نومه دون أن يكون أي من الطرفين ملوماً. وإذا قتل أحدهم الأرندلو يلتزم أقاربه بدفع الغرامة لورثته بحسب رواية الشرتاي الذي كنت أستخلص معلوماتي منه. تُدفع الدية من قبل أهل القاتل بالطريقة المعتادة كتعويض لأهل المتوفى، لكن بجانب هذه الدية هناك غرامة تبلغ في مجملها ستة رؤوس من الأبقار يدفعها أهالي منطقة القاتل (حاكورة)[2] لشرتاي ديار القتيل. هذا الإجراء يتضمَّن - دون شك - تدبيراً منعياً لارتكاب الجرائم بحيث تُحمَّل بعض الجزاءات

(١) أثناء الاضطرابات التي لازمت احتلال دارفور في ١٩١٦ قتل بعض العرب بواسطة الفور، ولم يكن الفور رافضين لدفع الدية فقط بل ختموا صلفهم بأن طلبوا رسوماً للدفن من العرب قبل أن يسمحوا لهم بالدفن.

(٢) الحاكورة هي أرض إقطاعية، يشابه هذا العرف نظام القسامة في الشريعة الإسلامية حيث تحمَّل كل القرية التي وجدت فيها الجثة الدية إذا تعذَّر التعرُّف على القاتل الحقيقي.

للجيران. هناك تصرفات بدائية مثل تحاشي الرجل لصهرته، وتحاشي الزوجة لصهرها، وكلها تقاليد مرعية في دارفور وكردفان من قبل أعراب البدو والمستقرين من الأهالي، وكذلك في الجزيرة وشمال السودان. وفي هذا الصدد يقول التونسي: «ومن عادتهم إن الرجل إذا خطب بنت وكان قبل ذلك له اختلاط بأبيها وأمها، وكانت لها اختلاط بأبيه وأمه أيضاً، تذهب تلك المخالطة بمجرد الخطبة، ويستوحش كل منهم. فبعد ذلك إذا رأى الرجل أبو البنت المخطوبة أو أمها، يفر من الطريق التي هو عليها، وهما كذلك. وكذلك البنت تفر مهما رأت أباه أو أمه. وفي أثناء ذلك، إذا دخل الرجل البيت يرسل السلام لأم البنت، أما مع البنت أو أختها أو جارية في البيت ونحو ذلك، وهي ترسل له السلام أيضاً، ولا يتلاقيان. ولا يزالون كذلك حتى يبني بها فعند سابع يوم من البناء يخرج ويُقبل رأس حماه وحماته، ويجتمع عليهما، وكذلك البنت». ما ذُكر أعلاه لا يزال يُتبع بوجه صارم، وعلى وجه الخصوص فإنه يُحرَّم على الرجل مؤاكلة صهرته، أو أن تؤاكل المرأة صهرها، وإذا أجبرتهم الظروف لمخاطبة بعضهم البعض يتم ذلك وبأسرع فرصة ممكنة مع خفض الرأس وغض البصر. كما يتردد الرجل في محادثة صهره أو أن يشاركه مائدة واحدة، لكن تلك الضوابط تُراعى - في هذه الأحوال - بوجه أخف، حيث لا تُعد من القواعد الصارمة. قد يتحرَّج الرجل في التحدُّث لإخوان وأخوات زوجته وأمها أيضاً والفرض ألا يخالطهم.

إن تردد الزوجة في مخاطبة صهرتها أو إخوة وأخوان صهرها تُعتبر عادات مرعية لدى العرب وغيرهم، رغم إن التقيُّد بها كثيراً ما يتم تجاوزه. والتفسير الوحيد الذي سمعته لتلك العادات هو إنها من مقتضيات الاحترام لوالدي الزوج أو الزوجة، وينطبق نفس السلوك لدى مواجهة العم والخال بين القبائل غير العربية إذ يصفونهم بأنهم (الأب الأصغر)[1].

---

(١) قد لا يتحدث الرجل من البشاريين لنسيبته أو يجتمع بها رغم إن ابنه الأول ينبغي أن يُولد في بيتها وبعد أن يُولد له أثنان أو ثلاثة من الأبناء، يهديها هدية ثم يحادثها بعد ذلك، ويمكن للرجل أن يحادث صهره لكنه لا يؤاكله.

بجانب هذه المعتقدات الغريبة يرى المرء على جانب أحد الطرق الصخرية الوعرة الذي يؤدي إلى بئر - وجود ركام حجري صغير أو عدة ركامات مشوَّنة من الحجر مع بعض روث الأبقار إضافة لبعض العصي. يسمى مثل هذا المكان في شمال دارفور (أم بل). ووجود مثل هذا الأثر يدل على وقوع حادث شنيع، كأن يلتقي الزوج وصهرته أثناء غدوهم للبئر أو رواحهم، ويتوجَّب على الزوج - في مثل هذه الحالة - أن يجثو باسطاً يديه على الأرض حتى تمر صهرته، ومن ثم يقوم بتشوين بعض الحجارة على جانبي الموقع. كما يتوجَّب ذلك إذا تعثرً شخص أثناء سيره أو ضرط على غفلة منه مثلاً، ثم يقوم المارة - فيما بعد - بإضافة المزيد من الأحجار للركام مراراً. وتقوم الفكرة على إن هناك روحاً شريرة ترتاد الموقع وتسبب الأذى، وينصرف القصد - بتشوين هذه الأحجار - لطمر الروح تحت ركامها أو استرضائها بتلك الرموز الصغيرة من الروث والعصي.

يشيع ختان الذكور في دارفور - عند زيارة التونسي - وكذلك ختان الإناث عدا الفور الأصليين الذين لا يُخضعون الإناث له. والعادات المتعلِّقة بالختان التي شاهدتها في إحدى قرى القمر جوار كبكابية شائعة لدى عرب دارفور وغيرهم، وهي إن الغلام إذا ما خُتن يزينه أبواه في أبهي الحلل مستخدمين في ذلك حلي النساء ويُقلد - على وجه الخصوص - سيفاً. ومن تاريخ ختن الصبي ولمدة أربعة عشر يوماً يجوز له إن يطلب من أي زائر للقرية من أقاربه المقتدرين جُعلاً متعارفاً عليه من هبات، كما يجوز له خلال هذه المدة زيارة القرى المجاورة، ويلتزم من يقوم بزيارته بذبح دجاجة أو ديك على شرفه، أما غير ذلك سواء كان كبشاً أو خلافه فهو غير مقبول.

كل قرى الفور التي مررت بها قذرة وسيئة البناء شأنها شأن بقية القرى. وعندما يستقر أبناء الأجيال الحالية بمنأى عن الجبال فإنهم يبنون أكواخاً (تُكل) مخروطية من القش أو الحشائش، وتُلحق بها سقيفه، أما إذا توفرَّت الصخور فعادة ما يطرحون طبقة أو طبقتين منها كقواعد للكوخ صوناً له من الأرضة (النمل الأبيض) ثم يُسقف بالقش. المفترض إن عدد السكان - في الماضي - يفوق عددهم الحالي بحوالي عشر مرات، وكل تلك الجبال التي هُجرت الآن تبدو للمرء كما لو

كانت تروساً زراعية ممدودة الجوانب أفقياً لارتفاع معقول بخطوط رفيعة حُفت برصيف من الأحجار بحيث إن جانب الجبل - بدلاً من أن يكون منحدراً - يبدو في شكل سلسلة من الدرجات القصيرة على تلك التروس المقامة لحجز مياه الأمطار. يُزرع القمح ويُستفاد - لهذا الغرض - بأي شبر من الأرض مما يقف شاهداً على ما سبق من كثافة للسكان.

وعلى نفس النسق تتناثر بقايا القرى الحجرية القديمة في كل المنطقة المجاورة لجبل مرة وسفوحه التي لا تُحصى. المنازل دائرية الشكل أو مربعة، والجدران مُحْكمة وتتكوَّن من بلاطات غير مصقولة ومن الصخور، ولكن في بعض الأحيان هناك أساسات من الحجر الصلد تعلو مستوى الأرض، ويُقال ربما سبق وكانت عليها بعض أكواخ القش. وإذا تمعنَّا في نماذج الرسم نجد أن القرى تأخذ شكل بيت الأرانب مع تقارب المباني على تلك الأرض العالية والتي تبدو كما لو كانت مُعدة للدفاع. لا يملك الفقير أكثر من كوخ أما الغني فلداره فناء وعدد من الغرف أو الأكواخ المتقاربة. أما أسيجة منازل الزعماء - كما يتصوَّر المرء - فعادة ما تحتل موقعاً وسطاً على أعلى وأكبر بقعة أرض، والفرض إنها أجمل المباني تصميماً وأكثرها تعقيداً. كما في الأشكال (١) و(٢) و(٣) وتفاصيلها كالآتي:

الشكل(١)

ملحوظة: الشكل (١) (من جبال كاورا). (A) عبارة عن مختلي و(B) دائـرة أعلى رصيف مبني على ارتفاع ما كجدران هناك منازل مشابهة أصغر حجماً تظاهر بعضها بعضاً بنفس الصورة. يبلغ سمك الجدر المشار لها بــ(c) حوالي القدمين.

الشكل (٢)

ملحوظة: الشكل (٢) (من جبل سي) قطر الغرفة حوالي ثلاثة أقدام. والفتحة المرموز لها بـ(A) هي المدخل بعتبة حجرية متدرجة.

الشكل(٣)



ملحوظة: (من جبل سي) قطر الدائرة حوالي (١١) ياردة. الغرف ٢,٥ × ٣,٥ ياردة، الجزء المرموز له بـ(B) والجزء الشرقي من (A) مشيد على قمة تل صخري صغير. الجزء الغربي من (A) على منحدر سفلي. الحوائط على ارتفاع ٢,٥ إلى ثلاثة أقدام، عدا النصف الغربي من (A) الذي يقدر بحوالي خمسة أقدام. الجزء (B) ليس به غرف. (c) عبارة عن مسطبة مرتفعة لحد معين كالجدار. (B) يجوز أن تكون مدخل. (D وE) عبارة عن جدران تداعت تماماً. (F) قد يكون ممراً. (G وG) مجرد شغب متدلٍ على جانبي التلة. (H) صخور جملودية.

وقد تلقي تلك الرسومات الضوء على غرابة تصميمات تلك الأسيجة التي يستوحيها المرء من واقع تلك الخرائب. يشير النموذج الأول لمنزل الزعيم وهو على ارتفاع سبعين قدماً على إفريز في جبل كاورا (ويمثل هذا الجبل حلقة وصل بين جبل سي - الذي ينتمي إليه - وجبل مرة الذي يمر به الطريق من الفاشر إلى كبكابية) أما الشكلان الآخران فلمنازل كبيرة على قرية «دريب لين» القديمة على الحافة الغربية لجبل سي شمالي كاورا.

تاريخ نشوء هذه القرى مجهول مع ذلك فالثابت إنها كانت مأهولة حتى غزو الزبير باشا لدارفور في أواخر القرن الماضي. وإن أكثر ما يكتنفه الغموض في تلك المباني هو بالتأكيد تلك الحجرة الصغيرة التي تشبه التجويف الجداري، وفي بعض الأحوال - كما يوضح الرسم - تكون الغرفة منفردة يتراوح ارتفاعها ما بين القدمين ونصف القدم أو الثلاثة أقدام، وبسقف مقعّر ومدخل يكفي بالكاد لدخول إنسان صغير الحجم. وفي حالات أخرى تكون الغرف مزدوجة، وتؤدي الغرفة الصغيرة لممر ضيق يؤدي إلى غرفة أكثر اتساعا تأخذ نفس التصميم. يصعب التكهُّن بسبب نحت تلك التجويفات الصخرية، فمن غير المعروف إن كانت ملاجئ لتوفير الدفء شتاءاً؟ أم إنها جزء خاص بالنساء؟ أو لأي غرض آخر.

أغلب هذه الأسيجة تشتمل على طابق واحد مُشيد على نسق دائري بسيط، أما تلك المباني التي تتميَّز بأهمية خاصة فغالباً ما يجد المرء إنها تحوي غرفة في الطابق العلوي تعلو تلك الغرفة المجوفة، أو على قمة الجدار المدعَّم بسمك البنيان.

أنا شخصياً لم أقم بزيارة أي من القرى الحالية الموجودة في أكثر البقاع أمناً ومنعةً، وأقصد تلك السلسلة في قلب جبل سي، أو القمم التي تعلو منطقة «كالكوتنق» على الحدود الجنوبية لجبل مرة، أو تلك البقاع التي تقع بالقرب من البحيرة الجبلية الواسعة في ضريبة[1]، بيد أن ما استخلصته من تقرير أعده وأعارني إياه الكابتن «هوبس» من آلاي ويست يوركشاير والذي كان له السبق بمعية مستر «جيلان» من موظفي السودان لكونه أول رجل أبيض زار بحيرة ضريبة في هذه السلسلة، يتمثَّل في إن بعض الفور - على الأقل - ما زالوا يهتمون ببناء أكواخهم ورعاية محاصيلهم، وبسبب عزلتهم الشديدة هم الآن أقل تدهوراً من إخوتهم الذين على تلك المناطق سهلة المراقي. وما جاء عن بحيرتي ضريبة يتميَّز بالأهمية أيضاً، إذ يقول: لم تقابلنا أيه دلالة لحيازة الأراضي إلا بعد بلوغنا لارتفاع ١٧٠٠ قدم تقريباً أعلى ذلك السطح حيث تتغيَّر طبيعة المنطقة بتوافُر العديد من الأشجار الجبلية مثل السرخس وبعض الحشائش الجبلية القصيرة التي تنسجم في شكلها مع القرى، إضافة إلى حقول القمح والبقاع المزروعة بالطماطم والبصل التي تُروى عادة بالعديد من الجداول المنسابة من جبل مرة.

تقع بحيرتا ضريبة على ارتفاع ١٧٠٠ قدم فوق مستوى سطح البحر، وعلى ساحة - أفضل ما تُوصف به - إنها مدرج واسع، يتراوح قطرها ما بين ثلاثة إلى أربعة أميال، مُحاطة بمدى دائري أو شبه بيضاوي في مرتفعات شديدة الانحدار تتدَّرج في ارتفاعها من نحو الثمانمائة إلى الألفي قدم فوق مستوى سطح البحيرة.

أكبر البحيرتين مالحة ويُطلق عليها الأهالي اسم «الأنثى» وتشغل الركن الشمالي الشرقي لهذا المدرج، ويبلغ طولها حوالي ١٠٥٠ ياردة وبعرض يبلغ ١٣٥٠ ياردة ويبلغ

(١) فوهة البركان في قمة الجبل.

محيطها حوالي الثلاثة وثلاثة أرباع الميل. الماء شديد الملوحة أخضر اللون سيء المذاق نتن الرائحة. وحوالي البحيرة ركام كثيف من الملح يوضح بجلاء علامات علو مياهها وذلك باستثناء حدها الشمالي حيث تتحدَّر الحافة بالتدريج نحو ترسبات ناعمة، تنبعث منها رائحة الطين النافذة، مما يُظهر البحيرة كما لو كانت غير عميقة الغور فيما عدا أقصى حدها الشمالي.

أما البحيرة الأخرى «الذكر» فتقع على بعد ثلاثة أرباع الميل جنوب غرب البحيرة المالحة، ماؤها عذب وطولها حوالي ١٥٥٠ ياردة وبعرض ٩٠٠ ياردة وبمحيط يبلغ حوالي الميلين وتمثِّل مركز الفوهة الكبرى الناتجة - دون شك - عن نشاط بركاني. ترتفع جوانبها أعلى الماء بشكل عمودي تقريباً بما يتراوح ما بين الأربعمائة والسبعمائة قدم، ماؤها أخضر اللون كما هو حال البحيرة المالحة، لكنه صافٍ ونظيف ويدل طعمه ورائحته على احتوائه لشيء من الكبريت. يدل الانحدار الحادّ للبحيرة على العمق الشديد. يحيط الأهالي تلك البحيرة بالكثير من الخزعبلات والخوف، ويفهم أهالي جبل مرة خصائصها الباطنية جيداً. ويعتقدون بأنها مسكونة بالجن ويعتبرونها وسيطاً ويوجهون لها الأسئلة التي يستنتجون إجابتها من الألوان التي يعكسها وجه البحيرة، ففي الصباح الباكر مثلاً أو عند الغسق تكون هناك انعكاسات بائنة، أو عندما يكون سطح الماء متكِّدراً بسبب الرياح. ليس هناك أي منفذ لتلك البحيرات اللهم إلا إذا كان خفياً، وتغذيها عدة مجاري (أي خيران) تنحدر من الجبال المحيطة بها.

يشيِّد الفور أكواخاً جيدة «تُكل» وأكواخاً دائرية محاطة بجدران من الأحجار المرصوفة والتي تمتاز بقوة وبسمك مُعتبرين وارتفاع يوازي حوالي الستة أقدام، وتُسقف عادة بحِزم من الأعواد. هذه القرى هي الأفضل والأكثر متانة من أية مبانٍ أخرى رأيتها حتى الآن سواء في شمال أو جنوب دارفور، وتختلف بوجه ملفت عن تلك الأكواخ البائسة سيئة البنيان الخاصة بالبقارة من عرب بني هلبة الذين يقطنون السهل الواقع جنوب غرب الجبل. يتميَّز فور الجبل بالتقدُّم على كل بقية قبائل دارفور كبنائين ومزارعين مهرة.

تعترضنا كثيراً المدافن القديمة التي تأخذ الشكل البيضاوي وعليها أعداد من الصخور المتناثرة والصفائح الحجرية الملصقة على الحواف. ويُقال عن هذه المدافن - في دار أبو دِما - بأنها عمل من أعمال (أبو أم جنان) وهو تعبير يطابق «أبو قنعان» أو «أبو كنعان» الذي تُنسج حوله الأساطير، ويُقال بأنه سبق وعاش في شمالي جبال النوبة بكردفان. ويمكن أن يُقرن اسمه - أيضاً - بكنعان بن سام الجد التقليدي للقبائل الوثنية[١].

نظام تخزين الحبوب في قرى الفور يختلف عن ذلك النظام المتبَّع في كردفان أو الشرق، ومبلغ علمي إنه يتمثَّل في الآتي: تُغرز أعداد من الأعمدة ذات الشُعب القصيرة في شكل مربع، لأدنى ارتفاع لها وهو قدم تقريباً، تُمد على تلك الشعب بعض القضبان الأفقية مع الأغصان والنسيج العشبي التي تُطرح من عمود لعمود حتى تشكِّل بسطة مستوية. وعند موسم الحصاد تُشوَّن السنابل على تلك البسطة مُحاطة بشرائح طويلة وعريضة من النسيج العشبِي (الشرقانية وجمعها شراقنة) وتُشد حول تلك القوائم حتى حدها الأعلى وبذلك تشكل حزاماً لها. تُصنع تلك الحُصر من عشب النال الذي يُشكِّل في هيئة شبكة، وبهذا الوجه فإن النموذج الذي يُصنع لتخزين الغلال يُرفع من على الأرض وذلك تجنُّباً لما يسببه النمل الأبيض من تلف[٢].

وللتخزين داخل المنزل يستعمل الفور (السويبة)[٣]، وهي إناء اسطواني كبير مصنوع من الطين وروث الأبقار، يبلغ ارتفاعه حوالي الأربعة أقدام وعرضه حوالي القدمين ونصف القدم. ولحفظ الماء والمريسة يستعملون (البرُمه) المصنوعة من الطين المحروق المزودة باثنين أو ثلاثة من الأيدي الزخرفية الرمزية الصغيرة التي تأخذ شكل المقابض المصممة على جسم (البرُمة) وعلى عنقها، وتُصنع بنفس النمط

---

(١) يعرف الدجاج البري في كردفان أيضاً بأسم «جداد أبو كنعان».

(٢) إعتقد إن الوصف أعلاه ينطبق على البيدر أو ما يُعرف محلياً بالجُرن حيث تجمع السنابل قبل درسها.

(٣) تُسمى في شمال السودان والوسط (القُسيبة) كما يُطلق عليها في الغرب اسم دبنقا أيضاً

المتبَّع في شمالي كردفان وذلك بوضع الكرة الطينية على الحصير مع إيلاج قبضة اليد في جوفها لإفراغها وتجويفها.

أما الفن الدارفوري الذي يتميَّز بالبراعة فهو صناعة السلال التي تنسج عادة من حشائش خشنه قوية مصبوغة بمختلف الألوان، على نسق سلة المهملات العادية، وتتميَّز بأغطيتها الكبيرة المسطحة والمائلة للتحدُّب، وتبدو محلاة بكل الألوان الزاهية التي تأخذ شكل الخطوط والمكعبات وغالباً ما تُعرض في أماكن بيع التُحف في أم درمان.

يصنع الفور سلة تُسمى «ريكة» لكيل الغلال أو حملها، وتُنسج عادة من السعف غير الملوَّن وتأخذ شكل وعاء دائري كبير ويبلغ ارتفاعها حوالي القدم وبقطر يبلغ القدم ونصف القدم عند العنق. تتكوَّن الأربطة العرضية من لحاء أشجار اللعوت وما شاكلها، ويبلغ عرض تلك الأربطة حوالي البوصة وتُوضع متلاصقة، ثم ينسجون تلك الشرائح أفقياً مُثبته على أعواد متلاصقة من القصب أيضاً، ويُصمم الإطار من شرائح قصبية أغلظ، ويتكوَّن القعر من حلقتي ارتكاز من القصب الغليظ وتُطلي من الداخل بروث الأبقار - منعاً للتسرب.

يحمل الفور عادة كنانة محشوة بالرماح مع مدية، بيد أن أكثر أسلحتهم شيوعاً هو السفروق وجمعه (سفاريق) أنظر الأشكال (a) و(b) و(c)

إضافة لذلك النوع المبيَّن في الشكل (ج) وهو الأقل شيوعاً، ويُقطع السفروق من فروع شجر الأندراب أو الكِتر، وقد جرت العادة بأن يحمل الرجل من الفور هذا السفروق الذي يُستخدم في صيد الأرانب والدجاج البري، ويُستخدم عند الخطوب لإعاقة أرجل الخيل التي يمتطيها الأعداء.

لا يستخدم الزنوج النيليون مثل تلك العصي لكن الزنوج الذين غزوا نوبيا ومصر العليا إبان حكم الأسرة الثامنة عشر كانوا يستخدمونها وكذلك البجة.

من حيث التكوين يتميَّز فور جبل مرة وسي وغربها بالنحافة ودقة الأرجل وصغر عظام الرأس الذي يأخذ الشكل البيضاوي ويختصون برائحة زنخة مميَّزة. يتزيَّن الشبان بالأسورة النسائية مع تزيين شعورهم بالقليل من الخرز والودع -

خصوصاً التبيلا - بيد أنهم يتركون هذه التفاهات بمجرد بلوغهم سن الرشد. يتميَّز سلوكهم بالبله وقلة الدهاء، فضلاً عن إنهم مريبين مخادعين وكَذبة بالسليقة حتى في المسائل التافهة، لا يتفوَّهون بكلمة الصدق وهم في غاية الجهل والسذاجة، وتُنسج حولهم أسوأ الشائعات، ويتميزون بحدة المزاج، كسالي وسكارى غير إنه يمكن إلهاؤهم بسهولة، مضحكين بالغريزة وطموحهم الوحيد في الحياة هو الحصول على المزيد من المواشي.

وكل ما ابتعد المرء عن الجبال وخصوصاً نحو الشرق - حيث تصاهر الأهالي مع العرب والأجناس الأخرى - يُلحظ تحسن في التكوين والذهنية والمُثل على السواء، ومن المعتاد أن ترى رجلاً - بين الكنجارة - جيد البنيان ضخم متسق التكوين، غامق البشرة - لدرجة السواد الفاحم - ولكن بملامح زنجية غليظة مخففة بشيء من الاتساق.

جرت العادة - حتى وقتنا الحاضر - بأن يظهر سلطان دارفور ملثماً، ويخاطبه الكل مُنكس الرأس مركِّزاً نظره على الأرض وهو شبه راكع حتى يجلس على الأرض. وما زال سلطان المساليت[1] يظهر للعامة بلثام لا يُظهر إلا عينيه، ويرجح أن يكون هذا التقليد الملكي مستمدَّاً من البربر في البلاد الغربية[2]. وهي عادة مألوفة لدى الملثمين من طوارق الصحراء الغربية المعروفين في دارفور باسم «الكِنِّين» والذين لهم مستوطَنة كبيرة متاخمة للفاشر وأصلهم من البربر كما إن عادة فرض العُزلة على السلطان الجديد ولمدة أسبوع التي يمارسها البربر (منيوما) - كما ذكر بارث - تتفق تماماً مع ما يجري عليه العمل لدى سلاطين دارفور كما أورد التونسي.

إن ما أوردناه من معلومات شحيحة عن مختلف الشعوب التي امتزج بها العرب في دارفور - على وجه الخصوص - من البديهي ألا تمثِّل تكئة لتعضيد أية حقائق علمية لكنها - في نفس الوقت - تُعطي مؤشرات للاتجاهات التي أتت منها تلك التأثيرات العرقية التي تفاعلت في المنطقة.

---

(١) يعلق المؤلف بأنه قابله في ١٩١٨م.

(٢) يظهر هذا التقليد في أثيوبيا أيضاً أنظر بينت ص ٣٩.

فإذا استبعدنا العنصر العربي يبدو إن العرقين الأساسيين في دارفور هما الزنوج «البانتو؟» والحاميين. والزنوج هم الموغلون في القدم ولهم حضور مكثف في الجنوب وعلى هضبة جبل مرة، أما الحاميين فبسبب ضغط عرب شمال أفريقيا المتواصل على البربر، أجبروا للتوجُّه جنوباً فتسرَّبوا إلى أراضي السود. تلك العملية التي بدأت في القرن السابع الميلادي - على أقل تقدير - والتي أثَّرت على مختلف البلدان من الأطلنطي حتى النيل بدرجات متفاوتة. أولى تلك الموجات المتدفقة جنوباً كان كل قوامها من البربر، ولكن بما إن العرب قد امتزجوا بالبربر في الشمال وأدخلوهم الإسلام، فقد تعدَّل تكوينهم العرقي نسبياً. وبحلول القرن العاشر استوطَّنت أعداد من العرب والبربر تلك الممالك التي تقع أقصى الغرب[١] ثم بدأوا يشقون طريقهم شرقاً.

الانتماء للبربر أو العرب هو إدعاء تقول به كل الأسرات الحاكمة في كل البلاد التي على الحافة الجنوبية للصحراء حتى غربي بحيرة تشاد.

لكن من تصاهر الليبو - بربر - إضافة للزنوج في أقصى الشمال نتج جنس التبو المتمركِز في جبال تبستي وذلك منذ أمد بعيد أي قبل أن يبدأ العرب في دفع البربر جنوباً. ثم إنهم وطَّدوا أقدامهم شمالي ودَّاي ودارفور كذلك، ورغم إن التأثير الاجتماعي لمجموعات البربر - عرب المتأخرين قد لا يبدو هيناً إلا إنهم لم يستطيعوا استئصالهم من هناك[٢].

هكذا يمكن للمرء أن يصنِّف السمات العرقية العامة لدارفور بوجود التبو في

(١) يقول ليو أفريكانو عن برنو في ص ٨٣٢ «لديهم ملك قدير يتحدر من قوم ليبيين يسمون باردوا» ثم في ص ١٣٣ «يرى بعض الكتّاب إن ملوك تمبكتو ترجع أصولهم لشعب زناجا - أي صناهجة - من سكان الصحراء

(٢) تجدر الملاحظة هنا بأنه لما كانت البلدان الغربية قد إعتنقت الإسلام قبل قرون من كتابات ليو في النصف الأول للقرن السادس عشر، وكذلك غانا منذ عام ١٠٦٧، كانت برنو لا تزال ترزح تحت الوثنية في أيام ليو. وبناء على تاريخ أحمد بابا (بارث مجلد ٤ ص ٤٠٧) فإن طليطوان زعيم بربر لمتونه الذي توفي في ٨٣٧م كان أول من بث الاسلام في قومه واخضع له الزنوج، وإن زاكاسي ملك سونقاي إعتنق الإسلام في ١٠٠٩م استجابة لبعثة أتت من مصر.

الشمال والزنوج في الجنوب، وإضافة للتبو والزنوج هناك القبائل العربية العديدة والتي سنتعرَّض لها في الفصل الأخير، فضلاً عن أشتات من قبائل أخرى أصلية - على نطاق البلاد - امتزجت بزنوج الجنوب وتبو الشمال ولها ارتباط مع شعوب وادي النيل القدماء من جهة ثم مع تلك الممالك القديمة الموجودة غرب بحيرة تشاد من الجهة الأخرى.

نبذة عن المصريين أو بقايا الحاميين في دارفور

تحدث «السيرجونسون»[1] عن المد الثقافي المصري المتأخِّر والذي انداح عبر السواحل على طول الهامش الجنوبي للصحراء حتى أعالي النيجر ويُرجع ذلك لتاريخ يسبق الفترة المسيحية مباشرة. برز في أقاديس شعب السنغاي الذين تبنوا - مصادفة أو تقليداً - العمران الذي يُستخدم فيه الطين والأخشاب بدلاً عن الحجارة، وبعد أن أخضعوا الماندنقو من مالي، جعلوا من (جين) على ملتقى النيجر وباني - يوماً ما - عاصمة لهم. وانطلاقا من جين فقد تسرَّبت إلى كل غربي السودان مظاهر التأثير المصري من حيث تصميم العمارة وبناء القوارب وخلافها من الفنون.

يعترض بروفسور «سلقمان» في التركيز على مصر، ويفضِّل فكرة التأثيرات الحامية (والتي تعتبر الحضارة المصرية ضرباً من تطوُّرها فقط) والتي اختمرت في أفريقيا السوداء ربما لآلاف من السنين قبل أن تدخل مصر ذاتها لأضواء التاريخ، وفي هذا الصدد يمكن استخلاص ثلاثة حقائق، حيث يقول التونسي «من بلاهة الودَّاي أيضاً إنهم لا يمكِّنون سلطانهم من شرب اللبن الحليب ويقولون إذا كان السلطان يشرب اللبن فماذا تشرب الرعية، واتفق إن أحد السلاطين اقتنى بقراً حلوباً فسمعوا به فهاجوا وقالوا له إما أن تخلي سبيل البقر وتتوب من شرب اللبن وإلا قتلناك فلم يمكنه إلا مطاوعتهم»[2].

---

(١) يقول بارث بإكتشافه لتماثل لغوي بين التبو وقدماء المصريين، بينما يرجع جزورهم لمصر (أنظر كاربو المجلد الثاني ص ١١٦).

(٢) التونسي الرحلة إلى ودَّاي المرجع السابق ص (٢٠٦)

إن الخرافات المرتبطة باللبن التي تسود وسط قبائل شرق السودان وشرق أفريقيا والزنوج النيليون هي من خصائص الأعراق الحامية وثقافتها. وما إذا كان الذي اقتبسناه أعلاه قد وصل لودَّاي من النيل عبر دارفور - بالضرورة - أو وفد إليها من الشمال بتأثير من آخرين من الليبو-بربر فإنه تساؤل يتعيَّن أن يجيب عليه ذوو خبرة، بيد أننا سبق ورأينا إن هناك معتقدات معيَّنة حول اللبن معروفة في دارفور.

الحقيقة الثانية التي لفت لها النظر «براون» هي إن أهالي دارفور يخرجون في بداية فصل الخريف برفقة الملوك إلى الحقل وذلك في موسم الزراعة. ويحفر الملك عدة حفر بنفسه. ويُقال إن نفس العادة تُمارس في برنو وغيرها، بما يطابق - كما يقول بروان - ما يجري في مصر القديمة حيث جاء ما يلي «رأس الصولجان العظيم لهراكونبوس المؤرخ له بستة أو سبعة ألف سنة سلفت يُظهر جلالته وهو يدِّشن أعمال الري بمعزق من النوع المستخدم حتى الآن. ويتوسَّط الملك المجموعة وهو قائم وممسك بكلتا يديه على معزق وخلفه رجل يحمل سلة لجمع التراب وآخر يحمل حزمة من سنابل القمح». ويشير «بروان»: لوجود نفس الممارسات لدى الفونج، ويؤكد بروس بأن اسم بادي - الذي يُعتبر لقباً عاماً لملوك الفونج - يعني «الفلاح» ويُلقَّب بذلك لأن ملكهم عادة ما يصلح لنفسه قطعة من الأرض ويزرعها مرة أثناء فترة حكمه.

ثالثاً: عندما احتلَّ عمرو بن العاص مصر وجد إن هناك عادة تقضي بالتضحية بعذراء سنوياً لتأمين فيضان النيل وقد قام بمنعها. وقيل إن نفس العادة كانت معروفة في برنو حتى عهود معاصرة وفقاً لما رواه الحجاج من الزنوج لبركهارت في القاهرة خلال الأعوام ١٨١٦ - ١٨١٧م، وذكروا له (بأن نهر تشاد ينساب في موسم الفيضان - كما في مصر - عبر برنو إلى مسافة قصيرة من العاصمة «برِني»[1] وإن جارية في كامل زينتها تُلقى في النهر بأمر الملك ابتهاجا بهذه المناسبة المقدسة).

---

(١) الصحيح إن العاصمة هي كيكوة وبرني تعني «العاصمة» وتقابل «فاشر» في دارفور وودَّاي.

ملحــق (ا)
مقارنة بين لهجة البرتي والزغاوة

عربي	برتي	زغاوة
فم	أ	أ
ولد	مر	بر
ماء	مي	بي
بقرة	فر	هري
يد	ماي	با
ذراع	ابي	تبير
فرس	برتو	هرتي
جمل	ديري	دي
حمار	دي	ادي
كلب	مَر	بري
لحم	ني	إني
نجم	مار	بار
الخريف	قي	قي
كوخ	بي	بيا (بي)
اسم	تر	تير (تيري)
طريق	قندر	قاردي
ابيض	تيدي	تيري
اخ	بارا	كرباري
واحد	سانق	لاكوي
اثنان	سو	سوي
ثلاثة	سوتي	وي
اربعة	سيتي	اشتي
خمسة	بي	هوي
سته	دوتي	دشتي
سبعة	تايتي	دشتي
ثمانية	كوزي	ووتي
تسعة	كداسي	دستي (دشني)
عشرة	موسانق	تم (تمي)
مائة	اومار	»»»

ملحـــق (٢)

مقارنة بين لهجات الميدوب والبرقد والبرابر

ملحوظة : ترمز الحروف (ك) للكنوز (د) للدناقلة و(م) للمحس (س) للسكوت

عربي	ميدوب	برقد	برابرة
واحد	بركي	مرتي	ويرم (كـ) ويرم (د) ويرا (م.س)
اثنان	اودي	اولو	أوم (ك) اون (د) أو (س م)
ثلاثة	تاسي او داسي	تيزيت	توسكم (ك) توسكن (د) تسكو (س م)
أربعة	ايجي	كيمزي	كيمسم(ك) كيمسن (د) كيمسو (س م)
خمسة	تيشي اوديشي	تيشي	ديجم (ك) ديجن (د) ديجا (س م)
سته	كورجي	كورشي	قورجم (ك) قورجن (د) قورجو(س م)
سبعة	اولوتي	كولدي	كولدم (ك) كولادن (د) كولودا (س م)
ثمانية	ايدي	إيتو	ايدم (ك) أدوين (د) أدوو (س م)
تسعة	اكدي	إجمولدي	اسكدم (ك) اسكودين (د) اسكودا (س م)
عشرة	تيمقي	تيمون	ديمنم (ك) ديمنون (د) ديم (س م)
مائة	ايمل	ميا(عربي) ميرتا	ايمل (ك د س م)
حديد	تيسي	سِرتي	سارتي (ك د س)
شعر	تيدي	تيلي	ديلدتي (ك د) سنقرتي (س م)
جبل	أور	كور	كولو (د)
حجر	أولتي	كولدي	كولو (ك د)
امراه	ايدي	اين	اين، (ك د) ايدين (س م)
ولد	أوتشي	اوتونتي	تيدني تود (ك د)
اخضر	تيسي	---	ديسي
احمر	كيلي	كيلي	جيل
اسود	أودي	أوديا	أورم (ك د)
ابيض	أدي	إيلي	ارو (ك د)
ام	إيا	اينون	اين (ك د) أبو (ف م)
اب	أبا	ايمبابون	أمباب (ك م) أبو (س م)
فم	أل	إناقول	أقل (ك د) أك (س م)

هو	أون	تير	تير (ك د) تار (س م)
هم	أنقا	تير	تِر (ك د) تير (س م)
لحم	أوسونقي	كوزي	كوسو (ك د)
اسم	أوري	انيري	أيري (ك د)
ما اسمك	نا أوري نيقودا	إنيري نينتا	؟
حصان	بورني	كيسي	مُرتي (س م) كاج (ك د)
شتاء	إرتشي	كيزيدي	كِس (ك د)
لبن	اتشري	إيشي	فجي (ك د) إنقيسي (س م)
نجم	أونجيدي	وِندي	ويسي (ك د) أمان (س م)
ماء	أورتشي أو أوشي	إيجي	إيسي (ك د) أمان (س م)
مجري مائي (خور)	------	مانتيتي	(يذكر بركهارت اسم أمِنقا للنهر لدي النوبة وأيسيق لدي الكنوز)
رأس	أور	أور	أور (ك د س م)
حمار	أوتشي	كوسولدي	كاج (س م) (يستخدم الداجو كاتشي وكلتشين والبيقو كاتشني
كلب	بيورل	ميل	ويل (ك د)
رجل	ايت أو إر	كورتوج	اوجد او اوجي او إيد (عبارة رجل في جبال الدلنج تماثل كرتوج
قمح	أورتي أو أوردي أو أودي	اوزي	ايو(ك د) إيو (س م) (لدي التاما ايوت)
بقرة	تور	تيي	تي(ن ب)
مطر	أري	ألي	أرو (ل د) أوا (م) أولي (ف) (لدي التاما أر)

عربي	الفور	دجا بحر الغزال جنوب الكارا	بنده بحر الغزال جنوب شمال شرق الدجا	سارا غرب بحر الغزال في الجزء الفرنسي	كارا وراء الحدود الجنوبية الغربية لدارفور بصفة رئيسية في الاراضي الفرنسية	قُلا جنوب سلا على بحر مامون غرب الكارا	مندو غرب الرجاف على بحر الجبل	أبوكيا غرب الرجاف في بحر الجبل
واحد	دك	سا	باري	كيري	كالا	كالا	بيري	الو
اثنان	أو	أوي	بش	قو	فاندر	درو	بيشو	ايري
ثلاثة	إز	بيتا	فُوتا	مودا او موتا	ويتا	ميتا	باتا	نا
أربعة	أونقال	بياما	فانا	سو	سو	سوو	بالا	سو
خمسة	أوسِ	بيشي	مِنتو	مي	مي	مي	بورفي	نيف
ستة	أوسونديك او (سته عربي)	باتيسا	منتو	مكا أومِخا	نكا	مِنجي	ميديا	جيكيزيا
سبعة	سابي(من العربي)	باتوي	منتوبيشي	سيلي أو شيلي	سونقليلي ويتا	—	لارزي	جليلي
ثمانية	ثماني (من العربي)	باتبيتا	منتوبافوتا	مُرتا	سونقليلي فندر	—	بادرزنيا	جيلانا
تسعة	تيسه (من العربي)	باتبيما	منتوبافانا	دوسو	تيسا(من العربي)	—	ميناوا	جلسو
عشرة	ووي	بابي	مورفو	دوكامي	دواوق	دواوق	نجكوا	مُدري
إحدى عشر	واينادك	بوتسنديسا	مورفوباباري	—	دواوق كوساكال	دوأوق انزكالا	نجكوا دابربيري	مُدري ديلالو
اثني عشر	ويناو	بوتسنديوي	مورفوبابيش	—	دوأوق كوسفندر	دوأوق أنزدرو	نجكوادابربيشو	مودريد يليرو
عشرون	إشرين (عربي)	بوروي	زوزو	—	دوأوق فندر	—	تِكيبيري	نفيريتا
مائة	فيري أو بيري	ابوربيشي	ميا (عربي)	—	ميا (عربي)		تيكى بروري	نيرنجى
بقره	او(جمعها كو)	بي	مادو	مانق	وشا	بالى	ايتي	اتي

حصان	مُرتا	مُرتا	برتا	سندا	موتا	سوندا	جواد(عربي)	جوادعربي
ضبع	تورو(جمعه تُرولقة)	زاقي	بونقو	نواينقو	جونق	مولا	لبقو	لبقو
لبن	بورا	ويا	قونقو	با	سوسو	سي	لاى	لاى
لحم	نينو	بوشي	سمبا	قا	ديدا	اندى	سوك	اوا
نجوم	اورنقا مفردها ورى	نبتوم	مبيربي	ندى	كوكوين	كملاكا	كوبارا	ابيبيا
اب	ابا	اوبا	ابا	بوبي	فا	----	ووبا	تاتا
ام	ايا	نينا	فمى	كوم	ما	----	وانا	بابا
راس	تابو	ليكو	كوما	دوى	رو	درو	اونجو	دير
فم	اتو	اومباكو	اما	تاى	تا	تارا	ممن	اوموتى
حديد	دورا	مننا	كو	لار	منيا	كيمبى	سى	ايدى
احمر	فوكا	زالي	اورن	كاس	كاشا	كادا	نجوبارا	كاكولاى
اسود	ديكو	بيلفين	بينا	ندُل	كولو	نياتيلا	ببرى	نينى
ابيض	فاتا	بوشهى	مبيمبى	نتار	مندرافا	نايندراها	مبيدى	فيندالا
ولد	كوى	قودى	اوايا	قول	انقو	جولنقابا	قيجى	دينفا
أخضر	جيلاً	موبي	نيجام	ديي	ايما	يي	تويكن	ناني
بنت	كونيو	ديقودى	ووبا	ديني	أملايا	جيلنمومو	مادو	دينكوا
انا	كا	مي	ببا	ما	جيجي	ماكي	دايرا	ما
انت	ان	مو	بوباسيا	اينا	أي	دا	ديمو	مي
قمح	كانق	فندي	جورو	نتاي	كمدو	نتاي	نتو	أدرقو

نار	أوتو	فيي	أو	فر (أوبر)	أودو	هلو	أوا	ليشي
مطر	كوي	إيمي	أوفيرو	دي	وانا	كيدي	أجا	أوز
يد	دونقا دوال تورنجا	بيري	نيني	يل	سونقو	زي	ججلي	دري
	قو	مندو	قو	أو	أبي	أبي	قوقو	نيني
تعال	أقوياء	مكارجيرو	سمبو	أبوالي	أبو	أبو كو	مبوسيلا	مناكو
اذهب	قو	موندو	قو	أو	آبي	آبي	قوقو	نيني
لا تذهب	أقوبا	موكرشيرو	سمبو	أهولي	أبو	أبوكو	مومبسيلا	منياكو
شمس	ديولي	أورو	لولو	هات	كدر	كادور	را	إيتو
قمر	ديوال	ديوي	يبي	ناي	ليفي	ليهي	في	بارا
رجل	دودي أوردو (جمع كواريك)	كمبا	كوشي	قو	نقبا	نقبا	كومكو	أقو
امرأة	يانكوي (جمع يانقا)	أدي	باشي	جيني	لايا	مومو	واريسا	أوكو
شجرة	كورو (جمع كورنجا)	نقوا	يويو	كاجو أوخاجو	كاجا	كاجا	رو	في
فور	فوراكانق مفرد (فردنقوا)	أوراراي العبيد	بورو	دم	بالا	لالي	-	-
كلب	اسا	أنقو	ياقورو	بيسي	ويسي	بيسي	بورو	أوكي
أسد	ناسو أومورو جمع مورنقا	انبو	بامارا	توبيو	كيفي	تيبي	وو	ابي

بعض المفردات من لهجة المساليت

واحد	تيو	اخت	ممبى
اثنين	بارا	اخ	ميرومبى
ثلاثه	تانق	طفله	كيما مبي
اربعه	اس	طفل	كيمامبا
خمسه	تورو	سلف	يوا
سته	اتى	وادى	مندلدى
سبعه	مورى	خور	ادا
ثمانيه	ايا	جبل	كوما
تسعه	ادى	حجر	ديتيرا
عشره	اوتو	حصان	بيرى
عشرين	ايدومابارا	جمل	ديرى
ثلاثين	ايدوكانق	حمار	ليرى
اربعين	ايدواس	كلب	انجى
خمسين	ايدوتورو	بقره	دى
مائه	ميا(عربى)	ثور	مورجى
عرب	ارنقى	لحم	نايقو
فور	فورتا	لبن	جى
داجو	بريج	مريسه	ناينقورو
قمح	اسى	ملح	انقو
شعر	كيجف	انا	اما
راس	كوجو	انت	مام
فم	كانا	هو	ايجى
عين	كوجو	رجل	كُمبا
العينين	كوسمبارا	امراه	متجو
يد	كورو	اله	مولى(عربى ؟)
ساق	جوينيو	نجم	كايي
ذراع	كورو	قمر	ايا
اب	بابا	شمس	أونقى
ام	دا		

سكـان دار فرنتق

«التنجر - فور»

تقع دار فرنتق على بعد مسيرة يوم غرب الشمال الغربي لكتم، ويحدَّها من الشرق مركز بيري الذي تسكنه الكاتينقا وهم أخلاط من التنجر والزغاوة والفور، ومن الغرب سريف أولاد مانا، ومن الجنوب الغربي سلسلة جبل سي موطن البدائيين من فور الكراكيت. وتتكوَّن دار فرنتق من مجموعة قمم عالية اسوَّد لونها بسبب الشمس تتخللها قمم منخفضة تتقاطع فيها المجاري المائية الضيقة، وتُحيط بها الأراضي الخصبة التي تنتشر حولها قرى الفور والتنجر والزغاوة من شبه الرحَّل الذين يفدون بمواشيهم لتلك المراعي. تستمد دار فرنتق اسمها من ذلك الحجر المقدَّس المسمي بفرنتق والذي تقضي الشعائر بأن يقدم له رئيس الدار القرابين درءاً للكوارث وتجنباً للموت الذي قد يلحق به[1].

تقع «فرح» وسط جبال فرنتق على حوافها الجنوبية، وتشتهر محلياً بأنها العاصمة القديمة للتنجر وآخر مقر لسطانهم المستقل شودورشيد أو (دور السيد كما يُسمى أحياناً). عندما يشق المرء طريقه من المنطقة المنبسطة إلى الجنوب صيفاً نحو فرح على تلك الصخور الرملية وغيرها من الصخور السوداء سرعان ما يتذكَّر المنطقة حول كورسكو وأبرم[2]. ولا شيء يبدو أكثر وحشة وجدباً من مرأى تلك القمم البلوتونية العالية المنكسرة، المحفوفة بأشجار الكتر الشائكة. لكن بعد أن يدخل المرء دائرة الجبال العالية يُفاجأ بأن الأرض تغوص في انخفاض تدريجي، ومن على السطح يرى الناظر ممراً عميقاً ضيقاً يبدو كصورة مُصغَّرة للنيل، ويبلغ عرض هذا الممر في بعض الأماكن عشرين أو ثلاثين ياردة وفي أماكن أخرى لا يعدو أن يكون شقاً رفيعاً

---

(١) لا تنطبق هذه الشعيرة على الأهالي أو صغار الشيوخ الا المتطلع لمنصب شرتاي الذي يتوجَّب عليه أن يذهب خصيصاً للصخرة المقدسة ويرمي عليها حجراً فإذ استقر فإنه فال حسن أما إذا تدحرج فهو فأل سيئ.

(٢) بشمال السودان.

يخترق الصخور تتخلله - هنا وهناك - فِرجات صغيرة تكسوها الحشائش الخضراء التي تستقي من فقاقيع الينابيع. تكاد جوانب الممر أن تكون مستترة وراء الأوراق اليانعة لتلك الأشجار التي يتدفق تحتها مجرى مستديماً من المياه العزبة على مدار العام يعرف بـ«عين فرح» التي أسبغت اسمها على المنطقة.

هناك القليل من الشلالات التي تتجمَّع أسفلها تراكمات من المياه الراكدة المغطاة بالقصب العالي والتي تزخر بالأحياء كالأسماك الصغيرة وغيرها.

تشرئب الجروف الصخرية الهائلة من أعلى طبقات شاهقة على الجانبين، مما يمكِّن المرء من أن يشاهد المرء بين الفينة والأخرى عائلة من قرود البابون التي ترقب العابر بحذر وهو يشق طريقه على طول هذا الترفف من الأحجار الرملية، أو عند اختراقه للقصب العالي الذي يحف جنبات الماء. ينساب المجرى مخترقاً طريقه من الجنوب للشمال نحو قلب الجبال، وعلى بُعد ما يقارب الميل من منبعه على الشمال ينتصب جبل فرح الصخري آخذاً الشكل العمودي. هنا وبإطلالة على المضيق ومن على ارتفاع مائتي قدم تقريباً تطل عاصمة «شودورشيد» الذي يُقال إن الخناق عندما ضاق عليه بفضل قوة الفور المتزايدة الممثَّلة في سليمان صولون هرب إلى إقليم البديات شمالاً حيث لم يُشاهد - من حينها - في دارفور[1] أبداً.

قلاع شو وقصره تتدلي
مثل عش الغراب
متدلية من القمة
في الصخرة الأرجوانية

ومن هذا السمو لأعلى قمة في هذا التل، وبالأطلال منها، هناك مناظر خلابة

---

(١) فيما يتعلق بالأثر المسيحي الذي سنتعرَّض له فيما بعد، ربما تكون هناك رابطة بين هروب شو لديار البديات وتلك الضفة لأن الرواية تدور بأن البديات الجنوبيين كانوا - في وقت ما - مسيحيين. يُقال إن لشو قلعة أخرى وقصر في جبل مُطرق على الحواف الشمالية الشرقية لجبال فرننق عشرون ميلاً من فرح.

يمكن للمرء أن يرى وعلى مدى البصر مرتفعات مترادفة في كل الاتجاهات وهي تتسنَّم تلك القمم الوعرة صعبة المراقي. ومن على البُعد تتراءى قمة شرقية أسفلنا يخترقها المجرى الضيِّق المُحاصر بسياج من الخضرة المستديمة. ثم نحو الشمال والغرب وعلى بُعد حوالي خمسين قدماً تحت الحصن يُوجد سهل صخري كان موقعاً للمساكن القديمة. ثم خلف الممر - إلى الشرق - وعلى بُعد عدة أميال مربعة على جانبي الجبل تُوجد أفاريز أقل تدرُّجاً تنتشر فيها المزارع القديمة (التروس) التي تزخر بغابات من أشجار الكتر القرمزية والحجارة المرصوصة التي جرفتها مياه الأمطار، ويبدو من منظرها إنها نُظفت في وقت ما، وإن أي قدم منها سُوُّي إلى أفاريز متوالية بحيث تبدو مترادفة قدم فوق قدم أو نحوه.

المدخل الرئيس للحصن يقع في الناحية الغربية للجزء المستوي من الأرض، ثم يحيط بالمدخل الكبير والذي يبلغ عرضه حوالي الثلاث ياردات ونصف الياردة جدران حجرية لا تقل في ارتفاعها عن الاثني عشر قدماً. والدخول هنا لخطوط الدفاع الخارجية يفرض على المرء أن يرتقي ممراً متدِّرجاً واسعاً عبر الجدران الداخلية والخارجية نحو القلعة التي تتوِّج تلك القمة العليا للمبنى وغرفه الداخلية فضلاً عن الحوائط الفاصلة، مشيَّدة كلها من الطوب الأحمر الممتاز المتراص كالمعدن الصقيل. لا بد أن يكون عدد العمال الذين نقلوا مئات الألوف من هذا الطوب المحروق من كمائنه التي تبعد لأكثر من ميل جنوباً، كان كبيراً بحيث تيسَّر لهم اختراق هذه الأرض الوعرة التي تفوق الخيال بوديانها المتقاطعة والمنتشرة هنا وهناك والتي تتجزَّر بعمق في تلك الصخور المدببة. الفكرة الحقيقية للحصن لا يمكن تشبيهها إلا ببيت الأرانب، فالدهاليز التي تمتد داخلاً وخارجاً تقود من قاعة لقاعة بوجه يثير الدهشة والذهول، بيد أن كل تلك المباني قد تلفت جزئياً، ومع ذلك تبقى الخطوط العريضة واضحة للعيان. بالقرب من قلب المبني هناك غور مربع عميق منخفض الجوانب، صخري القاع تعلوه جنبات من الطوب المحروق. وأعلى ذلك أو بالأحرى من أعلى نقطة يلج المرء غرفة صغيرة مشيَّدة من الطوب قد تكون مخصصة للحراسة، ينحدر منها دَرج حلزوني يخترق سلسلة من الأبواب كلها ذات أضلاع معتدلة يؤدي إلى ما

يُعتقد بأنه برج يتسنَّم تلك القواعد الصخرية للحصن. الدرج مصنوع من الطوب الأحمر كبير الحجم إذ يبلغ طول الطوبة حوالي الشبرين ونصف الشبر وبعرض يبلغ الشبر وربع الشبر[1]، وللمدخل الخارجي عتبات من الخشب تآكلت لدرجة التفتت وذلك منذ أمد بعيد، كما تُوجد نوافذ صغيرة تبعد عن بعضها البعض لتجديد الهواء.

أما المدخل المؤدي للبرج نفسه - إذا صح الوصف - فيكفي بالكاد لدخول رجل، ومن خلفه ذلك التجويف الرهيب الذي لا يكاد يتسع لمرور المرء قائماً، ولا تتجاوز أرضيته الثلاث ياردات المربعة. ثم على بُعد نحو خمسين ياردة شمال الحصن ونحو عشرين قدماً أسفله يُوجد مقر السلطان وهو مبنىً من الحجم المتوسِّط مستطيل الأضلاع مُشيَّد من الطوب الأحمر. والملمح الوحيد الذي يميِّزه هو ذلك الأسلوب البارع الذي عُولجت به الحوائط الداخلية التي طُليت بالتراب الأحمر من ذات الخامات المستخدمة في صناعة الطوب، ثم عُرِّضت لحرارة مُركَّزة وذلك بإشعال النيران الهائلة داخل الغرفة لدرجة إن الطلاء نفسه تحول لمادة صلبة. ثم أسفل الحصن ومنزل السلطان وعلى بعد حوالي مائتي ياردة نحو الجنوب الغربي يُوجد المسجد مُشيَّداً على هيئة مربع بحوائط سميكة بمحراب في الناحية الشرقية يقوم على أربعة أعمدة داخلية. وبنظرة عابرة فإن لا شيء يميِّز ذلك المبنى عن مسجد «كرو» المشيَّد من الأحجار والطوب على وادي باري بين كبكابية وكُلكُل وذاك الذي في طرة على جبل مرة، إلا إن تصميم المحراب قد لاقي - فيما يبدو - شي من الصعوبات لأنه بالرغم من إن واجهة القوس قد صُممت بشكل صحيح، إلا أن الخلفية المقعَّرة صُممت مستوية من الطوب الأحمر ثم تم نحتها لتصبح تجويفاً مقعراً كما لو كان المرء يجوّف حوضاً.

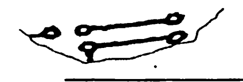
---

(١) يُوجد هذا الطوب كبير الحجم هنا وهناك أيضاً في خرائب الدور الكبيرة والمسجد والقلعة، كما تلاحظ وجوده بالقرب من فوجا أيضاً بشمال كردفان في جبل زنكور وهو موقع على الطريق القديم من نوبيا لدارفور، لكن معظم الطوب المستخدم في بقية المباني فمن الحجم والشكل العادي.

دُور الأهالي مُشيَّدة من الحجارة في الجزء الأسفل منها، والافتراض إنها كانت مسقوفة بالقش. بعضها كبير، وقُطر دائرة ذلك المنزل القريب من المسجد - والأرجح إنه منزل الإمام - تبلغ حوالي الاثني عشر ياردة. لا تبدو للعيان أدوات أو زينات، ومن جانبي لم أجد الزمن الكافي أو وسائل للتنقيب عنها. الأشقاف المُكسَّرة ليست قليلة، وللخزف ثلاثة أشكال، البرمة العادية وهي - بالطبع - بشكلها وصنعها المعروف أي معجونه من الخارج على خرقة حصير بالطريقة المتَّبعة في دارفور وكردفان بفوهة واسعة وعنق قصيرين وبطن مستدير، الجدار الخارجي والداخلي من الطفل الأحمر، وتفوق غيرها صلابة وسمكاً وهو تحوُّط ضروري للغاية خصوصاً عندما يتصَّور المرء مدى شدة التعامل معها - أي البرمة - وحملها من على ذلك المجرى الذي يقع أسفل ذلك المنحدر العمودي المبطن بالصخور بحوالي المائتي قدم.

هناك أوعية أكبر أيضاً كتلك التي تُستخدم في المنازل لحفظ السوائل وهي من خامات أخشن وأصلب لدرجة تجعل تمييزها عن الطوب الأحمر أمراً شاقاً، فضلاً عن إنها مُشبَّعة بالحصى ويبلغ سمكها البوصة أو يزيد.

النوع الثالث للفخاريات يأخذ شكل (الدُلَّنق)[١] الحالي ويتميَّز بعنق رشيق طويل بلون أقرب للبصلي ويغلب عليه اللون الأحمر ويبدو صقيل الملمس. وفي كل الأشقاف التي التقطها علامة لحزوز خفيفة على بطن الجرة يُماثل شكلها ذلك الوسم الذي لا يزال يُستخدم في «فلا» أو «فلنقا» (فرع من التنجر - فور) وتأخذ شكل النماذج[٢] كما في الرسم:



(١) نوع من الجرار الأصغر حجماً.

(٢) هذا الوسم الذي يستخدمه التنجر يماثل ذلك الوسم الذي يستخدمه المسلمون في شمال أفريقيا ويقال انه مأخوذ من السحر إليهودي ويمثل أعيناً تحمي من العين الشريرة. وإن الوسم ربما جلبه التنجر من نوبيا لدارفور ولكن لعدم وجود دليل باستخدام نوبيا لهذا النوع من الأوسام فالأرجح إنهم نقلوه في تاريخ سابق من التبو في شمال دارفور الذين لا يختلف وسمهم

أما الوسم فهكذا:

الآن لا تُوجد أي قرى فوق جبال فرننق بل كلها خارج الجبال حيث الأراضي الأخصب والأصلح للزراعة والرعي معاً ولكن في إطار تلك الأماكن التي تزخر بالمياه[١].

القرى مأهولة بخليط من قبائل التنجر والفور وهم قوم سود البشرة بملامح أقل زنوجة من فور جبل مرة وجبل سي ويتحدَّثون لغة الفور إلا إنهم جميعاً ملمُّون باللغة العربية أيضاً والكثيرون منهم - عند استجوابي لهم - ينتسبون للتنجر ومرد ذلك - دون شك - للمدلول الأرستقراطي للاسم، ويقولون بأنهم أتوا أصلاً من دنقلا، مع إقرارهم بأن الكثيرين من سكان القرية ترجع أصولهم لقبيلة الفور، ورغم إن القبيلتين قد تصاهرتا دون أية قيود أو موانع لعدة أجيال لكنهم مع ذلك يعتبرون التنجر أصحاب الدار الحقيقيين.

لم أتمكَّن من استخلاص معياراً للتعرُّف على الطفل الهجين، وما إذا كان فوراوياً أو تنجراوياً. هناك حديث عن جِدة «حبوبة» بعينها، إلا إنني عندما أصر على استبيان الأمر يتراجعون على ذات النهج الذي تعلموه من العرب في مثل هذه المواقف.

يُقال إن شرتاي المنطقة - حسن كنجول - تنجراوي الأصل، لكنني عندما قابلته يوم ما وسألته في حضور شراتي قبيلة الفور من جبل سي وشراتي التنجر في كتم، وجد نفسه في مأزق وتململ الآخران في شي من عدم الارتياح خوفاً من أن يزعم بأنه

---

(١) التنجر حول فرنق وكتم مثل البرتي ومعظم بقية السكان الذين يزرعون الأراضي الرملية في شرق دارفور ويستعملون (القلموية) لزعق الأرض، (أو النجارة كما يسميها التنجر، ويلاحظ المرء إن الكلمة مكونة من نفس جزر عبارة تنجر) وتتكون هذه الآلة من عود كما في الشكل، والإنحناءة في (B) عادية وهي بالأخرى أكبر من الزاوية. الطول من (A) الى (B) حوالي سبعة وعشرين بوصة ومن (B) إلى (C) حوالي ثمانية عشر بوصة الرأس بالحديد على شكل مطرقة مع شيء من السطح المقعر كما هو واضح من الشكل. وللزعق ترفع الآلة بالأيدين الإثنين من الجزء (A) وتضرب بها الأرض بين الساقين. ولعمل الحُفر لبزر الأرض تستخدم الآلية باليدين الإثنتين أيضاً، لكن بما أن المزارع يسير أثناء عمله، ففي كل خطوة ينقر نقرة في الأرض على جانبه الأيسر. ⟵

تنجراوي، فاغتصب ابتسامة مقتضبة على هذا الإدعاء وتنحنح بشيء من التردد ثم قال بأنه ينتمي للتنجر-فور وبإلحاحي عليه أقر بأنه فوراوي.

حقيقة إن تعريف «تنجر-فور» هو التعبير الأكثر دقه لأهالي دار فرنق. وينقسمون لثلاثة مجموعات هي الفيلا (أو فيلانقا) وسامبيلا أي (سامباينقا) ودوموا، وكل هؤلاء من التنجر والفور الأصليين يُعتبرون على السواء في عداد قبيلة الفور، لكنهم - فيما يبدو - يصنِّفون قبيلة الفلا من التنجر أكثر من كونهم فور والعكس بالنسبة للسامبيلا.

يبدو إن اسم سامبيلا وثيق الارتباط - لحد ما - بفرع السامبلنق من الداجو، وهو تحريف لـ(شنابلة) مفردها (شنبلي)، مقروناً بفرع سامبنقاتو من البرتي. والوسم المعروف باسم سامبيلا والشكل المبين هو المستخدم لمواشيهم وحميرهم هو وسم فوراوي خالص، ومن الناحية الأخرى يرجح أن يكون وسم الفلا خاصاً بالتنجر[1].

وواضح إن تقاليد الفور والتنجر في بعض الشئون متجذِّرة في الفرننق. فعلى سبيل المثال، يرجح أن تكون قدسية صخرة فرننق مستمَّدة من مفاهيم قديمة للفور التي تبناها الحكام من التنجر. وعلى نفس النسق يسود ذات الاعتقاد في عين سِرة - على بعد عدة أميال من عين فرح - ثم في جبال فرننق أيضاً. ويبدو أن هناك نوعين من الطقوس أصبحت مشتركة - بالتدرُّج - وتوجهاً موحداً للقبيلتين.

عين سرة واحة صغيرة خلابة تزخر بمنابع المياه وبساتين النخيل[2] وتقع داخل دائرة الجبال، ويؤدي إليها ممر ضيق وعلى مدخله تنتصب صخرة من الجلمود تُسمى «حجر العروس» أو «حجر العادة». وعلى قمتها كومة من مئات الأحجار التي تتخللها قطع من روث الأبقار الجاف ويُرجع هؤلاء التنجر المزعومون تلك الطقوس لوجود بعض الأرواح التي تقيم في الموقع وتمنع الدخول للأيكة، وعلى أي غريب يود

---

(١) هذا وسم آخر للتنجر يستخدم في دار فرنق والرجل الذي ينتمي للغلا من أبيه وأمه من السامبيلا مثلاً، فإنه يوسم أغلب مواشيه بوسم الغلا، لكنه يوسم الأغلبية بوسم السمبيلا.

(٢) يقول التنجر أهل الديار بأن أجدادهم جلبوا النخيل من دنقلا

الدخول دون أذى يصيبه - كما يزعمون - عليه التريث حتى يقدمه الأهالي الأصليون لتلك الأرواح الشريرة (التي سنتعرف عليها فيما بعد).

وعند بداية فصل الخريف يتفق الفور والتنجر الأصليون على تقديم العطايا لما استقر في وجدانهم بشأن هذه الصخرة ضماناً لخريف جيد. هذه الطقوس المتعلِّقة باستنزال المطر قد تكون أصولها من دارفور بيد أن هناك ملامح أخرى هي بالضرورة ليست كذلك، إذ إن ركام الأحجار في أعلى الصخرة يذكِّر الإنسان بتلك الظواهر المماثلة بجبل جيلي شرق النيل الأزرق.

وبصرف النظر عن دور الصخور في إنزال الأمطار فإن لعين سرة أربعة استخدامات أخرى تتمثَّل في الزواج وختان الأطفال والولادة وزيارة الحُكام. ويبدو من الاسم إن الصخرة اقترنت - بصورة رئيسة - بمناسبات الزواج. أما عن الطقوس التي تُتبع في هذه المناسبة فهي كالآتي: بعد قراءة الفاتحة إعلاناً لعقد القران، ودون حاجة للتذكير باعتبار الفور والتنجر لأنفسهم كمسلمين حسني الإيمان، يذهب الزوجان للصخرة برفقة شيخ القرية أو من ينوب عنه من أفراد أسرته، أو بصحبة إمام الجامع. ثم يرسم الزوجان بمقدمه الأصبع صليباً هكذا + بالدهن أو بدم الذبيحة، على أن يودع كل منهما حجراً أو غصناً من الأيكة التي في أعلى الصخرة. فإذا كان الزوجان فقيرين بحيث لا يستطيعان تقديم كبش أو أي شي من الدهن فعليهما طرح شيء من روث الأبقار. ومتى تم استيفاء ذلك يُزف العروسان نحو النبع الذي يتوسَّط بستان النخيل حيث مكان إقامة الكاهن، الذي يأخذ بدوره شيء من طين النبع ويسم به جبين الزوجين أو على كتفيهم من الأمام، ثم على ركبهم وخصورهم، ثم يعقد طوقاً من الحشيش الأخضر حول الرسغين والمعصمين، وعلى عنقيهما. وبذلك يُختتم الحفل. وهذا هو عين ما يُمارس في حالتي الختان والولادة، بيد أن أم الطفل هي التي تخضع لتلك الطقوس في - حالة الولادة - وليس الطفل. أما عند زيارة الحاكم لعين سرة، فوفقاً للأعراف القديمة عليه أن يضحي بكبش ويسفح دمه في شكل صليب على الصخرة، أو أن يرسم نفس العلامة بالدهن ثم يقدم هبته والتي تتمثَّل في حبر أو قطعة من الحشيش الأخضر ومن ثم يتوجَّه للنبع بحيث تجرى عليه الطقوس التي

ذكرناها سابقاً والفارق الوحيد هو إن طوق الحشيش يوضع حول معصمه الأيمن فقط. لا شأن للفور الأصليين - كما يقول التنجر - بهذه الطقوس ولا تحتاج معرفة السبب لكثير عناء إذ لا ينبغي أن يفوت على المرء الافتراض بأن التنجر هم الذين جلبوا تلك الطقوس من النوبة المسيحية، واضعين في اعتبارنا بعض الطقوس الكنسية المعيَّنة والمتمثِّلة - على وجه الخصوص - في علامة الصليب. وبالرغم من إن الفور لم يسبق لهم اعتناق المسيحية إلا إن الوافدين الجدد أفادوا من حجرهم المقدَّس. ومن ناحية أخرى، فبالرغم من اعتناق التنجر للإسلام بحسب ما يشهد به المسجد في فرح، فلا زالوا هم والفور يحتفظون بتلك الطقوس كأثر من آثار معتقداتهم القديمة.

الجزء الثاني

تقدّم القبائل العربية عبر مصر

الفصل الأول

رحلة بعض قبائل السودان العربية
عبر مصر في العصور الوسطى

عند ظهور النبي ﷺ في النصف الأول من القرن السابع الميلادي كانت قبائل الجزيرة العربية تنقسم لمجموعتين رئيستين: إحداهما مقصود بها المتحدِّرون من قحطان (بالإفرنجية جوكتان) بن عابر والأخرى ذرية أخيه فالج والذي ورد في الكتاب المقدَّس باسم «بيلج» والذي في عهده قُسِّمت الأرض. كوَّنت المجموعة الأولى العرب العاربة وهم الأقدم ويُطلق عليهم القحطانيين أي القبائل اليمنية، ويُعتبرون العرب الأصليون وموطنهم الجزء الجنوبي من شبه الجزيرة العربية وتتكَّون هذه المجموعة من فرعين يتحدَّر أحدهما من حِمير والآخر من كهلان.

أما المجموعة الثانية - في أقصى الشمال - هم العرب المُستعربة، ويرجعون بنسبهم لعدنان حتى إسماعيل بن إبراهيم، ولذلك يُعرفون بالاسماعيليين أو العدنانيين.

وأهم فروع الحِميرين من قحطان هم المتحدِّرون من قضاعة وفيهم من القبائل المهمة مثل «البلي» و«بنو كلب» و«جهينة». أما فرع كهلان فيشمل العديد من القبائل المشهورة أيضاً، في مقدمتها طيء وجذام ولخم ومذحج وحمدان وباجيلا والأزد. تشمل قبيلة الأزد فرعي الغسَّانيين العظيمين من الأوس والخزرج الذين عُرفوا فيما بعد باسم (الأنصار) أي من ناصروا النبي ﷺ.

قبائل الاسماعيليين الرئيسة هي قيس عيلان وربيعة وكنانة ووائل (بطن من

ربيعة) وسُليم وهوازن وغطفان وتميم وقريش (قبيلة الرسول). وقريش نفسها فرع من كنانة التي تضم - ضمن آخرين - بني مخزوم وبني العباس وبني أميه.

كانت صنعاء اليمن هي العاصمة القديمة لعرب القحطانيين، لكن هجرها الكثيرون بعد قرن أو ما ينيف من الحقبة المسيحية وتوجهوا شمالاً اثر انهيار سد مأرب العظيم واستقروا هناك.

هكذا أسس بنو لخم أسرة المناذرة الحاكمة في الحيرة جوار ذلك الموقع القديم المسمى «بابليون»، وحكموا العراق كأحد إقطاعيات بلاد فارس. أما غسَّان فقد اتخذوا من تخوم دمشق موطناً لهم، ثم بسطوا سيطرتهم في الأعوام ٣٧ حتى ٣٦ قبل الميلاد على جزء كبير من سوريا تحت حماية الإمبراطورية البيزنطية.

استوطّنت مجموعة قضاعة وبالأخص جهينة وبلي كل النصف الشمالي للحجاز عدا قبيلتي ثمود وعاد البائدتين واللتان سبق لهما العيش هناك، ويبدو إنها ذات قربى بالقبائل الحامية التي تقطن الساحل الأفريقي المقابل.

كان معيار التمييز بين القحطانيين والإسماعيليين - قبل الإسلام - هو اختلاف اللغة، وذلك لأن المجموعات التي في أقصى الجنوب تتحدَّث الحِميرية، لكن ما حدث من تحركات قبلية في الجزيرة العربية عقب الحقبة المسيحية ساعد في انتشار اللغة العربية. وبعد ظهور الإسلام سمت تلك اللغة تماماً وسوف نرى فيما بعد إن التمييز بين القحطانيين والإسماعيليين ظل في السودان يأخذ شكلاً مختلفاً حتى وقتنا الحاضر.

سنتعرَّض الآن لاحتلال العرب لمصر في القرن السابع الميلادي. لا يضاهي وفرة التفاصيل الواردة بشأن هذا الغزو التي بين أيدينا إلا الاضطراب والتناقض الذي لازمها. ويُعزى هذا التناقض لانتماء كل كتَّاب تلك الحقبة للأقباط الذين كان جُلّ همهم منصبّاً حول تاريخ الكنيسة. وما بين مدونات مؤرخي العرب القدماء وما كتب الأقباط هوة سحيقة، ومرد ذلك هو إن تلك المعلومات ربما تكون قد فُقدت، أو إنها - في الأصل - مجرد بقايا لملخَّصات حافظ عليها الكتّاب المتأخّرون. يُعد «فتوح البلدان» البلازري الذي كُتب في ٨٦٨ ميلادية هو أقدم ما تبقى من مخطوطات

خطها قلم عربي لهذا الغزو. يوضح الكاتب بأنه حتى القرن التاسع كان هناك تبايناً كبيراً في وجهات النظر بشأن هذا الأمر. أما فيما يتعلق بالتركيبة القبلية لتلك القوات التي نفذت الاحتلال أو تلك التي هاجرت في السنوات التي تلته مباشرة، فإن ما دُوّن حولها أشح من أن يفي بذلك.

هناك القليل من أشتات المعلومات التي يمكن جمعها من مصادر شتى، وربما كان المُؤلَف الأوفى - في هذا المجال - هو كتابات المقريزي التي كُتبت في بدايات القرن الخامس عشر والمتعلِّق بالقبائل العربية التي استقرت في مصر[(١)].

ففي هذا الوقت اندمجت العديد من القبائل التي شاركت في حملة عمرو بن العاص في غيرها من القبائل التي تقاطرت لاحقاً أو تلك التي حُولت غرباً أو جنوباً وفقاً لمتطلبات هذا الغزو.

جذام:

إن أحد الاستثناءات البارزة هي قبيلة جذام القحطانية العظيمة والتي احتل جزء كبير منها شرق الدلتا «الحوف» في العام ١٤٠٠ الميلادي لحوالي سبعمائة وخمسون عاماً، حيث شكّلوا هم وبنو لخم منافساً رئيساً للقيسيين في البلاد. وأصلهم من طيء في اليمن إلا إنهم انفصلوا منذ عهد الأسلاف لدرجة إنهم كادوا أن يكونوا مستقلين عنهم.

أما خلال الفترة التي أعقبت الإسلام فقد استقروا مع بعض بني لخم وبطون من قضاعة في شمالي الحجاز بدءاً من أراضي البحر الأحمر الباطنة حتى مقاطعة بني كلب.

تنقسم القبيلة - أصلاً - لفرعين رئيسين هما بنو حشم وبنو حرم، ولكل من القبيلتين عدة أقسام. ويبدو إن القليلين من بني حشم وكل بني حرم استوطّنوا

(١) وكتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار لتقي الدين أبي العباس أحمد بن على المقريزي المتوفي سنة ٨٤٥هـ.

مصر.. أما هؤلاء الذين في الحوف فقد اندرجوا في القرن الخامس عشر تحت مسميين رئيسين هما ذبيب وبني كُميل الذين انشأوا عدة مدن في تلك المقاطعة.

ويبدو من كتابات المقريزي إن تلك الفروع التي تُعرف مجتمعة باسم بني ذبيب هم بني كرا[١] وبني زيد وبني بُقا وبني سويد، ويضمِّن المقريزي بين بني كميل أولاً، بني سعد المتحدِّرين من الخمسة الواردة أسماؤهم باسم «سعد» في شجرة «وستنفليد»، ثانياً بني راشد[٢] ثالثاً هلبة[٣]، رابعاً بنو عقبة، خامساً عيدة[٤]، سادساً بني زيد مينات.

أما بنو عقبة فبعضهم في سوريا حول دمشق[٥]، وآخرون حول «عيلة»[٦] والمتبقون منهم في الحوف. ويبدو إن آخرين انضموا في - وقت ما - لبني هلال[٧]، ثم آخرين منهم سنرى كيف شقوا طريقهم نحو شمال كردفان حيث كوَّنوا النواة الأولى لقبيلة الكبابيش. هناك فرع آخر من جذام - ذوو قربى بالهلبة وبني عُقبة - يقيمون الآن في مصر باسم بني رديني. ويبدو إن تسمية بني كُميل تنطبق حقاً على كل أو بعض فرع بني كرا وليس لبني سعد أو البطون الخمسة الأخرى أي انتماء حقيقي لكميل البتة. وعليه يحتمل أن تكون كميل قد حققت الزعامة على أعداد

(١) مجدداً سنجد بني قرة كفرع من هلال استقروا في بركة وسط بربر قتامة قبل غزو بني هلال لشمال أفريقيا.

(٢) هناك ثلاثة من ذرية سويد يسمون راشد والأرجح أن تسمية بني راشد تستخدم بنفس كيفية استخدام «بني سعد».

(٣) يميز المقريزي بين هلبة بن سويد وهلبة بن بقه، وإذا كان وستنفليد صائباً فإن الأخير يتعين أن يكون هلبة بن مالك بن سويد.

(٤) يعيشون بين القاهرة وعيلة.

(٥) يقول أبن خلدون بأنهم توغلوا جنوباً حتى المدينة. ولا تزال هناك بعض العوائل حول مويلة.

٠٦) عيلة أو عقبة عيلة هو الأسم المرادف وهي عيلاس قديماً والعقبة حالياً.

(٧) يقول المقريزي عن عقبة بأنهم وسط بني هلال وإنهم يعيشون في أسفون وإسنا. وفي زمن ليو أصبح بنو عقبة فرع رئيس من بني هلال.

كبيرة من بطون ذات قربى بجذام بحيث أصبحوا - لذات السبب - يُعرفون عموماً ببني كُميل. ويبدو جلياً إن في وسط بني كُميل العديدين ممن لا ينتمون للقبيلة وذلك لأن المقريزي تحدَّث عن فرعٍ لزيد مينات ذاكراً بأنه يشمل كنانة وبني عُروة وبني كلب. ومن الثابت ليس بينهم من ينتمي لجذام.

بالإضافة إلى ذبيب وبني كُميل هناك عدة أفرع لجذام بالقرب من الإسكندرية. وفي عهد صلاح الدين، وبعد أن تمكَّنت تلك الأسرة الكُردية الأيوبية من إزاحة الفاطميين من على حكم مصر في ١١٧١م، عانت جذام التي كانت في عنفوان قوتها إبان حكم الأسرة السابقة شيء من الاضمحلال، وحلَّ محلها - لحد ما - بنو طيء الحقيقيون، وعلى وجه الخصوص فرع التعالبة من القبيلة.

طيء:

دخل بنو طيء مصر في تاريخ لاحق لبني جذام وعندما كتب المقريزي مؤلفه كان لهم وجود كبير في مصر لمدة قد تنيف على الثلاثة قرون.

أما فرع أولاد سنبس فقد تزايدت أعدادهم في جنوبي فلسطين للحد الذي ينذر بالخطر، وتسببوا في الكثير من القلاقل للحكومة مما دفع النائب محمد اليازوري لاجلائهم خارج البلاد في ١٠٥٠م، ومن ثم توجَّهوا نحو محافظة البحيرة في شمالي مصر واستقروا وسط الجذاميين من بني كرا.

يتكَّون أولاد سنبس من أولاد لبيد (وفيهم أولاد حزم وأولاد مهزب) ثم وأولاد عمرو وأولاد عدي (بمن فيهم أولاد أبان) ثم أولاد فتح.

تنامت قوة أولاد طيء تحت حكم الفاطميين، وعندما احتل الأيوبيون مصر، وفد معهم فوج جديد من فرعي جرم والتعالبة الذين كانوا يستوطِّنون سوريا[١].

---

(١) أن جرم لقب لتعالبة بن عمرو وفقاً لرواية إمرأة تولى تربيتها، لكن هناك فرع منفصل لطيء يسمى «تعالبة» تم التعرض له عند الحديث عن المسيرية.

طوال الحقبة الأيوبية (١١٧١ - ١٢٤٩م) حافظ بنو طيء على قوتهم لكن جذوة النزاع مع جذام لم تنطفئ، لأننا نجد إن صداماً دموياً نشب بين التعالبة وجذام في حوالي ١٢٣٧م في محافظة الشرقية، وكانت هذه المعركة هي ذروة المعارك لسلسلة طويلة من الغارات المتبادلة والتي استمرت لسنوات. ويبدو إن جذام كانوا مشايعين لحاكم سوريا ضمن حلف من المزاعطة وبربر الزناتة من محافظة البحيرة. ومن الجانب الآخر ناصر التعالبة سلطان مصر. وبعد هذا القتال الذي نشب في ١٢٣٧م توصَّل الأطراف لمعاهدة صلح.

وحاول صلاح الدين في - أول سنة لحكمه - التقليل من أعداد فرسان طيء، سبب الأمر تذمراً مما دعاه لترك الفكرة، إلا أن خيالة جذام قُلص عددهم من سبعمائة فارس إلى ثلاثمائة فقط.

وعندما أطاح معز عز الدين أول المماليك البحرية بالأيوبيين، ثار الكثيرون من العرب فوراً مُظهرين عدم الرضا عن حكم ذلك العبد البربري. وفي عام ١٢٥١م كوَّنوا عُصبة من المتمردين ولعب بني طيء الدور البارز والأكبر في هذا العصيان بعد أن انضم إليهم بعض بني أدهر - من القحطانيين - والكثيرون من كنانة بما فيهم بعض البطون الكبيرة مثل أولاد مُدلق وبنو عدي بن كعب[1]. تلقى المتمردون هزيمة ساحقة وأجبروا بعدها على التشتت في محافظة الغربية.

أما التعالبة فيبدو إن شوكتهم قد قويت، وبحلول عام ١٣٦٠م تنامت قوتهم في مراكش. ولذلك تُعد الكثير من القبائل السودانية - بحسب رواياتهم - متحدَّرة منهم وقد يصدق هذا القول على بعض قبائل البقارة.

ثم إن هناك قبيلتين كبيرتين من القبائل القحطانية شاركتا في احتلال مصر، وهي بلي وجهينة، وكلتا القبيلتين من البطون الرئيسة لقضاعة التي تتحدَّر - بدورها - من حِمير، في حين إن طيء تتحدَّر من كهلان وهو أخ لحمير.

---

(١) تسيّدت قضاعة الأسرة الجرهمية القديمة في الحجاز إذ كانوا حراساً للكعبة حتى استبدلوا - في حوالي ٤٠٦م - بفرع قصي من قريش

بلي:

كانت قبائل بلي - في زمن الجاهلية - تستوطِّن سوريا[١]، لكن عند الاحتلال هجَّر عمر بن الخطاب أعداداً كبيرة منهم لمصر، وخصص لهم أحد أركان الفسطاط[٢] وذلك لكونها واحدة من كبريات القبائل التي هاجرت إبان تلك الفترة، ويدل على ذلك واقعة تسميتهم هم والقحافيين وقبيلة أخرى[٣] بـ(قبائل مصر الثلاث). ويُقال إن عمرو هو من استخدم هذا التعبير، ثم وصفهم - أي بلي - بأنهم كانوا دائماً أنصار النبي وسمتهم الرئيسة إنهم فرسان لا يشق لهم غبار.

لكن سرعان ما ثارت النزاعات بينهم ومنسوبيهم من جهينة حتى تم التوصُّل لاتفاق لاحق استوطَّنت - بموجبه - بلي المنطقة الواقعة بين مصر وميناء عيذاب[٤] على البحر الأحمر شمال بلاد البجة والتي استوطَّنها العبابدة[٥] فيما بعد. وكانت لهم - في أيام المقريزي - العديد من البطون في مصر، وقد امتزجت بهم الكثير من المجموعات الصغيرة من قبائل والإسماعيليين من بني أمية وثقيف (فرع من قيس عيلان) وهُذيل. هناك بلي آخرون في أقصى الجنوب بمركز أخميم مع جهينة[٦]. تُشكل بلي في - وقتنا الحاضر - كياناً قبلياً كبيراً على الساحل العربي حول «ويق» وبجوار جهينة، كما إن هناك آخرين استوطَّنوا مصر حول جرجا[٧].

---

(١) كانوا في الماضي جنوب الجزيرة العربية.

(٢) بقية الأركان احتلها بنو نجر وبنو سلامات ويشكر (وهم فرع من نجم) وبنو هُذيل أبن مدركة وبنو نايد وبنو الأزرق... الخ.

(٣) يرجح إنها مُضر.

(٤) تقع عيذاب شرق سوان قرب برنيس القديمة.

(٥) حدود البلي شمالاً جسر شوهاي وجنوباً جوار كامولة.

(٦) صنفهما المقريزي معاً ضمن القبائل القوية في صعيد مصر.

(٧) الفرع الحاكم في الحالتين هو المعاقلة ومن الجائز أن يكون الأسم قد تبقى في المعاليا الذين في كردفان ودارفور. أعطى شيخ هذا الفرع للمؤلف أسماء عشرة بطون من بلي معروفون لديه ويعيشون حول «ويق» «وجرجا» وهم معاقلة، مواهيب، سهامة، وحشاشة، هلبان، رمُث، حمران، بريكات، فريات، رُبيدة.. أما بيرتون فيورد ثلاثة وعشرون فرعاً رئيسياً.

جهينة:

سكنت جهينة الحجاز قبل هجرتها لأفريقيا بدءاً من جنوب ينبع حتى شمال الحوراء، وجيرانهم الرئيسيون هم بلي وجذام وكنانة. آثر الكثيرون منهم البقاء في تلك البقاع ولا تزال زعامتهم - حتى الآن - في ينبع، ولا يزال البلي يجاورونهم من جهة الشمال[1]. كانت جهينه من أوائل القبائل البدوية التي اعتنقت الإسلام. حوالي ستمائة من هؤلاء الذين عبروا لأفريقيا - حوالي عام ٦٤٧م - شاركوا في الحملة الليبية الأولى[2]. وفي عام ٨٦٩م انضمت أعداد منهم لبنى ربيعه عند غزوهم لديار البجة. قال عنهم المقريزي - في عام ١٤٠٠م - بأنهم من أكبر القبائل عدداً في مصر العليا بمركز أشمونيا، ومع ذلك أجلتهم قريش من هناك وذلك في العهد الفاطمي، فاستقروا حول السيوط ومنفلوط[3].

وما يهمنا في هذا الصدد هو إنهم بنهاية القرن الرابع عشر اقتحموا بلاد النوبة. وفي هذا الصدد يقول ابن خلدون (١٣٣٢ - ١٤٠٦م) «تُوجد عدة قبائل وأشتات من البطون في أعالي مصر من أسوان وإلى ما وراءها حتى بلاد النوبة والحبشة ينتمون جميعهم لجهينة أحد بطون قضاعة، وقد انتشروا في تلك البقاع واحتلوا أراضي النوبة واحتشدوا في أراضي الأحباش وقاسموهم بلدانهم» ثم في موضع آخر يتحدَّث الكاتب نفسه عن وقائع حدثت قبل عقد أو عقدين من مولده، أي بما لا يتجاوز ما تدركه الذاكرة إذ قال: «باهتداء النوبيين رُفعت عنهم الجزية، ثم انتشر عرب جهينة في ديارهم، حيث سكنوها وحكموها ونشروا فيها السلب والنهب وأشاعوا فيها الفوضى».

حاول ملوك النوبة صدَّهم إلا إنهم فشلوا، فكسبوا ودهم بتزويجهم من بناتهم، وهكذا تضعضع ملكهم وانتقل الحكم للمواليد الجدد من أبناء جهينة بسبب الانتماء للأم، وبذلك أصبحوا نوبة من ذوي الدماء الملكية، وذلك وفقاً لعادات هؤلاء

---

(١) تبلغ الحدود بين الفرعين حوالي الخمسين ميلاً شمال الحوراء.

(٢) يذكر ابن خلدون إن حوالي سبعمائة فارس من قطفان وفزارة رافقوا الحملة.

(٣) يصنفهم السير ولسون بين قبائل شمال أسوان شبه البدوية.

الأعاجم حيث يكون الاستخلاف للأخت أو ابن الأخت. هكذا تفرَّق مُلكهم أيدي سبأ واستولى عليه عرب جهينة. بيد أن حكمهم لم يُعط أي مظهر من مظاهر الدولة للضعف الموروث من نظام يفتقر أصلاً للأسس السليمة التي تقضي بوجوب الخضوع للسلطان، فأصبحوا منقسمين لفِرق دون أي مظهر للسيادة الحقة مع احتفاظهم ببداوتهم حيث ظلوا يتابعون مساقط الأمطار مثل نظرائهم في الجزيرة العربية.

لم يعد ببلادهم أي أثر للسلطة لأن حصيلة هذا التصاهر والتمازج الذي حدث لم تكن أكثر من مجرد تبديل للأساليب القديمة بأساليب البدو من العرب[1].

أهم ذكر لجهينة في الأنساب السودانية يصل لحد القول بأنهم بلغوا اثنتان وخمسين قبيلة في منطقة سوبا على النيل الأزرق إبان حكم الفونج، بيد أن أكثرهم في الغرب، وتحديداً في تونس وبرنو، أما عن تحركاتهم نحو الجنوب الغربي لكردفان ودارفور، ففي جُعبتنا الكثير مما سيرد في فصول لاحقة.

لخم:

هم أقارب لبني جذام وكلاهما فرع من طيء. سبق ورأينا كيف إنهم هاجروا من اليمن واستقروا على تخوم فارس وأسسوا أسرة حاكمة في ٢٦٨م. ويزخر سجلهم - بصفة رئيسة - بالحروب مع القبائل التي تقع غربهم في سوريا، أي غسَّان وبنو بكر وبنو تميم وغيرهم

وفي سالف الزمان كانوا وجذام عُباد لكوكب «جوبتر» ولكن بنهاية القرن الخامس - أو ربما قبل ذلك - خطت المسيحية خطوات كبيرة نحو شرق سوريا واعتنقتها الكثير من القبائل العربية بما في ذلك لخم التي انتهى حكمها في الحيرة بظهور الإسلام[2].

عند احتلال مصر تمركز فرع «يشكر» من القبيلة على ذلك الجبل الذي

(١) الأصل العربي يقرأ هكذا «لما أحالته صيغة البداوة العربية من صيغتهم بالخلطة والالتحام.

(٢) بحسب فإن ديك فإن الملك النعمان أبو قابوس ملك اللخميين (٥٨٨ - ٦١١) كان من أكبر بناة الكنائس.

سُمي باسمهم، أي موقع جامع ابن طولون[1]. ثم دخل الكثيرون من بقية أفرع القبيلة مصر في القرن السابع أو الثامن أيضاً، واستوطّنوا حول الإسكندرية[2]. وفي العام ٧٩٨م نزل الإسكندرية حوالي خمسة عشر ألف لاجئ أندلسي - ممن أجلاهم الأمير الأموي «الحَكم» من أسبانيا - وتحالفوا مع بني لخم، إلا أن الطرفين سرعان ما تخاصموا في ٨١٥م وخاضوا قتالاً أسفر عن نجاح الأندلسيين في انتزاع المدينة[3].

ثم خلال النصف الأول لذات القرن تدخَّل بنو لخم في الحرب الأهلية التي أعقبت وفاة هارون الرشيد وسببوا الكثير من القلاقل. وكانوا أمة عظيمة في مصر العليا - في زمن المقريزي - وبلغوا حوالي الثمانين فرعاً، أوردها المقريزي بالاسم، ولا يزال بعضهم حول الإسكندرية. ومن بين مجموعات القحطانيين الذين دخلوا مصر إبان الاحتلال أو بعده بقليل، نجد بني حمدان والعائلة الحميرية الكبيرة من «ذو الأصبح» التي ينتمي لها مالك بن أنس منشيء المذهب المالكي، ثم فروع الأزد، وجميعهم استوطّنوا الجيزة.

سنتعرَّض الآن لأشهر قبائل الاسماعليين أو العدنانيين الذين شاركوا في غزو مصر، ونعني بذلك كنانة وقريش.

كنانة وقريش:

ربما عاش الجد الذي تسمَّت به كنانة في القرن الأول الميلادي، وكان موطن أسلافه - لقرون متتالية - هو الحجاز وتهامة جوار مكة. وقد انفصل الفرع الأكبر لقريش من القبيلة الأم منذ زمن يرجع إلى ما قبل ظهور النبي ﷺ، وأشهر أفخاذهم هي قُصي التي أسندت لها - حوالي عام ٤٤٠م - سدانة الكعبة.

(١) هناك فرع من ربيعة يسمى يشكر أيضاً.
(٢) كان أحدهم حاكماً لمصر في ٧٥٠م.
(٣) استردت الأسكندرية في ٨٢٧ وأُجلي الأندلسيون لكريت (لين بول ص ٣٦).

وحتى بداية القرن السابع ظلت قُصي وأعداد كبيرة من كنانة يعبدون صنم«العزى»[1]، واعتادت القبيلتان على التحالُف وقت الحروب[2]. وعندما أشهر النبيﷺ رسالته، كانت قريش من أكثر المعارضين له، وتسببوا في هزيمته هم وغيرهم من كنانة - عام ٦٢٥م - في أُحُدْ. ثم سعوا لاحقاً لمحاصرته في المدينة[3].

وفي عام ٦٣٠م استولى محمد ﷺ على مكة وحطم خالد بن الوليد «العزى» إلى أشلاء متناثرة وهكذا استسلمت قريش.

أما عن تاريخ هجرة كنانة لمصر وحجمها، فهو أمر غير معروف، ولكن في زمن الراوية البطريارق شنودة - أي في نهاية القرن السابع - كان فرع بني مُدلق من القوة بحيث استولوا على الإسكندرية ونهبوا أديرتها وامتنعوا عن دفع ما عليهم من ضرائب، مما دفع الدولة لإرسال جيش لمواجهتهم.

وفي العام ٨١٨م، ثم بعد ثلاثة عشرة عام أُخر، نجد فرع بني مُدلق من كنانة - الذي أصبح مستقلاً عن القبيلة الأم - ضالعاً في التمرُّد، وذلك بمشاركتهم في فتنة الأقباط.

وفي العام ١٢٤٩م، عندما حاصر لويس التاسع ملك فرنسا دمياط، وفي أول التحام مع العدو فرَّت الحامية المكوّنة من كنانة مما دفع بالسلطان لشنق كل من وقع في يده منهم. وبنهاية القرن الرابع عشر، انقسم كنانة الأصليون - في مصر - إلى ثلاثة بطون هي (الضامرة وليث وفِراس)، وكانت رئاستهم حول «ساقية كولتا».

تشمل قريش أبناء عدي بن كعب وبني مخزوم وبني أمية وبني العباس وكثيرين غيرهم، والافتراض هو إن تلك البطون ساهمت في احتلال مصر طالما أن عمرو بن العاص والزبير بن العوام الذي عزز حملته مع الكثيرين غيرهم من مشاهير

---

(١) هناك كنانة آخرون عبدوا القمر.

(٢) في ٥٨٠م نشبت الحرب المقدسة بين قريش والبطون الأخرى من كنانة من جهة وبنو هوازن من ناحية أخرى التي إنتهت بعد عشرة سنوات تقريباً.

(٣) غزوة الخندق.

زعماء القبائل هم رجال من قريش[1]. توالت هجرة الكثيرين بتعاقب حكام الأمويين وبني العباس، وسنري بأن فريقاً منهم - على الأقل - عبر البحر الأحمر إلى السودان وذلك في القرن الثامن. في بواكير القرن العاشر أخرج الفرع المتحدِّر من جعفر بن أبي طالب من مكة على أيدي بني حسين، ثم من شماليها على أيدي بني حرب، وأخذوا إلى مصر كلاجئين. واستقروا - في زمن ابن خلدون - فيما بين أسوان وقوص بمعية بني كنز حيث عُرفوا هناك باسم الشرفة الجعفرية، وهناك امتهنوا التجارة وإليهم ينتمي الجعافرة الحاليون.

وفي عام ١٤٠٠م استقرت قريش - بصفة رئيسة - حول أشمونيا بعد أن أخرجوا جهينة - ومن شايعهم - من أسيوط ومنفلوط، وانتشروا في رحاب مصر العليا.

ويذكر المقريزي بأن بين بطونهم الرئيسة، بنو جعفر وبنو طلحة وبنو الزبير وبنو شيبة وبنو مخزوم وبنو أمية وبنو زهرة وبنو سهم (عشيرة عمرو بن العاص).

قيس عيلان:

حوالي عام ٧٢٧م استقدمت أعداد هائلة من قبيلة قيس عيلان العظيمة من أعالي نجد في الجزيرة العربية على أيدي الخازن عبيد الله بن الحبحاب، واستقروا شرقي الحوف، وفي ذات العام تربَّع القيسي (أي الوليد بن رفاعة الفهمي) على سُدَّة حكم مصر.

ووفقاً لما رواه المقريزي كان هناك أفراد قليلون من فرعي فهم وعدوان - من قيس عيلان - في مصر، إلا أن هذا القول - على ما يبدو - غير سديد حيث إننا نعلم بأن الفترة ما بين (٧٠٩ و٧٢٧) بخلاف الوليد، كان هناك ما لا يقل عن ثلاثة من الحكام القيسيين، اثنان منهما من فهم والثالث من عبس، ولم يكن لهذا الأمر أن يستقيم ما لم تكن هناك أعداد هائلة من أفراد قبائلهم.

---

(١) أورد ابن الحكم قائمة بمن صاحبوا عمرو من شعوب، وجلهم من قريش والأغلبية بما في ذلك عمرو والزبير من بطن بني كعب.

يذكر الكندي أيضاً، بأنه إبان الاحتلال رُتب جزء من الفسطاط بمعرفة قبيلة (كنانة بن عمرو بن الكِبر بن فهم) أي بواسطة فرع قيس. وسنرى إن فروعاً أخرى لقيس كانوا يشكلون حضوراً قبل عام ٧٢٧م.

في البداية جمع ابن الحبحاب مائة أسرة من قيس ومنحهم أراضٍ بالقرب من بلبيس جنوب شرقي الدلتا واشترى جمالاً وخيولاً ودخل في نشاط النقل التجاري بين ساحل البحر والمناطق الداخلية وحقق نجاحاً لدرجة إن ذيوع أخبار هذا الازدهار دفعت بخمسمائة عائلة من قيس للهجرة والالتحاق بهم. استمر الأمر على ما هو عليه، وعلى مدى سنوات من الهجرة الأولى كانت هناك خمسة عشر ألف أسرة من القبيلة وهم - بصفة رئيسة - أفراد من فرع بني سليم، استوطّنوا حول بلبيس. وبحلول عام ٧٥٠م تضاعف العدد. ثم سرعان ما تحوَّلوا لعُصبة مما عرضهم - في ٧٧٩م - لقمع الحاكم ابن ممدود. إذ ظلوا إبان النصف الأول من القرن التالي يثورون كل بضع سنوات. تناول المقريزي عصيان الحوف الذي شب في عام ٨٠٢م بسبب ضرائب الأطيان الباهظة، ويمكن الاستدلال على شخوص المتمردين من واقعة إن أربعة وعشرين رأساً من زعماء القيسيين أرسلوا من قبل مُمثِّل الحكومة للفسطاط. ثم في عام ٨٠٧م هبَّت انتفاضة مماثلة إلا إنها أُخمدت بسبب غدر وخيانة الشيوخ في الحوف الذين - كما أوردنا تفصيلاً - يتحدَّرون من أصل يمني من بني قيس.

بعد اثنين وعشرين عاماً أدت نفس الأسباب لذات النتائج حيث هبَّت الحوف ومُعظم منطقة الدلتا في تمرُّد مسلح. ثم بعد مرور عام من القتال - وكان التقدُّم للمتمردين - استتب الأمن نوعاً ما. ومع ذلك ففي عام ٨٣١م شاركت كل مصر السفلي - وليس بنو قيس وجيرانهم فقط - في التمرد.

لم يؤد هذا العصيان المسلح إلى إضعاف بني قيس بل ظلوا أقوياء متزعمين لقبائل الاسماعيليين ضد منافسيهم من اليمنيين القحطانيين في مصر. وعندما مات هارون الرشيد في عام ٨٠٨م وتنازع أبناؤه الخلافة، رشح أحدهما زعيم بني قيس - مكايدة - ليكون والياً على مصر، ويُعزى نجاحه هناك - بصفة رئيسة - لتلك المناورة، وكان خصوم بني قيس في ذلك الوقت هم قبائل لخم وجذام.

كان اسم قيس - في زمن المقريزي - لا يقتصر على المتحدِّرين من قيس عيلان فحسب، بل يشمل ذرية جدهم مُضر وجدهم نزار[1]. وقد تزاوجوا - بالضرورة - بلا حدود حوالي عام ١٤٠٠م مع بربر اللعاطة في مصر، مما شجع هؤلاء البربر للإدعاء بأنهم من قيس عيلان. الآن أصبحت الفروع الرئيسة لقيس عيلان مستقلة تماماً بحيث لم يعودوا يُسمون على وجه العموم.

في العام ٥٦٣م - على سبيل المثال - نشبت حرب داحس والغبراء بين بني فرازة وبني عبس وكليهما فرع مستقل من قطفان[2].

فزارة:

كانت فزارة في - أيام النبي - قبائل مستقلّة على تخوم مكة، ثم في العام ٦٢٩م خضعوا للإسلام بمعية بني عبس لكنهم ارتدوا في العام ٦٣٢م وتمرَّدوا على أبي بكر لبعض الوقت[3]. علمنا من النويري بأن بعضاً من قطفان وفزارة لعبوا دوراً فاعلاً بمعية جهينة وغيرهم خلال العام ٦٤٧م أثناء الحملة التي قادها عبد الله بن سعد إلى غرب مصر.

قد لا ينسجم هذا القول مع نفي المقريزي لأي وجود لقيس في مصر حتى العام ٧٢٧م، كما ينتفي الافتراض باستقلالية فرازة لدرجة يمكن أن تنسيهم أصلهم القيسي[4].

ثم في وقت لاحق رافق بعض فزارة قبيلة بني هلال - عند دخولهم مصر - وذلك في القرن الحادي عشر. وما تشير له مدونات الإدريسي في عام ١١٥٤م ثم ابن

(١) كانت راية قيس هي الحمراء واليمن البيضاء بحسب كواترمير.

(٢) تطور النزاع بين الفريقين من سباق للخيل.

(٣) يبدو إن بعض منهم رافقوا حملة عبد الله بن سعد (٦٤١ - ٦٤٣) أنظر ابن خلدون.

(٤) يقال إن الجد الذي سميت عليه القبيلة عاش في حوالي ٣٠٠م وإن هناك ثلاثة أجيال بينه وقطفان حفيد قيس.

سعيد بعد قرن من ذلك الزمان تعود للافتراض بأن هؤلاء أو مجموعة أقدم من فزارة اندمجت في البربر لدرجة يصعب معها التمييز بينهما[١]

هناك فزارة آخرون بقوا في مصر، وعنهم يقول المقريزي بأنهم استوطنوا مصر العليا بمحافظتي قليوب والقاهرة[٢]، ثم شق الكثيرون منهم طريقهم للسودان. وبالرغم من إن الاسم قد خبا بحيث لا يُذكر إلا نادراً، مع ذلك ظل مُستخدَّماً إلى ما قبل المهدية تعريفاً بقبائل الأبَّالة في كردفان ودارفور[٣]. وبالإطلاع على النسبة - فيما بعد - يبدو جلياً إن أعداداً كبيرة من العرب السودانيين- الذين لا يلتفُّون حول بني العباس - يدَّعون التحدُّر من فزارة وقطفان وبني ذبيان وغيرهم من قبائل قيس عيلان.

بنو هلال وبنو سليم:

يمثِّل بنو هلال فرعاً عظيماً من قيس. أما من ناحية أنسابهم، يُعتبرون فرعاً من هوازن والتي تُشكل بمعية بني سليم بطناً من الفرع الرئيس لقيس الذي يُسمي «عكرمة[٤]».

---

(١) يقول ابن سعيد نقلاً عن ابن خلدون بأن من بين أحفاد قطفان، بركة وهايب ورواحة وفزارة. ويروي الإدريسي عن مقاطعة البطالمة القدماء بأن سكنها الزناته وفزارة ويصنفهم بأنهم قبائل بربرية تعرِّبت والزناتة من أصل بربري بالطبع. تبقي بعض الفزارة في الشمال الأفريقي وحافظوا على كيانهم القبلي. ويوردهم مستر كاريت (ص ٤٤٥) في العام ١٨٥٣ ضمن قبائل القسطنطينية.

(٢) لا يزال هناك فزارة في مصر حتى الأن (أنظر كليبل ص ٩ والسير ولسون ص ٤).

(٣) قيس عيلان خسافة وعكرمة ومنصور وهوازن وبكر ومعاوية وصعصعة وعامر وهلال.

(٤) عيلان

قيس

خسافة

عكرمة

منصور

سليمان هوازن

هذا الفرع من عكرمة الذي يُعرف عموماً بهذا الاسم، سيقابلنا - فيما بعد - عند الحديث عن أولاد كنز في أسوان[1]. انشق بنو هلال - من سنوات خلت - عن القبيلة الأم على نفس نهج فزاره، وكان موطنهم - في بداية القرن السابع - مع أقاربهم من بني سليم بالقرب من الطائف على تلك السهول الممتدة شرق الجبال التي تفصل تهامة عن نجد[2]. وعندما بدأ المد الإسلامي توجِّهت أعداد منهم - نهائياً - لسوريا.

الآن في القرن العاشر تسيَّد الفاطميون كل المنطقة الواقعة على طول ساحل شمال أفريقيا، ثم امتَّد سلطانهم شرقاً نحو مصر وسوريا. وبحلول عام ٩٩١م تمكّنوا من ضم كل المنطقة الواقعة بين الحدود الشرقية لمراكش والصحراء السورية وأورانتس.

وبمجرد احتلال سوريا، رحَّل الخليفة العزيز بن منصور (٩٧٥ - ٩٩٦م) بني سليم وبني هلال لأعالي مصر ووطّنهم هناك[3]. وكانت فروعهم الرئيسة هي الأثبيج والرياح والزُغبه والمعاقل وغشم كر.

---

(١) بكر
معاوية
صعصعة
عامر
هلال
(أنظر قوائم وستن فيلد وكاسن دي برسيفال (XA). (٢) يقدر كاسن دي برنسبال بأن عامر نفسه عاش حوالي عام ٤١٤م

(٢) يقال إن الشرارات في الجزيرة العربية يتحدرون منهم (أنظر ابن خلدون المجلد الأول ص ٢٥ وكاشن دي برنسبال المجلد الثاني ص ٤١٠ كواترمير أيضاً) يقول دوتي عن بني هلال بأنهم يمثلون اسطورة أبطال عرب نجد القدماء، ثم إن أي أثر مجهول المصدر بنسب - محلياً - لهم.

(٣) يبدو إن بعض بني سليمان دخلوا مصر قبل سبعين سنة ١٠٩هـ واستقروا حول بلبيس حيث انضم لهم لاحقاً بعض من بني جلدتهم، وقد تحرك كل هؤلاء مع القبيلة الأم نحو بلاد البربر في الغرب (أنظر كواترمير المجلد الثاني ص ٢١٢- ٢١٥).

بعد حوالي خمسين سنه - أي في ١٠٤٥م - بدأت سلطه الفاطميين في الاضمحلال عندها أظهر «مُعز» زعيم بربر الصنهاجه - في القيروان - شيئاً من التذمُّر مما دفع الخليفة المستنصر بن تميم (١٠٣٦ - ١٠٩٤م) لمراسلة بني هلال في ١٠٤٩، جاء في تلك الرسالة (وهبت لكم المغرب ومملكة المعز بن بلكن الصنهاجي، معبر العبيد).

هكذا أُعلن هذا أثناء فترة النفوذ الدائم للعرب على ذلك الجزء من شمالي أفريقيا الواقع غرب مصر[١]. وترتب على ذلك أن انتشر بنو هلال انتشار الجراد مع غيرهم من بني قيس، ثم - بصفة رئيسة - بنو سليم وفزارة[٢] تحت قيادة بني هلال[٣] في الشمال الغربي، وذلك في عام ١٠٥١م مستخدمين قوات مُشتركة من بني جلدتهم (بني قرة)، والذين سبق لهم بمساعدة من بربر قتامة أن وطّدوا أنفسهم - من حوالي ستة وأربعين سنة - في بركة، فاجتاحوا تونس وطرابلس. استنجد معز ببربر الزناتة بيد أن مقاومته كانت ضعيفة،فساد السخط وهُزمت قواته وسقطت البلاد تحت حكم بني هلال. هذه الحملة الضخمة وما تلاها من معارك متقطّعة مع الزناته أدت لنشوء وذيوع الأساطير التي تمجِّد البطل أبو زيد الهلالي السائدة في مصر حتى الآن، والتي ظلت تتداول بصيغ محرَّفة وروايات مختلفة في السودان.

هكذا ازدُرع بنو هلال في تونس وطرابلس، وسرعان ما تزاوجوا مع قبائل الليبو-بربر الذين كانوا يسودون البلاد قبلهم. وهكذا سارت عمليات القتال المتعاقبة والتزاوج جنباً إلى جنب، وبإصرار، في ظل تعاقُب الأسرات الحاكمة سواء تلك التي قامت في الشمال الأفريقي أو التي سقطت، وذلك على مدى الحقب التي تلت هذا المد الهلالي. الإدعاء بانتماء الصنهاجة وأفرع البربر للأصول اليمنية، قول موثوق. وإذا

---

(١) سبق ذلك - بالطبع - أن قاد العرب عدة حملات إلى الغرب من مصر وليس هناك من شك بأن حدث استقرار دائم الا أنه لم يحدث تعريب شامل.

(٢) أغلبية فزارة لا يزالون في الجزيرة العربية حالياً (راجع ابن خلدون).

(٣) الكثير من البطون التي أوردها ابن خلدون - كما أشار هو - وكما تظهر قائمة وستنفيلد ليسو من أصل بني هلال رغم أنهم مجانسين في كل شيء تقربياً مثل قطفان (ويشملون فزارة وبعض الفروع من قيس عيلان) (أنظر بن خلدون).

كان كذلك، فإن هذا يفسِّر بجلاء مدى استعداد العرب والبربر للتصاهر والتمازج مما أدى لظهور الجنس الذي يعرف الآن باسم «مور»[1]

وعلى مدى قرون من وصولهم لليبيا، تحالف الصناهجة مع جحافل بني هلال في ثورة ضد الموحِّدين وقد ترتَّب على ذلك الدفع بأعداد منهم غرباً نحو أسبانيا[2].

ومن الآن حتى عصر ابن خلدون (١٣٣٢ - ١٤٠٥م)، وليو (١٥٥٢م)، يختفي ذكر بني هلال في الغرب، أما في الجنوب فيسمع المرء عن بعضهم بين الفرق التي أرسلها قلاوون خلال العام ١٢٨٧م لغزو دنقلا، حيث ذكرهم ابن خلدون - في زمانه - أثناء تناوله لمصر العليا، ثم المقريزي في حوالي عام ١٤٠٠م واصفاً إياهم بالكثرة في مركز أسوان والصحراء الشرقية حتى عيذاب، وبالأحرى في كل صعيد مصر.

ومما يبدو أيضاً إن بعض الجعافرة الذين استوطّنوا فيما بين إسنا وأسوان ربما كانوا في الأصل من بني هلال[3] ثم هناك دلائل تشير لاستيطان بعض بني هلال السودان، وكان الأمر سيبدو غريباً إن لم يكن كذلك.

أما عن بني سليم فبالرغم من إن أغلبهم تركوا مصر في أيام الهجرة الكبرى - أي في عام ١٠٥١م - وهاجروا غرباً إلا أن هذا القول لا ينطبق عليهم بوجه مُطلق، إذ قوي نفوذهم في ختام القرن الثالث عشر في محافظة البحيرة، بحيث استقر الكثيرون منهم في الفيوم ومصر العليا أيضاً[4].

---

(١) قال عنهم دوتي في ١٨٨٨م: عرب المورش مقبولون في الجزيرة العربية حيث يعتبرونهم كجنس حجازي وأبناء أخوة لبني هلال. وكان الموريون يعيشون في أقصى الغرب، فيما بين الأطلنطي ومولكا (وادي الموية) وقد أطلق على أقليمهم مورتانيا. أنظر المغرب العربي القديم دكتور محمد بيومي مهران ص ١٩١.

(٢) اندمجت أغلبية فرع الزغبة مع الموحدين.

(٣) يذكر لين إن الجعافرة أصلهم فرع من بني هلال. Manners Customs ص ٤٠٥.

(٤) في نفس الوقت كان الهوارة في ليبيا أتباع لبني سليمان وظلت القبيلتان ترعيان قطعانها معاً (أنظر ابن خلدون المجلد الأول ص ١٩٧ كذلك المقريزي والقواطرميري).

تناول ليو أفريكانو (١٤٩٥ - ١٥٥٢م) بني هلال في الشمال بشيء من التفصيل، حيث قال «ينقسم العرب الذين استوطنوا أفريقيا[١] إلى ثلاثة أقسام الأول كاشن[٢] والثاني هلال والثالث ماشك»[٣].

أما عن هلال أو بني هلال، فيقول بأنهم قبيلة قوية ذات ثراء لها ستة ألف من الفرسان ويقيمون على تخوم مملكة ترمزان وأوران.

أولاد عُقبة:

وهم فرع عاش في حدود مليانا في الجزائر[٤]، وكانوا يتلقون الهبات من حاكم تونس، يتصفون بالبدائية والهمجية دون سائر البشر. وفرسانهم - كما قيل - يبلغون الألف خمسمائة فارس.

ربيعة وبنو كنز:

تُعد ربيعة أكبر فروع والإسماعيليين في الجزيرة العربية وتشمل بطون بكر العظيمة وتغلب ويُعرفون جميعاً باسم وائل وعبد القيس وكثيرون غيرهم[٥].

الموطن الأصلي لربيعة هو الحجاز ومرتفعات نجد وتهامة، لكن حوالي القرن الخامس الميلادي حدث شقاق داخلي عنيف دفع بمعظم أفراد القبيلة - إبان القرن السادس - للهجرة، حيث تركت تغلب نجد في الشمال الغربي إلى ميسوبتاميا، وهجرت

---

(١) يعني البلدان غرب مصر والنيل.

(٢) يُقال أنهم من أصول إسماعيلية.

(٣) يستمد كل من ليو ومورمول معلوماتهما بالنسبة لتاريخ قبيلة بني هلال من ابن الرقيق. والأرجح إن المعني «ماشك» المعاقل أو المعاقلة كفرع من بني هلال ويوجدون الآن ضمن بطون بلي، يسميهم مارمول «مهكويل» وينسبهم بوث وليو للأصل الحميري.

(٤) مملكة هقبان هي الجار الثاني لأقليم مليان.

(٥) يشملون العنازة تلك القبيلة العظيمة التي استوطنت تهامة والآن بين الفرات وجبال سوريا. هناك أيضاً فرع من قيس عيلان يدعى ربيعة.

عبد القيس تهامة - غرباً - بمعية بني بكر - إلى البحرين[1]. كما شهدت بواكير القرن السابع اعتناق أقسام كبيرة من ربيعة للمسيحية.

وفي عام ٨٥٤م تمددت هجرة ربيعة نحو مصر حيث تفرَّقوا في الولايات المختلفة، بيد أن تلك التحرُّكات تركَّزت - بصفة رئيسة - في أسوان وشمالي النوبة. وبحلول عام ٨٦٩م وبرفقة بعض القحطانيين من جهينة وغيرهم غمرت قبائل ربيعة ديار البجة في الشرق[2]، وكان باعثهم للهجرة هو الزمرد ومناجم الذهب بجانب ما تعرَّضوا له من ظلم جُباة الضرائب في النيل.

كان زعيمهم في تلك المرحلة المبكِّرة إسحق بني بشر، ولكن قبل ذلك بفترة وقع شقاق بين فرع بني يونس - المتوطِّن في عيذاب - وبنو بشر[3]، فأجبر الأوائل خصومهم للتراجع نحو الحجاز. ثم إن بني بشر تقاتلوا فيما بينهم فقُتل إسحق، وخلفه ابن أخيه أبو عبد الله محمد الملقب بـ«أبو زيد»، الذي كان يعيش في بلبيس الذي نقل مقره إلى أسوان بعد اختياره لزعامة القبيلة. وفي هذه الأثناء نشأت مودَّة بين ربيعة والبجة - في الشرق - ثم مع النوبيين في النيل. زوج زعماء البجة بناتهم لربيعة وعاونوهم في إخراج العرب الآخرين ممن استوطنوا جزائر البحر الأحمر من قبل. ونتيجة لهذا التحالف صار البجة - الذين كانوا دون النوبيين قوة - أكثر من صنو لكل من قبائل النيل والعرب القحطانيين على السواء، هكذا استطاعوا توطيد أقدامهم في الصحراء الشرقية.

بحلول الأعوام (٩٤٣ - ٩٤٤م)، يقول المسعودي كان تحت قيادة بشر بن مروان بن إسحق (أو أبو مروان بشر) من ربيعة، ثلاثة ألف فارس يتحدَّرون من ربيعة ومُضر واليمن، فضلاً عن ثلاثين ألف مقاتل من البجة كلهم من الحداريب المسلمين سكان الساحل.

---

(١) تُعرف مناطق استقرار بكر بـ«ديار بكر».

(٢) أُستخدمت ربيعة في النوبة في حملة تأديبية.

(٣) ربما لقبائل البشاريين صلة بالأسم.

أما من تبقُّوا من ربيعة حول أسوان ورفضوا التوجه شرقاً، فرضوا سيطرتهم على الأهالي وأنشأوا إقطاعية من العرب المهجَّنين تتحكم على نفر أقل قوة من السكان الأصليين بالتراضي رغم إنهم لم يخضعوهم بعد. ثم في حوالي عام ١٠٢٠م وربما أبكر من ذلك ولي الخليفة الفاطمي حكيم، زعيمهم وولي عهدهم أبو مكرم ابن خليفة أبو عبد الله محمد (أبو زيد) منصب (كنز الدولة) الوراثي مكافأة له على قمعه وأسره لمتمردي أبو ركوة في ١٠٠٦م. ثم بنهاية القرن التالي أو - على الأرجح - قبل ذلك أضيف لحامل هذه الدرجة اسم أمير أسوان أيضاً، أي أميراً للعرب الذين على تلك الأصقاع.

بعد الحصول على لقب كنز الدولة أصبحت قبائل ربيعة الغربية تُعرف مع غيرها من العناصر الخارجية المستوعبة باسم «بني كنز»[1].

ثم في حوالي (١١٧١ - ١١٧٥م) تمردَّوا على صلاح الدين. وفي عام ١٢٨٧م شاركوا في حملة قلاوون ضد النوبة، وكانوا وقتها أصحاب الصولة والسلطان على ضفتي النهر من قوص حتى أسوان حيث دعموا وجودهم بالتزاوُّج مع ملوك النوبة حتى ذاع صيتهم في كل التخوم المصرية بحسبانهم مؤسسين لدولة شبه مستقلة. فشلت القرون المتعاقبة في زحزحتهم عن موقعهم، وهؤلاء هم الكنوز الموجودين الآن بين أسوان وكورسكو[2]. والذين كانوا إبان القرون من الثالث عشر حتى الخامس عشر شوكة في خاصرة مصر، حيث تحالفوا مع عكرمة - فرع قيس عيلان - الذين ينتمي إليهم بنو هلال أيضاً، وجنَّدوا أنفسهم للإغارة من عيذاب من جهة ثم من الواحات من الجانب الآخر.

---

(١) يقول ابن خلدون «الذين يعيشون بعد أسوان يُعرفون بأسم أولاد كنز، جدهم كنز الدولة»، وبخلاف ما ذكر عنهم قبل عهد الفاطميين ليس لهم ذكر رغم ما كتبه المسعودي وإبن سليم في القرن العاشر، ويبدو من المؤكد أن القبيلة أخذت اسم أولاد كنز بعد حصولهم على رتبة كنز الدولة.

(٢) مفردها كنزي هناك مصدر آخر لعبارة كنزي هو «كينيس» الأسم الهيرغلوفي لجزيرة الشلال الأول، «وتاكنزه» أي أرض القوس «الأسم المصري القديم للمنطقة» أنظر بيكيت ص ١٩٦»

ثم في عام ١٣٦٦م تحدّوا الحكومة بشكل سافر وقاموا بنهب الموقع العسكري لأسوان، وجزاءً على تلك الجرأة دفعوا الثمن غالياً، إذ في ١٣٧٨م أرسل أمير أسوان رؤوس الاثني عشر من زعمائهم للقاهرة. ولما كان قمعهم شديداً، دفعهم اليأس للتهوُّر، وهكذا أشعلوا ثورة كبرى في ١٣٨٥م واحتلوا أسوان. ثم استعادوا خواصهم كقُطّاع للطرق وإرهابيين. وطوال الفترة المتبقّية من القرن الرابع عشر استمر فرّهم وكرهم على أسوان مستهزئين بسلطان مصر وحكومته. وبالرغم من إن بربر[1] الهوارة استردوا منهم أسوان في ١٤١٢م بعد أن هدموها وأشاعوا الدمار على تخومها، إلا أنهم ظلوا القبيلة الأقوى شكيمة على طول حدود السودان المصري حتى احتلال الأتراك للبلاد في ١٥١٧م على يد سليم الأول.

نبذه عن دخول البربر للسودان

سبق ورأينا إن أعداداً لا حصر لها من العرب اندفعوا غرباً واختلطوا بالبربر وأشهر من عُرف منهم هم الصناهجة وقتامة واللعاطة والمصمودة والهوارة واللمتة والرتانة والمقهلة والنافذة والعمارة، ولكن ما يتوجَّب ملاحظته هو إنه رغماً عن إن العنصر الرئيس للبربر ظل مُحتلاً للمنطقة فيما بين مصر والأطلسي، وأسسوا سلسلة من الأُسر الحاكمة القوية[2] وتسرَّبت فروع منهم غرباً حتى النيجر[3]، واستمرأ العديدون الاستقرار - أسوة بأسلافهم - في مصر أو الإغارة عليها بحسب ما تتطلب

(١) يذكر المقريزي وبركهارت بأنه في ١٣٩٤ كان الهوارة في حلف مع أولاد كنز في واحدة من تلك الهجمات الأخيرة على أسوان وشاركوهم نهبها (المقريزي المجلد الثاني ص ٥٧٥ وبركهارت ص ٥١٧).

(٢) كان الموحدون من المصمودة واللمتونة والمرابطون من الصناهجة.

(٣) في أيام البكري (١٠٦٧) كانت «أدوقوست» تقع على الحدود الجنوبية للصحراء الكبرى على حدود غانا وكانت مأهولة بصفة رئيسة بالزناتة. نجح المرابطون في نشر الإسلام في غانا في ١٠٧٦ يتفق بارث مع سلطان بيلو والمقريزي فيما يتعلق بالروابط بين البربر وبرنو (بارث الجزء الثاني ص ٢٧٢/٢٦٩).

الظروف[1]، سنلاحظ - على وجه الخصوص - بأن العناصر المنفِّذة لما سُمي بالاحتلال الفاطمي لمصر في ٩٦٩م كانوا كلهم من البربر وأغلبهم - على وجه الخصوص - من قتامة تقريباً. وكان هذا إيذاناً ببدء مرحلة تزايد هجرة البربر والذين بمجرد أن استقروا في مصر تزاوجوا مع العرب والمصريين بالقدر الذي تعرَّض فيه أصلهم البربري للنسيان تقريباً.

أما اللعاطه الذين تسمُّوا باسم قيس فقد سبق وتعرَّضنا لهم، أما هؤلاء الذين ينتمون للهوارة فسنتعرَّض لهم فيما بعد. في القرنين الرابع عشر والخامس عشر سمعنا عن أعداد كبيرة من البدو المزاتة والهوارة والزنارة (فرع من اللعاطة) فيما بين الإسكندرية والقاهرة القديمة، ثم هناك عدة بطون من اللعاطه - القبيلة التي كانت في بركة إبان غزو عمرو بن العاص[2] - الذين أورد ذكرهم المقريزي (١٣٦٥-١٤٤١م) في الجيزة والبهنسه[3] ومنوف وسائر أعالي مصر ومعهم المزاتة والهوارة وغيرهم. استقر الفرعان الأخيران شمال البحيرة أيضاً ومحافظة الغربية فيما بين الإسكندرية والعقبة.

في حوالي عام ١٣٨٢م إزدُرعت مستوطَنة للهوارة في محافظة جرجا بواسطة برقوق - المؤسس الأول لأسرة الشراكسة الحاكمة، وبفضل مثابرتهم في الفلاحة استصلحوا الصحراء. كان لهؤلاء الهوارة الذين تعرَّبوا جزئيا مع الزناته - في القرون الوسطى - حضوراً كثيفاً في الجزائر وطرابلس وفزان[4]، يقاتلون طوراً ويتزاوجون طوراً آخر، ويبرمون المعاهدات ويقاتلون العرب، بيد أنهم نجحوا - أكثر من أي قبيلة أخرى من البربر - في أن يوطِّدوا أقدامهم بقوة في وادي النيل وكان توطين برقوق لهم

(١) قال عنهم أبو صالح بعد أن دمروا وأحرقوا خمسين من الاديرة المسيحية المزدهرة بالقرب من الجيزة «بأنهم أناس لا يعرفون الإنصياع للقانون أو التفرقة بين الخطأ والصواب».

(٢) لقد خضعوا لعمرو في ٦٤٢م، وفي أيام المسعودي احتلوا واحة الخارجة (المقريزي المجلد الثاني ص ٦٩٧).

(٣) أغلب السكان في البهنسه من اللعاطة.

(٤) يعتقد إن لهم وجود قوي وسط الشوا في غرب أفريقيا.

في جرجا هو أول الغيث. ثم في خواتيم القرن - كما رأينا - وبالإتحاد مع بني كنز هاجموا أسوان ونهبوها، ثم بعد ذلك بسنوات اغتصبوها من بني كنز وأخضعوها لسلطانهم.

اتخذ الهوارة من أعالي مصر موطناً مستديماً لهم. وقال «بوكوك» - الذي زار النيل في ١٧٣٧م عن أخميم بأنها كانت تحت إدارة أمير من البربر. أما «نوردن» الذي سافر على النيل في (١٧٣٧ - ١٧٣٨م) فقد ذكر الآتي: «على مقربة من جنوب مدينة أسيوط تبدأ منطقة استقرار عرب الهوارة واضعين أيديهم كذلك على أراضٍ بالضفة الأخرى للنيل، ويُوصفون بأنهم من أهالي مملكة مراكش. وهم أفضل أجناس العرب ويحكمهم شيخ وجميعهم رجال مُحترمون يتسمون بالوسامة».

قابل بركهارت الهوارة في بواكير القرن التالي وهم يقيمون في قرى تمتد من السيوط حتى فرشوط على الضفة الغربية، ثم بجوار قنا في الشرق، وصنَّفهم كعرب، حيث صُنفوا كذلك منذ خواتيم القرن الرابع عشر. ثم أورد بالتفصيل كيف إنهم - اعتبارا من القرن الثامن عشر - سيطروا على أعالي مصر وشمال السودان جنوباً حتى المحس، وكيف إنهم أرغموا المماليك ليتنازلوا لهم عن تلك الأجزاء بموجب معاهدة. وبالرغم من تراجعهم والسقوط تحت نفوذ المماليك اللاحق لم تنكسر قوتهم وعزيمتهم نهائياً إلا في العام ١٨١٣م عندما الحق بهم إبراهيم باشا هزيمة ساحقة. ينقسم الهوارة - في السودان - إلى مجموعتين متمايزتين تماماً، تتمثَّل أحداهما في بدو الهواوير بدنقلا، بينما تمثل المجموعة الأخرى قبائل الهوارة أي (الجلابة الهوارة) الذين لهم مستوطَّنات في كردفان ودارفور.

أما عن قبائل البربر الأخرى فإن وجودهم في السودان أقل، لكننا سنرى - فيما بعد - بأن هناك قبيلة من (المغاربة) في النيل الأزرق ترجع أصولها لقبائل البربر-عرب[1]. فضلاً عن ذلك يُلاحظ بوضوح في شمال دارفور، ثم في أقصى غربها

(١) يلاحظ أيضاً إن اسم الزنارة الموجودين وسط البديرية والحوازمة، يتكرر في جبل الزناتي وخور نخنوخة - وهو اسم بربري - في أواسط كردفان شمال بارافي الخيران.

وجود الجنس البربري القديم بشدة. وإذا جاز لنا قبول أقوال ابن خلدون، كما يرى «بارث»، فان فرعاً من الهوارة توجه غرباً وأسبغ اسمهم محرَّفاً «حُجار» على قبائل الطوارق القوية ممن يُعرفون - عموماً - باسم «أزكار» أصحاب المنطقة المتاخمة لـ«قحات».

الفصل الثاني

الزحف العربي عبر مصر
وغزو دنقلا

تعرَّفنا مما تقدم على أكبر القبائل العربية شهرة، وتتبَّعنا بدايات حظوظ كل منها على حدة، وبدأنا بتاريخ هجرتهم لأفريقيا - ما أمكن ذلك - وتوقُّفهم - كقاعدة - مع الاختفاء المؤقت لبعض فروعهم في ليبيا أو السودان، واندماج آخرين في سكان مصر الأصليين.

وقبل أن نتناول التاريخ الأكثر حداثة للقبائل العربية الموجودة في السودان ومتابعة العلاقة التي تربط كل منها بالمهاجرين الأكثر شهرة ممن سبقوهم بقرون، سندوِّن باختصار تسرُّب هؤلاء المهاجرين الأوائل نحو أفريقيا والذي يُعتبر في مجمله ذو طابع عرقي، وإن هذا الملخص التاريخي من شأنه أن يقدم فرصة للتعرُّض العابر للوقائع المعاصرة في النوبة التي لم تتعرَّض بكلياتها للتعتيم.

غزا عمرو بن العاص[1] مصر في ٦٣٩م بما لا يتجاوز الثلاثة آلاف وخمسمائة إلى أربعة آلاف رجل، جلهم من الفرسان، بيد أنه تلقي دعماً بما يقارب الأربعة آلاف رجل. ثم في يونيو ٦٤٠م وصل الزبير بن العوام أيضاً بجيش يتألف من أثني عشر ألفاً من الرجال، تلا ذلك سقوط الإسكندرية في ٦٤١م. وهكذا اكتمل الاحتلال.

---

(١) هو قرشي من جهة الأب وأمه عنازية.

هذه الخسائر خلال تلك السنوات القلائل كانت مصدراً للاستفادة الدائمة لمفارز البدوين. وتنتمي تلك القوات - في الغالب الأعم - للقبائل العربية دون تمييز، والتي تُوصف من قبل المؤرخين - عامة - بالمسلمين. ويُجمعون عادة تحت رايات قُوادهم دون تصنيف قبلي ولكن من البديهي أن تحظى راية كل قائد بأغلبية من أفراد قبيلته بما يتجاوز غيرها من القبائل

فعلى سبيل المثال فإن عمرو والزبير كانا من قريش. وكما نعلم أيضاً إن عمرو عندما وضع مدينته خصص طرقاً وأحياءً لقبائل بعينها[1]. هناك شح ملحوظ في المعلومات المتعلقة بأسماء القبائل التي شاركت في احتلال مصر رغم هذا الزخم الهائل من الأدبيات المتعلقة بتلك الحقبة وقد يُعزى ذلك لطبيعة اختلاف أصول تلك القوات. هناك قبيلتان تأكد مشاركتها وبقدر كبير وهي لخم وجذام.

عُومل الأقباط في البداية بتسامح حيث ضمن لهم عمرو - كمقابل للجزية - ممارسة شعائرهم الدينية وضمن أموالهم وكنائسهم وصلبانهم وأراضيهم ومصادر مياههم، ولا شك إنه بسبب هذه السياسة - وليس بسبب ضعف الحاميات الرومانية - تم إخضاع مصر وبمثل هذه السرعة.

وقبل نهاية عام ٦٤١م أصبحت كل المنطقة من البحر الأحمر حتى بركة ومن البحر الأبيض المتوسط حتى أسوان ولاية من ولايات الخلافة الإسلامية.

في نفس تلك السنوات أو التي تلتها بُعث عبد الله بن سعد بن أبي السرح على رأس عشرين ألفا من الرجال لغزو النوبة المسيحية وكان هذا هو الغزو الإسلامي الأول للسودان. تفاصيل هذا الغزو غير وافية، بيد أن نتائجه لم تكن كلها مخيِّبة،

---

(١) يقول بوتلر عن الزبير بأنه أحضر أربعة ألف رجلاً ثم مُد بعد حين قصير دُعم بمفرزتين تتكون كل واحدة من أربعة آلاف مقاتل. يقول ابن الحكم أنهم أربعة آلاف والبلازري عشرة أو أثنا عشرة وياقوت والسيد طي أثنا عشرة والمقريزي خمسة عشر ألف وخمسمائة، أي إن الأصل ثلاثة ألف ونصف زائداً أثنتي عشر تعزيزاً لاحقاً. ويقول أبو صالح ص ٧٤ بأن عمرو جاء للفسطاط بثلاثة آلاف وخمسمائة محارب ثم انضم له الزبير بأثنتي عشر ألف آخرين.

حيث خضعت النوبة لدفع الجزية «البقط» لسنوات وكانت مقداراً معيَّناً من الرقيق.

وفي هذه الأثناء كان عمرو منغمساً في هموم الإدارة، وكانت سياسته العامة ترمي لتبني النظام الروماني القائم برمته مع تعديل طفيف ليتواءم مع المتغيرات التي تقتضيها الضرورة، ومن بين السياسات الرائجة للمسلمين في هذه السنوات المبكرة للغزو هي منع العرب من حيازة الأراضي، وهذه نقطة من الأهمية بمكان وذات أثر في الهجرة، إذ انصرفت الرؤية لأن يبقوا عسكريين وألا يرتبطوا بالأرض كزُرَّاع، إلا أن هذه القيود لم تعد نافذة عملياً فيما بعد.

لم يكن الخليفة عمر خبيراً في مسائل المال، بل كانت نظرته لمصر مثل نظرة محمد علي باشا - اللاحقة - للسودان، حيث أصبح غير مقتنع بالخراج الوارد من مصر، ولذا فكَّر في زيادته. وعليه قسَّم البلاد - ابتداء - إلى ولايتين، حيث مكَّن عمرو من الدلتا وولي عبد الله بن سعد على الامتداد النهري الذي يبدأ من هناك حتى الشلال الأول، ثم في تاريخ لاحق عيَّن عبد الله والياً على كل البلاد واستدعى عمرو.

في الأعوام (٦٥١ - ٦٥٢م) أرسل عبد الله بن سعد - كوالٍ للبلاد - حملته الثانية ضد النوبة رداً على الغارات المتعاقبة التي نفذوها داخل مصر. ويعود الفضل لما تبقى من تلك الرواية لما دوَّنه عبد الله بن أحمد بن سليم الأسواني عن أرض النوبة في الأعوام (٩٧٥م - ٩٩٦م) التي نقل منها المقريزي.

زحف عبد الله جنوباً حتى دنقلا وهاجم المدينة بالمنجنيق ودك كنيستها، عندها سعى النوبيون للصلح[1]، وما فُرض عليهم من شروط على درجة من الأهمية لذا سنوردها برمتها «بسم الله.. عهد من الأمير عبد الله بن سعد بن أبي السرح لعظيم النوبة ولجميع أهل مملكته عهد عقده علي الكبير والصغير من النوبة من حد أرض أسوان إلى حد أرض علوه إن عبد الله بن سعد جعل لهم أماناً وهدنة جارية

---

(١) ترتب على هذا الصلح أن أبرمت المعاهدة أعلاه والتي عرفت بالبقط وتعني لغة جعل عن مال، بيد إن ما نما لعلمنا - والقول المترجم - هو إن الاسم الصحيح «البقد» وتعنب - بلغة النوبة الشراكة.

بينهم وبين المسلمين ممن جاورهم من أهل صعيد مصر وغيرهم من المسلمين وأهل الذمة أنكم معاشر النوبة آمنون بأمان الله وأمان رسوله محمد النبي صلى الله عليه وسلم أن لا نحاربكم ولا ننصب لكم حرباً ولا نغزوكم ما أقمتم على الشرائط التي بيننا وبينكم على أن تدخلوا بلدنا مجتازين غير مقيمين فيه وندخل بلدكم مجتازين غير مقيمين فيه وعليكم حفظ من نزل بلدكم أو بطرفه من مسلم أو معاهد حتى يخرج عنكم وإن عليكم رد كل آبق إليكم من عبيد المسلمين حتى تردوه إلى أرض الإسلام ولا تستولوا عليه ولا تمنعوا منه ولا تتعرَّضوا لمسلم قصده وجاوره إلى أن ينصرف عنه وعليكم حفظ المسجد الذي ابتناه المسلمون بفناء مدينتكم ولا تمنعوا مصلياً وعليكم كنسه وإسراجه وتكرمته وعليكم في كل سنة ثلاثمائة وستون رأساً تدفعونها إلى إمام المسلمين من أواسط رقيق بلادكم غير المعيب يكون فيها ذكران وإناث ليس فيها شيخ هرم ولا عجوز ولا طفل لم يبلغ الحلم تدفعون ذلك إلى والي أسوان وليس على مسلم دفع عدو عرض لكم ولا منعه عنكم من حد أرض علوة إلى أرض أسوان فإن أنتم آويتم عبداً مسلماً أو قتلتم مسلماً أو معاهداً أو تعرضتم للمسجد الذي ابتناه المسلمون بفناء مدينتكم بهدم أو منعتم شيئاً من الثلاثمائة رأس والستين رأساً فقد برئت منك هذه الهدنة والأمان وعدنا نحن وأنتم على سواء حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين علينا بذلك عهد الله وميثاقه وذمته وذمة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ولنا عليكم بذلك أعظم ما تدينون به من ذمة المسيح وذمة الحواريين وذمة من تعظمونه من أهل دينكم وملتكم. الله شاهد بيننا وبينكم على ذلك. كتبه عمرو بن شرحبيل في رمضان سنة إحدى وثلاثين.

ظلت هذه المعاهدة سارية لأكثر من ستمائة عام وكانت الجزية تدفع سنوياً للضابط المسئول عن الحدود في القصر (خمسة أميال جنوب أسوان). وفي نفس الوقت كانت هناك هدية من أربعين عبداً يسلِّمها النوبيون وينالون - من العرب - مقابلها هبة ضخمة من القمح والشعير والعدس والملابس والخيول من العرب. وتبدو العطايا المتبادلة متعادلة - نظرياً - بيد أن القوائم المُفصَّلة لتلك العطايا ما لم تكن غير دقيقة - وهذا جائز - فالأرجح إن العرب وهم يعانون الكثير من الصعاب

في سبيل الحصول على تلك الجزية التي تساوي ثلاثمائة وستين رأساً من العبيد، لم تزد عطاياهم للنوبيين عما يدفعه النوبيون إلا بقدر ما يقرب قيمة الجزية نفسها[1].

أما عن شرط عدم استيطان العرب في بلاد النوبة الوارد في المعاهدة فهو - دون شك - لم يكن أكثر من شرط امتيازي قصد به معادلة المنع المقابل للنوبيين من استيطان مصر، بيد أن الثابت هو أن هذا الشرط قد بطل مفعوله مبكِّراً. وبالرغم من إن المعاهدة ظلت سارية لفترة طويلة من الزمن وإن دفع الجزية المفروضة لا بد أن يكون قد روعيِ تنفيذه بصرامة باعتباره الشرط الوحيد الذي يحظى بالأهمية، بيد أن هذا الشرط أُعتبر - كمعيار للتعامل مع النوبيين - الأكثر ملاءمة إذ كان مجزياً لما يلحقه من تبادل للهدايا..

في عام ٦٥٦م أُغتيل الخليفة عثمان، والحرب الأهلية التي أعقبت هذا الاغتيال ألقت بظلالها على مصر. كانت هناك مناهضة مسبقة للحكم الظالم لعبد الله بن سعد والواليين الذين ولاهما الإمام علي من بعده، حيث عُزل أحدهما وأُغتيل الآخر بالسم. كان في «خاربتا» بالحوف عشرة ألف فارس على أُهبة الاستعداد للثار لعثمان. وعندما عاد عمرو بن العاص في العام ٦٥٨م بعدد مُعتبر من الجند كمرشح من قبل معاوية - المنافس لعلي - لم يجد صعوبة في توطيد سلطانه للمرة الثانية كوالٍ على مصر. لم تشهد هذه الفترة أيه أحداث هامة سوى الحملتين العسكريتين اللتين أُرسلتا فيما بين الأعوام ٦٥٨ و٦٤٤م ضد البربر في ليبيا.

---

(١) يُلاحظ في هذا الصدد إن الشروط التي نسبها المقريزي للبقط على ذكرى تجددها في العام ١٢٧٦، بأن أصل التبادل كالآتي: عندما دفع النوبة الجزية لعمرو بعد حملة في ٦٤١ قدموا له هدية شخصية عبارة عن أربعين عبداً فرفض استلامها وردهم للمبعوث الذي باعهم واشترى بثمنهم مؤن وخمور للنوبيين، أصبح ذلك تقليداً راتباً، لكن بعد حملة ٦٥١ إحتفظ حاكم مصر بالأربعين عبداً ونقلاً عن المقريزي من أبو خليفة حامد بن هشام البحيري بأن ما قُدم للنوبيين فعلاً هو الف أردب من القمح وألف أردب من الشعير وألف جرة من الخمر للملك، وعن كل ألف ثلاثمائة للمبعوث، ثم حصانين أصيلين ومائة قطعة من القماش، وأربعين قطعة من أجود الملبوسات للملك فضلاً عن كساء.

توفي عمرو في العام ٦٤٤ الميلادي وفيما بين هذا التاريخ وحتى ظهور الأسرة الطولونية في ٨٦٨م، تعاقب على حكم مصر ثمانية وتسعون والياً عربياً. أدى هذا لتزايد الوجود العربي والسبب هو إن كل والٍ جديد يكون على رأس جيش لا يقل تعداده عن العشرين ألف مقاتل. لم يرجع الكثيرين من هؤلاء المقاتلين لسوريا أو الجزيرة العربية مرة أخرى. وكان جزء من هذه الحشود من الفرس والترك وغيرهم، إلا أن الأغلبية كانت من العرب. ومن الطبيعي ان يكونوا من قبيلة الوالي نفسه. وباستعراض الانتماء القبلي للثلاثة وثمانين والياً الذين خلفوا عمرو بن العاص على حكم مصر، نجد إن سبعة من اثنين وعشرين والياً في عهد بني أمية أي حتى عام ٧٥٠م كانوا من قريش(١)، ثم عدداً مماثلاً من قيس عيلان(٢)، وواحد من جهينة(٣)، واثنان من الأزد وثلاثة من حمير(٤) وواحد من لخم وآخر لم تتضح قبيلته(٥).

أما الواحد وستون والياً – من ولاة مصر– الذين خدموا الدولة العباسية فيما بين الأعوام ٧٥٠ حتى ٨٥٦م، فقبائل ثلاثة وثلاثين منهم – على الأقل – معروفة، حيث كان خمسة عشر منهم – على الأقل – من بني العباس وثلاثة من بني تميم(٦) وخمسة من الأزد(٧) واثنان من طيء وواحد من لخم واثنان من مذحج واثنان من بجيلا(٨) واثنان من حِمْير(٩) وواحد – فيما يبدو – أرمني الأصل.

بالطبع إن رجال تلك القبائل الذين سكنوا المدن الكبرى، أو تولَّوا زراعة شطآن

(١) أغلبهم من بني أمية قبيلة الخليفة.
(٢) فهم وقيس وفزاره وباهلا وكلهم في النصف الأول من القرن الثامن.
(٣) يشملون الخزرج.
(٤) واحد أصبحي وآخر كلبي وثالثهم حضرمي وبنو كلب فرع من قضاعة.
(٥) هو الحر بن يوسف (٧٢٤-٧٢٧).
(٦) فرع من مُضر.
(٧) أثنان من خزاعة وأثنان من مهلب.
(٨) بنو تميم والأزد وطيء ولخم ومذحج بجيلا كلهم أقرباء لبعضهم البعض ويرجع أصلهم لكهلان.
(٩) الرويني والكلبي.

النيل هم الذين تزاوجوا وبصفة رئيسة مع الأقباط سكان البلاد القدماء واستقروا في مصر. أما القبائل الأكثر بداوة كان من الطبيعي أن تكون الأكثر عُزلة، وبالتالي كانت الفئة الأقل تأهيلاً في أمور التصاهر والتزاوج، وأمثال هؤلاء هم الذين دخلوا السودان مؤخراً وكانوا عرباً خُلصًاً كما هو حالهم عند دخولهم أفريقيا.

بعد نصف قرن من وفاة عمرو - أي في ٧٢٢م - وقع أول تمرُّد، تلته سلسلة طويلة من ثورات الأقباط الذين لم يعتنق الإسلام إلا القليلين منهم، ويبلغ عددهم - حالياً - حوالي الخمسة ملايين في مصر.

وحفظاً لميزان القوى مع الأقباط دُفع بقبيلة قيس عيلان للهجرة إلى مصر. فاستوطَّنت حول بلبيس. سبق ورأينا أن بلغ عددهم - في حوالي عام ٧٥٠م - قرابة الثلاثة ألف إلا أنهم بدلاً من أن يقووا ساعد والى مصر شكّلوا بؤرة أخرى للثورة.

أما عن البلاد الواقعة جنوب أسوان فلا نعلم عنها -خلال هذه الحقبة - إلا القليل كتلك المعلومات المُستقاة من المصادر المسيحية والتي تتمثَّل في الآتي: في حوالي عام ٧٣٧م[١] ابتَّز وإلى مصر الكثير من الأموال من الأنبا خايل بطريارق الأقباط في الإسكندرية، مما

دفعه للذهاب خارج القطر طلباً للمساعدة. وقد كان سرياكوس ملك الحبشة[٢] ساخطاً على الإذلال الذي تعرَّض له رئيسه الروحي، ولهذا زحف نحو مصر بمائة ألف من الخيالة، ومائة ألف من الهجانة. وعندما دخل النوبيون - أي الأحباش - مصر أشبعوها نهباً وذبحاً، وأخذوا الكثير من الأسرى وخربوا الكثير من الديار العامرة في

(١) يذكر أبو صالح بأن ذلك كان في خلافة مروان الجعدي آخر خلفاء بني أمية (٧٤٤- ٧٥٠) بيد أنه قول غير مؤكد.

(٢) يصنف أبو صالح سرياكوس بأنه «ملك النوبة» بيد أن هذا القول مبهم، ثم يتحدث عن وقائع معاصرة ويقول «الملوك في النوبة عددهم ثلاثة عشر وكلهم تحت حكم ملك الملوك سرياكوس، وكلهم كهنة ويؤدون القداس في المحراب، طوال مدة حكمهم لا يقتلون بأيديهم، أما إذا قتل الملك رجلاً فإنه لا يدخل المحراب» وبمزيد من الإطلاع نجد.

مصر العليا ثم تقدموا في البلاد. ولما علم والي مصر بأسباب حملتهم والتي لُخصت له كالآتي: «عندما ذهب بطريارق مصر لطلب العون من المسيحيين في مصر العليا بلغت تلك الأنباء ملك النوبة، وملك الحبشة وملك آخر ممن يتبعون لبطريارق مصر، وكان ملك النوبة ناقماً بسبب تلك الأنباء». في الحال أعفى وإلى مصر البطريارق من التزاماته وامتنع عن ابتزاز الأموال منه، وطلب منه أن يكتب لملك النوبة ليعود لبلاده فوراً، وهكذا كتب البطريارق لملك النوبة - كما طُلب منه - وعاد ملك النوبة لبلاده.

وفي عام ٧٥٠ الميلادي أطاح العباسيون ببني أمية بعد أن مات آخر حكام الأسرة الأموية - مروان - كلاجئ في مصر. وكان أول خلفاء بني العباس هو عبد الله أبو العباس السفاح واتصف حكمه بالظلم والبطش، وكانت الإبادة والمذابح الجماعية هي مصير كل منافس سواء كان من الأمويين أو مشايعي الأمام علي.

هرب بنو أميه الذين نجوا من المذبحة إلى أقصى أصقاع العالم الإسلامي. ووجد آخرون مستقراً في أسبانيا[١] ومصر، بينما ذهب آخرون للهند، وقِيل إن بعضهم فرَّ مباشرة للسودان ومن أحدهم - كما تقول الروايات السودانية - يتجزَّر الدم العربي في أسرة الفونج الحاكمة التي أسست مملكة سنار في الجزيرة في بداية القرن السادس عشر. ومع استصحابنا لكافة المحاذير عن مدى صحة الرواية، يُقال إن سليمان بن عبد الملك بن مروان هو الذي فرَّ من السفاح للحبشة، ثم للسودان، وتزوَّج بابنة أحد الملوك المحليين. أما مجموعة القبائل التي تُعرف الآن بالجعليين قيل - على العكس من ذلك - إنهم من أصل عباسي. قال المسعودي[٢] عن عبد الله بن مروان - آخر الأمويين - بأنه اتخذ من السودان ملجأً مؤقتاً، ثم غادره بطريق باضع (أي الريح) بعد أن فقد أخاه عبيد الله والكثيرين من أتباعه. وقد أورد المقريزي هذه الواقعة

---

(١) أي عبد الرحمن بن معاوية في ٧٥٦ حيث أسس أسرة أموية مالكة.

(٢) دخل أبناء مروان للسودان عن طريق أسوان مع عوائلهم وأتباعهم ومشايعيهم وبعض الأمويين من خرسان.

عن ابن سليم ولا يُوجد ما يستدعي التشكيك في الأخذ بها كحقيقة تاريخية[1].

أما مصر وما جاورها من بلدان كانت - خلال تلك الفترة - مرجلاً لثورة واسعة كنتاج طبيعي لتغيُّر الأسرات الحاكمة والتناقضات الدينية التي نشأت.

سببت طائفة الخوارج المتزمتة سلسلة من الاضطرابات وحمامات الدم في مصر وذلك في عام ٧٥٤م، وفي بركة عام ٧٥٩م، ثم عموماً بمعية متمردي بني أمية والبربر، ثم في عام ٧٦٥م في الحبشة. كما كان الأقباط يهبُّون - خلال تلك الفترة - بين الفينة والأخرى. انتهز بنو قيس - القاطنين حول بلبيس - تلك الاضطرابات وأصبحوا يقطعون طريق التجارة دون رادع.

وفي عام ٧٨٢م أعلن مغتصب أموي عن نفسه كخليفة للمسلمين، لكن تم التصدي له عبر سلسلة من الانتصارات المتلاحقة قبل أن يتم القبض عليه، حيث أعدم وأرسل رأسه للخليفة في بغداد. ثم بعد ذلك بعامين بدأت الفترة الأكثر أهمية للمتمردين من القيسيين، حيث شهدت بداية القرن التاسع أهمها. وكانت تلك الفترة أيضاً من أشد فترات الشقاق الطائفي. وبصرف النظر عن الشقاق الأصلي بين المؤيدين لمدعيي الخلافة، نشأ تنافر بين مدارس الفقه والتشريع فيما بين السُنة والشيعة. كان المذهب الحنفي سائداً في بغداد بينما عمَّ مذهب الإمام مالك بن أنس - في الجزء الأخير من القرن الثامن والتاسع - مصر وانتشر غرباً، واعتنقته الأسرة الأموية الحاكمة التي أسست مملكة في أسبانيا، بيد أن بداية القرن التاسع شهدت حضور الإمام الشافعي للفسطاط وأخذت تعاليمه - من الآن فصاعداً - في الانتشار تدريجياً حتى توطَّدت في مصر إلى يومنا هذا. ومما يُلاحظ إن انتشار هذا المذهب لم يمتد للسودان ولم يحظ بالمكانة التي نالها المذهب المالكي سواء في السودان أو على طول الساحل الشمالي لأفريقيا باستثناء مصر.

أما الاضطرابات غير الدينية فقد بلغت ذروتها في ٨٣١م عندما انضوى الأقباط

---

(١) وُجدت مقابر قديمة في موقع «باضع» بواسطة كروفوت والتي ترجع لنهاية القرن العاشر تُثبت بأن بعض بني أمية استقروا هناك.

في مصر السفلى تحت لواء بني قيس وبني لخم وغيرهم من متمردي العرب، ودخلوا في عصيان مسلّح استمر لمدة عام تقريباً مما دفع بالخليفة لزيارة مصر، حيث أفلح في إخماد العصيان في الحال وسحق الأقباط الذين امتنعوا - من حينها - عن إقحام أنفسهم في مثل هذا المأزق. يقول لين بول «منذ ذلك التاريخ - أي ٨٣٢م - بدأ التفوُّق العددي للمسلمين على المسيحيين في مصر. واستقر العرب في القرى وحازوا الأراضي بدلاً من أن يقتصر وجودهم على المدن الكبرى فقط، مما جعل من مصر - الآن ولأول مرة - دولة إسلامية حقيقية».

في هذه الأثناء بدأ البجة في إثارة القلاقل بالسلب والنهب، فأرسل لهم الخليفة حملة بقيادة عبد الله بن الجهم، فأبرمت معاهدة في ٨٣١م في أسوان - أي عام إخماد ثورة الأقباط - بين عبد الله وكنون بن عبد العزيز[1] زعيم البجة. تقضي البنود الرئيسة لتلك المعاهدة بأن يدفع ذلك الجزء من ديار البجة - فيما بين أسوان في الغرب ودهلك وباضع في الشرق - جزية سنوية للخليفة يبلغ مقدارها مائة من الإبل أو ثلاثمائة دينار. وإن استمرار كنون كحاكم تحت سيادة الخليفة رهين بدفع تلك الجزية. هناك بنود أخرى في المعاهدة - أضيفت لمصلحة المسلمين تقضي باحترام معتقداتهم وحمايتهم وحماية ممتلكاتهم ومنحهم الحرية في التجارة والسفر في بلاد البجة والمساعدة في قبض العبيد الفارين واسترداد الضال من الأنعام، مع التعُّهد بعدم تقديم أي عون لأعداء الإسلام. وبموجب المعاهدة مسموح للبجة بزيارة مصر العليا فقط غير مسلحين، على ألا يدخلوا أي مدينة أو قرية[2]، كما تعهّدوا بالا يهدموا مسجداً من تلك المساجد التي أنشئت في «بيها» و«هجر» أو في أي مكان من ديار البجة. وتم الاتفاق بأن يظل كنون نفسه - الذي عُفي عنه - رهينة في الأراضي المصرية ضماناً لتنفيذ هذه البنود وممثلاً لقومه هناك. وكمقابل لمراعاة هذه البنود

---

(١) اسمه يثبت إنه مسلم.

(٢) لم يكن مسموح للبجة دخول مصر الإ عابرين أو متاجرين مع بدو العرب. الإقليم ما بين القصر (الحدود الشمالية للنوبة على النهر على بعد خمسه أميال من أسوان) والكوبان (على الضفة الشرقية ثلاثة ايام جنوب أسوان قبالة الدكة) كانت ممنوعة تماماً.

يُوضع البجة تحت حماية الله والخليفة والمسلمين كافة. ما أن تمت تسوية أمور البجة حتى حل الدور على النوبة بسبب امتناعهم عن دفع الجزية. ووفقاً لما أورده ابن سليم[(١)] تبنَّى العرب سياسة تحريض القبائل المجاورة - أي البجة - ضدهم مع قطع إمداد الغذاء عنهم. وقبل أن يبت زكريا ابن بهنس - الذي كان وقتها ملكاً للنوبة - في الأمر أرسل ابنه جورج لبغداد متظلماً. عُومل جورج معاملة كريمه ونجح في الحصول على وعد بجُعل كبير من الخزانة المصرية بمجرد أن تدفع هذه الجزية والتي سُوي أمرها بحيث تُدفع مستقبلاً كل ثلاثة سنوات، بينما أُوقفت العطايا التي يدفعها المسلمون للنوبيين. تقدَّم زكريا بعدة التماسات بشأنها إلا إنها رفضت. هكذا اقتنع جورج وهو مُرغم واستمر في دفع الجزية بانتظام، ويُقال إن أباه شيد كنيسة ابتهاجا برجوعه بسلام[(٢)].

ما زالت الأزمات تترى حتى العام ٨٥٤ الميلادي أثناء فترة حكم «عنبسة» آخر وأفضل ولاة العرب في مصر، إذ امتنع البجة عن دفع الجزية وهاجموا المدن النيلية في أدفو واسنا. وعلى الفور تم تحريك جيش كبير من العرب على النيل شق الأراضي الباطنة من قوص، بينما أرسلت قوة صغيرة للإمداد عن طريق البحر الأحمر.

تلقى البجة هزيمة ساحقة مما أجبر زعيمهم «علي بابا» على الاستسلام للقائد العربي. عُومل علي بابا معاملة طيبة لدرجة إنه استقدم في (٨٥٥ - ٨٥٦م) لزيارة الخليفة في بغداد. وهكذا استتب الأمن ورُتب أمر الجزية. ركّزت إحدى النصوص الأساسية لتلك المعاهدة على التسهيلات التي يجب أن تُعطى للعرب لاستغلال المناجم

(١) استناداً على أبي صالح (ص ٢٦٨-٢٧٠) فقد طُلبت متأخرات أربعة عشر سنة وتبدأ هذه الفترة من حوالي ٨٣٣م، حيث يتحدث أبو صالح عن إبراهيم أخ الخليفة المأمون بأنه هو الذي طلب تلك المتأخرات. ويسند أبن سليم المشكلة لعهد المتعصم الذي خلف المأمون في عام ٨٣٣م ومن أقوال ابن سليم لا يفترض المرء بأنه قد فات على الجزية عام واحد، لكن رواية أبي صالح كانت «اعتماداً على تاريخ الكنيسة وسيرة البطريارق الأنباجوزيف والثاني والخمسون.

(٢) يخلط بن سليم بين البجة والنوبيين مثلاً يتحدث عن علي بابا كملك للسودان ويصف رجاله بــ«السود». (أنظر المقريزي في الجزء الثاني ص ٥٦٨).

الموجودة في ديار البجة. وتم تنفيذ هذا الشرط، وهكذا عاد علي بابا سالماً لبلاده.

بدأ الآن فصل جديد في مصر[1]،إذ يقول «روجر»: منذ أن اتصل العرب بالأتراك في أوكسس وأخضعوهم لسلطانهم، كافأ المسلمون عبيدهم الأتراك بسخاء، وبسبب همتهم وملاحتهم وقوتهم كسبوا ثقة كبار الأمراء وبالأخص الخلفاء الذين يعولون على ولاء هؤلاء الأجانب الذين اشتروهم أكثر من بني جلدتهم من العرب المتطلّعين أو الفرس الذين استقروا بينهم والذين لا زال لهم القدح المعلى في إدارة الإمبراطورية. العبد التركي الصغير الذي يخدم سيده بإخلاص عادة ما يُعتق ويولى منصباً رفيعاً في البلاط. ولما كان الخلفاء عاجزين عن إخماد تمرُّد الأمراء المحليين دون إغرائهم بامتيازات خاصة وحقوق إقليمية، فقد انزلقوا تدريجياً في خطأ مقابل يتمثّل في عزل أقوى عناصرهم ووضع كل ثقتهم في هؤلاء العبيد الأجانب الذين سيطروا بدورهم على القصور. وطّد هؤلاء العبيد البيض القساة الجهلة «أي المماليك» أنفسهم في تلك المجتمعات المستنيرة لحكام تلك الإمبراطورية العظمى، وسرعان ما ألموا بتعاليم القرآن وتبنُّوا لغة وديانة أسيادهم. ثم درسوا العلوم والسياسة وذلك سعياً لتأهيل أنفسهم للتصدي لأصعب المهام واحتلال أبرز المواقع في مختلف العصور. نتيجة لذلك كانوا يُعتقون من ربقة الرق وينالون أرفع الدرجات الحكومية كل بقدر ما يُظهر من كفاءة.

ولم يقتصر اختيار هؤلاء الأتراك المحرَّرين على ملء وظائف القصور فحسب بل كانوا يُعيَّنون كحكام لأهم ولايات الإمبراطورية. يُعرف هؤلاء المماليك في السودان باسم الغز[2]. كان من الطبيعي أن تتأثر مصر بهذا التحوُّل، ومنذ حوالي عام(٨٣٦م) جعل منها الولاة المتعاقبون إقطاعية للترك في بغداد.

حتى العام ٨٥٦م كان الولاة من العرب ولكن ذات العام شهد استدعاء عنبسة. وفي سبتمبر ٨٦٨م، وبعد سلسلة من الحكام الأتراك الذين وُلّوا لفترات، نجح المماليك

(١) أي الأتراك السلاجقة وتستخدم للماليك.

(٢) أي الأتراك السلاجقة وتستخدم للماليك.

في تكوين أسرة حاكمة تولّت إدارة شئون مصر وذلك لمدة سبعة وخمسين عاماً. وكان رجلها هو أبو العباس أحمد بن طولون الذي كان إدارياً بارزاً مشهوداً له بالكفاءة إلا أنه كان صارماً فظاً. وببروز هذا النظام الجديد بدأت القبائل العربية الهجرة للسودان جنوباً ثم غرباً إلى مناطق البربر هروباً من سطوة هؤلاء الأجانب.

بعد ثلاثة أشهر من تولي ابن طولون[1] لمقاليد الأمور وجه حملة ضدالنوبة بقيادة عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد المجيد العمري. وتكّونت قواته - بصفه رئيسة - من ربيعة وجهينة. وبمجرد أن فرغ من أمر النوبة توجّه العمري شرقاً نحو المناجم التي شهد إقليمها تزايداً في أعداد العرب الذين استوطّنوا وسط البجة منذ معاهدة ٨٣١ و٨٥٥ - ٨٥٦م. والأغلبية من رجال هذه القبائل من ربيعة وجهينة الذين بدلاً من أن يعودوا لمصر اتخذوا من الصحراء الشرقية وسواحل البحر الأحمر موطناً دائماً لهم وتزوّجوا من البجة. وكانت مكاسب مصر - نتيجة لهذا الواقع الجديد - أن توقّفت الغارات على حدودها الجنوبية، أما بالنسبة للبجة فكانت حصيلتهم هي ما اكتسبوه من سيطرة قبلية تامة من قبل تلك الأرستقراطية العربية.

لسنا في حاجه لذكر انتصارات ابن طولون في سوريا ولا الانغماس في الملذات لخلفائه في مصر عدا تلك القصور الذهبية وبحيرات الزئبق، التي تكشف - بالضرورة - عن ظلم لحق بدافعي الضرائب مما شكّل باعثاً للهجرة، بل يكفي أن نقول إن مصر بعد أن غرقت في الدماء لتسع سنوات تالية، أرسل المكتفي في عام ٩٠٥م جيشاً أعاد الولاية للخلافة لحوالي الثلاثين سنة وحوّل من تبقى من الأسرة الطولونية لبغداد.

في العام ٩١٤م شنت طائفة الفاطميين من الغرب - أي بربر قتامة - سلسلة من الهجمات ضد مصر، غير أنهم - في ٩٢٠م - رُدوا على عقبيهم حتى برقة. ثم تلت تلك الحقبة خمسة عشر عاماً من الفوضى السياسية حتى وُلي حمد بن طقوق في عام ٩٣٥م لإعادة النظام لمصر، الأمر الذي تحقق على يديه. لم تشهد البلاد طوال إحدى عشر عاماً أي نوع من الاضطرابات. وكانت زيارة المسعودي لمصر أثناء فترة حكم

(١) يُقال إن مئونتها نقلت بستين ألفاً من الجمال.

هذا الوالي. زودنا المسعودي ببعض المعلومات القيمة والمتعلِّقة بالعرب في السودان - عرضاً - حيث قال «تنقسم نوبيا» - وهنا يستخدم العبارة بمدلولها الواسع - إلى مركزين رئيسين، المقرة شمالاً وعلوة جنوباً وعاصمة الأولى دنقلا والأخرى سوبا. ويعرِّف أقصى شمال المقرة باسم «مريس».

كان ملك دنقلا - الوراثي - هو كُبرا بن سرور، ويقع المركز الجنوبي - علوة - تحت سيادته أيضاً. وكان مسئولاً عن دفع الجزية القديمة التي لا تزال سارية ومقدارها ثلاثمائة خمسه وستون عبداً مع أربعين آخرين هدية للوالي، إضافة لعشرين لممثله في أسوان وخمسة لكبير قضاة أسوان وواحد لكل من الكتبة الاثني عشر الذين يعاونونه.

ثم إلى الشرق حتى البحر الأحمر تُوجد قبائل البجة المتمَّردة مع القبائل العربية التي استقرت وسطهم من ربيعة ومُضر وغيرهم من قحطانيي اليمن، ويُقدر عددهم بثلاثة آلاف ممن تزاوجوا مع البجة ودانوا بالولاء للشيخ الكبير أبو مروان بشر (أي بشر بن مروان) من ربيعة.

أما البجة فما زالوا على وثنيتهم باستثناء الحداريب - الفرقة المقاتلة بينهم - ويُقال بأن في مقدورهم الدفع بثلاثين ألف هجَّان.

مما يُلاحظ هو إن زعماء النوبة يدَّعون التحدُّر من أسلاف حميريين[1]، ذات الأمر الذي يدعيه - في تواريخ لاحقة - حكام كانم وبرنو. وقد يكون مصدر هذا الادعاء هو التزاوُج مع القبائل العربية التي استقرت حول أسوان، إذ لاحظ المسعودي إن سكان هذه المدينة - التي لا تزال مركزاً تجارياً كبيراً - مختلطين بكثافة مع النوبيين، وإن عدداً من العوائل العربية من قحطانيين واسماعيليين اشتروا أراض من النوبيين واستقروا هناك. ومع ذلك قد يبقى مرد هذا الإدعاء - بنفس القدر - للارتباط الوثيق والدائم مع الحبشة وسكَّانها من أنصاف اليمنيين.

---

(١) تزعم ملوكهم إنهم من حمير هكذا نقل قبطي عجوز لإبن طولون (أنظر المسعودي الجزء الثاني صفحة ٣٧٢ - ٣٨٢).

وقيل إن وراء علوة قبيلة كبيرة من السود[1] تسمى «كونا»» كينا؟ كِنًا؟» وهم قوم عُراة كالزنج وتغل أرضهم الذهب وبأرض هذه المملكة ينشطر النيل.

وفي العام ٩٥١م نفذ النوبيون غارة ناجحة على واحة «الخارجة» وكانت وقتها تحت حكم بربر «اللعاطة». ثم بعد خمس سنوات هاجموا أسوان، لكنهم جُوبهوا بحملة تأديبية تحت قيادة محمد عبد الله الخزين الذي احتل «أبرم» وأعدم العديد من النوبيين وأخذ آخرين - كرقيق - إلى مصر.

الآن هناك فجوة في المعلومات المتعلِّقة بشئون النوبة، مع وجود وقائع مهمة حدثت إلى الشمال منها. إذ برز الفاطميون من أصحاب نظرية الحق الإلهي في الخلافة ووجوب توريثها للمتحدِّرين من الإمام علي زوج فاطمة ابنة النبي ﷺ، وبلغوا أشدهم في بربري، وباضمحلال قوة الإخشيديين سنحت لهم الفرصة لتحقيق طموحهم المتنامي والذي سبق وقادهم من نصف قرن لغزو مصر[2]، فلم يهدروا تلك السانحة سدىً، ففي عام ٩٦٩م دخل الخليفة الفاطمي أبو تميم مُعد المعز، غازياً الفسطاط على رأس جيش من الشيعة[3] ثم في نفس السنة أنشئت القاهرة.

قُوبلت الأسرة الحاكمة الجديدة ببرود من شعب مصر، لكنها حُظيت بالتسليم من قبل الأشراف في الأماكن المقدَّسة ثم حكام شمالي سوريا.

جرت محاولة لأسلمَة جورج ملك النوبيين إلا إن هذه المحاولة باءت بالفشل. فيما بين الأعوام ٩٧٥م و٩٩٦م كتب ابن سليم عن«النوبة والمقرة وعلوة والبجة والنيل»، وقد حوت كتاباته معلومات عن تواريخ سبقت ميلاده - كما سبق وذكرنا -

---

(١) هنا أيضاً يورد المسعودي ما قاله العجوز القبطي لإبن طولون «وراء علوة أمة عظيمة من السودان تدعى بكنة وهم عراة كالزنج وأرضهم تنبت الذهب وفي مملكة هذه الأمة يخترق النيل (أنظر المسعودي الجزء الثاني الفصل الثالث ص ٣٨٣).

(٢) دخل المذهب الشيعي أفريقيا في ٨٩٣ بواسطة عبد الله الشيعي، اعتنقه بربر قتامة، ومنهم انتشر وسط البربر الأخرين والعرب من سكان شمال أفريقيا غرب مصر.

(٣) كان يغلب على قواته بربر قتامة وخلافهم من البربر الآخرين، وكان فيهم يونانيون وسلاف أيضاً.

وسنخلص الآن لما دوّنه عن حالة الدولة في العقود الأخيرة للقرن العاشر.

ففي أقصى شمال النوبة حاز المستوطِنون من المسلمين القادمين من مصر على الأراضي وكانوا من الناحية الفعلية مستقلين. وإن أعداداً من النوبيين جنوبيهم وشمال الشلال الثاني اعتنقوا الإسلام.

أما المدن الرئيسة في الشق الشمالي وهي «بقراش» أو «نقراش» أي «فرس» و«أبرم» و«الدر»، ظلت تحت سيطرة عامل قوي يُعرف باسم «ملك الجبل» كممثل لملك النوبة[1]. ومن مهامه منع تجاوز الأغراب حد الشلال الثاني - أي من جوار حلفا - دون إذن، ويبدو إن سلطانه يمتد جنوباً حتى صاي.

وإلى ما وراء الحدود الجنوبية لمستعمرته، لم يكن للناس معرفة بالنقود، ولذلك تتم البيوع بمقايضة الرقيق والجمال والحديد والغلال بمنتجات الشمال. وكانت «الماريسي» هي لغة التخاطب جنوباً حتى «يستو»[2] تلك القرية التي تقع على بعد ستة وثلاثين ميلاً جنوب الشلال الثالث، والتي يقول ابن سليم بأنها تشكل الحدود لمحافظات «مريس» - أي نوبيا الحقيقية - والمقرة[3].

ووراء هذا الموقع مركزان يُعرفان - على التوالي - باسم «باكون» و«صفد بغل» (صفدكال ساند كال صفد بكل؟). ويمتد المركز الأخير جنوباً حتى دنقلا، وهي عاصمة لكل المنطقة من تخوم مصر حتى حدود علوة. علق ابن سليم على خصوبة وازدهار

(١) أي ملك المقرة الذي توجد عاصمته في دنقلا، وكان ملك النوبة يطلق على نفسه «ملك المقرة والنوبة» (أنظر أبو صالح ص ٢٦١).

(٢) يقول بركهارت (ص ٥٢٣) وجدت هذا الاسم مكتوباً يونسو، وبينسو ونوسو. وربما المعنى مشو المتاخمة لدنقلا.

(٣) لقد كثر ذكر المقرة في سبيل المثال يقول ابن سليم عنها بأنها تمتد كثيراً نحو الشمال ويتحدث عن نقراش (فرس) كعاصمة لماريس، ثم في موضع آخر كعاصمة للمقرة، وتعرف ماريس ونوبيا منفصلتين عن المقرة وماريس هو مجرد اسم ينطبق أحياناً على الجزء الشمالي من المقره الذي يسكنه جنس متميز من الاثيوبيين المتمصرين وهذا ما يؤيده ابن سليم وماريس عبارة قبطية تعني الجنوب أي أقصى شمال نوبيا.

المنطقة على ضفتي دنقلا، أما عن السكان فلم يذكر شيئاً بل اقتصر حديثه على المهاجرين من فروع قبائل البجة ممن يسمون بـ«الزنافجة»، الذين احتفظوا بلغتهم الخاصة وعاشوا بمعزل عن النوبيين، يمارسون الرعي على تلك البقاع فيما بين أبي حمد الحالية وبربر. وسوف نرى فيما بعد «زنافجة» آخرين في أقصى الشمال والغرب ممن كانوا أتباعاً للحداريب. لا تمتد مقاطعة دنقلا جنوباً لأكثر من الأبواب «أي كبوشية»، وهي أقصى مراكز علوة[1] شمالاً وكانت تحت إمرة حاكم «مك» يعرف باسم «رحراح»[2].

ونما لعلمنا بأن على ضفاف نهر عطبرة قبيلة تُسمى «دجيون»[3] ترتبط بشعب علوة من جهة والبجة من ناحية أخرى، تتلوهم - على الحدود الحبشية - قبائل البازا والذين تتوحد أسماء كل نسائهم وكذلك الحال بين الرجال.

كان حكم علوة الوراثي - في زمن ابن سليم - بيد «سميون» الذي كانت سوبا عاصمة لملكه وهي على مقربة من ملتقى النيلين. وقال عن علوة «مدينة العلوة شرقي الجزيرة الكبرى التي بين البحرين الأبيض والأخضر في الطرف الشمالي منها عند مجتمعهما وشرقيها النهر الذي يخص ويسكن بطنه وفيها أبنية حسان ودور واسعة وكنائس كثيرة الذهب وبساتين ولها رباط فيه جماعة من المسلمين، وممتلك علوة أكثر مالاً من ممتلك المقرة وأعظم جيشاً وعنده من الخيل ما ليس عند المقري وبلده أخصب وأوسع والنخل والكرم عندهم يسير وأكثر حبوبهم الذرة البيضاء التي مثل الأرز منها خبزهم ونزرهم واللحم عندهم كثير لكثرة المواشي والمروج الواسعة

---

(١) إذا كان كذلك فإن الحدود الجنوبية للمقرة يفترض أن تقتصر على شمال كبوشية فقط أي في حدود أميال قليلة من مروى القديمة. ليس من الواضح مطلقاً من صياغة المقريزي ما إذا كانت تلك الحقائق من غيره أم منقولة من ابن سليم. يرجح بركهارت الرأي الأخير.

(٢) هكذا أوردها بركهارت ويجوز أن يكون الاسم مرتبطا بلفظة «ريجريسا» على أثرية (Heru- sa -ated) حكم ذلك الملك مروى في القرن السادس قبل الميلاد وسجل معركة قادها ضد أناس يحملون نفس الأسم، هجمتان منهما ضد مروى (أنظر بدج المجلد الثاني ٨٠-٨١).

(٣) ربما المعنيين هم الداجو قبل هجرتهم لدارفور.

العظيمة السعة حتى إنه لا يوصل إلى الجبل إلا في أيام وعندهم خيل عتاق وجمال صلب عراب ودينهم النصرانية يعاقبة وأساقفتهم من قبل صاحب الإسكندرية كالنوبة وكتبهم بالرومية يفسرونها بلسانهم وهم أقل فهماً من النوبة وملكهم يسترق من يشاء»[١].

وفي الجزيرة على بعد مسافة جنوب علوة يعيش قوم يُطلق عليهم اسم «كيرسا»[٢] قال عنهم «في الجزيرة التي بين البحرين جنس يُعرف بالكرنينا لهم أرض واسعة مزروعة من النيل والمطر فإذا كان وقت الزرع خرج كل واحد منهم بما عنده من البذر وإختط على مقدار ما معه وزرع في أربعة أركان يسيراً وجعل البذر في وسط لخطه وشيئاً من النزر وانصرف عنه فإذا أصبح وجدها اختط قد زرع وشرب النزر فإذا كان وقت الحصاد حصد يسيراً منه ووضعه في موضع أراده ومعه نزر وينصرف فيجد الزرع قد حصد بأسره وجرًنا فإذا أراد دراسة وتذريته فعل به كذلك وربما أراد أحدهم أن ينتقي زرعه من الحشيش فيلفظ يقلع شيئاً من الزرع فيصبح وقد قلع جميع الزرع».

أما عن ديانة أهالي علوة فقد قيل عنها: «أكثرهم يعترفون بالباري سبحانه وتعالى ويتقرَّبون بالشمس والقمر والكواكب ومنهم من لا يعرف الباري ويعبد الشمس والنار ومنهم من يعبد كل ما استحسنه من شجرة أو بهيمة»[٣].

فيما يلي من سطور سنتعرَّض للبجة ووصف ديارهم، وهو أمر لا يحتاج لاستعانة بالمراجع كثيراً. وأهم ما يمكن أن يُلاحظ هو إن النظام الخؤولي لا يزال سارياً بينهم ولذلك فهم ينقسمون - حتى الآن - لعدة قبائل مستقلة ولم يعودوا يخضعون لنظام

(١) المقريزي المواعظ والاعتبار المجلد الأول ص (١٩٣).

(٢) أوردها بورينت «كرنينا» أما بركهارت (ص ٥٠١) فيقول بأنهم أمة بأسم كوروما أو كيرسا وذكر بأنه وجد الاسم (كرينا، كرما، كِرساً) ويبدو وإنهم نفس «كنًا» الذين أوردهم المسعودي (أنظر ص ١٦٨) سنلاحظ إن كِرسا يصنفون مع العنج وغيرهم وذلك في القرن الثالث عشر.

(٣) المقريزي المرجع السابق المجلد الأول ص (١٩٣)

الشيخ الواحد كما كان الوضع في عهد عبد الله بن الجهم. ومن العادات الشائعة بينهم هي استئصال الخصية اليمني للمولود، كما يمارسون عادة ختان الإناث أيضاً. بخلاف ذلك فإن كل ما يمكن أن يُقال عن البجة وعاداتهم لا يخرج عما يمكن ان يُقال عن أحفادهم الآن.

أول من اعتنق الإسلام من البجة هم فرع الحداريب المستقرين على ساحل البحر الأحمر والتخوم المصرية، أما بقية البجة فما زالوا وثنيين يعبدون الشيطان ويرزحون تحت تأثير كهنتهم ويطلبون منهم الهداية والإرشاد، ويدخل الكاهن في غيبوبة الوحي للتنبؤ بالمستقبل. أما إذا عدنا لشئون الشمال فقد بقي الفاطميون على قياد السلطة في مصر لحوالي المائتي عام، وكانت سنوات حكمهم الأولى سنوات ترف ودعة حيث ازدهرت الفنون والأحوال الاقتصادية أيضاً.

أما المقاطعات الغربية فقد بدأت تتخلَّص من تبعيتها لهم إذ أفلح أبو ركوة بقوة من قتامة وبني كرا - فرع من جذام - من انتزاع بركة في العام ١٠٠٥ الميلادي إبان حكم ذلك المتعصب «حكيم» ثم بعد أن هزم عسكر الخليفة زحف لاحتلال مصر العليا لكنه فشل في هذا المسعى وتلقى هزيمة ساحقة وفر لبلاد النوبة التي كانت تحت حكم ملكها «رفاييل»، لكن تم القبض عليه في دير القديس سينسيوس في ١٠٠٦م وأُخذ لمصر حيث أُعدم بالخازوق.

هبت حركة جديدة دبرتها وتزعمتها قتامة وذلك في العام ١٠٢١ الميلادي قُتل فيها حكيم. وكان عهده عهداً إرهابياً كما كان خلفه «الزاهر» أيضاً.

حكم مصر المستنصر - حفيد حكيم - فيما بين الأعوام ١٠٣٦م حتى ١٠٩٤م، بيد أن سوريا خرجت على سلطانه، فضلاً عن إن بربر الصناهجة وقتامة - في الغرب - لم يبدوا سوى ولاءً اسمياً ظل يتضاءل على مر الأيام.

حوالي عام ١٠٤٤م ارتد مُعز الحاكم الصنهاجي لشمال أفريقيا عن المذهب الشيعي، ثم بعد سنتين أعلن استقلاله. سبق ورأينا كيف بُعث بنو هلال وبنو سليم وغيرهم من العرب من الصعيد لرده إلى صوابه، وكيف إنهم خرَّبوا الديار، ثم بيَّنا

كيف إنهم انصهروا مع البربر وأبقوا على استقلال ديارهم.

وبالرغم من إن مصر فقدت مقاطعاتها وأُقيل حكامها إلا أنها ظلت مستقرة مزدهرة. دوَّن رحَّالة فارسي مذكراته عن رحلة قام بها فيما بين الأعوام ١٠٤٦ - ١٠٤٩م، تعرَّض فيها للازدهار الذي تنعم به العاصمة المصرية. وكان جيش المستنصر - وقتها - مفتقداً للتجانس، قوامه عشرين ألف فارس من بربر قتامة، وعشرة ألف من البطالسة وعشرون ألفاً من السود وعشرة آلاف من الشرقيين (ترك وفرس) وثلاثون ألفا من العبيد السود والبيض - ياوران وموظفين - وخمسة عشر ألفاً من البدو الحجازيين وعشرة ألف من خدم القصر «سراري»، وثلاثون ألفاً من الزنج حملة السيوف.

ومن غير المدهش لجيش بمثل هذه الأخلاط العرقية أن يتعرَّض لأزمة داخلية خطيرة مثل تلك التي وقعت في العام ١٠٦٢م بين الترك والبربر من ناحية، ثم الترك والسود من الناحية الأخرى. لم يكن أي من الفريقين خالص الولاء للخلافة في مصر، فما إن أُبعد خمسون ألفاً من السود نحو مصر العليا، حتى بدأوا - من وقتها - ولسنوات في غزو المقاطعات الشمالية. وواصل البربر احتلال الدلتا، أما الترك فقد استأثروا بكل ما وقع في أيديهم.

تلت تلك الفترة سبع سنوات من الجوع والمسغبة أُرتكبت خلالها أوحش الأفعال مما لا يخطر على خيال بشر. لكن في العام ١٠٧٤م نجح الخليفة في إعادة النظام بمعاونة الفرق العربية والأرمنية من سوريا وأخضع العصاة من البربر في الدلتا وفرض سيطرته على المنطقة حتى أسوان مما أمَّن عشرين عاماً من السكينة والازدهار.

شهد الجزء الأخير من القرن الحادي عشر ضم السلاجقة التركمان لسوريا فضلاً عن الحملة الصليبية الأولى. والآن بدأت قوة الفاطميين في الإضمحلال حتى أطاحت بهم سلطنة الأكراد الأيوبيين بقيادة (صلاح الدين) في العام ١١٧١م.

إتسم حكم الفاطميين بالكثير من الحروب الخارجية والكيد داخل القصور والقتل والعصيان وغلو حكامهم المتعاقبين بحيث لم يتبق شيء لهؤلاء الأعراب من

البدو. ففي كبريات المدن يفترض أن يكون السكان قد اختلطوا أكثر فأكثر بالأتراك والزنوج، كما انضم بعض الأعراب لهذا الخليط الإثني متباين الخواص وإنتهجوا حياة الاستقرار. بالطبع إن هذا الوضع سرعان ما أفقدهم نقاءهم العرقي فضلاً عن خصائصهم القبلية فانصهروا في المصريين وبالتالي لم تعد هذه الفئة تهمنا في شيء.

أما البدو فلم يتأثروا بما جرى، إذ لم يكن مدهشاً إن توحّدت نظرة كل الأسرات المتعاقبة التي حكمت مصر - على الدوام - لهؤلاء البدو من العرب باعتبارهم لا يشكِّلون جزءاً مكمِّلاً للدولة بقدر ما كانوا مصدراً للخطر والقلق الدائم على الحدود، يُستفاد منهم وقت الحاجة دون أي اعتبار آخر بخلاف إنهم مصدراً للإبتزاز. فعلى سبيل المثال، كان في تقدير صلاح الدين إنهم غير جديرين بما نالوه من مكانة، وليس أدل على ذلك أكثر مما أورده المقريزي إذ قال «واصل السلطان صلاح الدين سيره إلى الإسكندرية بسبب أن بها فائض في السكان يقابله شح حاد في الأموال بحيث لم يعد السلطان يعلم ما يفعل. فنُقل إليه بأن هناك مصادر وفيرة في بركة لا يستثمرها إلا العرب الذين ليس لهم مقدرة على المقاومة. فذهب للإسكندرية وعقد مجلساً قرر فيه إرسال حملة عسكرية إلى منطقة العرب مع التعجيل بجمع الغلال قبل حصادها. كذلك راسل العرب مطالباً إياهم بدفع العشور مع تحذيرهم من إعتراض طريق تجارة الرقيق.

ثم في العام ١١٨١ الميلادي صدرت الأوامر مرة أخرى - دون إبداء أسباب معينة - بمصادرة الغلال من عربان البدو في المقاطعات الشرقية وإرسالها للبحيرة. ويبدو إن إعتراض طريق القوافل والإغارة على القبائل الأخرى أصبح العمل الوحيد للبدو كما هو حالهم في الجزيرة العربية. وقد جُندت أعداد منهم كفرق إضافية أيضاً في الحملات المتعددة التي أرسلت إلى سوريا وبربري والسودان إلا أنهم لم يكونوا محل ثقة.

ليس هناك من شك في إن الكثير من البطون، وبالأخص هؤلاء الذين عانوا من القهر والمجاعة هاجروا لخارج البلاد. والثابت إن أعداداً كبيرة منهم استوطّنت صعيد مصر وعاد آخرون إلى سوريا، لكن الراجح إن آخرين شقوا طريقهم جنوباً لديار النوبة أيضاً.

وفي نفس الوقت شهدت تلك الحقبة حجماً مُعتبراً لهجرة معاكسة من سوريا. فعلى سبيل المثال سبق ورأينا إن فرعاً من أولاد سنبس من طيء دخلوا مصر في ١٠٥٠م، وإن فروعاً أخرى لنفس القبيلة إنتزعوا مكان بني جذام عند بداية الفترة الأيوبية.

استمر حكم صلاح الدين حتى ١١٩٣م وكانت تلك الفترة من أكثر الفترات مجداً وقوة على مدى السنوات التي لازمت حكم المسلمين لمصر. فقد قضى ستة عشر عاماً من سني حكمه في توجيه الحملات نحو الشرق. كما توفَّر له الوقت - خلال سنتين من إعتلائه للعرش - ليمد سلطانه لسواحل البحر الأبيض حتى غرب «قابس»، كما نجح في إرسال حملتين عسكريتين للسودان.

وتأتت ضرورة هاتين الحملتين لإندلاع حركة في النوبة لمصلحة الفاطميين، تمثَّلت في الهجوم على أسوان وكان - وقتها - الجيش الأول تحت قيادة شجاع الدين البلبيكي. ترتَّب على ذلك أن هرب المتمردون عند إقتراب الحملة فطاردهم شجاع الدين بمعية كنز الدولة زعيم شبه النوبيين من بني كنز وأمير العرب في أسوان، والحقوا بهم هزيمة ساحقة.

كانت الحملة الثانية في ١١٧٢ - ١١٧٣م، قد أُسندت قيادتها لتوران شاه الشقيق الأكبر لصلاح الدين، وفيها تم احتلال «أبرم» ونُهبت الكنيسة مع أخذ الكثير من الأسرى الذين يُقدر عددهم - بحسب رواية أبي صالح - بسبعمائة ألف، وعُذِّب الكاهن، كما تم ذبح سبعمائة خنزير.

لم يتعد توران شاه أبرم، وفي رحلة عودته جعل من أسوان إقطاعية لإبراهيم الكردي الذي حوَّلها بدوره لحصن لنهب النوبيين. عندما بلغ توران شاه قوص تفاجأ برسالة وهدية من ملك النوبة. عامل توران شاه الرسول معاملة حسنة وهداه كسوة شرف وسهمين وقال له «قل لمليكك بألا إجابة لديَّ أكثر من هذا»، ثم أرسل من يتقصي عن موارد النوبة. عاد الرسول من دنقلا بما يلي «هي أرض فقيرة لا ينمو فيها شيء سوى القليل من الذرة ونخيل البلح وهو ما يعيش عليه الأهالي، وقد خرج الملك من قصره عارياً حليق الرأس يمتطي فرساً بغير سرج أو فرش وإئتزر ثوباً حريرياً.

وتقدمت نحوه - كما يقول المبعوث - وبينما كنت أحييه أطلق ضحكة ويبدو إنه لم يفقه حرفاً مما قلت، ثم أمر أحد رجاله بأن يرسم في يدي علامة الصليب، بعدها أعطاني حوالي الخمسين رطلاً من الغلة. لا تُوجد مبانٍ في دنقلا باستثناء قصر الملك وما تبقى فهو عبارة عن أكواخ من القش».

في عام ١١٧٤م ثار كنز الدولة وأتباعه من العرب والسود وغزا مصر مناصراً للفاطميين. أرسل صلاح الدين حملة ضده بقيادة أخيه الملك العادل ونشبت معركة بالقرب من «تود» انهزم على إثرها النوبيون وأُسر كنز الدولة وقُتل.

بوفاة صلاح الدين في ١١٩٣م انتقل مركز الثقل من مصر لسوريا. أما سجل الحروب المستمَّرة مع الصليبيين فلم يعد يتَّصل ببحثنا.

سنتعرَّف على بعض المعلومات القيّمة بشأن النوبة في بدايات القرن الثالث عشر من أبي صالح الأرمني، رغم إن قيمة هذه المدونات تتضاءل كثيراً لعدم تمييزه بين الأحباش والنوبة ثم بسبب سطحيته في تقويم الأمور.

كانت أكثر المناطق شهرة - كما هو الحال في أيام المسعودي - هي «مريس» و«المقره» و«دنقلا» و«علوة». ومريس هو المركز الواقع في أقصى الشمال، ويمتد جنوباً من أسوان - حدود مصر - حتى كورسكو، على بعد ستين ميلاً شمال وادي حلفا، وكانت عاصمته «بجراس» وهي مدينة مأهولة وبها مقر «جوسر» الذي يعتمر العمامة والقرنين زائداً السوار الذهبي. هذا الوصف مثير للغاية إذ يرمز القرنان للطاقية ذات القرنين التي يعتمرها ملوك الفونج وأتباعهم من المناجل، أما السوار الذهبي فهو بالتأكيد قد تبقى في اسم أسرة (سوار الذهب) الكبيرة التي لا تزال تقيم في دنقلا وتنتسب للبديرية الدهمشية. أما المقرة فهي المركز الذي يمتد من جنوب كورسكو، يشمل - على الأرجح - الأبرشيات السبع، وهي بالتحديد «كورتي» و«أبرم» و«بكراس» (بجراس) و«دنقلا» و«صاي» و«تيرموس» و«سونكر» فضلاً عن الكثير من الأديرة والكنائس.

تقع علوة بالقرب من تقاطع النيلين ذلك المركز الذي كانت سوبا عاصمة له، بيد

أن أبا صالح يستخدمه تعريفاً بسوبا نفسها.

سنتعرَّض لتفاصيل ما أورده أبو صالح عن هذا المركز بحامياته وكنائسه الأربعمائة التابعة للمسيحيين اليعاقبة عند تناولنا لما تعرَّضت له سوبا - بعد ثلاثمائة عام من وفاته - من خراب على أيدي الفونج.

دنقلا - المقر الملكي - مدينة عظيمة على جانبي النيل الخالد وبها الكثير من الكنائس وتتميَّز بالطرق الواسعة. كانت التجارة بالمقايضة ويبدو إن العملة الرائجة هي الرقيق الذي يُعطى للعرب والمماليك كمقابل للملابس وغيرها. وفضلاً عن ذلك استمر النظام الأمي «من الأم»، كعرف راسخ بين النوبيين. فعندما يموت الملك ويترك إبناً وإبن أخت فإبن الأخت - لا الابن - هو الذي يخلف خاله، أما إذا لم يترك الملك ابن أخت ففي هذه الحالة فقط يرثه ابنه. تكثر أسماء أبناء الأخت في المدونات الملازمة لتلك الحقب وما تلاها من قرون. وسبق أن رأينا من قبل كيف إن العرب قبلوا هذا النظام الذي يتبعه النوبيون وتبنوه[1].

عاش العالم الجغرافي «ياقوت» معاصراً لابي صالح، وأضاف إلى معلوماته شيئاً من التفاصيل، مثل حديثه عن سواكن، إذ قال عنها بأنها مأهولة بهؤلاء السود من البجة الذين يعتنقون المسيحية. أما ابن سعيد (١٢١٤ - ١٢٨٧) فيصفهم بأن بعضهم مسيحيون والبعض الآخر مسلمون.

---

(١) رصد المؤرخون هذا التقليد في مصر القديمة ولدى البجة في السودان وفي غانا ودلتا مالي بغرب أفريقيا، وتبناه البربر والعرب عند دخولهم السودان كما في الهند - في مالبار على الأقل - وكان هذا النظام معروفاً لدى الكبابيش قبل سبعة أجيال حيث إن كردام أول الزعماء من فرع النوراب كان ابن أخت لكربان من فرع الربيقات الذي كان يشغل الشياخة قبله. وما تزال هذه العادة سائدة في جبل الميدوب بدارفور وجبال أبو حديد وأم درق والحرازة بشمال كردفان، فعلى سبيل المثال أخبرني أبو شنكو آخر مكوك أبو حديد في ١٩١٠ - القول للمؤلف - بأن أبوه زغاوي من كجمر وأمه شقيقة مك محلي، وإن أم تيبان مك أم درق كانت ابنة الملك السابق لكن أبوه من الأسداب (فرع غير حاكم) في ذات الجبل، وإن عبد الهادي المعروف رغم انه من الدواليب من ناحية الأب إلا أنه حكم نوبة الحرازة لأن أمه نوباوية من الأسرة الحاكمة.

في عام ١٢٥٠ انتهى حكم الأيوبيين وبدأ حكم المماليك البحرية، فإزدادت عُزلة العرب السياسية بسبب هذا التغيير. ولما كانت القوة العسكرية هي المعيار الوحيد للسلطة، فإن الاستعانة بهؤلاء الأعراب كشفت - حرباً تلو حرب - عن عدم تأهيلهم بالوجه الكافي مقارنة بجيش قوامه الأتراك المدَّربين أو الأقلّية العسكرية من الزنوج الأجانب.

لم يستكن العرب لهذا الوضع دون نضال. ففي حوالي عام (١٢٥٣م) إنتظم هؤلاء الذين في أعالي مصر في ثورة حشدوا لها حوالي الأثني عشر ألفاً من الخيَّالة إضافة إلى أعداد كبيرة من المشاة، وإمتد الزحف حتى الدلتا، بيد أن المماليك - رغم قلة عددهم - سرعان ما أخمدوا هذا التمرد. من الآن فصاعداً أصبح العرب عنصراً ثانوياً ولم يعودوا مصدراً للقلاقل في مصر إذ إقتصرت حظوظهم على الجنوب القصي وبلاد النوبة.

وفي عام (١٢٦٠م) نجح «بيبرس» - المدبِّر الأكبر لحكم المماليك - في تسنُّم السلطة. وفي عهده وما تلاه من عهود حصل زعماء المماليك على أكثر وأكبر إقطاعيات أرض مصر السليبة، فضلاً عن الكثير من الإيرادات الناتجة عن عائدات العبور الباهظة المفروضة على تجارة الأوروبيين مع الهند التي تمر - بالضرورة - عبر الإسكندرية. والراجح إن تلك الموارد وحدها هي التي وقفت حائلاً بين دافع الضريبة المصري والإنهيار التام. ثم إن بيبرس ألغى بضربة معلم فكرة الخلافة العباسية في مصر التي أطاح بها هولاكو في بغداد من سنتين خلتا، وهكذا جعل من مصر الدولة الإسلامية الأولى.

في الأعوام (١٢٧٥ - ١٢٧٦م) غزا حاكم قوص بلاد النوبة جنوباً حتى دنقلا بسبب فشل الملك داؤود في دفع الجزية وتكراره للهجوم على المقاطعة المصرية المجاورة لأسوان وعيذاب.

تجنَّب داؤود - بحكمة - المزيد من التوَّرط وتراجع جنوباً وذلك لأن القوات المغيرة إكتفت بالقبض على أعداد من النوبيين الذين تبقوا في قراهم وأُخذوا لمصر حيث تم إعدامهم هناك.

ثم في عام (١٢٧٦م) أرسل «بيبرس» جيشاً أكبر يتكوَّن من النظاميين والقرويين والبدو تحت قيادة شمس الدين الفركاني وعز الدين أيبك الأفرم، بمعيتهم شيكنده ابن أخت داؤود الذي ذهب ليشكو خاله لدى «بيبرس». تقابل الجيشان فيما بين «أسوان» و«الدر» ونشبت معركة انهزم فيها النوبيون[١] وأُجبروا على الفرار. ثم سارع الأفرم نحو «الدر» وأعمل فيها السيف بالتزامن مع زحف الفركاني إلى ما وراء الشلال الثاني براً وعلى النيل وهو ينهب ويذبح دون رادع.

أبدى قمر الدولة الذي كان وقتها «سيد الجبل» الخضوع التام وأقسم بأن يكون حليفاً لشكنده. ثم استمر الأفرم جنوباً وبرفقته أعداد كبيرة من الأسرى بمن فيهم زوجة داؤود وأخته وأخيه، ولم ينجُ إلا الملك[٢]. تم تتويج شكنده ملكاً بعد التزامه بدفع (البقط)[٣] القديم على أن يُرسل - علاوة على ذلك - ثلاث زرافات وثلاثة أفيال وخمسة نمور ومائة من الجمال الحُمر[٤] وأربعمائة رأس من الماشية، كما أوعد بأن يسلِّم السلطان كل أموال ومواشي داؤود فضلاً عن أموال القتلى والأسرى من النوبة.

بموجب هذه المعاهدة قُسِّمت النوبة إلى قسمين، حيث خُصص مركز الشلال الواقع جنوب أسوان مباشرة كإقطاعية للسلطان، يُدفع له خراجها من التمر والقطن

(١) بحسب ما أورد المقريزي فإن النوبيين كانوا على ظهور الجمال يرتدون أردية سوداء وهذا يدل على أنهم عرب تنوَّبو (بنو كنز؟) أو بجة شبه متعربين تحالفوا معهم ويجب التذكير بأن بني كنز الذين تصاهروا مع النوبيين هم في الأصل فرع من ربيعة القبيلة التي امتزجت مع البجة، وذكر عيذاب ذو دلالة. والأسود هو لون العباسيين ويُلبس حداداً على الحسن وفي وقتنا الحاضر يُلبس الجلباب الأسود في كل من صعيد مصر كما يلبسه البرابرة والعبابدة وغيرهم من سكان النوبة السفلى كما يُستخدم بنفس القدر جنوباً.

(٢) قال بن خلدون إن داؤود هرب للأبواب (أي كبوشية) وقبض عليه مك المركز وأرسله أسيراً لبيبرس الذي رمي به في جب حتى توفي.

(٣) قوامها أربعمائة من الرقيق وزرافة، منهم ثلاثمائة وستين عبداً للخليفة وأربعين للسلطان مقابل ألف أردب من القمح للملك وثلاثمائة أردب للموفدين الملكيين.

(٤) نوع من الجمال الجيدة.

وغيرها من المنتجات بالقدر المتعارف عليه، أما من بقوا على المسيحية فعليهم أن يدفعوا جزية شخصية عبارة عن دينار عن أي ذكر بالغ سنوياً.

هدم الأميران كنائس النوبيين ونهبوا محتوياتها، كما أصرُّوا على تسليمهم عشرين من زعماء النوبين - كرهائن - مع إطلاق سراح مسلمي أسوان وعيذاب الذين كانوا تحت الأسر.

تحوي هذه المعاهدة نقطة على شيء من الأهمية، فالمركز الذي يقع جنوب أسوان مباشرة معروف بأنه منحة لسلطان مصر وبالتالي ليس هناك جديد في الفكرة، إذ إن الملك زوسر من الأسرة الثالثة سبق ومنحها للإله «خونوم»، ثم أجاز رمسيس الثالث - بعد سبعة عشر قرناً - هذه المنحة للأبد وجعل من سكانها وأرضها وريعها المعفى بأمر الملك من الضرائب أدوات لخدمة الإله. يبدأ إمتداد تلك المساحة المحجوزة من أسوان حتى تاكمبسو، ثم توسَّعت - فيما بعد - جنوباً حتى المقرة. تلك هي الكهنوتية التقليدية التي كانت تُعرف في العهدين البطلمي والروماني باسم «دودكاسشوينوس» أي «حقل الإثني عشر شوينوي»، وأُعتبرت من أعمال مصر حيث لا يُوجد أي أثر لأي استيطان سواء للمرويين أو الأثيوبيين الخُلَّص. ويتحدَّر سكانها من أصول أكثر تمُّصراً لأنها تُعتبر - تقليدياً - ملحقة بمصر أكثر من كونها جزءاً تابعاً لملك دنقلا. كما تجدر الملاحظة بأنها تُشكِّل حدود السكان الوارد ذكرهم في المرويات تقريباً. وهذا يتطابق - لحد كبير - مع ديار الكنوز الحالية.

عندما غزا عبد الله بن سعد السودان (٦٥١م - ٦٥٢م) وصاغ شروطه، لم يرد أي ذكر لهذا الإقليم كجزء مميَّز عن بقية بلاد النوبة، وذلك لأن العرب كانوا وافدين جدد وغير ملمين بالخلفية التاريخية لتلك الأقاليم التي أخضعوها.

لكن بمرور الأيام تعلَّموا الكثير، وتجلَّت تلك المعرفة في الأسلوب الذي تبنوه في العام ٨٣١ الميلادي بعد حرب البجة، إذ كانت المقاطعة الوحيدة المحرَّمة على البجة في مصر أو النوبة هي تلك المنطقة فيما بين القصر (جوار أسوان) والكوبان (جوار المقرة) أي دودكاسشونيوس القديمة.

وفي عام ١٢٧٦م إغتصب بيبرس ذلك الحق الذي كان يوماً ما حقاً خالصاً للملك العظيم خنوم، ولم يكن في حاجة لأن يعرف أي مردود لفعله من وجهة النظر التاريخية، لكنه عرف فقط بأن هناك مقاطعة إحتياطية بعينها ترتبط بروابط معيَّنة مع مصر، وآن الأوان لضمها.

بعد رحيل «بيبرس» في ١٢٧٧م بسنتين، أفلح الملك المنصور سيف الدين قلاوون التركي الذي ينتمي لقبيلة «بيرقا أوقلو» من كيشاك والذي يُعد من أكفأ قادة بيبرس، أفلح في الاستيلاء على العرش، وكان شكندة - في هذه الأثناء - قد قُتل وأختير «بيريك» مكانه. أعدم الحاكم المملوكي بيريك وعيَّن محله سمامون.

في عام ١٢٦٨م وصل مبعوث من أدور (مك مركز كبوشية) إلى مصر متظلِّماً من ملك دنقلا لحجزه واساءته لمعاملة مبعوث مصر لأدور. جاء مبعوثون من دنقلا أيضاً. وبالمقابل أرسل قلاوون أميراً لزيارة بلاط أدور وملوك العنج وباسا كسلا «كادارو» وغيرها من الديار، وآخر للاستطلاع عن سمامون. أحسن أمراء الجنوب قراءة الموقف، لأنه في سنوات لاحقة أرسل قلاوون جيشاً ضد دنقلا يلازمه أمر لحاكم قوص ليؤازره بالعرب الذين في مقاطعته وجلهم من بني أبي بكر وبني عمر وبني شريف وبني شيبان وبني كنز وبني ريس وبني هلال. والأرجح إن الثلاث قبائل الأوَّل من قريش ويدَّعون التحدَّر من الخليفة الأول للرسول. أما بني شيبان فهم فرع من ربيعة وبني ريس من بلي، أما بنو هلال وبنو كنز فقد تعرَّضنا لإصولهم بوجه كافٍ من قبل.

إنقسم الجيش لفرقتين، تابعت أحداهما الضفة الغربية للنيل وطرقت الأخرى الضفة الشرقية. لم يُبد سمامون أي مقاومة لكنه إكتفى بالكتابة لجريس «صاحب الجبل»[1] وحاكم جزر ميخائيل ومحافظة دو (الدر؟) آمراً بإتِّباع سياسة الإنسحاب

(١) من أبو صالح (ص ٢٦٦ المشار إليها أعلاه) يتضح إن ملك الجبل عاش في أبرم وإن شعبه هو شعب مقاطعة مريس. عن المقرة يذكر أبو صالح (ص ٢٦٢) «هناك مدينة تدعى البوساكا، وهي مدينة فخمة عظيمة، ملئى بمختلف التجار ولهم عدة كنائس. هنا يسكن ملك الجبل الذي إقتلع عينيه جورج بن زكريا إسرائيل. هنا دير القديس سنسيوس، وبجوار المدينة منجم للذهب.

التدريجي حتى يلتقيا بقواتهما. باغت المسلمون النوبيين في دنقلا وهزموهم شر هزيمة إقترنت بمذبحة عظيمة فرَّ على إثرها سمامون وتم أسر جريس.

نصَّب المنتصرون ابن أخت سمانون ملكاً على عرش دنقلا وأُعيد جريس كتابع له مع إلتزامه بدفع الجزية.

بعد إنجاز تلك المهمة تراجع العرب، لكن سرعان ما عاد سمامون واستعاد ملكه وأقال ابن أخته وجريس معاً.

في العام ١٢٨٩م أُرسلت قوة كبيرة من مصر مصحوبة بالحاكمين المقالين، أي ابن أخت «سمامون» و«جريس»، أثناء زحف هذه القوة مات ابن أخت سمامون في أسوان وحلَّ محله ابن أخت الملك السابق داؤود.

كان تقدُّم العرب مُماثلاً - لحد كبير - لسير الحملة السابقة، بيد أن جريس وأولاد كنز تقدَّموا الجيش الرئيس في محاولة لتحقيق ما يمكن تحقيقة سلماً. لم تكن هناك مقاومة تُذكر إلا بعد تجاوزهم لمقاطعة «جريس». وعند وصولهم دنقلا فرَّ سمامون إلى جزيرة تبعد حوالي خمسة عشر يوماً جنوباً وعلى بعد ثلاثة أيام من كبوشية. لم يهدر العرب وقتهم في تتبعه خصوصاً وإن مناصري سمامون إنفضُّوا من حوله وتراجعوا لعاصمة أدور حيث ساد السلام بعد إتخاذ ما يلزم من إجراءات في دنقلا. وفي عام ١٢٩٠م عاد المسلمون للقاهرة محمَّلين بالغنائم. لم يلبث سمامون أن عاد لدنقلا، واستعاد عرشه دون أية مشَّقة بعد أن قتل ابن أخت داؤود وجريس. ثم كتب إلى قلاوون عارضاً إلتزامه بدفع الجزية التي سبق تقديرها، وتعهَّد بأن لا يسبب أية قلاقل مرة أخرى. ولما كان لقلاوون الكثير من المشاكل التي تمنعه من التفرُّغ لمثل هذه الأمور، لم يجد بداً من الموافقة، وكان ذلك في نفس عام موته. وهكذا استمرَّ سمامون في حكمه دون أيه عوائق لحين. وبحسب ما نما لعلمنا فإنه سرعان ما عاد لتسبيب المشاكل مجدداً، كما تمرَّد حاكم آخر «أي مك» يُدعى «آني». لا تكشف المخطوطات ما إذا كانت الحملة التي أُرسلت لمواجهتهما واحدة أم حملتين منفصلتين، ويُعزى هذا الغموض للحالة السيئة التي كانت عليها المخطوطة، لكن

الإحتمال الثاني هو الأرجح. وعلى أية حال فقد هرب آني قبل يومين من وصول الحملة إلى أحد معاقل العنج، وأرجح الإحتمالات أن يكون «جبل الحرازة». أما سمامون فقد أستبدل بملك يدعى «بوديما» الذي كان - قبلها - سجيناً بمصر. ويبدو إن الحملة الأخيرة حدثت في عهد من خلف قلاوون، أي فيما بين الأعوام ١٢٩٠ - ١٢٩٣م، ومن أبتعث للإشراف على عملية التتويج هو المحارب القدير عز الدين الأفرم قائد حملة ١٢٧٦م.

زحف عز الدين جنوباً لحوالي ثلاثة وثلاثين مرحلة بعد دنقلا، ومن المحتمً إن الهدف هو الإلتقاء بمك مركز كبوشيه، وهو - على الأرجح - الحاكم المباشر لآني. بيد أن الملك فشل في المثول أمامه وكتب لعز الدين معتذرا بدعوى إنه كان بعيداً في مهمة تتعلَّق بمطاردة آني. وأضاف - في مكتوبه - بأن بلاد الفونج نفسها قد تعًرضت مؤخراً لغزو قادته قبائل أجنبية، ولذلك فهو يطرح رؤاه لإخراج هؤلاء الغزاة وبكافة السبل، ويضيف بأنه إذا أفلح في ذلك ستخضع كل بلاد السود للسلطان.

بعد عودة عز الدين من كبوشية تلقى قسم الولاء من بوديما وكاهن دنقلا على السواء، ثم عاد إلى مصر بعد أن خلَّف حرساً من المشاة لمعاونة الملك الجديد مع إمداد وافر من الغلال. في عام ١٢٩٩م تلقى المماليك هزيمه نكراء على أيدى حشود المغول في حمص، وإحدى آثار الضرائب الباهظة التي إقتضها حرب الاستنزاف هي ثورة البدو التى إندلعت - عام ١٣٠٢م - في صعيد مصر. قُمعت هذه الثوره بحزم وإحكام وقُتل الآلاف من «الجيزة» حتى «أطفيح» جنوباً، وصُودرت ممتلكاتهم، وأينما وُجد البدوي فالموت هو مصيره المحتوم. ويُقال إن خسائرهم - أي البدو - بلغت ثمانية آلاف من الثيران وستة آلاف من الأغنام والماعز وأربعة آلاف من الخيل وأثنان وثلاثين ألفاً من الإبل.

ويبدو في هذه الأثناء استتباب الأوضاع في النوبة، حيث شهدت الأعوام ١٣٠٤ - ١٣٠٥م تقدُّم الملك «أماي» بهدايا للقاهرة طالباً العون من السلطان الناصر محمد بن قلاوون، وحصل على مبتغاه. ثم إن «تاكتوبا» حاكم قُوص أُرسل لمساعدة أماي بجيش من النظاميين مع إحتياطي من العرب.

في العام ١٣١١م دفع كرنبس[1] - آخر الملوك المسيحيين في دنقلا - الجزية، لكن يبدو إنه لم يتعلَّم ممن سبقوه وذلك لأن الأعوام ١٣١٥ و١٣١٦م شهدت حملتين ضد دنقلا كانت ثانيتهما مصحوبة بعبد الله ابن سنبو[2] «ابن أخت الملك داؤود»، وترتَّب عليها القبض على كرمبس وأخيه أبرام وترحيلهم للقاهرة. هكذا نُصِّب عبد الله بن سمبو - المسلم - ملكاً.

ظهرت الآن شخصية أثيرة في عرش النوبة ألا وهو كنز الدولة زعيم بني كنز المتوطِّنين حول أسوان، الذي هاجم عبد الله وقتله ونصَّب نفسه ملكاً. لا ندري إن كان قد دعم سلطانه هذا بالزواج من الأسرة المالكة - كما جرت العادة - أم إن الأمر كان مستنداً على القوة فقط.

أُرسل السلطان أبرام إلى النوبة مع وعد بإسناد أمر الحكم له إذا استطاع الإطاحة بكنز الدولة. استسلم كنز الدولة بسهولة، إلا أن أبرام لم يعش طويلاً ومن ثم أعاد النوبيون كنز الدولة للمرة الثانية.

في العام ١٣٢٣م أرسل السلطان جيشاً آخر ضد كنز الدولة، بصحبة «كرنبس» - هذه المرة - كمرشَّح للمنصب. فرَّ كنز الدولة وتسنَّم كرنبس كرسي المملكة لعهد ثانٍ.

وكما يحدث دائماً، فبمجرد إنسحاب الفرق العسكرية للعرب والمماليك فإن هذا يشكِّل إشارة لظهور المنافس الآخر. وهكذا سرعان ما أُعيد تنصيب كنز الدولة مرة

(١) أورده ابن خلدون عبد الله نشلي وقال إنه من الأسر النوبية المالكة التي استقرت - فيما بعد - بمصر وإعتنق الإسلام. يذكر ابن خلدون إنه فر لمك الأبواب وطلب السلطان تسليمه له فاستجاب الملك. والمفترض أن يكون كرنبس قد أرسل لمصر عن طريق البحر الأحمر أي عبر عيذاب، لأنه بعد مقتل عبد الله - حسب ابن خلدون - فإن المتمردين أرسلوا للأبواب من أجل كرنبس وهناك علموا أنه في مصر وعندما علم السلطان بالأمر أرسل كرنبس ملكاً عليهم.

(٢) الصحيح عبد الله برشنبو ومعناها ابن الأسد إذ إعتاد النوبة التسمي بأسماء الحيوانات على غرار ما يجري في شمال الوادي.

أخرى. لكن مملكة النوبة أصبحت - لكافة الأغراض والمقاصد - غير مستقرة، وكان هؤلاء الملوك الذين حكموا اسماً مجرد دمي للقبائل العربية.

تم إلغاء الجزية بإنتهاء الملك المسيحي، وتسارعت حشود كبيرة من العرب - بالأخص جهينة - نحو السودان، وخلال فترة وجيزة إجتاحوا أراضيه من الحبشة حتى دارفور. ومنذ تلك الفترة - أي بدايات القرن الرابع عشر - بدأت هجرة البدو من رعاة الجمال نحو السودان. ويبدو إن رباط قبائل جهينة وحلفائهم وأغلبهم - بالتأكيد - من فزارة قد إنفرط وفقدوا قبائلهم جنوباً وغرباً مخلِّفين وراءهم بني كنز وعكرمة في شمالي النوبة ومصر العليا. لم نعد نسمع من المؤرخين العرب أي شيء عن مجموعات جهينة الذين توغَّلوا جنوباً لأنهم عبروا إلى ما وراء المجهول، ومع ذلك فإن المخطوطات الأهلية في السودان قد تعرَّضت لهم كما سنرى.

كذلك لم يبلغنا عن النوبة ما يستحق الذكر حتى عام ١٣٦٦م، حيث تعرَّضت المنطقة حول أسوان، من عيذاب شرقاً حتى الواحات غرباً للنهب من قبل بني كنز وعكرمة، فالأوائل - على وجه الخصوص - هم الأشد بأساً وقوة، إذ أرسلوا مبعوثين للسلطان في القاهرة لإخطاره بأغتيال ملك النوبة على أيدي ابن أخته بمعية بعض بني جعد (بطن من عكرمة). رشح الموالون شقيق الملك الراحل ليخلفه في العرش، واستولوا على مركز داو (الدر؟) الحصين. كذلك استولى المتمردون على دنقلا لكنهم تناحروا فيما بينهم، مما أسفر عن نجاح مدعي العرش في قتل غالبية بني جعد غدراً، ثم جمع قوة من العرب الآخرين وشن هجوماً على داو «الدر؟». استجاب السلطان لطلبات المبعوث وأرسل حملة عسكرية للنوبة، والغرض منها - فيما يبدو - هو إعادة الملك الشرعي من جهة، ثم ردع بني كنز وعكرمة من الجهة الأخرى.

كانت النتائج مرضية في مجملها لكن واقعة تنصيب شقيق الملك القتيل في داو (الدر؟) بدلاً عن دنقلا تُوحي بأن النجاح كان جزئياً. وبدلاً من أن يبدي بنو كنز المقاومة، قدَّموا كافة التسهيلات للجيش، أما عكرمة فقد قُتلوا لمقاومتهم.

لا نعرف ما حدث للملك الجديد. تُوجد مدونات عن السنوات ١٣٩٧ - ١٣٩٨م تشير لملك يسمى نصر الدين أطاح به أحد أقربائه، ففرَّ إلى القاهرة طلباً للعون الذي تلقى حاكم أسوان أمراً بتقديمه له. يدل الاسم على إن هذا الملك كان مسلماً، وربما كان واحداً من بني كنز. خلال هذه الفترة سرعان ما اندمج بنو كنز وغيرهم من العرب والهوارة والبربر الآخرين تدريجياً في النوبيين من سكان النيل - شمال دنقلا - وبدأ الإسلام وبخطى متسارعة. في الحلول مكان المسيحية.

الآن إرتخت قبضة المماليك على أعالي النهر، وصارت أحوال مصر - تحت إدارتهم - باعثاً للقبائل البدوية للتوجُّه إلى أماكن تقيهم ذلك النفوذ الأجنبي، فإذا ما أُرسلت حملة للنوبة - مثلاً - يسهل على رجال تلك القبائل الابتعاد عن طريقها، وبمجرد ابتعاد تلك الحملة يعودون لحياتهم العادية. وهكذا تتابع استقرار العرب في النوبة لشتى الأغراض دون عائق. وبحلول القرن الخامس عشر تعدَّلت الخصائص العرقية للسكان بجوار الشلالين الأول والثاني وربما حتى جنوب دنقلا وأصبحت - في جوهرها - بنفس هيئتهم الحالية.

أما الشرق، فيذكر الرحَّالة ابن بطوطة (١٣٠٢ - ١٣٧٧م) بأن سلطان سواكن الذي ينتمي للبجة كان شريفاً، ووالده أمير مكة وينتسب للبجة من ناحية الأم فقط. كما أشار إلى مخيَّم بين عيذاب وسواكن لعربان أولاد كاهل الذين كانوا على اختلاط بالبجة وملمين بلسانهم. فضلاً عن آخرين من أولاد كاهل وبعض من جهينة يشكِّلون - بمعية البجة - القوة العسكرية للسلطان. والراجح إن أولاد كاهل الوارد ذكرهم هم نفس الكواهلة، مفردها «كاهلي»، أي أولاد كاهل الحاليين والذين يشملون فرعاً من العبابدة.

تعرضّنا في الفصول السابقة لكيفية توزيع القبائل الرئيسة للعرب في مصر عندما كتب عنهم المقريزي (بعد قرن من ابن بطوطة)، وقال بأن القسم الأكبر من مصر

العليا تشغله ست قبائل هي بنى هلال وبلي وجهينة وقريش واللعاطه (هوارة؟)[1] وبني كلاب.

بجانب هذه القبائل، استقر الكثير من الأنصار هناك مع أعداد من المزاينة وبني درق وبني كلب والتعالبة وجذام.

في الفترة من ١٣٨٢ - ١٥١٧م، استولى الشراكسة المماليك على مصر وحكموها حكماً مطلقاً بمعاونة مرتزقة من الأجانب فيهم الشركس والترك والإغريق والمنغوليين. مرَّت الدولة بفترة من الكبت والإغواء والفساد والظلم الذي لم تشهد البلاد مثله حتى في أحلك الظروف. خلال هذه الفترة تلاحقت ثورات الفلاحين والبدو لكنها كانت ذات أثر محدود.

في العام ١٥٠٤م هزم سليم الأول سلطان تركيا المماليك، وأصبحت مصر - التي كانت دولة مستقلة - واحدة من ولايات الأمبراطورية العثمانية.

لم تقتصر سيطرة سليم على الشلال الأول فقط وذلك لأن المنطقة الواقعة جنوبه أصبحت مأهولة بعناصر أكثر تجانساً مع سكان الشمال منهم إلى سكان الجنوب، بل مدد نفوذه إلى ما يقارب الشلال الثالث، ووضع المنطقة تحت إمرة عدد من الكُشاف، وكاشف وظيفة ذات أصول تركية أو بوسنية، وعادة ما يكون تحت إمرته عدد من المرتزقة أغلبهم من البوسنيين يعملون كحماة. يماثل نظام سليم ما إنتهجه بستمسشيوس الأول. الاسم «غُز» المستخدم في السودان ينطبق - دون تمييز - على هؤلاء المرتزقة من البوسنيين والمماليك. ولا شك إنهم استقروا في النوبة بأعدادٍ تكفي لتعديل المكوِّن العرقي - وبتأثير واضح - على ذلك الجنس الذي كان يستوطِن تلك المراكز النهرية[2] الشمالية. وإلى ما قبل سنوات قلائل من احتلال سليم لمصر سافر ليو أفريكانو عبر ممالك الزنج في غرب أفريقيا، وبعدها مباشرة قام برحلة حتى

(١) سماهم بوريانت «لعاطة» وبركهارت «حواتة».

(٢) يفترض في سكان الدر بأنهم ذراري لجنود بوسنيين وطَّنهم السلطان سليم في النوبة وقد حافظوا على نقاء عرقهم بالرغم من إنهم تزاوجوا مع السود CP.J. A. St Jahm ,433.

وادي النيل[1]. كانت أغلب كتاباته تتعلّق بالبربر (أنصاف المستعربين) الذين يعيشون بين البحر الأبيض والنيجر. وهؤلاء الذين سماهم (Affricani Bianchi) قسَّمهم لخمس قبائل، صناهجة وزناتة وهوارة ومصمودة وقميري «أو قومارا» وجميعهم من البدو ويتحدَّث أغلبهم لسان البربر، بيد أن أغلب الهوارة والقميري يتحدثون العربية المكسرة.

تقاطرت أفرع من هذه القبائل - في زمن ليو - جنوباً واستقروا في تلك الصحاري التي تجاور بلاد الزنج رغماً عن بقاء الجزء الأكبر لهذه الأجناس في الشمال مندمجين في القبائل العربية.

أما ما أورده ليو عن النوبة فقليل جداً، إذ قال عنها - أي النوبة - بأنها تُحد جنوباً بصحراء «القوران» أي سهول شمال كردفان، وذكر بأن النوبيين كانوا يتعرَّضون للسلب من قبل قبائل التبو «زنجاني» الذين استوطّنوا هذا الإقليم من جهة، ثم من سكان الصحراء بشرق النيل.

أما عن أسوان فلم يذكر عنها سوى إن سكانها تصاهروا مع النوبيين والأثيوبيين، ووراءها قربمن السود يخضعون للبدو من قبائل البجة.

أما «مارمول كارفاجال» الذي كتب في حوالي عام ١٥٢٠م ونهل بحرية من ليو، يقول «تحوي دنقلة عاصمة نوبيا عشرة ألف مسكناً من اللبن، وكانت مركزاً تجارياً مزدهراً .

(١) يقول المؤلف «هو كاتب دقيق ولا يخلو من كونه يعتمد على السمع، لكن للأسف فإنه لا يتأتى للمرء في أغلب الأحيان العلم ما إذا كان يتحدث عن معلومات منقولة، كما إنه لا يتبع منهجاً في ترجمة الكلمات العربية للإيطالية حيث ترجم في البداية من الإيطالية للإنجليزية عن طريق جون يوري في ١٦٠٠ وبما إن عمل ليو شابه خطأ في الترجمه فقد فعل يوري.

الجزء الثالث

قبائل العرب السودانية حالياً

تقديم

سنتناول في الفصول القادم القبائل التي تتحدَّث العربية والأكثر شهرة في السودان حالياً والتي يغلب عليها العنصر العربي أو على الأقل إنه من القوة بحيث يبرر إطلاق ذلك التعريف الرائج، أي «عرب» عليها.

والأمر كذلك فلن نضع في اعتبارنا البشاريين والهدندوة والحلنقة والبني عامر في الصحراء الشرقية - أي بجة القرون الوسطى - الذين يغلب عليهم العنصر الحامي ولا يستخدمون العربية بوجه عام. وسوف لن نتناول النوبيين من محس وسكوت وحلفا والنوبة الحرازة وكاجا. كما لن نتحدث عن الفونج والهمج بجنوبي الجزيرة حيث ترجع أصولهم في الغالب للشلك والبرن لا للعرب.

سبق وأوردنا بعض البيانات - في الجزء الأول - عن الخصائص العرقية العامة وتاريخ تلك القبائل، كما يمكن جمع المزيد من المعلومات من المتن والحواشي الملحقة بالجزء الرابع.

من ناحية أخرى فإن من المستحيل تجنب تخصيص بعض المساحة لدنقلا وللفروع المختلفة للمحس الذين استوطَّنوا جنوب إقليم الشلالات، لأنهم يحملون - بلا شك - الكثير من الدماء العربية في شرايينهم، وهم على سبيل المثال مثل العرب المستقرين في أواسط كردفان. ولذات السبب فقد أوردنا مذكرة قصيرة تتعلق بالعبابدة، كذلك فصلاً عن الهواوير الذين أفردنا لهم فصلاً، رغم إنهم يتحدَّرون بدرجة كبيرة من البربر.

القليل من الأسماء التي ترد في مخطوطات الأنساب كما لو كانت قبائل منفصلة، وغيرها من الأسماء التي عُرفت بطريقة أو بأخرى، واستقرت في وجدان أهالي السودان كقبائل قائمة بذاتها، سوف لن ندرجها تحت عناوين خاصة في هذا الفصل، بل سنكتفي بالإشارة لها في الحواشي التي ستظهر - بصفة عامة - إن مثل هذه القبائل ما هي في الحقيقة إلا مجرد بطون لقبائل أكبر أو إنها تعاملت معها مصادفة في مكانٍ آخر. وتحت هذا التصنيف على وجه الخصوص، ترد أسماء مجموعات عوائل - لا قبائل - مثل المدنيين والحسناب والفرضيين والدليقاب وغيرهم ممن يستمدون كينونتهم المنفصلة فقط من واقعة إن أجدادهم كانوا رجال دين معروفين خلال القرن الثامن عشر، أو ربما كانوا مجرد بطانة وأتباع لمثل هؤلاء الرجال. يشكِّل العرب في السودان كياناً متفرِّداً ربما لسببين، فهم مسلمون رغم إن إسلامهم مشوب بالعادات والخرافات المكتسبة من السكان الأصليين الذين ساكنوهم، ثم إنهم يتحدثون العربية.

تنطوي العامية العربية في السودان - حقاً - على الكثير من العبارات والجمل غير المفهومة في مصر وسوريا لكنها ذات مرجعية فصحي راسخة الأصول. يصدق هذا النظر على البدو من العرب، ثم بدرجة أقل على السكان النهريين. وإن عبارات «سكايراك دي لاتيو» تظل - في جوهرها - صحيحة ومفادها إن لغتهم تختلف - في طبيعتها - قليلاً، وهي تحمل بعض الكلمات المستعارة من لغة الزنوج بيد أن لغة الشرق لا تزال منسجمة مع لغة الحجاز وهي أكثر فصاحة وجزالة من اللغة المستخدمة في مصر والغرب.

لقد بات من الصعب إعطاء تاريخ مفصَّل لوجود العنصر العربي في السودان في شكل رواية موحدة، وأسهل السبل هو التعامل مع كل قبيلة على حدة وهذا سيكون باختصار - منهاج عملنا.

في الجزء الأول سنورد القبائل الأكبر والأكثر شهرة من بين مجموعات القبائل العربية المعروفة والتي انطلقت فروع منها للسودان. والمنهج الذي سنتبعه هو تتبع كل قبيلة على حدة متى ما كان ذلك عملياً. أو كمجموعة من البطون التي أصبحت - عملياً- مستقلة عن بعضها البعض صعوداً حتى تاريخ دخولهم السودان

في هذا الفصل ومتى اقتضت الضرورة سيكون من الأفضل - عكساً لهذا النسق - أن نأخذ على التوالي أكثر القبائل العربية شهرة في السودان في وقتنا الحاضر، وذلك سعياً وراء ربط كل منها بأصولها وأنسابها.

الفصل الأول

الجعليون ومجموعة الدناقلة

الجعليون:

هم من ضمن المجموعات الرئيسة المعروفة التي ينتمي لها العرب في السودان، بالأخص لدى النسَّابة من الأهالي، والأكثر عدداً وانتشاراً، وفي نفس الوقت هم أكثر القبائل انفراطاً في حبل عقدها. السمة المميِّزة لتلك المجموعات المصنَّفة تحت هذا المسمى والتي لا يمكن أن تسمى قبيلة، هو إدعاؤهم التحدُّر من العباس عم النبي ﷺ ، حتى إن كلمة جعلي أصبحت بمدلولها الشامل مرادفة لـ(عباسي)، واستعارتها مختلف العوائل من الحبشة حتى بحيرة تشاد حيث يعتبرون أنفسهم أو على الأقل يتظاهرون كما لو كان العباس جداً لهم. لا يفتقد إدعاء الجعليين لهذا النسب للدليل فقط بل إن المصدر الأصلي لاسمهم - كما ارتضاه حاملوه - يشير بوجه كافٍ لخوائه ورواج الإعجاب به.

يُقال إن إبراهيم حفيد العباس[1]، فرَّج كربة الناس في زمن المجاعة بكرمه وإحسانه، لذلك أطلق عليه - من أفادوا من إحسانه - اسم جعل، لأنه كان يتقبَّلهم بقوله (جعلناكم)، وهكذا تحلَّق حوله الكثير من الأتباع.

تدعي مجموعة القبائل الجعلية بشكل تلقائي التحدَّر نسباً من إبراهيم السابق ذكره، إلا إن الواضح إن الرواية لا تعدو - حتى هذا القدر - من أن تكون مجرد خيال، بحيث لا يتجاوز واقعة انطواء هذا التجمُّع على أخلاط من قبائل شتى خلف

---

(١) أي إبراهيم جعل.

رجل واحد يدعي الانتساب لبني العباس.

إن عبارة (جعليين) بمفهومها النّسبّي المبهم لا تزال منطبقة على معظم القبائل النوبية في الشمال مثل الجوابرة والبديرية ثم على الشايقية أيضاً والبطاحين والجوامعة وبديرية كردفان وكثيرين غيرهم. وبتغلغل الجنس الجعلي جنوباً وغرباً أوجد هذا الواقع مبرراً للهمج في سنار للإدعاء بأن أجدادهم من الجعليين الذين اتخذوا زوجات سوداوات من جبال البرن. كما نتج عن هذا التغلغل إدعاءات بالقرابة الحميمة بين الجعليين وحكام تقلي ودارفور وودّاي وبرنو.

بالنسبة لودّاي، ووفقاً للروايات المحلية، فإن مؤسس الأمبراطورية الإسلامية هو عبد الكريم بن جامع في ١٠٢٠هـ (١٦١١م) الذي يقول عنه ناختقال (ينتمي جامع لقبيلة الجعليين في شندي شمال الخرطوم على النيل وهو حفيد لصالح بن عبد الله بن عباس ولذا يسمون أنفسهم «جعليين» ويتطابق هذا القول مع ما يقوله سكان شندي وأبو حراز «وعرفة؟» والمسلمية وسنار الذين ينتسبون للعباسيين. مكث هؤلاء المهاجرون - بعض الوقت - في دارفور في الإقليم الجبلي الواقع شرق كوبي المعروف باسم «وودا»... الخ).

عاصر عبد الكريم سليمان صولون أول حاكم إسلامي لدارفور، الذي يدعي أحفاده التحدّر من بني العباس عن طريق جدهم (إدريس جعل)، وإن جامع والد عبد الكريم - دون شك -جامعي (أي من الجوامعة)، إذ يقول بارث[1]: «وداعة ابن

(١) يقول بارث إن تحدّر هذه العائلة المالكة من العباسيين هو أمر تخيلي تماماً. بيد إن الكثير من مثل هذه الآراء يكتنفها الكثير من السطحية وعدم الصمود لأن من الثابت إن العباسيين في فترة ما غزو أفريقيا وأما عن السلطان عبد الكريم فقد تعددت المصادر في تبيان أصله العباسي مثل سيديو، ترجمة عادل زعيتر ص (٤٤) وليس ذلك فحسب بل هو معروف لأهله من العباسيين في السودان بحيث لا يخلو بحث عن أعلام الجعليين من اسمه وقد ذكر عبد الله الخبير في سفره السور الحصين إن السلطان عبد الكريم هو من أوائل من أثبتوا نسبهم في مصر والحجاز وأوقفوا الأوقاف وربما كانت منطقة باب شريف في جدة هي إحدى أوقافه بحسبانه ملقب بالشريف محمد عبد الكريم، وهي أي باب شريف - عمودية لبعض أحفاده حتى وقتنا الحاضر.

جامع ينتمي لقبيلة الجِمر التي كانت تستوطِّن - وقتها - شندي وهاجر مع أهله نحو المنطقة التي سُميت على شرفه - فيما بعد - باسم ودًّاي. وهكذا فان (جِمر) قد يصعب تفسيرها بغير إنها تعني (الجوامعة).

في العام ١٩١٦م عندما زرت طرة مقر مملكة الفور القديمة ومقابر سلاطينها بجبل مرة منذ عهد سليمان صولون وجدت مستوطَّنة صغيرة لفقهاء من الجوامعة ينتسبون لجد يدعى إدريس استقدمه سليمان صولون من النيل منذ سبعة أجيال لنشر الدين، ومنذ ذلك الوقت أصبح أحفاده حراساً للأضرحة السلطانية وأئمة للمسجد المحلي.

أما فيما يتعلق بمجموعة «الجوابرة - بديرية»، أعتقد إن من الملائم القول بأن التسمية الوحيدة التي يمكن تصنيفهم جميعاً تحتها وبكل الدقة هي «دناقلة»[١] أي سكان دنقلا، وإن من المشكوك فيه أن يكونوا قد تسمَّوا من قبل باسم جعليين حتى أكد السمرقندي بأنهم يتحدَّرون من العباس وربطهم في هذا الصدد بالجعليين الحقيقيين الذين يعيشون على مبعدة بأعالي النهر. لايعني هذا إننا ننكر ولو للحظة بأن هناك تماثل أساسي في العِرق بين المجموعتين. من البديهي إن أمراً مثل هذا قد حدث، وإن صفة «دنقلاوي معدَّل» يجوز أن تُطلق على «جعلي معدّل» والعكس صحيح، في أي زمان ومكان. ومن غير المحتمل أن يكون السمرقندي قد تخيَّر - للتعريف - بفئتين من الناس كان من المتعين أن تخلق عاداتهم وخصائصهم الطبيعية إفتراضاً قوياً يتعارض ودقة تحليلاته. لم يكن السمرقندي غبياً بأي حال، وما تجدر ملاحظته - على وجه الخصوص - إنه رغم تصنيفه لهم جميعاً تحت مُسمى جعليين، يصِّور- في نفس الوقت - معدل درجة التقارب العرقي القائم بين هذه المجموعات العديدة بحكاية نَسبَية تفصح عن فطنة مدهشة.

وبينما تكمن العلة الحقيقية لمعين الهوية التقليدي في حقيقة إن الدم العربي

---

(١) جميع السكان يعترضون على إطلاق اسم دناقلة عليهم، مثل الركابية والذين يعتبرون أنفسهم أشراف، أما حالياً فإن الاسم ينطبق عليهم كما لو كانوا نوبيين.

الذي يتخلل الدناقلة ومجموعة الجعليين مختلف بدرجات متباينة للغاية خصوصاً بين عوائل الشيوخ كأشخاص متميِّزين من حيث المنزلة والرتبة والذين ينتمون فعلياً لنفس الجذور، مع ذلك فالصحيح أيضاً إن العنصر غير العربي على النهر من دنقلا حتى الخرطوم يبدو متجانساً لحد ما، ورغم إن الأمر لا صلة له مباشرة بموضوعنا، إلا إنه يضفي عليه قوة ولوناً.

سبق وتعرَّضنا للبرابرة والدناقلة في الفصل الأول، وما قام به هذا الجنس النوبي من هجرات خلال السنوات التي أعقبت إنهيار مملكة دنقلا المسيحية، أي بدايات القرن الرابع عشر، وذكرنا بأن الكثيرين منهم استوطَّنوا جنوب كردفان، ويمكن إسناد التماثل اللغوي بين سكان الجبال الشمالية في ديار النوبة وسكان دنقلا لهذا السبب. لا يمتد هذا التماثل إلى ما وراء مجموعة الجبال الشمالية، لكن من الصعب تفسير الأمر على أساس النزعة التجارية كما هو الحال بالنسبة لأجيال البرابرة والدناقلة الأكثر حداثة.

مثل هؤلاء المولدين من تصاهر عنصري النوبيين والعرب الذين هاجروا نحو الجنوب والغرب - كالجوامعة والبديرية بكردفان مثلاً - أصبحوا مختلفين بوجه لا تخطئه العين عن الشماليين من سكان النيل وذلك لتصاهرهم أو إندماجمهم في أجناس زنجية مختلفة تماماً. وبنفس القدر أصبح الضُباب - لكافة المقاصد والأغراض - من النوبة مثل سكان جبل الداير، كما أصبح الجوامعة من أنصاف الكنجارة الذين في دارفور، والغديات مزيج من الفونج والهمج والنوبة والعرب. علماً بأن جميع هؤلاء يحسون إحساساً حقيقياً بأنهم جعليون.

بيد أن اسم «جعليين» الذي يُستخدم الآن بمعناه العام ينحصر - غالباً - في تلك المجموعة الكبيرة التي تشمل السعداب والنفيعاب والكتياب وفروع أخرى ممن سيشار لهم في هذا الفصل باسم الجعلين الأصليين رغماً عن إن المفهوم الدقيق يخالف المدى الواسع للاسم، إذ إن هذا الفهم غير عام ويقتصر عملياً لأغراض النقاش النسبي. سنتناول الآن القبائل التي تدعي الإنتماء للأصل الجعلي والذين أصبحت لهم - بتعاقب الأجيال - كينونة تميِّزهم عن الجعليين الأصليين وغيرهم من القبائل المتمسِّكة بوجه مبهم بالإنتماء لذات المجموعة مثلهم، ثم نتعرَّض للجعليين الأصليين بعد ذلك.

وباستقراء المخطوطات، فالآتية أسماؤهم هم أكثر القبائل والبطون المعروفة والتي تُعد تقليدياً كجعليين بالمعنى الأشمل للاسم.

(١) البديرية، الشويحات، الطريفية

(٢) الغديات، البطاحين

(٣) الرباطاب، العوضية، الماجدية، الكرتان، الحاكماب، الجوابرة، الجِمع، الجوامعة، المناصرة، الضباب، المكابدة، الفاضلية، المنصوراب، الصنديداب، الجموعية، الشايقية، الفاضلاب، الميرفاب، السريحاب

(٤) الكتياب، المكابراب، الزيداب، الشاعديناب، المسلماب، الجبلاب، الكالياب، العمراب، الكبوشاب، الحسبلاب، الجودلاب، الكراكسة، النافعاب، العالياب، السعداب، المحمداب — الجعليون الأصليون

البديرية والشويحات والطريفية:

ينقسم البديرية في وقتنا الحاضر بالتوازي فيما بين النوبة النيلين وكردفان، بينما هناك قلة منهم يعيشون في دارفور غرباً. لكن الموطن الحقيقي للقبيلة يقع فيما بين الجوابرة وبلاد الشايقية في مديرية دنقلا. في القرن الثامن عشر أو قبله، عاش الزعيم (الملك) في دنقلا العجوز، والملوك التابعين له في الخندق وجزيرة تنقاسي وأبكر والدفار. وحتى وقتنا الحاضر لازال القول يصدق بأن الدناقلة - شبه العرب وشبه النوبيين - جُلَّهم بديرية أكثر من أي جنس آخر. والفرع الرئيس لهذه القبيلة هو «الدهمشية»[1].

وفي زمن سالف - الأرجح بداية القرن الرابع عشر - شقَّت أعداد من البديرية والشويحات[2] طريقهم إلى كردفان، دفعتهم إلى هناك - فيما يبدو - الموجه العامة لحركة الجعليين نحو الجنوب الغربي نتيجة للإخضاع العربي لدنقلا[3]، واستوطَّنوا في مواقعهم الحالية بالأبيض وإمتهنوا الزراعة وتربية الماشية.

عن تاريخ البديرية - سواء في دنقلا أو كردفان - فإننا لا نعلم عنه إلا القليل. أما بالنسبة لتاريخهم في دنقلا، ظل البديرية - خلال سيطرة الشايقية - هدفاً

١-هناك فرع للبديرية يدعي العايداب الاسم الذي نجده وسط الشايقية أيضاً، ويبدو إن بعض أحفاد عايد كانوا مع إحدى القبيلتين والآخرون مع الأخرى، بينما إلتحق آخرون بقبيلة الكبابيش. أما لأي القبائل ينتمي عايد فإن هذا غير مؤكد، وربما يكون عايد والد غلام الله، وفي كل الأحوال فإن القول بأنه شريفي يفسر مدى تعلق الكل به. هناك قبيلة تسمى عايد بالقرب من بلبيس في محافظة الشرقية بمصر يقال إنهم قحطانيون يتحدرون من جذام هكذا فليس من المستحيل الربط بين القبيلتين، قارن حالة الرواشدة والزيود والمزاينة والقراريش والجبارات.

(٢) يقول المؤلف بأن الشويحات أنفسهم قد يكونوا فرعاً من البديرية بيد إن المعلوم هو إنهم أبناء عمومة حيث يتحدرون جميعهم من سمرة ابن سرار.

(٣) هناك بئر وجبل يسمى بير سرار على بعد مسيرة يوم شمال بارا وقد سميت المنطقة على سرار بن كردم الذي قيل إنه أتى بعائلته واستقر هنا، وسرار ليس جد للبديرية فقط بل لكل مجموعة الجعليين وعهده حوالي نهاية القرن الثالث عشر.

لغاراتهم[1]، وما عانوه من ظلم دفع بالكثيرين منهم للهجرة نحو الجنوب الغربي والانضمام لبني جلدتهم في كردفان وفيهم من توجهّوا غرباً حتى دارفور[2].

في منتصف القرن الثامن عشر تقريباً توجه بلول - من زعماء البديرية في كردفان - من أبي حراز شمالاً واحتل «كاجا سروج» على حدود درافور، وإتخذ من جبل «بشارة الطيب» عاصمة له (أي كاب بلول)، بيد أنه أُخرج - وقتها - من هناك من قبل الغُزاة من المسبعات الآتين من دارفور وأُجبر للجوء مع من تبقى من أهله إلى «كاجا سودري» و«كتول» حيث انصهروا - تدريجياً - في العناصر المحلية القديمة. ينقسم البديرية في كردفان إلى مجموعتين رئيستين تفاصيلها كالآتي:

(أ) الدهمشية

١) أولاد حليب
٢) زنارة[3]
٣) عيادقه
٤) أولاد محمد
٥) شويحات
٦) رياش[4]
٧) كدومة
٨) أولاد علي
٩) أولاد شهادة
١٠) أولاد هلال

---

(١) هناك واد للعرب بين دنقلا ومروي يسمي بدير الذي درج زعماؤه حتى عهود متأخرة على دفع الضريبة للشايقية.

(٢) على سبيل المثال فإن في الهشابة بديار الزغاوة بشمال دارفور مستوطنة صغيرة لفرع الرياش مستقرين في قريً هناك.

(٣) أصلهم بربر وهم فرع من اللعاطة وهناك آخرون وسط الحوازمة.

(٤) يبدو من الشجرة إن جدهم أبو الريش أخ لبدير وشويح.

١١) حسينات[1]

(ب) أولاد نعيمة

١) أولاد حمد الله

٢) أولاد مطيعة

٣) أولاد ملكة

٤) أولاد عنانيا

٥) أولاد موسي

بالإضافة للبديرية الذين حافظوا على اسمهم في دنقلا وكردفان وغيرها من المناطق، هناك آخرون يدعون التحدُّر من البديرية، وأكثر هؤلاء من الأسَّرة[2] الذين يشكِّلون فرعاً كبيراً للحوازمة ولهم وجود في دارفور وودَّاى أيضاً.

بديرية دنقلا من القبائل المستقرة تماماً، أما هؤلاء الذين في كردفان فقد إنفتحوا بشدة في التزاوج مع جيرانهم، ثم أقاربهم من الجوامعة ثم مع الحوازمه، ثم تزاوجوا - فوق ذلك - مع النوبة بحيث تبقى فيهم القليل من سماتهم القبلية وأصبحوا يشبهون النوبة أكثر من كونهم دناقلة. ومن النوبة استعار مواليد البديرية موضة لبس الشعر المجدول في شكل ضفائر غليظة تتدلى من مقدمة الرأس للخلف حتى تكاد تلامس الكتفين.

للبديرية الكثير من القرى المجاورة للأُبيض - جنوبها وغربها - ومن هؤلاء نشأت العديد من المستوطَنات المتفرِّقة في شمال وغربي كردفان. وفي فصل الخريف يتحوَّل رعاة الماشية من البديرية - أي هؤلاء الذين في الجنوب والغرب - إلى رحَّالة بمعية البقارة من قبيلة الحوازمة.

---

(١) علاقتهم بالبديرية من ناحية الأم فقط.

(٢) يقال إنهم السكان الأوائل لمدينة الفاشر وإن السلطان عبد الرحمن الرشيد سلطان دارفور أخذها منهم نظير سبعين جملاً وجعلها عاصمة له.

الطريفية:

للطريفية قرابة وثقى وجوار مع البديرية النوبيين منذ كانت مواطنهم القديمة في كورتي وأم بكول. ومنهم من تبقى حول المنطقة حتى وقتنا الحاضر. بيد أن هناك أعداد منهم هاجروا إلى أماكن شتى، واستوطَنت أغلبيتهم كردفان، والراجح إنهم صاحبوا البديرية في هجرتهم الأولى ولكنهم بدلاً عن السُكنى معهم، اتخذوا مواطن لهم مع قبيلة الجوامعة، بحيث أصبحوا - حالياً - من أكبر بطونهم وأقرب شبهاً بالزنوج. أما الطريفية ضحايا عدوان الشايقية في القرن الثامن عشر- الذين أُبعدوا مؤخراً من دنقلا - توجَّه أغلبهم لدارفور ومارسوا التجارة في كوبي والفاشر وغيرها. فضلاً عن إن لهم وجود وسط الجلاَّبة من الدناقلة في الفاشر، إضافة لآخرين استقروا في قرِّي جوار شلال السبلوقة.

الغديات:

يعيش الغديات جنوب الأبيض على حواف ديار النوبة، ورغم إن العلاقة بينهم ومن يُطلق عليهم مجموعة الجعليين ظاهرية وفقاً لمرجعيات الأنساب، فالأمر لا يعدو أن يكون - لحد ما - نظرياً. والمتواتر هو إنهم أقارب حميمين للقبائل القديمة من«الكُنان» و«القصاص» الذين إندثروا الآن في السودان. ويُقال إن الكُنان عاشوا في ريرا - مديرية كسلا - إلا إن الشكرية استأصلوهم من هناك.

في إعتقادي إن المرجع الوحيد للقُصاص، هو كتابات بركهارت، وذلك في معرض حديثه عن الهوارة في مصر العليا إبان عهد المماليك، حيث قال (تُوجد في الجنوب قبيلة القُصاص الذين يقطنون الضفة الغربية لطيبة حتى جوار إسنا وإليهم ينتمي سكان «قُرني» و«أرمنت» و«الرهيجات» ويشتهرون كلهم بجرأتهم في السلب والنهب، وهم على عداء سافر مع بعضهم البعض رغم ما يُذكر بإنتمائهم والهوارة لأصل بربري واحد). تركت كلا القبيلتين اسمها على بعض الجبال الصغيرة شرق النيل الأزرق بالقرب من أبو دليق.

تضم النسبة لهؤلاء الغديات والكنان والقصاص قبيلة البطاحين الذين كانت مواطنهم القديمة وسط نفس الجبال. أما من الناحية الأخرى فما يُمكن أن يُقال - بصفة عامة - هو إن أصول الغديات تعود - لحد كبير - للفونج.

ومن الواضح أيضاً إنهم زنوج بقدر ماهم عرب. وبالتالي فما يُمكن استنتاجه هو إن أفراداً بعينهم من تلك المجموعة - التي كوَّنت قبيلة الجعليين الحاليين - استوطَّنت المنطقة المجاورة لأبي دليق في فترة سابقة، وقام بعضهم بدور فاعل عند ظهور حركة «العرب-فونج» في بداية القرن السادس عشر، وفي تفاعل مع تلك الحركة اتجهوا غرباً نحو كردفان واستقروا وسط النوبة وتزاوجوا معهم، أو - كإحتمال آخر - فمن الجائز أن يكون الغديات جزء من تلك الموجة العرقية التي إنداحت من دنقلا نحو كردفان وذلك قبل قرنين من نشوء سنار، ثم إرتبطوا في تاريخ لاحق بالفونج في كردفان.

تفيد رواياتهم بأنهم اتخذوا من «جبل كرباج» و«المُلبس» مواطن لهم، وأخرجوا النوبة من حصونهم المنيعة في جبل كردفان وحلّوا محلهم.

يُقال إن مجموعة البديرية والجوامعة خضعت لسلطانهم ويتمثَّل ذلك في الرواية التي سمعها «بالم» في ١٨٣٨م، والتي تروي كالآتي: «السكان الأصليون هم من النوبة الزنوج الذين يقطنون - حتى وقتنا الحاضر - عدة أجزاء من كردفان. وإن اسم كردفان نفسه ذو أصل نوبي. هناك ثلاث قبائل هاجرت مؤخراً هي الغديات والجوامعة والبديرية، وتاريخ هذه الهجرة لا يمكن القطع به. تفرَّقت هذه القبائل البدوية الثلاث حوالي جبل كردفان، وإشتغلوا برعي الماشية وكان لكل منها شيخ أو قاضٍ، لكن تم إختيار رئيس من مجموعة هذه القبائل الثلاث، قام مقام القاضي العادل في كل ما استعصى من إشكالات، وظل يمثِّل المرجعية الأخيرة للأحكام».

حوالي منتصف القرن السابع عشر عزز الفونج سلطتهم في الجزيرة وتابعوا غاراتهم على النيل الأبيض تجاه جبال تقلي والداير. ثم في القرن التالي حققوا السيادة على تلك الأماكن والحقوها بسنار. وإتباعاً لنهجهم المعتاد فقد استعانوا برؤساء

نصبُّوهم على تلك المناطق المحتلة، وهكذا نال زعماء الغديات لقب «مانجل» على إتحاد يجمع الأبيض وجبل الداير، ومن المؤكد إن مقابل تلك السلطة هو دفعهم للضرائب السنوية من المواشي والمعازق.

كانت سيطرة الفونج على جنوب أواسط كردفان متقلِّبة على مدى الأيام حتى وصلت ذروتها في ١٧٤٨ - ١٧٥٧م مع هزيمة المسبعات في كردفان، ثم إنتهت في ١٧٨٨م. أما الفترة التي شهدت قمة سلطان الغديات كانت فيما بين الأعوام ١٧٥٥-١٧٦٨م. ومما يؤكد هذه الرواية كونهم ظلوا المحميين والحلفاء والأتباع المخلصين والمدافعين عن سلطة الفونج[١].

في ١٧٦٨م دانت أواسط كردفان[٢] للمسبعات، والظاهر إنه لم تنشأ عداوات بينهم والغديات لأنهم لم يمسوا حيازتهم لأراضي جنوب العاصمة، بل تركوهم مستقرين في قراهم حتى وقتنا الحاضر وسط أخلاط من الإثنيات المماثلة من البديرية والمسبعات والبرقد والتُّمام والتمباب والضباب. وفروع الغديات كالآتي:

نفر المراد	بيروح
نفر عمر	إديرات
نفر سفيع	كعوك
نفر سعيد	مقابضة (أصلهم من البديرية)
نفر أبو خضرة	سراير

سلامات (فرع من البقارة والسلامات)

ومما تجدر ملاحظته هو إن اسم مقابضة لا يتضَّمن معنىً محدداً، ويظهر في

(١) يقال إن الأبيض نفسها أنشئت أثناء تعمير الغديات للمنطقة.

(٢) أواسط كردفان هي أصل كردفان وحتى وقتنا الحاضر فإن سكان جبال كاجا والحرازة وبدو الشمال كالكبابيش وكذلك حمر في غرب كردفان يتحدثون عن «الذهاب إلى كردفان» ويعنون بذلك المركز الرملي القابل للزراعة الذي يشمل - في وقتنا الحاضر - الأبيض وبارا وأم دم وأم روابة، وإن إمتداد الاسم للشمال والغرب (ولبعض السنوات نحو جبال النوبة جنوباً) هو أمر إداري بحت.

النسبة كقبيلة جعلية ذات قربي بالمناصرة. أما هؤلاء الذين وسط الغديات، يُعتبرون - محلياً - ضمن البديرية الذين إنتسبوا للغديات من عدة أجيال.

(ج) البطاحين[1]

البطاحين الحاليين هم قبائل من الرُحَّل وزعامتهم في أبو دليق - نصف المسافة بين الخرطوم وعطبرة - ثم هناك أعداد أقل في علوان. أما الذين في أقصى الجنوب والذين يشكِّلون أقلية متناثرة كالذين استقروا في ودمدني والمناقل، هم البتقاب الذين إنشقوا عن القبيلة الأم - في أزمان متأخِّرة - واستقروا في مركز الخرطوم بحري. أما نحو الشرق فلا يتجاوز وجودهم ما وراء حدود مديرية النيل الأزرق، عدا موسم الأمطار الذي يجوبون خلاله مراعي البُطانة بحدود تبعد خمسة عشر ميلاً غرب النهر أو أكثر.

كانت القبيلة منذ نصف قرن أقل قوة من الآن. كان إعتمادهم - في علوان - على مياه الحفائر حتى موسم جفافها أوائل الربيع، بعدها يتوجّهون نحو النهر. ولكن بقيت قلة منهم منذ وقت طويل في أبو دليق أيضاً حيث استوعبوا كجزء من السكان الأصليين أو على الأقل كأصحاب حقوق قديمة أو من السكان القدماء لتلك البقاع.

على أية حال فقد علا شأن الشكرية - تحت زعامة عائلة أبو سن الكبيرة - فيما بين النيل الأزرق وعطبرة، تحديداً في عهد الفونج. وحافظوا على تلك المكانة حتى التركية. أما البطاحين الذين كانوا مهملين - وقتها - فقد استولوا بمعية الدليقاب - أحفاد فقيه كاهلي ملقب بأبو دليق - على منطقة تُعرف باسمه، إضافة إلى جزء كبير من وادي هوَّاد. وقبل سنوات قليلة من ظهور المهدية نجح الشيخ عبد الباقي عبد القادر جد عمدة البطاحين الحالي في حفر آبار في علوان والتمامة وأم سديرة وكدوم،

---

(١) يقال انهم حازوا بئراً واحدة هناك وذكرهم بركهارت (ص ٣٤٥) ضمن العرب الذين كانوا في ١٨١٤ في شندي والراجح إنهم من بين العوائل التي إتخذت من أبو دليق عاصمة لها.

ومن هنا بدأ توحُّد وإزدهار القبيلة في تقدُّم مضطَّرد[1].

يُفترض أن تكون هناك آبار قديمة في أبودليق حيث يتوَّفر الماء في الوادي إلى ما يقارب السطح بدرجة أتاحت استخدام السواقي، ولكن كنتيجة للغليان الذي صاحب المهدية وتداعياتها، شعر البطاحين بأنهم أقوياء بالقدر اللازم لتأكيد دعاواهم التاريخية في مواجهة الشكرية والدليقاب، وذلك بأن يجعلوا من أبودليق عاصمة قبلية، فحفروا الكثير من الآبار وزرعوا أغلب الأودية المحيطة بها[2]. أرسل الخليفة الكثيرين من البطاحين - في عهد الدراويش - شمالاً نحو دنقلا وبربر حيث قضوا هناك. أما من تبقُّوا حول أبودليق فمازالت نفوسهم تموج بالاستياء لإعدام الخليفة لسبعة وستين منهم دون رحمة في إحدى أيام أم درمان الدامية.

الآن أصبح البطاحين من كبار رعاة الأبل والمواشي والأغنام والماعز، وصاروا يمارسون الزراعة المطرية على العديد من الوديان الضحلة المنتشرة في ديارهم. والبطاحين بدو نموذجيون[3] في مظهرهم العام. يتميَّزون بالرشاقة والحُمرة الشاحبة، ذوونظرات ماكرة، معروفون بالجموح، ميالون للشجار مثل الشكرية، ذوو طُرفة وفكاهة، تتجاوز جرأتهم الحد المعتاد، غير قابلين للإصلاح، لصوص مجاهرون، رغم إن سرقتهم ليست على نمط الكسر المنزلي وما شاكله، بل هي من بقايا أيام الصعلكة

(١) تحدث سي بيزك (أواسط أفريقيا الجزء الثاني ص ٨٤) عن حوالي خمسمائة رأس من الجمال بصغارها رآها في مارس ١٨٦٢ تُسقى على الضفة الشرقية للنيل الأبيض بالقرب من جبل أولياء تخص البطاحين.

(٢) نشأ العمدة - مؤخراً - قرية مشيدة من الطين بالقرب من الآبار وبالطبع يعد الأمر نقلة معتبرة للبطاحين أفضل أنواع الدور التي يقطنها هؤلاء الذين ليسو على البداوة الصرفة كانت عبارة عن أكواخ (تُكل) من القش تُلطخ جدرانها بالزبل والكلس، وتستخدم الخلطة للقش والقوائم معاً، كما تفتح النوافذ في الجداران. هذا النوع من البناء لا يُوجد في غرب النيل. تُوجد في داخل المسكن سويبة واحدة أو أكثر وهي جرار طينية اسطوانية لحفظ الغلال إرتفاعها حوالي ثلاثة أقدام ونص. تُصنع الجرار من مركبات صمغ السيال والجلد والخيش.

(٣) يستثنى من ذلك من تجري في دمائهم دماء السبايا.

والهمبتة لدى القبائل العربية[1]. يدعي البطاحين بأنهم - من حيث الأصل - جعليون الأمر الذي ينكره عليهم - بتهكم وتعريض - كل من الشكرية والمسلمية وغيرهما من القبائل الجاورة، التي درجت علي رميهم بأقسي معاني التشهير بأسلافهم. وكحقيقة - كما هو ثابت من النسبة - إنهم أحد أقدم الأعراق من بين المجموعات العربية المهاجرة ممن ينطبق على أسلافهم وصف «جعليين» فضلاً عن إنهم الأقل إختلاطاً بالزنوج أكثر من أي من فرع آخر للجعليين، وربما هم الأقرب للجنس الأصلي.

تُرجع رواياتهم اسمهم لـ«بِطاح»،أي تلك المنخفضات حول مكه التي استقرت بها قبائل قريش أيام النبي ﷺ [2]، بيدأن الساخرين يقرنون اسمهم برواية أخرى مفادها، إن جدهم وجُد مُهَّملاً «أي مبطوحاً» في وادٍ يسمي البطحة.

تتمثَّل بطون البطاحين في الآتين:

(أ) عشامة[3]	(١) صاحباب	(أ) نيناب	(ب) بلالاب	(ج) وآخرين	
	(٢) هديباب	(أ) شراحاب	(ب) عطوية	(ج) قدماب	(د) سواديب
	(٣) عركشاب[4]	(أ) بلالاب	(ب) ام عيسي		
	(٤) علاما		(أ) بُرك	(ب) شلوخاب[5]	
	(٥) ضيفلاب	(أ) كوديلاب	(ب) راشداب	(ج) نوراب[6]	(د) بعابيش (مفردها بعبوشاوي)

---

(١) لا يزال في ذاكرة الأجيال الحالية بأنه لم يكن في وسع الشاب منهم الزواج حتى يثبت جدارته بسرقة بعير، ويذكٍّر هذا بالبدو الذين ذكرهم برتون في الحجاز والذين يسمون «حرامي» إذ لا يزالون محترمين وينطبق عليهم قول هنود الكرو «ثق بشرفهم تكون في مأمن، أما عن أمانتهم فإنهم قد يسرقون شعر راسك».

(٢) يذكر المؤلف بأن والد عمدة البطاحين أكد له بأن أسلافهم كانوا جزءاً من جيش الصحابي خالد بن الوليد الذي غزا شرق السودان وأسلم العنج.

(٣) أصلها من العشم.

(٤) عركش النبات أي إزدهر.

(٥) من الشلوخ.

(٦) «أحفاد النور» ولا علاقة لهؤلاء بالنوراب من الكبابيش والشكرية، بل هم بطن من البطاحين.

(٦) عسافاب (أ) فرجاب (ب) وغيرهم

(ب) بتقاب[١] (١) حواب

(٢) حريراب

(٣) شبلة

(٤) زاكياب

(٥) دريساب

(٦) أتامرة[٢]

(٧) شويناب (يعيشون وسط العشامة)

(ج) عبادلة[٣] (١) عوضاب

(٢) وغيرهم

(د)الرباطاب والعوضية والمناصير والفضليين والميرفاب والضباب الخ.

المنطقة المقدَّرة لتلك القبائل الثلاث التي على النهر، من الرباطاب والمناصير والميرفاب تنحصر بوجه عام فيما بين الشلال الرابع وملتقي نهرى عطبرة والنيل. أي المنطقة الواقعة بين الشايقية والجعليين الأصليين على ضفتي تلك العروة العظيمة على النهر.

للمناصير[٤] زعامتهم في برتي[٥] - الحدود ما بين بربر ومديرية دنقلا - مجاورين

(١) يقال أنها تعني الكثرة.

(٢) يقال أن أصلها من التمر.

(٣) أصلها من عبد الله (جمع تكسير) وهم من المستقرين.

(٤) يقول المؤلف أصل التسمية اسم منصور وهم على النيل في بربر وتتكون القبيلة من بطون صغيرة هم السليمانية والسلامات وبرتي وشيري وشِري، أما في الأرضي الداخلية فأعدادهم قليلة هي الكجوباب والخبراء وغيرها وعددهم لا يتجاوز الستمائة. بيد إن لنعوم شقير رأي آخر إذ يذكر إن أجدادهم قتلوا رجلاً في المنصورة بمصر ثم فروا إلى هذه البلاد وذلك في عهد غير بعيد وهم ينقسمون إلى خمس بدنات وهي الوهاباب والكبانة والسليمانية والكجوباب والخبراء. أنظر نعوم شقير جغرافية وتاريخ السودان ٦٣.

(٥) حلة برتي على نحو ١٩ ميلاً من الشلال الرابع وهي حلة طويلة على يسار النيل في أول حدود بربر النيلية (نعوم شقير جغرافيا وتاريخ السودان ص ١٠٤).

للشايقية، ووصفهم بركهارت بأنهم بطن منهم رغم إنهم لا ينتمون إليهم أصلاً[1].

قبل قرنين من الزمان أو أقل هجرت مجموعة كبيرة من المناصير والفضليين شطآن النيل واتجهوا غرباً إلى دارفور واستقروا حول سانية كرو وتولو وجبل حلة وتسمَّوا باسم مناصرة وبني فضل. عندما توجَّه الحَمر من أم شنقة وفتحوا غرب كردفان متخذين من أشجار التبلدي خزانات للمياه، انضم لهم هؤلاء المناصرة وبنو فضل. ثم تقاطر المزيد منهم إبان الحكم التركي، بيد أن أكبر هجراتهم كانت في حوالي عام ١٩٠٤م عندما ضاقوا ذرعاً بظلم سلطان دارفور، فغادر أكثر من نصف هاتين القبلتين دارفور واستقروا في ديار حَمر حيث استوطَّن المناصرة - بصفة رئيسة - حول الأُضية، أما بني فضل فقد اتخذوا من الزرنخ وغبيش وأم بل[2] مواطن لهم. ومنذ ذلك الزمان تواصل انضمام الكثيرين من بني جلدتهم سنوياً إليهم حتى وقتنا الحاضر. وتتمثَّل بطون بني فضل في كردفان في الآتين:

حدارمة[3]	جريوات	يعقوباب[4]
حُمران	محمدية	دباغنة
زوايدة	عامرية	متورنة

أما المناصرة فتتمثَّل بطونهم في الآتي:

حسامية	(أ) طبيقات
	(ب) أبو عامر
حمادية	(أ) أبوسنابو
	(ب) أبو حِمير

---

(١) يقدرهم السيرولسون بـ٢,٥٠٠ نسمه يقول بأنهم يدعون الإنتماء للعبابدة (النوبة ص ٦٩).

(٢) كما يوجد أشتات للفريقين في مناطق أخرى كجنوب شرق النهود مثلاً.

(٣) ينفون أي علاقة لهم بالحضارمة أو الحداربة بساحل البحر الأحمر ومع ذلك يبقى الإحتمال موجوداً.

(٤) يقولون بأنهم يتحدرون من ذات أصل اليعقوباب في سنار الذين سنلاقيهم فيما بعد كفرع من الشايقية. لا يوجد أي من بني فضل على النيل.

جميلية	(أ) شبول[1]
	(ب) أم سوار
جبارين	(أ) أم عزوزة
	(ب) جبارين

أما الرباطاب فهم على أعالي النهر، من المناصير حتى الشلال الخامس، وتخضع ديارهم - بصفة عامة - لإدارة أبي حمد.

أما فرع العوضية الذين يظهرون في النسبة تحت مسمى «رباطاب»، فهم - بأستثناء الإنتماء النَسَبي - يختلفون عنهم تماماً، ولا زالوا على بداوتهم يحترفون الرعي حول مديرية بربر مع مختلف بطون الجعليين الأصليين.

صلات القربى بين الرباطاب والجعليين يشار إليها في «النسبة» بأن أم غانم جدة الجعليين كانت أختاً لرباط.

ومن المدهش فإن «النسبة» بالرغم من أنها لا تقرن الرباطاب بالمناصير كأقارب - كما يتوقع المرء - نجدها تربط بين الرباطاب والضباب على أساس إنهم يتحدَّرون من إخوة، رغم إن الضباب يقطنون المنطقة المجاورة لجبل الداير بجنوب كردفان وينتمون لنفس جنس النوبة المهجنين بشيء من الدماء العربية على شاكلة هؤلاء الموجودين في أواسط الجبال الشمالية لديار النوبة.

أما عن واقعة إنتماء السكارج - أي ملوك تقلي - والأسرات الحاكمة في دارفور ووداي للأصل الجعلي فإن مرد ذلك قد يرجع - جزئياً - للتزلف، لكن من العسير الأرتقاء بهذا الفهم لحد إدراج الضباب ضمن الجعليين، سواء هم أو أشباههم من جيرانهم الزنوج من الضباب والتمباب. وإن ظهور هذه المعالم في «النسبة» لهو دليل إضافي على تلك الحركة المبكِّرة من النيل لهؤلاء الأعراب النوبيين المنضوين تحت ذلك المسمى النَسَبي المبهم - أي جعليين - وهجرتهم لتلك الأجزاء من كردفان التي تقع شمال جبال النوبة مباشرة، والإختلاط بالنوبة وغيرهم مما أسفر عن قبائل كردفان

(١) يُوجد هذا الأسم في بدنة من الهبانية وفي وسم يستخدمه الغريسية من حمر.

الحالية من بديرية وجوامعة وغيرهم، كما يفسِّر التماثل اللغوي بين البرابرة والنوبة.

الميرفاب:

هم سكان بربر الأصليين ويقول عنهم بركهارت «الميرفابي حر المولد لا يتزوَّج جارية سواء كانت حبشية أو سوداء، بل يتزوَّج دائماً من فتاة عربية من قبيلتة أو من القبائل المجاورة، وهم حريصون على نقائهم العرقي» ووصفهم بطول القامة، وبأنهم ذوو بشرة حمراء بنية داكنة، الوجه بيضاوي بأنف مستقيم، تفصح قسماتهم عن العروبة أكثر من الزنوجة، أما عن طباعهم فقد نعتهم بأدنى الصفات وقال عنهم: «محتالون ولصوص ويتميَّزون بالجحود، وفي سعيهم للكسب لا يتقيدون بشيء ويضربون بأية شرائع إنسانية أو إلهية عرض الحائط. ولم أقابل مثل من هم بسوئهم اللهم إلا هؤلاء الذين في سواكن».

وبالرغم من كل ما ذُكر، فهم ذوو طرفة ومرح، تكسو الضحكة وجوهم، يعشقون الغناء، بعضهم رعاة أغنام والبعض الآخر مزارعين.

يحكم الميرفاب ملك يعينه الفونج في سنار، ويُقال إن في مقدورهم الدفع بألف فارس من الاحرار وخمسمائة من العبيد.

وقال عنهم سير. س. ولسون «بأنهم يُصنَّفون أحياناً كجعليين، إلا أن الجعليين ينكرونهم، ويبدو إن هناك لغط حول إنتمائهم للبجة من عدمه».

الحاكماب:

الحاكماب الذين تجمعهم مخطوطات الأنساب بالجوابرة، قبيلة صغيرة وبالرغم من ذلك يُعتبرون من أكثر الجعليين تميُّزاً بالمعنى الدقيق للاسم أكثر من كونهم جوابرة.

حكم ملوكهم التقليديون جزيرة أرقو، وسادوا المنطقة المجاورة - كأمراء - ولزمن طويل. والأرجح إن أصلهم يرجع لأسرة عربية مهاجرة تسيَّدت على السكان

الأصليين القدماء على نفس نهج ربيعة في الشرق وأولاد كنز في أسوان.

الجوابرة:

الجوابرة هي القبيلة النهرية التي تقطن أقصى شمال السودان وينطبق عليهم وصف عرب بكل الأبعاد والمعاني. وتتمركز زعامتهم في جزيرة بدين على مقربة من حدود مديرية دنقلا وديار المحس، ويبدأ عمق مواطنهم من شلال حنك حتى «تيتي» بما في ذلك جزيرة أرقو ومقاصر. يقول بركهارت «بعد انتشار الإسلام - والأرجح إن الإشارة للقرنين الثالث عشر والرابع عشر - استولى الجوابرة والغربية - فرع من بربر الزناتا - على المنطقة ما بين الشلالين الأول والثاني ثم في زمن ما حققوا شيء من السيادة على الكنوز وغيرهم من القبائل التابعة لهم».

إبان عهد سليم الأول وبمجرد تأسيس سلطنة الفونج في الجنوب، تخاصم الغربية مع الجوابرة، وعانى الغربية بشدة من جراء تلك الخصومة، وترتَّب على ذلك أن أرسلوا مبعوثاً للسلطان وحصلوا منه على قوة مساعدة من البوسنيين. تولَّت تلك القوة إخراج الجوابرة من شمالي النوبة إلى ما يُعرف الآن بمديرية دنقلا. وحتى يومنا ترجع أصول أكثر سكان دنقلا ثراءً لهؤلاء الجوابرة. يضيف «بركهارت» بأن بعض أسر الجوابرة بقوا في ديارهم القديمة بسلام وما زال أحفادهم المتبقين في الدر ووادي حلفا يُعرفون باسم القبيلة.

وفي الوقت الحاضر ينحصر الجوابرة على نطاق السودان في المدن الكبرى، ويمارسون التجارة. كما تُوجد مستوطَنة لهم في مركز بارا - أواسط كردفان - حيث ظلوا يفلحون حوض البشيري الخصب لعدة أجيال مستخدمين الساقية والشادوف.

الشـايقية:

تربط الرواية التقليدية بين الشايقية والجعليين، ويُقال بأن شايق هو أخ لغانم الذي تتحدَّر منه كل قبائل الجعليين الأصليين. وما لم يكن الكثير من المظاهر خداعاً في مثل هذه الأمور، فقد إمتزج الشايقية بالأجناس الأكثر قدماً المألوفة لديهم،

أما الجعليون فهم عنصر غريب عنهم تماماً. الشايقية - خلافاً لاي قبيلة أخرى في السودان - هم الأكثر حباً للمغامرة والشجار. وهم الأكثر قابلية - وبصفة خاصة - للعمل كمقاتلين مرتزقة تحت إمرة أي مخدِّم. الشايقي النموذجي شاحب التكوين، نحيل، نشط مُولع بتعاطي الخمور، مفتون بالنرد، كاذب بالسليقة. أما من حيث المظهر فيصعب تمييزه عن مواليد الترك[1].

يتفرَّد «ويرن»، ذلك الباحث المدقق في معرض وصفه للشايقية بطرح نظرية جريئة حيث يقول «يمكن للمرء أن يتعرَّف على الشايقي من أول لمحة، ومع ذلك لا يستطيع المرء أن يفسِّر لماذا يختلف تماماً عن بقية العرب».

وجوههم حسنة، مميزة، رقيقة. لعلية القوم ملامح دقيقة جداً، سامقو الجبين، ذوو عيون بهيجة مفصَّلة بدقة، وأنف مقوَّس مدبب في نهايته. ويختلفون هنا عن البرابرة ذوي الملامح الأدق. شفاهم عادية، الذقن رقيق، لون البشرة أسمر أو السمرة التي يخالطها السواد. يتميَّز الفرد منهم بالنحافة لكنه متين البنية، ذو هدوء شديد. يمارسون التمارين البدنية، مفتونون بالخمر. ورغم إن وجوهم وملامحهم تقرِّبهم للعرب أكثر من النوبيين، إلا أنهم بالإجماع يؤكدون - وبشيء من التعالي - بأنهم ليسوا بعرب ولا يتحدَّرون من هذا الجنس[2] كما إنهم ليسوا بنوبيين. لكن من أين جاءوا ولأي جنس ينتمون؟ هذا ما لم يستطع أو يرغب ملوكهم ممن يحفظون مخطوطات أنسابهم إفادتنا به رغم محاولتنا إنتزاع ذلك منهم.

يؤكد الشايقية بأنهم أبناء الأرض من عهود سحيقة وظلوا محاربيين أشداء. لا ينبغي للمرء أن يثق - كما فعل الرحاًلة الآخرون - بما تلقوه من فقهائهم الذين يؤكدون العكس، رغم إننا لم نسمع هذا منهم، وذلك لأن أغلب هؤلاء الملوك من أُسر عربية، ولمثل هؤلاء الأجداد من الفقهاء مخيلة ووهم، لأنه بالرغم من جواز

(١) يلاحظ الشبه بالدناقلة أيضاً بيد إن مرد هذا لا يعدو أن ينسب لاحتلال الشايقية لدنقلا كما سنرى في هذا الكتاب. كما تجدر الملاحظة بأن الشايقية لم يتحدثوا لغة الدناقلة مطلقاً.

(٢) لا يصدق هذا القول في وقتنا الحاضر.

إنتمائهم لأصل مختلف تماماً، فهم - بسبب إنتمائهم العربي - قد يدَّعون الانتساب للنبي ﷺ.

والسؤال التاريخي المطروح الآن هل هؤلاء الشايقية - الذين ربما استمدوا اسمهم هذا من أحد الفقهاء العرب - هم جزء من جنس المحاربين المهاجرين من مصر؟ أم إنهم جزء من هؤلاء المحاربين الساخطين الذين قابلهم ملوك أثيوبيا بالترحاب والأريحية؟ ديارهم وقربهم من مروى القديمة - التي ربما تولَّوا حمايتها ضد برابرة الجنوب - وروحهم القتالية كلها تتفق مع تلك الروايات. كما إن واقعة عدم إتحادهم تحت زعيم موحَّد، ومعيشتهم كأحرار تحت إمرة ملوكهم، تدل على ذلك. الأسرة الحاكمة الحالية ربما تعود أصولها للجنس الرئيس في مصر القديمة، من الذين استمسكوا بملك الأثيوبيين كمليكهم الوحيد، ثم أصبحوا بعد إنهيار تلك المملكة مستقلين كما فعل جنرالات المقدونيين بعد موت الأسكندر الأكبر. يتميَّز الشايقية بالشعر الناعم الطويل والذي ربما يُقصَّر أحياناً من قبل الكثيرين على النسق المُستخدم في مصر. تختلف هذه العادات عن عادات العرب والنوبة والبربر على السواء رغم وجود بعض القواسم بينهم وتلك الأجناس، مثل الشلوخ - كأداة تعريف بالقبيلة - التي يَسِمها الشايقية بوضع أفقي على الخد[1].

يتعيَّن أن نستعين بما قاله كليوود عن عاداتهم لتعضيد نظرية ويرن. ففي معرض حديثه عن الحملة إلى بلاد الزنوج جنوب الجزيرة يقول: «أقام الشايقية تمثالاً يُمثِّل رجلاً منهم وهي عادة متعارف عليها بينهم، إذ يقومون بدفن مثل هذا التمثال في المكان الذي يُمثِّل حدوداً لغزواتهم الكبرى».

التماثيل العملاقة التي نحتها الفراعنة لتحديد المناطق التي غزوها يرجح أن تكون النماذج المثلي لملامحهم. بيد أن الشقة واسعة جداً بحيث لا يتيسَّر تجسيرها

---

(١) هذه الشلوخ تربطهم بالجعليين رغم اختلاف شكلها فيما بينهم، وأصل هذه الشلوخ غير واضح، بيد أن المؤلف يُرجع ممارسة الشلوخ لبعض القبائل في مكة التي تُجري في الكعبة عند بلوغ الولد سن الرابعة عشر.

بهذه السهولة لإسباغ الأصل المصري على الشايقية، إذ قد يكون رأياً جذاباً لكنه خادع في حقيقته. من جانبي أفضِّل أن أخاطر بنظرية مؤداها هو إن الشايقية يتحدَّرون جزئياً من البوسنيين والألبانيين والأتراك المرتزقة الذين أُسندت لهم مهمة الحماية منذ احتلال سليم الأول في ١٥١٧م فاستقروا في النوبة مثل ما فعل مرتزقة «كاريان» في أيام باسمتشوس الأول، ويثبت ذلك التماثل في النوع المشترك بينهم والجنود الأتراك غير النظاميين الذين حكموا السودان حتى عام ١٨٨٢م من جهة، ثم أثر التزاوُج الذي تم بين الفريقين من جهة أخرى[1].

تتألَّف منطقة الشايقية من الجزء الخصيب في وادي النيل، وتقع فيما بين جبل ديكا - جنوبي دنقلا - وحدود أعالي النهر لدى الشلال الرابع. وفي إطار هذه الحدود حكمهم أربعة من المكوك التابعين - قديماً - في كل من مروى وحنك وكجبي وأمري على حد سواء. كان الشايقية - حتى خواتيم القرن السابع عشر - مثل بقية العرب يخضعون لمانجل العبدلاب في قرّي، ولكنهم في حوالي عام ١٦٩٠ م - تشجَّعوا نتيجة للخلافات التي نشأت بين العبدلاب والفونج وما تلاه من تمرُّد للجند فنالوا شيئاً من الاستقلال. قاد هذا التمرد عثمان ود حمد وكانت معركة الحسم قبالة جزيرة دلقو.

منذ ذلك التاريخ لم يخضع الشايقية لحاكم آخر بخلاف مكوكهم الأربعة، بيد أن ميلهم للقوة زاد من شغبهم ووفر لهم مناخاً جيداً لاشباع خصلة النهب المتأصِّلة فيهم.

لاحظ «بونسيت» - في عام ١٦٩٩م - إنعدام الأمن بالنسبة للقوافل التي ترتاد طريق النهر إلى ما بعد كورتي نسبة لإمكان تعرُّضها لنهب الشايقية، وهكذا أصبح إرتياد الطريق الصحراوي عبر بيوضة أمراً لا مفر منه.

خلال القرن الثامن عشر مدد الشايقية إرهابهم حتى شمل مديرية دنقلا وديار

(١) العلاقة العسكرية كانت حميمة جداً، لأن الأتراك تزوجوا شايقيات وكل أولادهم إلتحقوا بالباشبوزق، ثم إن سكان النيل - أي الشايقية - تزوجوا بشدة مع الباشبوزق من الأتراك والألبانيين الذين كانوا في خدمة المصريين.

المحس والسكوت، وهكذا دفعوا بالكثيرين من السكان الأصليين للهجرة غرباً. ويبدو إنهم لم يجدوا من يجابههم لذا مارسوا النهب دون تمييز على تلك القبائل المسالمة التي تتميَّز أراضيها بالخصوبة إشباعاً لجشعهم. ثم إن الشايقية أنفسهم زحفوا نحو كردفان في فترة ما بين الأعوام ١٧٤٨ و١٧٨٥م لأننا نجد أعداداً مُعتبرة من العسكريين المنتمين لمختلف القبائل من الدناقلة والشايقية والكبابيش وعرب الرزيقات في ذلك الجيش الذي همَّ السلطان هاشم أن يغزو به دارفور. وصفهم بركهارت - في ١٨١٣م - بأنهم أناس مستقلون تماماً يملكون ثروة كبيرة من الغلال والماشية.

يشتهر الشايقية بالكرم، ولضيفهم أو رفيقهم قدسية وجوار، ويتحدثون العربية فقط ويجيد الكثيرون الكتابة والقراءة بها، ويعاملون علماءهم بتجلّة وإحترام شديدين. لديهم مدارس يتلقون فيها مختلف العلوم بما في ذلك العلوم الإسلامية باستثناء الحساب وعلم الفلك. يتناول بركهارت خصالهم في الغزو والسلب في دنقلا ويقول «منذ أن أصبح لعرب الشايقية نصيب في الخراج أصبحوا يأخذون على الأراضي المروية أربعة «مهورى»[1] من الذرة وإثنين أو ثلاثة من الخراف ورداء من الكتان يساوي دولارين عن كل ساقية، ومثلها للمكوك القبليين». ويضيف بركهارت بأن نهبهم يطال حتى أقاربهم الجعليين في شندي. وقبيل وصول المماليك لدنقلا كان الملك نمر في حرب مستمرة ولسنوات مع عرب الشايقية الذين قتلوا الكثيرين من أقاربه في تلك المعارك، ولإغاراتهم بفرق كبيرة من الفرسان على دياره، تعرَّضت ضفة النهر الغربية - على أيديهم - للكثير من الخراب. لم يسلم حتى العبدلاب - في الجنوب - من تلك الغارات إذ قال كليوود في الجزء الثاني ص ٦٨ ما يلي: «منذ تفكك مملكة سنار التي كانوا يخضعون لها سابقاً، إنخرطوا بحماسة في مهنة الجيش ولم يلبثوا أن أصبحوا مرعبين للأقاليم المجاورة إذ عانت كثيراً كل من دنقلا وبربر والحلفايا من هؤلاء القوم الجسورين».

بحلول عام ١٨٢١م تقلصت الكثافة السكانية في الحلفايا من ثمانية أو تسعة

(١) نوع من المكاييل السائدة وقتها.

آلاف نسمة إلى ثلاثة أو أربعة آلاف على الأكثر. وأول إختبار لهم كان بسبب الأعداد الكبيرة للمماليك - ممن نجوا من مذبحة محمد علي[1] - الذين فروا من مصر للنوبة في عام ١٨١١م. كان هؤلاء المماليك أقوى شكيمة من بقية القبائل التي رزحت تحت ظلم الشايقية طويلاً، لذا بدأوا يطبقون على الشايقية النهرين ذات أساليبهم التي مارسوها - دون رادع - على الغير. وإنطلاقاً من جزيرة أرقو فرض المماليك نفوذهم على المنطقة ونهبوا ممتلكات الشايقية ونالوا الخراج ووطّدوا أنفسهم في دنقلا واتخذوا من «مراغة» عاصمة لهم بينما ظلت «الخندق» كحدود جنوبية لهم.

لم يكن الشايقية ميالين لقبول الهزيمة، ولذا ظل كل فريق يحمل على الآخر، وكان لكل دوره في الاخفاق والنصر، وظل العداء يعتمل في صدورهم إلى ما بعد الاحتلال التركي للسودان.

كان أقوى ملوك الشايقية - إبان غزو إسماعيل باشا - هم شاويش من فرع العدلاناب وعاصمته مروى، ثم صبير من الحنكاب وعاصمته حنك، مع إثنين من الملوك الأصغر وهم مدني في كجبي وحمّاد زعيم العُماراب. و بإقتراب الأتراك توحّدت كل تلك القبائل تحت قيادة شاويش وصبير. وها هم الشايقية يكفِّرون عما إقترفوه من أفعال سيئة بذلك الدور البطولي الذي بذلوه دفاعاً عن البلاد. لقد عاشوا رفقاء لخيولهم على أيديهم الرماح، وعليهم الآن ترك هذا الماضي للغرباء، على أن يستبدلوا هذه الأدوات بالمعزق والمنجل وأن يسوقوا ثور الساقية بدلاً عن مطاردة خصومهم في الصحراء. كان بينهم العديد من النوبيين الذين أُجبروا على ممارسة فلاحة الأرض وكانوا يعتبرونهم من طبقة أدنى، لكنهم الآن مستعدون لممارسة هذا العمل الذي ترفّعوا عنه كثيراً، صار لزاماً عليهم الا يتوقعوا معاملة أفضل مما إعتادوا أن يعاملوا به الغير، وعليهم تذوّق طعم العبودية ليس بسبب ما فقدوه من حرية، بل بسبب الظلم الذي مارسوه، ثم بسبب مقتهم للرجل الابيض - بصفة عامة - وما تجيش به

(١) أي ما يعرف تاريخياً بمذبحة القلعة.

أنفسهم من تحامل ديني خاص ضد العثمانين الذين يطلقون عليهم - مع المسيحين - اسم (الكلاب).

وعلى أيه حال فقد هُزموا تماماً في كورتي، ثم مرة أخرى في جبل ديكا، وتعرَّضوا - مع نسائهم وأطفالهم - لمعاملة وحشية لا مثيل لها على أيدي الأتراك. استسلم الملك صبير ثم تبعه شاويس بعد أشهر قليلة، بيد أن حب القتال وخصلة عدم السكون المتأصِّلة في الشايقية وتأففهم من أن يبقوا مجرد فلاحين، دفعت بأعداد منهم للخدمة في الجيش التركي تحت قيادة شاويس، إذ رافقوا الأتراك في حملتهم ضد الفونج في الجزيرة، وعندما عاد إسماعيل باشا في عام ١٨٢٢م منح أراضي العبدلاب الذين أشعلوا ثورة في الحلفايا للعدلاناب، ثم استقر آخرون من العدلاناب والسواراب والكدنكاب على ضفتي النهر في السبلوقة.

ظل الشايقية - إبان الحكم التركي - أوفياء لهم، وفي كل حملة ضد المقاومين كانوا هم والمغاربة قِوام للفرق غير النظامية. كما استخدموا في جباية الضرائب، وأكسبتهم أساليبهم القاسية - في هذا المجال - سمعة لا يُحسدون عليها. وظلوا على ولائهم للأتراك حتى في عهد الدراويش، بيد أن خصلة تحقيق المصالح وتشابه الأسلوب بين الفريقين، فضلاً عما إكتسبه الشايقية من ضغائن، أوصدت الأبواب في وجوههم بعد سقوط الخرطوم، والعفو العام الذي منحه المهدي للأهالي أفرد بنوداً خاصة تستثني الشايقية. يقول سلاطين هناك سؤال يُطرح في أم درمان عما هو أرخص وأسوأ السلع؟ والإجابة دائماً هي «المصريون بيض البشرة، والشايقية، والكلب».

أما في الوقت الحاضر، ولما تأصَّل فيهم من ميول عسكرية، تجنَّد الكثيرون في الهجانة والبيادة أو الشرطة، وظلوا محافظين على سمعتهم كمحاربيين جيدين وجيران شرسين. فضلاً عن كثيرين سكنوا المدن وعملوا في التجارة. الشايقية كقبيلة غير متحدين لتكون لهم قوة ومنعة، بيد أنهم يملكون أراضٍ واسعة في دنقلا وبربر والخرطوم، ولا يزال لهم وجود واسع على نطاق السودان، فهم قوم مؤثرون في الخير والشر بفضل شخصيتهم المتعالية.

يتمثَّل فروع الشايقية في الآتين:

(أ) كدنقاب (١)حنكاب (أ) محمداب

(ب) ناصراب
(ج) كوتاب
(د) شريشاب
(هـ) حسناب
(و) شلاليل[1]

ويقطنون بصفة رئيسية في دنقلا وبربر

(٢) صلحاب — مروي وبربر

(٣) عسوماب — الخرطوم

(٤) عدلان[2]

(أ) مروي
(ب) كجبي
(ج) أولاد علي
(د) منوراب

يقطنون بصفة رئيسية بالخرطوم

(٥)حمداب
(٦) طُلبناب
(٧) غرماب
(٨) زماماب
(٩) كرساب
(١٠) مرزوقاب
(١١)شرنكاب
(١٢) غزيراب
(١٣) عيسياب
(١٤) فرجاب[3]
(١٥) فرجلاب أو كراكيرا

بصفة رئيسية في دنقلا

---

(١) هناك مجموعة بنفس الاسم يعيشون وسط الجوامعة مما يبدو إنهم يضمون عدد من العوائل ذات الأصول التي ترجع لقبيلة الشايقية.

(٢) يقول بركهارت إن العدلاناب كانوا أقوى فروع الشايقية في ١٨١٣ (أنظر كتابة النوبة ص ٩٦) وقيل إن أصلهم كنوز كما يل إن لهم قرابة من ناحية الأم مع الفونج.

(٣) قيل أنهم أبناء كدنقة من جارية له.

	(١٦) رغيماب	بصفة رئيسة في دنقلا والخرطوم
	(١٧) كوداب	بصفة رئيسة في الخرطوم
(ب) أم سالم	(١) يعقوباب[١]	
	(٢) بادياب	رئيسية في دنقلا
	(٣) كلاشيم	
	(٤) جاداب	
(ج) نافعاب	(١) غاسناب	بصفة رئيسية في دنقلا
	(٢)ضفيلاب	
د) شلوفاب	(١) محمداب	بصفة رئيسية في دنقلا
	(٢) علياب	
	(٣) بادياب	
(هـ) حوشاب	(١) مقنعاب	بصفة رئيسية في دنقلا
	(٢) عقرياب	
(و) عونية[٢]	(١) حسناب	بصفة رئيسية في بربر
	(٢) ضواناب	
(ز) سواراب	(١) كافنكة	بصفة رئيسية في بربر وبيوضة
	(٢)ظليطاب	
	(٣) زراقنة	
	(٤) مشنديل	في بربر وبيوضة
	(٥) حمدلاب	في دنقلا وبربر والخرطوم
	(٦) تماليك	في دنقلا وبربر
	(٧) عايداب[٣]	
	(٧) عنيناب - في بربر والخرطوم	

(١) عائلة مشهورة لفقيه شهير يدعى بنو فضل والمناصرة في كردفان بأن أصل اليعقوباب يرجع لبني فضل.

(٢) بعضهم بدو بينما ذهب قسم منهم ليكونوا جزءاً من الهواوير في دنقلا.

(٣) الراجح أن بعض العايداب تصاهروا مع فرع العوايدة من الكبابيش وما الاسمين إلا اختلاف في تركيب الاسم وكلاهما يعني التحذر من عايد. كما يظهر العايداب كبطن للبديرية في دنقلا أيضاً.

(ح) مارساب — (١) عليطاب — - في ودنقلا وبربر

(ط) قريشاب — (١) عايديد، (٢) صالحاب، (٣) أبوناب؟ — في دنقلا وبربر

(ي) عماراب
(ك) بيوضاب — في دنقلا وبربر

تُعد فروع السواراب والكدنقاب الأكثر عدداً وقوة في الوقت الحاضر وكان السواراب - لزمن طويل - على عداء مُحكم مع العونية.

(ج) الجوامعة والجمع والجموعية والجميعاب والجامعاب:

هناك ما لا يقل عن خمس مجموعات تابعة ممن يدَّعون الإنتماء للجعليين يتأتَّى اسمهم من الأصل (جَمَع)، وهم على - سبيل الحصر - الجوامعة (مفردها جامعي) والجمع والجموعية والجميعاب والجامعاب. يبقn واقع الأمر معبراً عن تباين خواصهم العرقية، معضِّداً للتفسير الذي أُسبغ على قصة إبراهيم جعل.

الجموعية والجميعاب والجامعاب:

- العلاقة بين هذه المجموعات الثلاث تتمثَّل في الرواية التي تقول بأنهم يتحدَّرون من ثلاثة اخوة. يفترض المرء - من النسبة - أن الأجداد الذين تسموا بأسمائهم عاشوا منذ حوالي خمسة عشر إلى سبعة عشر جيل، وربما إنفصلوا عن القبيلة الأم - أي الجعليين - بعد جيلين أو ثلاثة. والمنطقة التي استوطَنوها من حينه هي نفس أماكن إقامتهم الحالية، أي الضفة الغربية للنيل الأبيض، على بعد ثلاثين إلى أربعين ميلاً جنوب أم درمان، ثم شمالاً حتى قوز نفيسة بالقرب من شلال السبلوقة، فضلاً عن بقاع بعينها جنوبي قرِّي على ضفة النيل الشرقية. وبالنسبة لهذه القبائل الثلاث، ظل الجموعية - دائماً وأبداً - هم الأقوي، وبالتالي ليس غريباً أن يرمز

اسمهم - أحياناً - لبقية الجميعاب والجامعاب أيضاً. أما الجميعاب فهم مجموعة صغيرة تقطن شمال أم درمان وينقسمون إلى:

ضوَّاب

دشيناب

حكماب

أولى هذه المجموعات تتحلَّي بسمعة دينية طيبة بحيث خرَّجوا عدداً من الفقهاء وشيَّدوا عدداً من المساجد الصغيرة. أما الدشيناب فمجموعة من البدو. الجميعاب من شبه البدو أيضاً وبطونهم - على التوالي - هم:

شهيناب (ويشملون النعيماب الخ)

جوداب

شبراب

وإلى هؤلاءالنعيماب ينتمي الزبير باشا رحمة تاجر الرقيق المشهور ومحتل بحر الغزال ودارفور.

في عهد الفونج كان الجموعية والجميعاب والجامعاب وكذلك الزنارخة[1] - وهم جنس مختلف تماماً - تحت نحاس مك الجموعية الذي كان مسئول الخراج لمناجل العبدلاب في الحلفايا.

ينفصل فرع السروارب - جزئياً - عن بقية الجموعية إذ نالوا شيئاً من التميز من ملك الفونج خلصهم من سيطرة مك الجموعية الذين. تقع عاصمتهم بالقرب من جبل «الحنيك» جنوب أم درمان. ينقسم الجموعية إلى:

نايلاب

حريزاب

ناصراب

(١) أصلهم بكرية وجدهم يعقوب المجلي ومدفون بصعيد مصر.

فتيحاب ← أ) تكارير
ب) أولاد إدريس ← ١) جمراب ٢) بتياب
ج) حناتره
د) عجيلاب
هـ) سياييغ
و) أم عريقيب

مقداب	نفيعاب
أولاد حامد(١)	سعداب(٢)
نوفلاب	متابير
شايقاب	غُماراب
صنديداب(٣)	حميدانية
منصوراب	كراجيج
خشوماب	أزيرقاب
راشداب	عرفواب
مُقواب	دانياب
حاجاب	محمداب

عيساوية(٤) بجة(٥)

(١) سكان الجزيرة اسلانج.
(٢) هناك بدنة من الجعليين بذات الاسمين.
(٣) يظهر هؤلاء في النسبة كجعليين ملتحقين بالجموعية لكنهم لا ينسبون أنفسهم إليهم وينطبق نفس القول على المنصوراب.
(٤) إلتحق بعض هؤلاء بالكبابيش وصاروا جزءاً من القبيلة.
(٥) يقر هؤلاء بأنهم ليسو جموعية أصليون بل مهاجرون من الصحراء الشرقية ويشكلون مجتمعاً صغيراً جنوب أم درمان.

من حيث المظهر فالجموعية أغمق بشرة وأكثر زنوجة من مُعدَّل العرب السودانيين، وهم أنفسهم يقرون بذلك ويرجعون الأمر للأعداد الكبيرة من العبيد الذين استرقوهم قبل المهدية، وما نجم عن ذلك من تمازج. وواقعة إن للجموعية الكثير من الرقيق - كما يقولون - فهو أمر حقيقي لا شك فيه، وتعود الكثير من روايات السلب والنهب التي اشتهرت بها القبيلة، لعوائل هؤلاء العبيد، بيد أنهم جميعاً يتماثلون في سواد البشرة وسمات الزنوجة، والراجح إن الأمر يعود - في أغلبه - للتزاوُج القديم بين مجموعات النوبة من السكان الأصليين، والمهاجرين من العرب.

الجوامعة:

- يتطابق تاريخ الجوامعة - كعرب - حتى الآن مع ما ورد عن البديرية، بيد إنهم أقل تجانساً من البديرية. والحقيقة التي يتعيَّن أن تؤخذ بمجامعها، هي إنهم أغمق لوناً وأقل عروبة، بوجه يُوحي بأن بذرة الأصل العربي في القبيلة قليلة مما جعلها أكثر تلاشياً في الدم الزنجي. ليس للجوامعة وجود في دنقلا، لكن بما أن مك المحس - وقت رحلة بركهارت - كان من عائلة جامع (جمعها جوامعة) وبما أن الفرع الرئيس للجوامعة يُعرفون تحديداً بأولاد جامع، يجوز أن يكون للجوامعة صلة قرابة بالمحس[1].

يبدو إن الأصل الزنجي في الجوامعة غالبه دارفوري المنبت. وقد رأينا مبكِّراً في هذا الفصل ما يدل على إن أحد الجوامعة قام في بواكير القرن السابع عشر - بتأسيس الأسرة الحاكمة في ودَّاي. ثم تعرَّضنا لمستوطَنة الجوامعة في طرة بجبل مرة التي أُنشئت في تاريخ معاصر للقرن المشار إليه. ليست هناك معلومات عن أعداد الجوامعة في دارفور للفترة من القرن السابع عشر حتى التاسع عشر، لكن

(١) يذكر أبن خلدون فرعاً صغيراً لبني هلال يسمون أولاد جامع الذي كان لوقت ما أمير قابس في شمال أفريقيا لكن لا يوجد ما يثبت ارتباطهم بالجوامعة سوى الاسم (ابن خلدون المجلد السادس ص ١٦٦).

إبان الاحتلال التركي في ١٨٧٤م كانوا إحدى القبائل الرئيسة فيما بين الفاشر وحدود كردفان. أما في الوقت الحاضر، فبالرغم من إن القليلين منهم فقط هم الذين بقوا في تلك البقاع، فإن من يمثل الجوامعة هم «الداروك» القبيلة المزعوم إنتمائها للأصل الجعلي والتي تقطن حول «كبكابية» في الغرب، والتي انتقلت أخيراً نحو «شاواي» بالسفوح الشرقية لجبل مرة، إضافة لأولاد مانا.

ذهب «كني» بعيداً لحد القول بأن الجوامعة يتحدَّرون من المسبعات. ورغم غلو هذا النظر، فإن المقارنة بين ما ذكره «بروت» وما أورده التونسي - على التوالي - تثبت الأرتباط بين دارفور والجوامعة. يقول «بروت» (قبيلة الجوامعة - كواحدة من الأصول القديمة - لا زال لديها ما تتفرَّد به من ممارسات، مثل عدم أحقية الفتاة في الزواج قبل أن تهدي خالها إبناً وهي التي تختار والد هذا الطفل ومتى وأين أرادت ذلك، وكحقيقة فإن بروت لم يكن دقيقاً: إذ إن الطفل الذي يُعطى للخال وعبارة «عانت خالها» تُستخدم أحياناً كتعبير ملطَّف للأمر. يقول التونسي[1]: «ومن عاداتهم إن البنت إذا طعن ثديها يفردون لها محل تبيت فيه ويأتيها من يحبها فيه وتبيت معه. ومن ذلك يقع الحبل بأكثر بناتهم ولا عار عليهم في ذلك. وولد الزنا عندهم يُنسب لخاله وكذلك البنات. فالبنت التي تكون من هذا القبيل يُزوجها خالها ويأكل من صداقها مالاً».

يمكن الاستدلال على إرتباط الجوامعة بدارفور - كواقع - من إن الكثيرين في كردفان ودارفور على السواء يعتقدون بأن للجوامعة قدرة التحوُّل لوحوش مفترسة. وهي ذات الصفة التي ينسبها الأهالي لقبائل الفور. وقد سبق التنويه - فيما مضى من فصول - بأن للجوامعة المتوطِّنين بدارفور قدرة التحوَّل لضباع، السمة التي

---

(١) أنظر تشحيذ الأذهان المرجع السابق ص ٢١٩ ويتحدث التونسي عن الفور ظاهرياً لكنه - كقاعدة - لا يميز بدقة بين الفور وغيرهم من السكان وبالتالي يجوز أن يكون المعنيين هم الجوامعة الذين يقطنون دارفور. وعلى أية حال الأرجح وجود هذه العادة لدى الفور والجوامعة ولها أصل لديهما، يتحدث كني عن هذه العادة بعبارات مختلفة ويقول بأنها سائدة لدى أغلب شعوب كردفان وإن استخدام عبارة «عانت خالها» طُبقت محرفة في ص ١٥٩ وهو مثل بروت ينسبها للجوامعة، بيد أنها تطبق بدرجة أقل لدى دار حامد (أنظر الصفحات ١٥٨، ١٥٩، ١٧٣، ١٧٤).

يسبغها الأهالي على قبائل الفور. وقد ذكرنا في فصول سابقة بأن الجوامعة الذين لهم قدرة التحوُّل لضباع يُعرفون بأولاد مانا. كذلك فإن المسحة الدارفورية ينبغي أن تكون قد قويت في القرن الثامن عشر وبواكير التاسع عشر إبان تعاقب المسبعات والكنجارة لشمال وأواسط كردفان.

كان الجوامعة خلال سنوات إقامتهم الأولى بكردفان تحت إدارة الغديات، لكن بإزدياد أعدادهم بسبب استيعابهم المتزايد لأشتات من المجموعات تحت إدارتهم، أصبحوا مستقلين تماماً. وهكذا تركوا المناطق الواقعة إلى الجنوب والغرب للغديات والبديرية، ومدوا أراضيهم الزراعية ومراعيهم شمالاً حتى ديار قبائل دار حامد الرعوية التي سمحت لهم بذلك، ثم توغَّلوا غرباً بأعداد صغيرة حتى دارفور، فضلاً عن فرع الجعفرية الذين اتخذوا من السعاتة - بالمنطقة الوسطى المعروفة بدار حمر - مستقراً لهم ويرجح أن يكون ذلك في تاريخ لاحق. ذاق الجوامعة الأمرَّين إبان فترة المهدية. وبحسب ما أورده سلاطين فإن ما بقي من عددهم الكلي في كردفان لا يكاد يبلغ السدس، بيد أنهم سرعان ما استعادوا توحُّدهم وتمكَّنوا من استثمار غابات الصمغ الممتَّدة حول الطيارة مما أنعش أحوالهم الإقتصادية بحيث أصبحوا هم والحَمّر - في وقتنا الحاضر - كأكبر القبائل الرعوية في كردفان. تُوجد مستوطَنات صغيرة للجوامعة في الجزيرة وأخرى هنا وهناك على طول النيل الأبيض جنوباً حتى فاما. وتتمثَّل بطونهم في كردفان في الآتين:

(١) حُمران

أولاد جامع:

١- أشقر

٢- عوج

٣-خيت

٤- مُلكاب

٥- كرامشة

٦ -مسيخ
٧ - دُشاش
٨ - أولاد شريقل
٩ - أولاد أبو سليمان
١٠ - أولاد أبو زيدان
١١ - خاطراب
١٢ - معيناب
١٣ - أولاد نيليت
١٤ - نقرمين
١٥- ترقاب
١٦ - مشايخة[١]
٧١- فرارين
١٨ - شبرواين
١٩ - بلوح
٢٠ -كاركو
٢١ -هجو
٢٢- تُك

(ب) الطريفية:

(١) حرانية
(أ) أولاد شيخ
(ب) كتاتيل
(ج) سليمية
(د) تيمو

(١) الأرجح أنهم فرع من قبيلة تحمل نفس الاسم أنظر المخطوطة (د -٣).

(هـ) أولاد زيد

(و) فراجية

(ز) أولاد أبو مخيرة

(٢) زرازير (أولاد زرزور)[١]

(٣) أولاد عمير

(٤) أولاد عبد الأحد

(٥) أم جرتة

(٦) نُعمانين

(٧) أولاد عابد

(٨) أولاد علي

(٩) شلالين

(١٠) عدوسة
(أ) أم بارك حريحير
(ب) أم بارك حمدوين

(١١) حيادبة
(أ) أولاد علوان
(ب) شدوانية
(ج) أم طليق
(د) حيدوبي

(١٢) أولاد ماجا

(١٣) أولاد سهيل

(١٤) هليجة

(١٥) عراده

(١٦) كديل

(١٧) أم دوده

---

(١) أولاد أقوي وأصلهم دار حامد.

(١٨) أم وديد
(١٩) أولاد سرير
(٢٠) عليقة
(٢١) مرازيق (أو أولاد مرزوق)
(٢٢) عثمانيين
(٢٣) رحاحيل
(٢٤) أولاد قاسم
(٢٥) أولاد مقيل
(٢٦) أولاد عروق
(٢٧) أولاد عفونة
(٢٨) أولاد شرفية
(٢٩) أولاد شيرك
(٣٠) أولاد توتو
(٣١) أولاد جميع
(٣٢) نمراية
(٣٣) أولاد نور
(٣٤) أم آدم
(٣٥) أولاد أبوجن

(ج) السريحات
(١) دقاشمة
(٢) أولاد موسى
(٣) أولاد أبو جنديه
(٤) أولاد أبوسُند
(٥) أولاد أبو غلمان

(٦) قرعان
(٧) أولاد جميعة
(٨) أولاد جماعة
(٩) بلولين
(١٠) هبيسية
(١١) أولاد فرج
(١٢) أولاد بقارى
(١٣) أولاد الحُر
(١٤) أولاد الشيخ
(١٥) قلاليم
(١٦) أولاد لجام
(١٧) حمدانيه
(١٨) أولاد عوالى
(١٩) شبلاويين
(٢٠) بساط
(٢١) أولاد أم قوت
(٢٢) مراقيب
(٢٣) كدبسى
(٢٤) بعاشيم
(٢٥) ناس الأحمر
(٢٦) جدادين
(٢٧) جبرنين
(٢٨) رمضانى
(٢٩) أولاد هبيلا
(٣٠) أم إسماعيل

(٣١) أولاد عجوب

(٣٢) أولاد رفاعه

(٣٣) أم كِلمان

(٣٤)أولاد أبو سن

(٣٥) أولاد سرور

(٣٦) أولاد علوان[١]

(٣٧) أولاد أبو هوة

(٣٨) عريفي

(٣٩) أم تِدِم

(د) أولاد مُرج[٢]

(١) أم كليب

(٢) أم بركات

(٣) أم ذياب

(٤) أم فارس

(٥) نقارة

هـ) الجمرية

---

(١) يُوجد نفس الاسم وسط الطريفية.

(٢) كان أولاد مُرج والجمرية - في وقت ما - تابعين للسريحات أو أولاد جامع، ويعيشون شمال بارا على حدود دار حامد. الجدير بالذكر إن أربعة من البطون الخمسة تسمُّوا على حيوانات، مثلاً كليب، أي الجرو وضياب، أي الذئاب وفارس، أي الفرس ويرجع هذا - بلا شك - لاصل طوطمي وهو أمر شائع في السودان مثل البعاشيم وسط السريحات، ونجد عند النوبة في شمال كردفان بعض البطون تسمي بأسماء المواشي والفئران والأغنام والأشجار والخيول وهذا الأمر ينطبق على بعض فروع الفور ايضاً.

(١) أولاد ملك
(٢) بدي
(٣) أولاد أبو تمام
(٤) أبيعة
(٥) أولاد حسن
(٦) عدلان
(٧) عبد الجبار
(٨) أبو حليمة
(٩) أولاد سوق
(١٠) أولاد مؤمن
(١١) قرافيت

(و) الغنيمية(١)
(١) أولاد صالح
(٢) أولاد عيسي
(٣) أم شِقل
(٤)مرامرة
(٥)ماجدية
(٦) أولاد حميد

(ز) الفضيلية
(١) بعيجاب
(٢) أولاد توري

---

(١) خضع هؤلاء بالتناوب للفضلية والطريفية ويعود أصل الاسم للأغنام.

(٣) فتحاوي
(٤) عبيدية
(٥) محمود
(٦) تنوي
(٧) بدلاوي
(٨) تبراوي
(٩) براقيت (براغيث؟)
(١٠) مجيلساب
(١١) حليماب
(١٢) إزيرقاب
(١٣) عجاكى (أو عجاجيك)

(٢) الجماعية
(أ) الجعفرية
(١) أولاد عدي
(٢) أولاد أم رحمن
(٣) ناليا
(٤) بطرانية
(٥) حوامدة
(٦) أولاد قادم
(٧) أولاد زويد
(٨) قراراب
(٩) مسيخاب
(١٠)شكيت
(١١) شبيلية

(١٢) نقارية
(١٣) رديساب
(١٤) رزقاب
(١٥) أولاد رهودة
(١٦) أولاد مرعي
(١٧) أولاد هاشم
(١٨) دنكسي
(١٩) حيسنة
(٢٠) قطاقيط
(٢١) مفتاح
(٢٢) بشر
(٢٣) أولاد حاشي
(٢٤) حنتوشي

(ب) الجماملة

(١) أولاد متلوت
(أ) أولاد رحيمة
(ب) أولاد موسي
(ج) أولاد آدم
(د) أولاد محمد
(هـ) أولاد تمساح
(و) صبيح
(ز) أولاد عبد الحميد

(٢) أولاد الفكي الأطرش
(أ) أولاد عبد الله
(ب) أولاد الملوك

(ج)جقيمية
(د) حليوين
(هـ) أولاد شاخي
(و)أذونا

(٣) عُبي
(٤) شعالبي
(٥) أولاد أبوشر
(٦) أولاد بشارة
(٧) أولاد الهوش
(٨) أولاد هبود
(٩) جفون
(١٠) أولاد ركاب
(١١) أولاد عفان
(١٢) دشيناب

(ج) أولاد بيكة

(١) تويمات
(أ) فتاحة
(ب) أبو إشيع
(ج) عطية الله
(د) أولاد منه

(٢) غبيشاب
(٣) عناقرة
(٤) أولاد شين
(٥) عطور
(٦) أم كودي

(٧) أولاد مساخ

(٨) أم شنيب

عبارة جوامعة هي مجرد جمع لـ«جامعي»، والراجح إن من ذُكروا أولاً من بين تلك الفروع هم نواة تلك القبيلة. ويُعتبر شيخها الزعيم الاسمي وحامل نحاسها. وتكرار الأسماء القبلية غير المألوفة لهو دليل قيِّم إذا ما استخدم بحصافة، ومنه سنهتدي لعدَّة مفاتيح للتعرُّف على أصل القبائل التي تحدَّرت منها تلك البطون المنتمية للجوامعة.

من بين الحُمران نلاحظ ورود اسم المشايخة والبلوح، ومن المحتمل أن يكون للبلوح إرتباط بالبلو في الشرق، أما المشايخة فأقرب للمسلمية. وبين الطريفية - وهم ذوو صلة بالبديرية - وُجد أولاد شايق (فهل هم شايقية؟)، ثم ورد الشلالين «وبصيغة شلاليل، وهم فرع من الشايقية» ثم المرازيق «أي جمع للمرزوقاب» وهم أيضاً فرع من الشايقية.

يُوجد بين السريحات القرعان، ثم الشبلاويين «الذين يفترض إرتباطهم مع الشبلة في «النسبة»، ثم البعاشيم والسريحات الذين يشكِّلون وحدة متميِّزة تماماً عن مجموعة الجعليين ولهم قرابات وثقى بالميرفاب والمناصير على النيل. ويُقال إنهم دخلوا كردفان منذ ستة أجيال فقط. ثم نجد بين الغنيمية فرع للمرامرة أي دار حامد، ثم الماجدية. ثم بين الجعفرية يُوجد الجراراب وقد يرجع أصلهم لبني جرار. ثم نجد بين الجماملة، الدشيناب الذين يشكِّلون بطناً من بطون الجميعاب. ثم يُقال إن التويمات أصلهم كواهلة.

أما الجعفرية فهم بلا شك ذوو قربى بالجعافرة في صعيد مصر ودنقلا والذين يظهر اسمهم في «النسبة» باسم جعافرة - وكقاعدة - يُقال إنهم يتحدَّرون من بني طيء. أشار لهم المقريزي[١] وإبن خلدون باسم بني جعفر وبأنهم مع أولاد كنز شمال

(١) ورد في كاترمير الجزء الثاني ص ٢٠٤ بأن موطنهم يبدأ من شمال منفلوط ويمتد شرقاً وغرباً حتى سملوط.

أسوان، وأصلهم قرشي. وهي نفس قبيلة الجعافرة الكبيرة التي أشار لها بركهارت وفي ذات الموقع، وقال عنهم «تحتل قبيلة الجعافرة الكبيرة شطآن النيل من أسنا حتى أسوان، بينما استقرت عوائل قليلة من الأشراف في بطن الحجر، وفضلاً عن فرع من قريش متقمصين اسم المحس. احتل هؤلاء العرب بلاد النوبة ولعدة قرون وكانوا في حروب مستمرة مع بعضهم البعض، نتيجة لذلك حقق ملوك دنقلا قدراً كبيراً من السيطرة عليهم حتى أُجبروهم في النهاية على دفع الضرائب».

ربما إشتملت قبيلة الجعافرة على عناصر من بني هلال أيضاً. وسم الأبل الأكثر شيوعاً لدى الجوامعة الجَّمالة - في كردفان - هو الرويكب «تصغير للراكب»، ويُوسم على الخد الأيمن. ويختلف بإختلاف فروع القبيلة بحسب النماذج (a) و(b) و(c) و(d) و(e) ‖ = ∓ ± ⫲ .

باستثناء السريحات الذين يستخدمون الشبول أي العلامة على الخد الأيمن وهذا دليل آخر لإرتباطهم بالمناصير في النيل.

الجمع:

التاريخ القديم للجمع وإنفصالهم عن أصلهم «الجعلي» في النوبة وتحرُّكهم نحو الجنوب الغربي إلى كردفان، يتطابق مع ما سبق وقيل عن الجوامعة، بيد أنهم لا يحملون السمات الدارفورية التي تميِّز الجوامعة. استوطن الجمع أقصى شرق الجوامعة، وظلوا الأقل إمتزاجاً بالسكان الأصليين لشمالي جبال النوبة. وبحسب حرفتهم اللاحقة إكتسبوا الكثير من عادات وطبائع البقارة في الرقص - مثلاً - وطريقة تصفيف الشعر، كما لم يتحوَّلوا لمستقرين كلية في أسلوب حياتهم.

قدَّر «بروت» عددهم بخمسة وعشرين ألفاً. وفي عام ١٨٨٥م تلقى شيخهم عساكر أبو كلام إمراً من الخليفة باستقدام جميع القبيلة لأم درمان، وعندما تردد في الإنصياع للأمر رماه بيونس الدكيم ليطوِّعه. لم يتوان يونس في تدمير القبيلة ومصادرة معظم مواشيها. أُقتيد بعضهم لأم درمان واستقر آخرون في سنار. بعد إعادة احتلال

السودان عاد من تبقى منهم للضفة الغربية للنيل الأبيض، الآن وبالرغم مما تعًّرضوا له من متاعب، نجحوا في أن يستردوا عدديتهم كما كانوا قبل المهدية.

هناك بعض الأبَّالة من فرع العبيساب ألحقوا أنفسهم بالكواهلة، أما البقية الباقية أصبحوا من رعاة الماشية والأغنام. وينقسمون للفروع الآتية:

(أ) مناتح
- (١) بول محمد
- (٢) بول نصر
- (٣) ولد حمد
- (٤) ولد حسن

(ب) عشيش
- (١) عبيساب
  - (أ) عمومين
  - (ب) أم فزاري
  - (ج) بريشاب
  - (د) سيلاب
  - (هـ) كمبلاب
  - (و) جودة
  - (ز) أم جيا (جير؟)
  - (ح) كنانة
- (٢) جهاكة
  - (أ) مشامير
  - (ب) عيال عُقلة
  - (ج) عيال كوكو
  - (د) دراناب
  - (هـ) كنابيت
  - (و) عيال سارين
  - (ز)عيال ادم

(ح) سياغ

(ط) ام دانود

(ي) عيال محمد

(٣) مساداب

(٤) دار أواب

(٥) رواشدة

(٦) حُلُف

(٧) تِنة

بول محمد وبول نصر هم الأقوى والأكثر عدداً من بين تلك البطون، ويُقال إن عدد الأوائل يكاد يكون ضعف الآخرين. أما العشيش فقليلو العدد لكنهم الأكثر إمتزاجاً بالغير.

الماجدية والكرتان:

تكاد الماجدية أن تكون قبيلة منقرضة، ونفس الشيء - كما علمت - ينطبق على الكُرتان. ويُقال إن الماجدية كانوا يحتلُّون الجبال الواقعة على تخوم كجمر في كردفان حتى خواتيم القرن السابع عشر، ثم أجلاهم من هناك مهاجرو الزغاوة ودفعوهم شرقاً، ويبدو إن هناك بقايا منهم وسط نوبة جبل «أبو تبر» فيما بين كجمر والنيل. وقد ورد ذكرهم في ١٨٢١م بمذكرات «كليوود» في الضفة الغربية للنيل الأبيض جنوب الخرطوم. ومن المخطوطة (د - ٣)، يتضح إن لهم مستوطَّنة واحدة صغيرة - على الأقل - في النيل الأزرق أيضاً. أما البقية الباقية من الماجدية فلم يعد لهم - فيما يبدو - وجود إلا كفرع للجوامعة الغنيمية فقط.

الجعليون الأصليون:

سيقتصر حديثنا الآن على من يُطلق عليهم - حالياً - اسم جعليين دون غيرهم. وتقع ديارهم - على النيل - فيما بين فوهة عطبرة وشلال السبلوقة. وباستقراء

«النسبة» يتضح بجلاء أن أسلافهم هم الأصغر سناً ضمن مجموعة عموم الجعليين وذلك لأن أجدادهم الذين تسموا بهم عاشوا خلال الجيل الثاني عشر أو أدنى من ذلك، أي بما يقدر بحوالي أربعمائة عام حتى يومنا هذا[١]. يعيدنا هذا التقدير لزمن السمرقندي تقريباً، ذلك الباحث الملُم بتاريخ الأنساب، أي حتى تاريخ التحرُك الكبير «للعرب - فونج» الذي نجم عنه تأسيس مملكة سنار. ويبدو إن بعض الزعماء ممن يسمون أنفسهم بالعرب الخُلّص، إنفصلوا في حوالي القرن السادس عشر من أصولهم وتزاوجوا مع النوبيين، واستقروا مع عوائلهم على النيل شمال السبلوقة وأسسوا سلطة وسيادة - كما فعلت ربيعة وجهينة في الشمال الشرقي من قرون مضت - وهؤلاء الزعماء هم عرمان وأبو خمسين[٢] أبناء ضَّواب بن غانم[٣]، ويصنِّفهم السمرقندي في قوائم الأنساب ضمن من يتحدَّرون من بني العباس، ولا يقتصر الأمر على ذراريهم فحسب - وهم كُثر - بل يشمل ذلك كل من إنتسب إليهم من أتباع في أزمان لاحقة وصاروا يدعون نفس الأصل. ظل الجعليون - حتى خواتيم القرن السادس عشر - تحت زعامة سعد بن دبوس جد فرع السعداب الذي يظهر في النسبة كحفيد أو ابن لحفيد عدلان بن عرمان. ومن هذه الفترة يبدأ التاريخ الحقيقي للجعليين.

حقق «كيلوود» قائمة لأمراء شندي إبتداءً من سعد دبوس وإنتهاءاً بالملك نمر الذي إغتال إسماعيل باشا في عام ١٨٢٢م. لكن إذا جاز الإعتماد على «النسبة» متجاوزين الكثير من عدم دقة تفاصيلها تبقى القائمة مشوبة بالكثير من الأخطاء منذ بدايتها بحيث تنعدم جدواها إبتداءً.

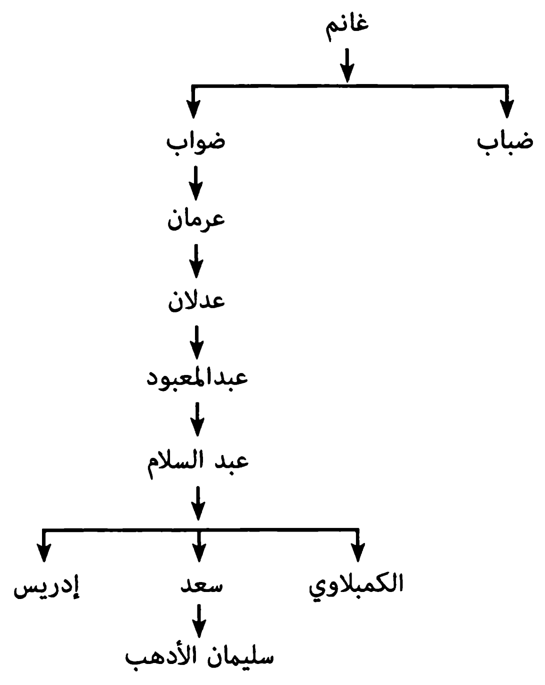
---

(١) تشير المخطوطات إلى سرار كجد عام للقبيلة وعاش من ثمانية عشر إلى تسعة عشر جيل مضت ويفصل بينه وعرمان خمسة أجيال. أبناء عرمان وأحفاده هم الأجداد الذين تسمت بهم أغلب قبائل الجعليين التي تتلوهـ لأثني عشر جيلاً أو أقل.

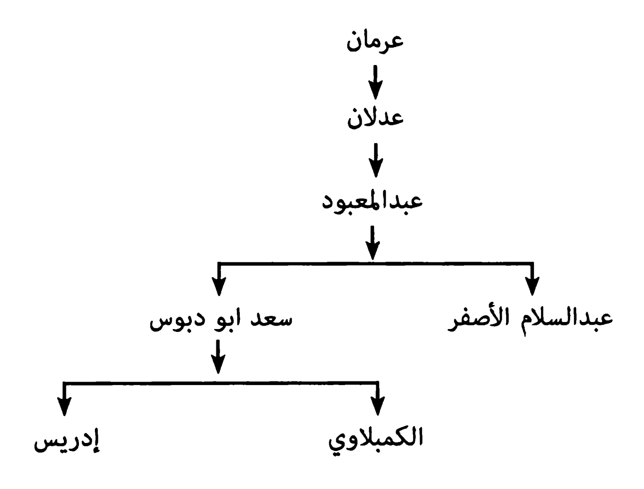
(٢) وربما كانوا ابناءهم أو أحفادهم الذين عاصروا السمرقندي.

(٣) تشير المخطوطات بأن لضواب أخ يُدعي ضياب. يظهر اسم ضياب ابن غانم في دائرة أبو زيد في المصطلحات بأنه أحد أعلام بني هلال (أنظر برتون في أرض مدين المجلد الثاني ص ٢٣٣ أنظر كذلك ابن خلدون الجزء السادس ص ١٦ بيد إن هذا لا يمنع من أن يكون الأمر مجرد مصادفة.

فعلى سبيل المثال تبيّن القائمة (أ - ١١) تلك العلائق على النحو الآتي:



ثم تأتي القائمة (أ - ب - ج) الشجرة (٢) كالآتي:



أما قائمة «كيلوود» تقرأ كالآتي:

سعد دبوس	٢٠ سنة
سليمان العدار	٧ سنوات
إدريس بن سليمان	٣٥ سنوات
عبد السلام	١٠ سنوات
الملك الفحل بن عبد السلام	١٥ سنة
إدريس الثاني ابن عبد السلام، أخ الملك	٦ سنوات
ضيَّاب (أخوه)	١٢ سنة
كمبلاوي بن عبد السلام	٣ سنوات
بشارة بن عبد السلام	٧ سنوات
سليمان بن سالم	١٥ سنة
سعد أخ سليمان	سنتين
إدريس الثالث بن الفحل	٢٠ سنة - قتله الفونج
الملك سعد الثالث ابن إدريس	٤٠ سنة
مساعد ابن الملك سعد	١٣ سنة
الملك محمد	١٣ سنة
نمر بن محمد	١٧ سنة
جملة سنوات حكم الأسرة	٢٣٥ سنة.

والواضح إنه منذ نهاية القرن السادس عشر حتى نهاية العقد الثاني للقرن التاسع عشر على أقل تقدير، ظل السعداب هم الفرع الحاكم - اسمياً على الأقل - وبيدهم الشياخة التي إنتزعها منهم أولاد نمر فيما بعد. ويبدو إن محمد ود نمر بدعم من سنار تمرَّد على أصحاب الشياخة الشرعيين مُمثلين في مساعد بن سعد لكنه تعرَّض للخيانة. إلا أن ابنه نمر وُفق في إنتزاع الشياخة عام ١٨٠١م، ووطَّد سلطانه في شندي وأنزل مساعد لرتبة أدنى كشيخ للمتمة فقط. كل من نمر، وبقية السعداب ممن أُزيحوا عن السلطة، يؤسسون إدعاءاتهم بأحقيتها على قرابتهم

بالعبدلاب وذلك لأن أم نمر عبدلابيه - من جهة - مما جعل بركهارت يُصنِّف قبيلته ضمن العبدلاب، ومن الجهة الأخرى فقد علمنا من «بروس» بأن شندي في أيامه - أي قبل ثورة محمد ود نمر - كانت تحت حكم إمراة شقيقة لود عجيب «المانجل العبدلابي» ووالدة إدريس ود الفحل الذي كان في العام ١٧٧٢م الوريث الشرعي للشياخة.

عموماً كان السعداب في مراحلهم المبِّكرة تحت السيادة المطلقة للعبدلاب، وربما كان حكمهم اسمياً أكثر من كونه سلطة فعلية بحسب ما ورد في ملحوظات بركهارت - عام ١٨١٤م - بشأن بعض القرى فيما بين الدامر وشندي، حيث قال «يسكن تلك القرى عرب المكابراب الذين كانوا أتباعاً لزعماء شندي، لكنهم حققوا حريتهم منذ أمد بعيد، ويعيشون الآن على ما تجود به حقولهم، ثم على السرقة، لذلك ظلوا في حالة حرب مع جميع جيرانهم. واشتهروا بالجسارة المتناهية مما جعلهم مهابي الجانب»[١].

يبدو إن النافعاب والنفيعاب والكراكسة خططوا لإنتزاع الزعامة من أولاد نمر، إلا إنهم توصَّلوا أخيراً لاتفاق تحصَّل بموجبه أولاد نمر والنافعاب على الضفة الشرقية للنيل، بينما حاز الباقون الضفة الغربية وتسمَّوا بالسعداب.

كان الجعليون - أيام بركهات - بدواً أكثر من كونهم حضر، بالرغم من إنهم كانوا يزرعون ضفاف النهر كقبيلة مستقرة. صحيح إن لهم حقول على ضفاف النهر، إلا إن بعضهم لا زالوا يترَّحلون حتى عطبرة والبطانة.

يقول هذا الرحالة «إن بدو الجعليين الحقيقيين الذين يأتون من الصحراء الشرقية ذوو بشرة صافية أكثر من نظرائهم الذين على ضفاف النيل، وقد دهشت جداً لملامح الكثير من هؤلاء الجعليين الذين يحملون تقاطيع وتعابير وملامح البدوين في شرق الجزيرة العربية».

---

(١) هنا تلميح بأنهم ربما كانوا مغربيي استرابو.

الجعليون مُنتشرون الآن بشدة كتجّار صغار وعُمّار وموظفين، رغم إن أصل القبيلة لا زالوا يمتهنون الزراعة والرعي فيما بين السبلوقة وعطبرة[1].

تكبّد الجعليون خسائر جسيمة في عهد الدراويش حيث سقط الآلاف خصوصاً في توشكي وطوكر، وقد أفنت جلّ قراهم مجاعة عام ١٨٨٩م الفاتكة. وما تبقى لهم من نفوذ - ككيان قبلي - انتهى في عام ١٨٩٧م عند إقتراب القوات البريطانية إذ أشعلوا تمرداً ضد الدراويش، وعندما علم محمود ود أحمد بنواياهم هاجم ديارهم وحاصر المتمة وذبح ما ينيف على الألفين منهم.

ولما كان الجعليون قد لزموا ديارهم الخاصة كمزارعين ورعاة ولم يلجأوا للتجارة التي تقتضي التجوُّل على مختلف المدن، نجحوا في المحافظة على ذات نمَط التنظيم القبلي مثل جيرانهم البطاحين والشكرية وغيرهم.

بقيت فروع الجعليين (مثل النفيعاب والعالياب الخ) الذين يرعون مواشيهم ويزرعون المجاري المائية الجافة في جزيرة مروى القديمة، بمنأى واستقلال عن بعضهم البعض دون رئيس موحَّد للشيوخ. أما الأُسر التي تعيش على الزراعة بضفتي النهر فيحيون حياة القرويين العاديين، وفيهم من يتجهون شرقاً باعتبارهم حائزين لأراضٍ هناك حيث لهم أملاك في عهدة شبه الرُحُّل من أقاربهم.

بالإضافة إلى الجعليين ومجتمعات سكان المدن، هناك العديد من مستوطَنات الجعليين المنعزلة ممن استقروا - على فترات - بالنيلين الأزرق والأبيض جنوباً حتى القضارف والكوة وغيرها، مع قليلين في مُختلف المديريات وجميع هؤلاء من الحضر قليلي الأهمية.

في الختام يحق للمرء أن يقول بأن اسم «جعليين» يُستخدم لغرضين، أولها

---

(١) شيخ إبراهيم محمد فرح من فرع النفيعاب الأثرياء ويسمي نفسه شيخ الجعليين وهو مقبول نظرياً لدى أعداد من القبيلة بعينها، لكن إدعاؤه مؤسس فقط على تاريخ مجهول يرجع إلى ما بعد المهدية.

وأشملها في المعنى، يُطلق تعريفاً بتلك العُصبة المنفرطة من القبائل التي على النهر والمناطق الباطنة كالدناقلة وغيرهم ممن يدَّعون التحدُّر من الأصل العباسي. ثم في المقام الثاني تقتصر هذه التسمية على سكان النهر الذين يتحدَّرون من ضَّواب ابن غانم ممن تقع ديارهم الأصلية فيما بين فوهة عطبرة وشلال السبلوقة، والتي استوطَّنوها منذ بداية القرن السادس عشر إن لم يكن قبل ذلك.

حالياً يمكن أن يُعتبر الجعليون وحدة يتألف أصلها - بصفة رئيسة - من سلالة البرابرة أو النوبيين بنسب متفاوتة في كافة عناصره. هناك أيضاً إشراب قوي بالدم العربي في الجعليين الأصليين على وجه الخصوص، بيد أن الخطأ الذي يقع فيه النسَّابة المحليون عن قصد يتمثَّل في إسقاط العنصر النوبي بحيث يجعلون من العنصر العام لبذرة الجعليين مقتصراً على قبيلة قريش. لكن تبقى الحقائق كما هي بحيث يستحيل تخصيص قبيلة بعينها من قبائل الجزيرة العربية لتُنسب لها تلك الدماء العربية التي تدخل في تكوين مجموعات الجعليين بصفة قاطعة.

صحيح إن أعداداً من قريش دخلوا السودان عبر أزمان مختلفة، بيد أنها لم تكن إلا قبيلة واحدة وسط هذا الكم الهائل من القبائل. وبالتالي فإن إدعاء الجعليين بالإنتماء لفرع بعينه من قريش - أي العباسيين - أمر يصعب تبريره. وهم أنفسهم على شيء من الشك حيال وقائع هذا الأمر الذي درجوا على ألا يخالجهم أدنى تردد في التجرؤ بالمجاهرة به كعنوان للسمو.

الفصل الثاني

مجموعة جهينة

ثاني المجموعات الكبيرة في السودان هي تلك المجموعة التي تُعرف باسم جهينة. وكما هو الحال بالنسبة للجعليين فإن لعبارة جهينة مدلول واسع وآخر ضيق. المفهوم الضيق للاسم ينسحب على فصائل معيَّنة من البدو يسكن معظمهم سنار جنوب الجزيرة، أما المدلول الواسع للاسم فينسحب على تلك المجموعة العريضة من رفاعة[1] والكبابيش ودار حامد وغيرهم من رعاة الإبل من البدو في كردفان، ثم على معشر قبائل البقارة في كردفان ودارفور وما جاورها من الأقطار الغربية، ويُقال بأنهم جميعاً يتحدَّرون من عبد الله الجهني.

إن الموازاة بين استخدام عبارة «جعلي» و«جهيني» ليس دقيقاً بأي حال، حيث إن أي من الأهالي يسعد بالإنتماء للنبي وذلك بأن يتسمَّى بالـ«جعلي» في حين لا تُوجد حمية مماثلة لعبد الله الجهني.

فعلى سبيل المثال، إذا سُئل البديري عن قبيلته يجيب أحياناً بأنه جعلي، لكن الرفاعي أو الكباشي أو البقاري لا ينصرف ذهنه ليقول بأنه جهيني إلا إذا سُؤل مجدداً بالقول «لنفترض إنك رفاعي - أو كباشي أو بقاري فإلى أي أشجار النسب الرئيسة تنتمي قبيلتك؟، هنا فقط يجيب بأنه ينتمي لجهينة. إن هناك ميل للرياء نشأ لدى بعض القبائل أيضاً كرفاعة مثلاً، حيث يؤكدون بأنهم ذرية أحد أبناء الإمام علي[2]، ويذكرون بأن صلتهم بجهينة محصورة في جانب الأم. ثم من ناحية أخرى، بما أنه

---

(١) يطلق على رفاعة أحياناً - «جهينة الشرق» للتمييز بينهم وبدو شرق النيل.

(٢) هناك مثال آخر وهم الفادنية.

من غير المجدي المحاولة أو القطع بشأن التساؤل المطروح عما هي القبيلة العربية ذات القرابة الوثقى بالجعليين، فإن الدلائل - بالنسبة لمجموعات جهينة - كافية دائماً لإيجاد إفتراضات قوية حتى ولو لم تبلغ درجة اليقين. ويكمن السبب في إن جهينة تمثِّل المهاجرين من العرب الرحل الذين حافظوا على نظامهم القبلي كاملاً غير منقوص من جيل لجيل، على عكس الجعليين الذين تشرَّبوا بالعناصر الأقدم والأكثر استقراراً ولذلك فهم أكثر السكان تبايناً في الخواص.

لكن هناك حقيقة غريبة تطرح نفسها، فعبد الله الجهني المعروف تاريخياً لا ينتمي لقبيلة جهينة البتة. وهكذا يجوز للمرء أن يخاطر بالقول بأن القبائل التي تدعي التحدُّر منه يُحتمل ألا يكونوا جهينة. وعلى أية حال فإن المحصِّلة قد تكون مضللة، لأن الأدعاء بالإنتماء لجهينة سابق للأدعاء بالتحدُّر من ذرية عبد الله الجهني وهو أمر مدعوم بأسس أوثق في حين إن الإنزلاق نحو عبد الله الجهني هو مجرد ذريعة طائشة من قبل الأجيال المتأخِّرة.

قبل أن أتناول القبائل التي تشكِّل مجموعة جهينة، سأطرح العديد من الحقائق، منها إن جهينة الحقيقيون سكنوا - في الجزيرة العربية - المناطق المتاخمة لـ«ينبع»، ولمدة ألف وثلاثمائة سنة على أقل تقدير. وكانت هناك هجرات بأحجام مختلفة من هذا الجزء من الحجاز على مختلف الحقب المعروفة في التاريخ، كما لعب العديدون - من جهينة - دوراً في غزو مصر. فضلاً عن إن قوة كبيرة منهم غزت الصحراء الشرقية - في القرن التاسع - برفقة ربيعة، إضافة لما يُقال عن احتلالهم - في منتصف القرن الثالث عشر - لمناطق النوبيين وتوسُّطهم لأسوان والنوبيين والأحباش، ثم هناك مجموعة كبيرة منهم كانت - حتى بواكير القرن الخامس عشر - في أعالي مصر[1]. والحال كذلك فلا مبرر للشك بأن عهد الفونج شهد تدفقات كبيرة من جهينة (أثنان وخمسون قبيلة) كما تقول المحفوظات النَسَبية. استقرت تلك المجموعات المهاجرة

---

(١) إن المصطلح - دون شك - هو تحاصص لقبائل متجاورة ممن انضموا لجهينة بسبب مكاسب الحرب أو لمقاصد اجتماعية.

على النيل الأزرق جوار سوبا، فضلاً عن هجرة الكثيرين منهم غرباً. أغلب القبائل التي تدعي التحدُّر من عبد الله الجهني، نجدهم - في نهاية المطاف - ذوى صلة بجهينة. الآتية أسماؤهم هم الفروع الرئيسة في وقتنا الحاضر[1].

رفاعة (تشمل القواسمة والعبدلاب الخ)

اللحويون

العوامرة والخوالدة الخ

الشكرية

دار حامد

الزيادية

بني جرار

البزعة

الشنابلة

المعاليا

دويح

المسلمية

قبائل البقارة

المحاميد والمهرية الخ

الكبابيش (فروع بعينها فقط)

المجابرة

الَحمر

(١) لقد أغفلنا الكثيرين من جهينة قليلي الأهمية ومع ذلك يمكن ملاحظتهم من أشجار النسب. مثلاً تم تضمين المغاربة لأنهم يظهرون كجهينة - في النسبة - ويبدو إنهم ذوو علائق ببقية المجموعة بالرغم من إنهم لا يطلقون اسم جهينة على أنفسهم.

قبائل الكبابيش والحَمَر والبقّارة ومجموعات المحاميد وفزارة ممن ورد ذكرهم، جميعهم في كردفان أو غربها، أما البقية الباقية فجميعهم في الجزيرة أو شرقها.

١-مجموعة رفاعة، وجهينة الأصليون، واللحويون والعبدلاب والأنقرياب

رفاعة:

يتحدَّرون من رفاعي الذي يظهر في «النسبة» بين مجموعة ممن يُقال إنهم مكثوا وسط البجة وفي الحبشة قبل تحرُّكهم إلى وادي النيل. يعضِّد هذه الرواية ما نقله كواترمير قائلاً «بأن شهد عام ٦٨٠هـ (١٢٨١م) معركة بين جهينة ورفاعة في صحراء عيذاب، وكانت القبيلتان متجاورتين لعدة أجيال وليس في أفريقيا فقط بل في الجزيرة العربية أيضاً». يقول بركهارت - في ١٨١٤ - ما يلي: «عندما كنت في شندي جاء إعرابي من سواكن ينتمي لقبيلة رفاعة التي تنتمي بصلة القربى لقبيلة جهينة العظيمة بالقرب من ينبع، وأخبرني بأنه سمع بأفراد من قبيلته رفاعة يسكنون جنوب سنار وأنه جاء لزياراتهم. ولأنهم يحسنون دائماً لبني جلدتهم فقد تكبُّد هذه الرحلة لتحيتهم فقط».

يدعي الرفاعيون - في السودان - بأنهم يختلفون في الأصل عن جهينة رغم إقرارهم بالتزاوُج الواسع معهم ولعدة قرون، كما يدَّعون - بغير إكتراث - بأنهم من سلالة «السادة». وقد يُعزى هذا الأمر جزئياً لحقيقة إن العركيين - وبينهم الكثير من الأولياء - يدَّعون الإنتماء للأشراف، وهكذا دخل الرفاعيون في مأزق وأصبحوا أمام خيارين إما التبرؤ من مقولة العركيين بأنهم أشراف أو أن ينكروا انتساب العركيين لرفاعة أصلاً، فإختاروا أسهل السبل وذلك بالقول بأن جميع قبائل رفاعة من الأشراف. وحقيقة الأمر إن الأشراف المزعومون تزاوجوا معهم. لكنهم - في حقيقتهم - قبيلة

مُهجَّنة أغلب عناصرها من جهينة بما يفوق أي عنصر آخر[1] وعندما سألت عجب أبو جن أحد زعمائهم إن كانت رفاعة من جهينة أم من ألأشراف أجاب «يُقال إننا أشراف والله أعلم، لكن إذا لم نكن أشراف فنحن بالتأكيد جهينة»

عرَّف المقريزي جهينة بأنهم فرع من بني هلال[2]. علمًا بأن هناك فرع منهم بالسودان يُسمون بالهلالية. هكذا يجوز أن تكون أسطورة أبو زيد الهلالي وهي عابرة للنيل الأزرق بالقرب من موقع قرية رفاعة، إرتبطت بالتحرُّك الجنوبي لرفاعة من الصحراء الشرقية للنيل الأزرق.

كانت كل قبائل رفاعة - في عهد الفونج - من البدو، ورئاستهم في سنار وأربجي والطلحة وقرية رفاعة التي يُسمى بها المركز الآن والتي لم تظهر للوجود حتى بدأ النصف الشمالي للقبيلة التخلي عن حياة البداوة الصِرفة.

تقع مواطن قبائل رفاعة الحالية على طول النيل الأزرق من مصبه حتى جنوب سنجة. وتنقسم القبيلة لمجموعتين رئيستين، أُولاهما المجموعة الشمالية ممن استقروا في قرى مديرية النيل الأزرق، حيث نجد أحياناً في القرية الواحدة أخلاطاً من رفاعة والمحس والجعليين والدناقلة وغيرهم، ثم في قرى أخرى يكون كل السكان من فرع واحد لرفاعة. ويُعتبر الرفاعيون والمحس الملأك التاريخيون للأراضي النهرية في المناطق الشمالية لمديرية النيل الأزرق. وإن إدعاءات قبائل رفاعة - في هذا الصدد - مبررة للغاية لأن ما يجب تذكُّره هو إن أجداد العبدلاب ساعدوا عمارة دنقس في تأسيس سلطنة سنار منذ أربعة قرون سلفت. ومنذ ذلك الزمان أصبح العبدلاب قبيلة مستِّقلة تماماً رغم إن أصولهم ترجع للرفاعيين فرع القواسمة. وتمتد منطقتهم من شمال ملتقى النيلين جنوباً حتى أربجي.

الفرع الجنوبي لرفاعة هم الأكثر بداوة والأقل استقراراً، وغلب عليهم - وسط

---

(١) يقول ولسون إنهم فرع من جهينة.

(٢) يقول كواترمير في المجلد الثاني ص ٢٠١ بأن بني سليم الذين رافقوا بني هلال في هجرتهم العظيمة، فيهم بطن يدعي رفاعة (كواترمير المرجع السابق المجلد الثاني ص ٢١٤).

القبائل الأخرى - اسم «جهينة» أو «جهينة العول» (أي الضعاف)، وينقسمون لرفاعة الشرق أو «ناس أبو جن»، ورفاعة الهوي «أي رفاعة الجزيرة أو رفاعة الغربيين» أو ناس أبو روف، وقد أُطلقت عليهم هذه الأسماء المتعاقبة لأنهم ظلوا لعدة أجيال تحت حكم عائلتي «أبو جن» و«أبو روف»[1]. ينتمي أبو جن لأسرة الحمدة، أما أبو روف فمن بني حسن، أما أتباعهم فيتحدَّرون دائماً من مهجنين لرفاعيي الجنوب، حيث لا يقتصر أتباع أبو جن على الحمدة وحدهم ولا أتباع أبو روف على بني حسن. وإن تسمية رفاعة الشرق ورفاعة الهوى هي مجرد تقسيم إداري وليس عرقي لتلك الفروع الجنوبية للقبيلة.

يقضي رفاعة الشرقيين فصل الأمطار في البطانة، وحول قلعة عرنج، في حين يبقى رفاعة الهوى في الغرب يرتحلون شمالاً حتى جبل موية والمناقل.

في بواكير ثورة الدراويش هاجم رفاعيو الجنوب «أي جهينة» سِنار مرتين خدمة للمهدي ومنيوا بخسائر جسيمة ألحقها بهم عبد القادر باشا.

وفي عام ١٨٨٧م تلقي أبو روف أمراً من الخليفة بإحضار كل قبيلته إلى أم درمان وعندما رفض هُوجم بقوة كبيرة استأصلت شأفة جهينة وصادرت مواشيهم.

وكما هو الحال في الجنوب، حيث يتعذَّر وضع أي فاصل سوى الإداري والجغرافي بين مجموعتي جهينة، أي الشرقية والغربية، يظل الأمر في غاية الصعوبة أيضاً إذا حاولنا وضع أي خط جامد للتمييز - عرقياً - بين هؤلاء الحضر من رفاعة في الشمال وشبه البدو من جهينة في الجنوب، لأن نفس الفروع تنتشر بين الأثنين رغم اختلاف معدلات توزيعهم، بالتالي فإن من الأفضل إعداد قائمة لبطون رفاعة الرئيسة في سبيل التعرُّف على موطن كل منها.

مما تجدر ملاحظته هو إن أسماء العديد من البطون الصغيرة يُطلق على

---

(١) يُقال إن هناك ما يزيد عن العشرين من أبي روف وبني حسن المتعاقبين الا إن هذا مشكوك فيه. أقدم ذكر لاي من الأسمين ورد لدى بروس الذي قال في ١٧٧٢ « ود أبروف وكل عرب جهينة».

قرى النيل الأزرق التي شيدها الرفاعيون أصلاً. لكن حالياً يشغلها بعض المهاجرين المتأخرين.

وتنقسم القبيلة على الوجه الآتي:

(أ) القواسمة

(١) عبدلاب
(٢) محاميد
(٣) أم عروسة
(٤) عطيباب
(٥) عزازاب
الخ

أغلب القواسمة الأصليين الآن في غرب سنار والدندر[1].

(ب) العركيين

(١) الفراجين

يدعي العركيون التحدُّر من الأشراف عبر سلسلة من الفقهاء وردت سيرتهم بالمخطوطة (د - ٣). ويمتهنون الزراعة بجنوب النيل الأزرق في سنار ومعتوق،وتحيط بهم هالة من القدسية حتى الآن، وزعامتهم في أبي حراز. أما بطن الفراجين فهم قليلو العدد يعيشون مع الجموعية جنوب أم درمان، وكانوا إبان حكم الفونج تحت نحاس شيخ حمد النيل العركي، ويعتبرون أنفسهم عركيين أماً لأب.

(ج) العسيلات

(١) وديعاب
(٢) سنهيراب

(١) عدد من بطون أخرى ممن ذُكروا أدناه يُذكرون ضمن القواسمة أيضاً وفي الواقع إن نصف القبيلة يُعتبرون كذلك لأنهم ظلوا تحت زعامة العبدلاب طويلاً.

(٣) حسناب
(٤) معاليا
(٥) جبراب

هناك مجموعة قرى على الضفة الشرقية للنيل الأزرق تُسمى «العسيلات»، ويصنِّفهم الكثيرون - أي العسيلات - باعتبارهم فرعاً من الحمدة.

(د) النولاب

(هـ) الزنافلة. يُقال إن مستوطَنة منهم نشأت في كلكول بالقرب من الكاملين قبل وصول المحس. لكنني سمعت بأنهم من الغُز أيضاً أي من ذرية المماليك أو البوسنيين وليسوا رفاعة البته.

(و) الحجاجاب

(ز) البشاقرة: هناك قرية على جانبي النهر في مركز الكاملين مسماة باسمهم.

(ج) الشبيلات

(ط) الحلاوين: ويُوجد هؤلاء بصفة رئيسة في مركز رفاعة وسنار. وهم كُثر وجلّهم من الفقهاء. وفي قائمة للقبائل العربية بشرق نيل مصر، يضمِّن السير ج. ولكنسون - العلاوين - الذين يرجح أن يكونوا فرعاً لنفس القبيلة وأماكن تواجدهم فيما بين مصر وبترية وشمال سيناء.

(ي) فرحاب

(ك) معاديد. في مركز رفاعة وسنار

(ل) فرضيين[1]

(م) فرجاب. يعيش القليلون في مركز الكوة على النيل الأبيض.

(ن) طوال أو طويلين. يوجدون بصفة رئيسة في معتوق ومركز الكوة يُقال بأنهم فرع من الحمدة.

---

(١) يرجح رجوع أصلهم لأبراهيم بن عبودي الفرضي الذي سنجد ترجمته في المخطوطة (د - ٣).

(ق) الشبارقة :فيما يتعلق بهذا الفرع فمن اللافت إن هناك شبارقة في الجبال الشمالية لكردفان، يُسمون «شبارقو» ويُقال إنهم هاجروا من النيل الأزرق منذ أزمان قديمة ثم انتشروا غرباً حتى داخل دارفور، كما يُقال عنهم - في الحرازة - بأنهم أقارب لفرع الطوال من الكبابيش.

يظهر الطوال ضمن قائمة قبائل رفاعة أيضاً، وقد أُمليت عليَّ أسماء الطوال والشبارقة واحدة تلو الأخرى. والحال هكذا فالإفتراض المعقول هو إن بعض الرفاعيين جاءوا إلى كردفان وإنصهر، بعضهم مع نوبة الحرازة، والبعض الآخر مع البدو على الشمال الشرقي منهم، بينما واصل آخرون حتى دارفور.

هناك تحرَّكات في الإتجاه المعاكس كذلك، يُستدل عليها بوجود قريتين على النيل باسم «النوبة»، إحداهما بالقرب من الكاملين، والأخرى شمال الخرطوم، ويُقال إن كليهما أسسها مستوطِّنون من الحرازة. وعن القرية الأولى يُقال إن سبعة نوبة من كردفان منحهم الفونج أرضاً هناك ثم تزوَّج العرب من بناتهم.

(ر) الهلالية

(ش) العقليين. إجتاحت هذا الفرع مجاعة في عام ١٨٨٩م وفتكت بهم، إلا إنهم استردوا عافيتهم. تعيش أعداد كبيرة منهم - في وقتنا الحاضر - حول سنار والمسلمية، وعلى أشتات من القرى في الجزيرة والنيل الابيض.

(ت) بني حسن

(١) ود بلولة

(٢) عتاملة (أسرة أبي روف)

(٣) ود أبو سروال

الخ

وموطنهم جنوب المناقل وبين سنجة والروصيرص

(ث) بني حسين. يسكنون مع بني حسن وغربهم حتى النيل الأبيض

(خ) الحمدة

(١) رحاحلة

(٢) غُز

(٣) ربيعات.

وهؤلاء من ناس أبو جن الأصليين، وكان رئيسهم يحمل - في أيام الفونج - لقب مانجل، وله الحق في إعتمار الطاقية ذات القرنين. وقد عانوا الأمرِّين في عام ١٨٨٩م مثل العقليين، ومواطنهم في الرهد والدندر. وعاصمة أبو جن هي دبيركي.

(ذ) العلاطيين - وهم من شبه البدو ولهم قرى شرق وغرب الجزيرة.

(ت) الزمالته

(١) الكماتير

الكماتير «أو أولاد كمتور»، هم من البطون التي إندثرت في وقتنا الحاضر نتيجة لحروبهم المستديمة مع الفونج إبان القرن الثامن عشر، وكان لزعيمهم الذي يُلقب عادة بالاسم القبلي - كمتور - حق إعتمار الطاقية، وإمتد نفوذه من كركوج حتى الروصيرص.

(خ) الرازقية. وهم مثل العركيين يدعون التحدُّر من الأشراف، ويمثلون الفرع الوحيد لرفاعة - إذا صح الانتساب - بشمال ملتقى النيلين.

جهينة:

بالرغم من إن جهينة اسم يُطلق بإبهام على كل قبائل رفاعة من قِبل غيرهم من القبائل، وبوجه خاص على هؤلاء الذين في الجنوب ورفاعة الشرق ورفاعة الهوي،هناك قبائل صغيرة تعيش بجانب هؤلاء تنطبق عليهم التسمية بوجه أخص، وحتى رفاعة أنفسهم يسمونهم «جهينة». ونعني بهؤلاء المعاشرة والجنانة والرُكابية والجعافرة والرواشدة. حافظت هذه القبائل - لحد كبير- على بداوتها. هناك القليلون ممن

استقروا في القرى، بيدأن الأكثرية يرعون مع رفاعة الشرق حول قلع عرنج والعديد والسوكي، لكنهم قليلي العدد ويتبعون الآن للشكرية في مديرية كسلا.

اللحويون[1]:

هم ذوو قربي بمجموعة رفاعة، وجميعهم من البدو، وعاش بعضهم - ولعدة أجيال - على الضفة الشرقية للنيل الأبيض فيما بين الكوة والجبلين[٢] وفي المناطق الباطنة كذلك، وتغلب عليهم تسمية ناس ود اللبيح، أما البعض الآخر فأغلبهم من الأبّالة وتقع مراعيهم بأقصى الشرق جوار الفاشر على نهر عطبرة. وسبق لهؤلاء - ولعدة أجيال - الانضمام لقبيلة الكبابيش واستقروا في شمال كردفان، ويُعرفون بأنهم فرع لجهينة. غير إنهم في العام ١٩١٠م تشاجروا مع ناظر الكبابيش وتراجعوا شرقاً للنيل. ووسمهم المألوف للإبل يُعرف بـ«تُبأعة» ويُوسم على الجزء الأيسر للأنف مع «قِلادة» على الجانب الأيسر للعنق[٣].

العبدلاب:

أصبح العبدلاب قبيلة صغيرة مشتتة حول الخرطوم بحري، ثم هنا وهناك على النيل الأزرق شمال رفاعة، ويمارسون شيئاً من الزراعة النهرية وتربية القليل من المواشي والأغنام والماعز. ورغم فقرهم لا زالوا يتفاخرون - بحق - بالتحدُّر من عبد الله جمَّاع صاحب الجاه في قرّي. وهو عربي من فرع القواسمة من رفاعة، ساعد

---

(١) يُقال إن أصل التسمية من «لحوية» وهي جعبة لحمل الغلال والصمغ وخلافه. وأصل الكلمة «اللحاء» وينطبق ذلك على عرب اللحيوان في سيناء وسط قبائل طيء. ويُقال إن اللحويين فرع من بني عطية الرفاق القدماء لبني عقبة (نعوم شقير تاريخ سيناء ص ١١٧) كما يوجد إلى الشمال الشرقي فرع من العنازة يسمون لحويون.

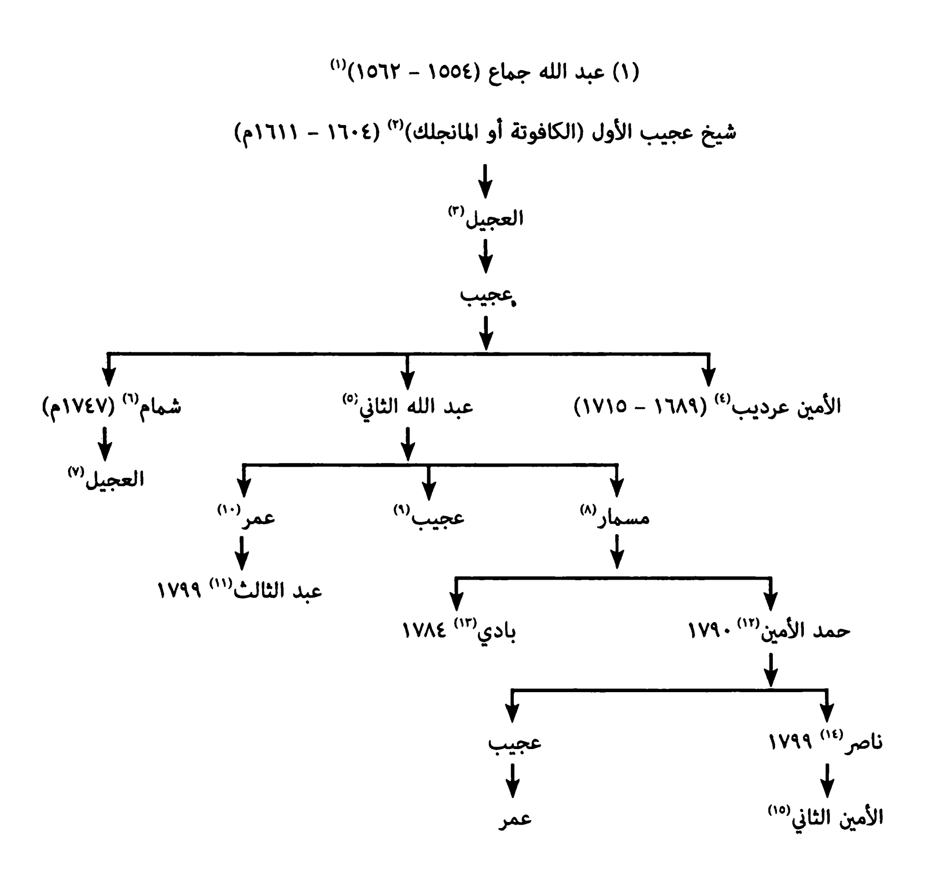
(٢) تحدث عنهم كليوود على ضفة النيل الأبيض الغربية جنوب الخرطوم وسماهم اللحوية.

(٣) ورد وصف لاسم لحوي لدى دوتي (الصحراء العربية مجلد (١) ص ١٢٥) وكذلك لدى زيمر (ص ٢٧٩) باعتباره اسماً لقبيلة عربية توجد في الجزيرة العربية حالياً.

عمارة دنقس أول ملوك الفونج في استئصال النوبة والعنج من الجزيرة سعياً لتأسيس سلطنة سنار، وكان المؤسس للأسرة المتوارثة لمنصب الوزارة الوراثي بمقر زعامتهم بالقرب من ملتقى النيلين. أقام خلفاء عبد الله الكبير الذين إمتدت مواطنهم من شلال السبلوقة حتى أربجي وقرِّي، لكن لا يُعرف بالضبط متى نقلوا عاصمتهم لحلفاية الملوك. وأثناء سلطتهم حملوا رسمياً لقب المانجل أو المانجلك وهو اسم غير عربي، ويُسبغ - عادة - على العديد من وزراء الفونج[1] في مختلف مناطق إختصاصهم وخصوصاً على حكام العبدلاب.

هناك قائمة بشيوخ العبدلاب المتعاقبين أعدها كليوود في العام ١٨٢١م، لكنها لا توضح علائقهم ببعض، فضلاً عن إن هناك أخطاء في تفاصيلها، كما إنها إشتملت على أسماء بعينها تتعلّق - على الأرجح - بأقارب معروفين للمناجل ممن لم يشغلوا المنصب أصلاً. هناك قائمة أخرى أعدَّها نعوم بك شقير - قبل سبعة عشر عاماً - نقلها «بدج» إلا أنها أقل دقة أيضاً. وبمقارنتها بالمخطوطات (د - ٣) و(د - ٧)، ثم مع النسبة التي أعارها لي أحد أحفاد المانجل المباشرين، يتضح إن القائمة الآتية صحيحة وبدرجة مقبولة. صحيح إنها ليست مكتملة وربما شابها شيء من عدم الدقة بيد أنها - على الأقل - الأقرب للصواب فيما إشتملت عليه، خلافاً لما سبق وأشرنا له من قوائم. هناك أمر مثير للإرتباك ناتج عن الجهل بحقيقة إن أي مانجل بعد عجيب الأول بن عبد الله يعُرَّف أحياناً باسمه الخاص، لكن يُلقب بود عجيب.

(١) يبدو إن العبدلاب إتبعوا عادات الفونج في قتل ملوكهم.



(١) أسماه كليوود عجيب خطأً (أنظر المخطوطة د - ٧).
(٢) هو من أسماه كليوود المانجلك الأكبر (أنظر المخطوطة د - ٧).
(٣) يبدو إن حمد السميح وابنه عثمان اللذان وردا في قائمة كليوود وفي المخطوطة (د - ٣)، نالا السلطة من بعده.
(٤) راجع الفقرة ٤٢ (المخطوطة د - ٧).
(٥) راجع الفقرة ٥٨ (المخطوطة د - ٧)، أسماه كليوود العجيل خطأً.
(٦) راجع الفقرة ٥٨ (المخطوطة د - ٧).
(٧) راجع الفقرة ٧٦ (المخطوطة د - ٧).
(٨) راجع الفقرة ٥٦ (المخطوطة د - ٣).
(٩) راجع الفقرة ٧٤ (المخطوطة د - ٧).
(١٠) كليوود LOC. CIT.
(١١) راجع الفقرة ١٣٦ (المخطوطة د - ٧).
(١٢) راجع الفقرة ٧٥ (المخطوطة د - ٧).
(١٣) راجع الفقرة ٨٧ (المخطوطة د - ٧).
(١٤) أنظر الفقرات ١٣٨ و١٨٤ (المخطوطة د - ٧).
(١٥) كليوود LOC. CIT.

كان عبد الله جماع ومن خلفوه أكثر من زعماء بالنسبة لقبيلة العبدلاب، حيث كانت لهم السطوة على كل القبائل العربية على وادي النيل - باستثناء هؤلاء الذين على تخوم سنار - التي يحتفظ فيها الملك بأثني عشر ألفاً من النوبة لضمان خضوع العرب وإلتزامهم بالضريبة متى مابارحوا حدود المناطق المطرية نحو الأراضي الرملية وراء نهر عطبرة حماية لمواشيهم من ويلات الذباب.

يصف «بروس» وضع ود عجيب - في ١٧٧٠ - قائلاً: «لم يكن هذا الأمير إلا شيخاً لكل العرب إذ يدفعون له الضرائب سعياً للحافظ على وقاره وتمكينه من حفظ النظام والتقرير في الشئون العامة، أما فيما يتعلق بالمسائل المالية فتخضع كل قبيلة لشيخها الخاص الذي يكون عادة من كبار السن وأرباب الأُسر في العشيرة.

مقر إقامة هذا الأمير العربي في «قَرِّي» وهي مدينة تقع أقصى حدود المدار المطري مباشرة، على المعبر الذي يؤدي - عبر النيل - لصحراء بيوضة، ثم إلى طريق دنقلا ومصر الذي يتحد مع صحراء سليمة الكبريn. تم إختيار هذا الموقع بعناية بحسبانه بوابة لجسر يمكّن من ضبط تحركات ملاك القطعان العرب الذين يعتاشون على تلك الأراضي الخصبة في المناطق المطرية، والذين تجبرهم الذبابة في شهر مايو من كل عام على المرور لقضاء فترة الخريف في تلك الصحراء الرملية تجنباً للأمطار المدارية. وهكذا يخضعون للتوقيف والمراجعة. وهناك يتلقّفهم زعيم العرب وهو على صهوة حصانه الهزيل على مدخل مراعيهم ليدفعوا ربطاً ضئيلاً من الضريبة مع تحصيل المتأخرات اذا وُجدت. وكان هذا هو المظهر الوحيد - في بواكير القرن السادس عشر - للدولة التي تحكم ذلك البلد الواسع بدءاً من تخوم مصر حتى الحدود الحبشية.

والواضح إنه ليس للعرب الكثير مما يخشون عليه. ونستدل في هذا الصدد ببروس أيضاً حيث يقول «العرب الذين يرعون مواشيهم على هذين البلدين، غالباً مما تتعرَّض ممتلكاتهم للنهب بواسطة ملك الحبشة الذي يهبط حتى عطبرة. بيد أن مثل هذه الحروب لا تشكِّل إخلالاً بالسلام بين المملكتين، بل على العكس، لأن باعث العرب في الذهاب جنوباً حتى تخوم الحبشة هو الحفاظ على استقلاليتهم

بعيداً عن سطوة ملك سنار. عليه عندما يهاجمهم ملك الحبشة هناك فهو يعلم بأنه يقدم خدمة ملكية بردهم لمتناول يد ملك سنار» وتتطابق ممارسات ملكي الحبشة وسنار تجاه العرب مع ما كان يمارسه المماليك في القرون الوسطى - في مصر - وسلطان دارفور في وقتنا الحاضر. بعد الاحتلال التركي للسودان أصبح العبدلاب مستقلين عن سلطنة سنار لحوالي نصف قرن من الزمان، لكن المراكز الشمالية من ديارهم أصبحت - على مدى تلك الحقبة - هدفاً للنُهاب من الشايقية. على أية حال ما زال العبدلاب يحكمون تلك المنطقة وجنوباً - اسمياً - حتى ملتقى الدندر والنيل الأزرق.

الأنقرياب:

هم أقارب للعبدلاب ويقيمون في مديرية بربر، وبناء على مخطوطة كانت بحيازة أحدهم - غير مضمَّنة فيما نشرناه من مخطوطات - تُصف عبد الله جماع الذي يفضِّل الكاتب أن يسميه سيد بأنه يتحدَّر من ناحية الأب من الأمام علي[1] وله ثمانية أبناء هم ديومة وشندا[2] وإدريس أنقير وسُوبا وعبودة وأدركوجة وشاور وعنتر وعجيب المانجلك. ويُقال إن عجيب أصغرهم ووحيد أمه التي هي إبنة الشريف حمد أبو دنانة. أما أم الآخرين فهي هبة من مك الفونج لعبد الله عند دخول العرب للسودان.

يتحدَّر الأنقرياب من إدريس أنقير، ثم الكانجاب من عبودة والدكلاب من شاور ومن ديومة الكلساب والعرايا والحميداب والشواراب والحماداب والزرق والمطيرقاب

(١) يقول المؤلف إن عبد الله رفاعي من ناحية الأم ويميل للأعتقاد بأن النسابة قد مالوا - خطأ - للفهم بأنه من أصل رفاعي.

(٢) يقول المؤلف من هنا جاءت تسمية مدينة شندي. من ناحية أخرى يقول الفور إن شندي أو سندي هي كلمة ذات أصل فوراوي تعني الرحم وهكذا سُميت أيام الكنجارة لأن كل الآدميين منه.

والشندياب[1]. ومن عجيب - كما تقول المخطوطة - يتحدَّر المسامير والعجيباب والشماميم والعثامنة والأسداب والعريباب والحماداب، وقد تفرعَّت تلك الأسماء من مشاهير العبدلاب التاريخيين.

ملحق باستخدامات لقب «المانجلك»

يُقال إن الاسم ذو أصل همجي، إلا أن مصدره غير معروف. يلازم تلك الرتبة الحق في إعتمار الطاقية المماثلة لتلك التي يعتمرها ملوك سنار، والتي يمكن وصفها بأنها في حجم القبعة العادية ولها طرفان أو جناحان من الصوف الذي يأخذ شكل القرون. ويقول «ويرن» بأن حق إعتمارها كان وقفاً على مكوك فازوغلي وشيخ البني عامر والعبدلاب وملك الجعليين، يُضاف لهؤلاء شيوخ الحمدة والكماتير في مركز خشم البحر - أي أعالي رفاعة - كما يقول الغديات في كردفان بأن زعيمهم كان يحمل هذا اللقب - في وقت ما - وهذا ما يؤكده الغير.

ورأيت بنفسي «الزيبق» مك رشاد، وهو جبل من جبال النوبة جنوب تقلي التي أخضعها الفونج في القرن الثامن عشر، وهو يعتمر الطاقية. يفصِّل جاكسون (ص ٩٥) كيفية تنصيب المانجل العبدلابي ويقول «يُمنح الشيخ الذي عُيِّن حديثاً الطاقية ذات القرنين المقويين بالقطن وتُوضع على رأسه قبل الجلوس على العرش الذي يُطلق عليه اسم (الككر)، وبذلك يحمل لقب مك ثم يُحيًا كالآتي: «نتمنى أن يكون عهدك زاهراً» ثم يُقبل السلطان يده، وبعد أن يتمنى له النجاح يأمر بقرع الطبول الملكية إشهاراً لتتويج المك. وهكذا يعود الملك المتَّوج لأهله بالطاقية والككر، ولهذا السبب يُطلق على العبدلاب «أهل الككر والطاقية». يلازم حمل لقب مانجل إقتطاع قطعة أرض معتبرة له أيضاً.

---

(١) جميعهم عوائل صغيرة مشتته في أرجاء السودان المختلفة والخمسة بطون التي يُقال بتحدرها من ديومه أمهم رفاعية ومن يليه من فونجاوية والأخيرين من عوضية (أي جعلية).

أما المانجلك فلا يقتصر تتويجه على الطاقية فقط، بل تُضاف لها العمامة والسيف والعباءة و«الهيكالي» وهو سلسلة من الذهب (راجع جاكسون ص ٩٢ - ٩٥). والحال كذلك يبدو إن من المستحيل عدم ربط هذه الشاره مع ما جرى لـ«جوسر» في القرن الثالث عشر ببجراس عاصمة المركز فيما بين أسوان وكورسكو حيث إعتمر بعمامة ذات قرنين وتحلّى بالسوار الذهبي. يقول دهريان نقلاً عن جنكر، رسيان، ١، الصفحات ١٠١ و١٠٨، ما يلي: «يقلد ملك سنار من يمنحه لقب قائد الجيش طاقية من المخمل أو الحرير بطرفين زائدين في شكل قرون». سمح الأتراك لملك الفونج - بعد الاحتلال - بإرتداء الطاقية.

عند احتلال دارفور وُجدت في معسكر السلطان قبعات بنفس المواصفات، يعتمرها رئيس جوقة الأبواق والخشنقية - أي حملة البنادق - من الحرس السلطاني. أثناء الإحتفالات الرسمية.

بنو عمران

بنو عمران قبيلة من أصل غير محسوم ويدّعون بأنهم أشراف، بيد أن النسبة تصنِّفهم ضمن مجموعة جهينة. هناك القليلون منهم مشتتين في قرى كردفان وسط البديرية، وآخرون في شرق دارفور، بالأخص في المناطق التي على حدود كردفان، وينقسم الأخيرون إلى البطون الآتية:

أولاد المنصور

شفاليك

شلالين

أولاد مالك

بنو عاطف أو عواطفة «بالقرب من ودعة»

ترجمية

عيال محمد

عيال مهاجر

عيال إبراهيم

عيال حسن

ويدَّعون بأنهم وفدوا من دراو بصعيد مصر من حوالي سبعة أجيال كتجار وفقهاء، يشبهون - في تكوينهم - البديرية، وربما تكون لهم علاقة بـ«عمران» الذين شاهدهم بركهارت جوار العقبة.

العوامرة والخوالدة والعمارنة والفادنية:

القبائل الثلاث الأول من شبه البدو قليلي الأهمية، ولكل منها عدد من القرى، ويمتهنون رعي الأغنام والماعز في الجزيرة. هناك كثير من الخوالدة في الجنوب مع بقية اللحويين والقواسمة، فضلاً عن آخرين في الشمال بجوار مدينة ود مدني.

والعوامرة شمال الجزيرة ولديهم حضور قليل على حوضي الأزرق والأبيض جنوب الخرطوم.

والعمارنة هم الأقل عدداً من بين تلك القبائل الثلاث، وقُراهم بالقرب من جبل موية.

أما الفادنية فبعضهم رُحَّل وآخرون يحيون حياة الاستقرار. يرعى الرُحَّل في وادي هواد وعلى كل الجزء الشمالي لجزيرة مروى[1]. جيرانهم من الجعليين الأصليين والكواهلة والعالياب[2]. من بطونهم الحلاتوه والإحيمراب والنفافيع والحليواب وغيرهم. أما المستقرين فقد إمتهنوا الزراعة على شطآن النيل - في بربر - ويدَّعون بأنهم أشراف[3].

---

(١) بالقرب من خرائب الباسا يوجد ضريح الفكي «بافادني» وهو فقيه مشهور.

(٢) يضم العالياب فروع تُدعى يزيد وأدرجة وكميلاب.

(٣) تنسب بعض المخطوطات الفادنية لجهينة.

الشكرية والدباسين:

باستقراء مدونات الأنساب المختلفة يتضح إنتماء الشكرية - من حيث الأصل - لمجموعة جهينة رغم إن لهم إدعاءات بالإنتماء لقريش[١] يصعب القطع بتاريخ هجرة أجدادهم الأوائل لمواطنهم الحالية سواء في النيل الأزرق أوكسلا. لم تكن للشكرية أهمية لعدة قرون، بالرغم من انتشار أقوال مبهمة عن حروب خاضوها ضد سكان جبل جيلي في سبيل الاستحواز على الآبار[٢] الموجودة هناك، وممارسات تنطوي على الاستخفاف بالفونج والهمج في الجزيرة.

وما نالوه من رفعة في القرن التاسع عشر يعود الفضل فيه لعائلة أبو سن الشهيرة. جدهم هو نايل بن شاع الدين ود التويم، وضريحه بمعية زوجته بيكة بت الملك[٣] يشكّل معلمًا على السفح الجنوبي الشرقي لجبل جيلي بأطراف البطانة، وتتحدَّر أغلب بطون الشكرية الحاليين من نايل وأخيه النور.

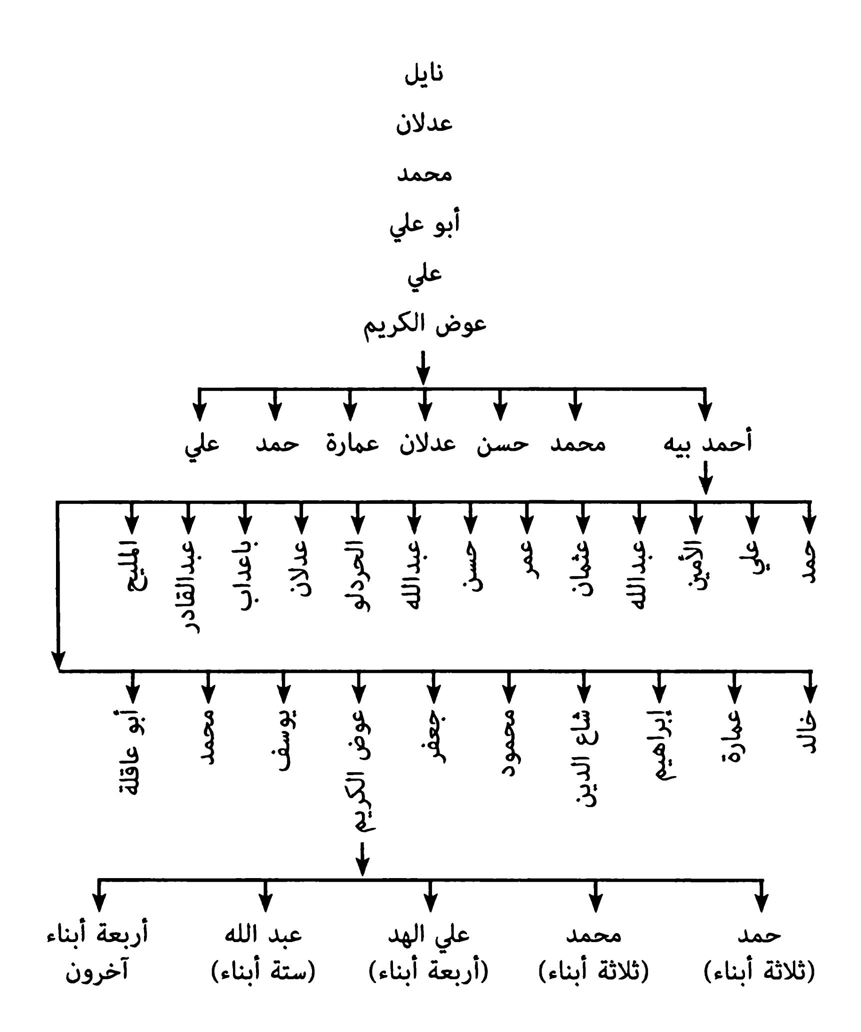
عاش نايل قبل تسعة أجيال، ويرجح أن يكون ذلك في بواكير القرن السابع عشر. وتلك هي قائمة أحفاده الذكور أو - على الأقل - المعروفين منهم:

---

(١) سنلاحظ فيما يرد من مخطوطات إحتمال وجود علاقة بين الشكرية وقبيلة يشكر العربية وهي بطن من قيس عيلان.

(٢) مما يرد من روايات فإن سكان جبل جيلي ينتسبون للعنج.

(٣) حسب الروايات فإن الملك المعني هو مك سنار أي أنها أميرة فونجاوية تزوجها شمس الدين وأحضرها لجبل جيلي. بيد إن أرجح الروايات هي إنها إبنة مك جيلي الوثني، وقيل أنها عاشت في قمة الجبل بينما عاش شقيقها على السفوح. يتكون القبر المعني من حلقتين داخلية وخارجية من الحجارة، الحلقة الداخلية في حجم الجسد المسجي والخارجية للحماية.


نايل
عدلان
محمد
أبو علي
علي
عوض الكريم
أحمد بيه
محمد
حسن
عدلان
عمارة
حمد
علي
حمد
علي
الأمين
عبدالله
عثمان
عمر
حسن
عبدالله
الجردلو
عدلان
باعداب
عبدالقادر
المليح
خالد
عمارة
إبراهيم
شاع الدين
محمود
جعفر
عوض الكريم
يوسف
محمد
أبو عاقلة
حمد (ثلاثة أبناء)
محمد (ثلاثة أبناء)
علي الهد (أربعة أبناء)
عبد الله (ستة أبناء)
أربعة أبناء آخرون

وأقدم من توفَّرت لنا معلومات عنه هو أبو علي الذي قُتل إبان ثورة الشكرية ضد الفونج في ١٧٧٩م وخلفه ابنه عوض الكريم أبو سن الذي نفترض زعامته للقبيلة في ذلك الوقت الذي شهد تحالفهم والعبدلاب في نهب أربجي، أي في العام ١٧٨٤ الميلادي، والذي قُتل في حربهم ضد البطاحين في ١٨٠٢م. إلا إن أعظم شيوخ الشكرية هو شيخ العرب الكبير أحمد بيه ابن عوض الكريم الذي رسم له سير صمويل بيكر صورة حية. وإبان السنوات الأولى لشياخته كانت قبيلته على عداء سافر مع البطاحين والجعليين والأحامدة شرق وجنوب شندي، وكبقية البدو كان بينهم وحكومة الفونج ما صنع الحداد. لكن عندما احتل الأتراك السودان رأوا ضرورة الحصول على تأييد الشيوخ النافذين، وهكذا أصبح أحمد بيه واحداً من أقرب الحلفاء الثقاة. وكمقابل لذلك حصل على إمتيازات كبيرة جعلت من الشكرية في - خواتيم حكم الأتراك - أسياداً للبطانة وزعماء على كافة البدو في النيل الأزرق والجزيرة وعطبرة. وصارت العشور - من الغلال - تُدفع لأسرة أبو سن[1] عن كل وادٍ في جزيرة مروى القديمة تقريباً.

حاول الشكرية في بداية حكم الدراويش البقاء بمعزَّل عن المهدية. نتج عن ذلك تضاؤل نفوذهم، ثم حلَّت مجاعة عام ١٨٨٩م التي فتكت بالقبيلة. وبالرغم من إنهم استردوا حجمهم القبلي - في وقتنا الحاضر - وإزدادت ثرواتهم من الإبل، إلا إنه لم يعد في وسعهم المطالبة بوضعيتهم السابقة وما نالوه من علو كعب وسلطان.

هناك جزء من الشكرية في مديرية كسلا الآن[2] لكن الأغلبية فيما بين النيل الأزرق ونهر عطبرة. ولا يزال كبير عائلة أبو سن - عبد الله بن عوض الكريم - يُقيم في رفاعة - مبجَّلاً محترماً من الجميع كما كان جده أحمد بيه، إلا إن سلطته القديمة أصبحت شيئاً من الماضي فقط. أما أخوه حمد فيحكم الشكرية في كسلا.

(١) يحمل زعيم العائلة اسم شيخ المشايخ ويضيف مانسفيلد باركنز بأن نفس هذا اللقب يحمله زعماء أبو جن وأبو روف.

(٢) كانت القضارف تعرف في التركية باسم «سوق أبو سن».

الفروع الرئيسة للشكرية كالآتي :

نايلاب (من نايل ود شاع الدين وفيهم عائلة أبو سن)
نوراب (من النور أخ شاع الدين وأغلبهم في كسلا ولكن هناك فرع منهم بالقرب من أبو دليق)
جلاهيب (من جلهيب ويقال إنه جد شاع الدين)
قدوراب (بمركز الكاملين ومستقلون عن أسرة أبو سن) - يتحدَّرون من عوض الكريم أخ نايل -

عدلاناب	من عوض الكريم
حساناب (حول جبل جيلي)	شقيق نايل

عيساب	
شدارنه	
مهيدات	ليسو من ذرية شاع الدين
رتامات	
عفاصة	
نزاويين	
نوايمة	

الدباسين:

ترتبط قبيلة الدباسين الصغيرة بشمال الجزيرة عرقياً بالشكرية رغم إن تفاصيل هذه العلائق غير واضحة، وفروعهم كالآتي:

سيفاب	في مركز الكاملين
حتيكاب	
جفيناب	في الكاملين والمسلمية والخرطوم
قديفاب	في مركز المسلمية
بليلاب	

جبيلاب ⎫ في مركز رفاعة
ريداب ⎭ في مركز الخرطوم

ويُقال إن الدباسين إنفصلوا عن الشكرية منذ سبعة أو ثمانية أجيال وأغلبهم - حتى الأجيال الحالية - من الرُحَّل ولم يستقروا أبداً، بيد إن تجوالهم - بحثاً عن المراعي - لا يمتد لأكثر من سبعين ميلاً أو نحوها جنوب الخرطوم[1]. وفي أيام التركية كانوا على عداء مع الحلاوين الذين يُعتبرون فرعاً من رفاعة.

الضبانية[2] أو الضباينة:

لا يوجد لهذه القبيلة اسم في قوائم النسب في السودان الأمر الذي يشكِّل أرضية جيدة للقول بأن إدعاءهم بالإنتماء للعرب إدعاء واهٍ. ويبدو إنهم يشكِّلون فرعاً من مجموعة الشنقالة الذين يشغلون الحزام الخصيب الذي يحد الحبشة من جهة الغرب. حدد بروس مواطنهم في إقليم «مزقا» بالقرب من ملتقى سيتيت ونهر عطبرة، وقال عنهم ما يلي: «الضبانية هم الأقوى نفوذاً من كل الشنقالة ولهم السمو والسطوة على كل بقية القوم» ويرى - أي بروس - بأنهم إيلفانتوفاقي «elephantophagi» بطليموس، ثم يعود مرة أخرى ويطلق اسم «الضبانية» - كوصف عام - لكل القبائل التي شاركت بازا عطبرة أي التكازي، شبه الجزيرة التي كَّونها النهر، والـ«ماريب» (أي القاش). ثم يذكر الهجوم الذي شنه ضدهم ياسوس الأول ملك الحبشة في عام ١٦٨٠ - ١٧٠٤م، ثم يختم قوله بالآتي: «هكذا إنتهت الحملة ضد الضباينة. وبالرغم من إن الجدري قد استأصل بعض القبائل بكاملها، لم يتزحزح الضبانية قيد أنملة عن ديارهم بل يبدو إنهم اكتسبوا جهات (ساير)».

---

(١) قيل إن لهم جرف زراعي بالخرطوم قبل أن يستولى الأتراك على الأرض لبناء العاصمة الحالية.

(٢) إذا تمعنَّا في الاسم نجد إن أصل القبيلة قد يرجع لأبو ظبي في الخليج وذلك لثلاثة مؤشرات، الأول هو إن منطقة شرق السودان ظلت مهجراً للقادمين من الخليج كالحمران مثلاً. ثم إن اسم ضباينة الأرجح أن يكون أصله ظباينة وقد درج الخليجيون على قلب حرف الظاء ضاد هذا فضلاً عن اسم «زايد» الذي يحمله زعماؤهم منذ القدم. راجع وقائع حربهم مع الملك نمر في القلابات.

أما عن حملة ياسوس الثاني في ١٧٣٦م ضد أراضي الفونج يقول بروس «جاء الملك مسيرة خمسة أيام من جدارا لمركز الضفاينة، وهم قبيلة من رعاة الأغنام والأقوى في عطبرة». يبدو إنه فات على بروس ربط هؤلاء الضفاينة بالضباينة، بالرغم من إنه يشير - في عدة أماكن - إلى أنهم استوطَّنوا مركز «مزقا»، وإنهم - دون شك - الضباينة أو الضبانية الحاليين، وأنهم يمثلون أكثر فروع الشنقالة تعرُّباً أي «الضبينة» المستقرين غرب بني جلدتهم ويقول عنهم ويرن - في عام ١٨٤٠م - بأنهم أي الضباينة[1] قبيلة كبيرة جداً تقيم بالقرب من القضارف والقلابات، غير مناصرين للبني عامر أو الهدندوة.

وسبق لبيكر أن قابلهم في عام ١٨٦١م مع الشكرية في عطبرة حول التومات وكان شيخهم عدلان ود سعيد، ووقتها كانوا قبيلة مُعتبرة تملك الكثير من الماشية والأغنام، وكانوا على عداء مع اللاجئين من الجعليين من أسرة الملك نمر التي استقرَّت على الحدود الحبشية. ويُظهرهم بيكر في خارطته باعتبارهم شاغلي المنطقة فيما بين الرهد وعطبرة جنوب الشكرية.

وموطنهم الحالي هو نفس موطنهم أيام بروس وبيكر، إضافة لآخرين بين القضارف والقلابات. بيد أن اغلب أفراد القبيلة استأصلهم الدراويش، ومن تبقوا منهم الآن أصبحوا من فقراء المستقرين من القرويين. هناك القليلين منهم في القضارف مع الشكرية ومثلهم في القرى التي على حدود النيل الأزرق.

مجموعة فزارة:

لم يعد لعبارة فزارة أي صدىً في السودان، كما كان بالنسبة للرحَّالة - في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر - وربما حتى زمن المهدية، إذ كان اسماً لأكبر مجموعات

---

(١) يقول بروس «يوجد الشنقالة شمال الحبشة مختلطين بالعرب والبجة والبلوى أي البلو ويسمون ضباينة».

البدو الأبَّالة في كردفان ودارفور[1]، الذين إنقسموا لمجموعات متميِّزة عن بعضها البعض الآن بحيث أصبحت كل قبيلة تُعرف باسمها الخاص.

وقبل الخوض في مفردات تلك القبائل، فما تجدر ملاحظته هو إن قبيلة فزارة التي هاجرت من الجزيرة العربية إلى مصر كانت ضمن منظومة القبائل الإسماعيلية بحسبانهم فرع من قيس عيلان، في حين إن جهينة التي ينتسب لها الفزارة السودانيون، أصلها من القحطانيين، وهكذا الحال فهم بعيدين كل البعد عن فزارة الذين في الجزيرة العربية. وإن هذا التناقض الظاهري يمكن إسناده - جزئياً - لحقيقة إن فزارة وجهينة كانوا جيران مستديمين في الحجاز، واستمر هذا الوضع حتى هجرة تلك القبائل، ثم تزاوجوا مع بعضهم البعض. حتماً إن هناك لبس - متوقَّع - نشأ بين مجموعتي فزارة وجهينة قد يُعزى لما يلي من أسباب، فبينما هناك فرع من جهينة يُدعى قيس، وبطن يُدعى قطفان، ثم بطن آخر يتضًّمن فرعين باسم ذبيان وعبس وذلك منذ عهد قديم، فإن فزارة تمثِّل أكبر فروع بني ذبيان حيث شكَّلت - بمعية بني عبس - الأفرع الرئيسة لقطفان التي تتحدَّر - كبطن - من قيس. لكن رغم إن هذا التماثُل في المسميات قد لا يعدو أن يكون مصادفة، فالأرجح إنه دليل على التقارب الحميم للقبيلتين وتداخلهم بالتصاهر.

سنتناول مختلف قبائل فزارة بالسودان على التوالي.

دار حامد:

حتى السنوات الأخيرة لحكم الأتراك ظلت كل القبيلة تُصنَّف ضمن مجموعات الرُحَّل ولا تزال - لحد كبير - كذلك. ومن عدة أجيال مضت كان هناك جزء منها مع الكبابيش في دنقلا، فضلاً عن قسم أكبر لا يزال بمعية الكواهلة الغربيين الذين ظلوا

---

(١) تحدث التونسي عن البدو الأبالة الذين يسمون فزارة بأنهم يشملون المحاميد والمجانين وبني جرار وبني عمران والمسيرية الزرق. غير إن خريطة بروس تضع بني فزارة - الكبابيش وبنو جرار - في بيوضة.

حتى المهدية متحدين كبطن من كبابيش كردفان. وظل كلا الفرعين من دار حامد على البداوة وحياة الترحال الصرفة[1]، بينما إبتنت بقية القبيلة القرى المكوَّنة من أكواخ القش (تُكل) على تلك المنطقة الخصبة غير المأهولة التي تكسوها الغابات، والممتدة شمالاً حتى ديار الكبابيش تقريباً، حيث يقيم العديدون منهم على مدار العام يزرعون الدخن ويمارسون الرعي موسمياً، ولكن في الخريف ينقل السواد الأعظم من القبيلة مضاربهم الصوفية الخشنة ويتوغَّلون شمالاً وشرقاً شأنهم شأن الرحَّالة الحقيقين حتى تجف مياه الأمطار فيعودون أدراجهم لقراهم المنتشرة في وحول الخيران. ولطبيعة الترحال لدى القبيلة أصبح الأمر ميسَّراً لمختلف القبائل كالدناقلة وغيرهم - في القرن الماضي - من الاستئثار بالكثير من أحواض الخيران التي تُزرع بالشواديف والسواقي. لم يكن لدار حامد إهتماماً بالتعرُّف على وسائل الري الصناعي بل يقتصر استثمارهم للخيران على حفر الآبار لسقاية مواشيهم تاركين لغيرهم أمر زراعة الخضروات.إضافة للدناقلة هناك محميات للأتراك تُحظى بضمان البقاء هناك.

يصعب التكهُّن بتاريخ استقرار قبيلة دار حامد بأواسط كردفان، وربما يعود الأمر للنصف الأول من القرن السادس عشر أو أبكّر من ذلك، وربما إبان الزحف الكبير نحو الجنوب من قبل قبائل جهينة عبر دنقلا.

عاش جدهم حامد الخُوين - استناداً على ما بحوزتهم من نسبة - منذ أثني عشر جيلاً، ويُقال إنه جاء من مصر بمعية أخاه حمد وتوجهوا نحو دارفور، ثم استوطَّن أسلافهم مجزئين فيما بين دارفور وكردفان.

الفروع الرئيسة للقبيلة هم الفراحنة والهبابين والمرامرة والنواهية والعريفية وأولاد أقوي والمجانين والجليدات، والأصل الذي ينتسب له بعض من هؤلاء - بحسب الروايات - يلقي بشيء من الضوء على الصلات القديمة للقبيلة.

---

(١) يشيع استخدام وسم واحد بين الكواهلة ودار حامد، على وجه الخصوص مع المجانين من دار حامد.

يُقال إن أم الفراحنة والهبابين من جبل الميدوب في شمال دارفور[1]، وأم النواهية[2] فارسية من بغداد وجدها حامد ضالّه تحمل طفلًا أصبح - فيما بعد - جداً للبغدادة الذين يقطنون عدة قرى وسط دار حامد. وقيل إن أولاد أقوي يتحدَّرون من حمد شقيق حامد. وأكثر العريفية يتحدَّرون من البرقو. أما الجليدات ففيهم عنصر كبير من العبيد والزنوج.

وبالرغم من إن الثمان قبائل المكَّونة لدار حامد قد تكون على رباط وثيق منذ القدم وحتى الآن بسبب التزاوج، مع ذلك يُعزى إنضواؤهم تحت مسمى واحد - إبتداءً - لشغلهم لدار واحدة تحت قيادة زعيم واحد كقول بيرجاوسين تعضيداً لهذا النظر، حيث يقول: «مع إن قبول الأصل الطبيعي لشخص واحد يمكن أن يُمثِّل أصل كل القبيلة، فإن العرب لا يستبعدون كثيراً تكاثر القبيلة بالنسب، أو حتى بأن تكون تكتلاً لكيانات مستقلة تلتف حول أحد الشيوخ وتأخذ اسم قبيلته».

الأرجح إن الفراحنة والهبايين والمرامرة والمجانين والنواهية من أصل واحد. أما الباقين فبالرغم من قرابتهم لهم، ربما يكون انضمامهم للقبيلة في فترة لاحقة. أما قصة الطفل الذي أصبح جداً للبغدادة فبلا شك هو إسلوب رمزي للتدليل على ضم أسلاف دار حامد - وهم في طريقهم لكردفان ودارفور - لبعض البغدادة الذين سبق وعلمنا بأنهم يستوطِّنون وسط الكنوز بين أسوان وحلفا[3].

أما تاريخ دار حامد فهو غير معلوم حتى القرن الثامن عشر، وربما شهد النصف الأول لذات القرن تسنُم المرامرة بزعامة «كريالو» لقياد القبيلة، ثم حطوا مقسَّمين فيما بين كردفان ودارفور. تعرَّض كريالو لسخط سلطان دارفور لرفضه تجميع القبيلة

---

(١) هناك رواية أخرى عن الفراحنة تقول بأن اسمهم مرتبط بفرعون وإنهم يتحدرون - أصلاً - من تجار مصريين.

(٢) يقال إن كلمة نواهية تأتت من اسم «محمد ناهي» ابن حامد من «أم قسوين».

(٣) يقول بركهارت إن وسط الكنوز بدو من تخوم بغداد يُعرفون حتى الآن بأسم بغدادة. بركهارت ص ٢٦.

حول العاصمة، فسجنه ومنح نحاسه لعبد الحميد شيخ أولاد أقوي، الذي تهيأ ظاهرياً بقوة قوامها الزغاوة والقرعان لإنفاذ أمر السلطان، ولكن بمجرد وصوله لكردفان استرضى الزغاوة وأسكنهم كجمر واسترّق القرعان، ووضع نفسه تحت حماية الفونج. تلي ذلك تمركز دار حامد في كردفان، ويبدو إنهم أثناء نفوذ الفونج على تلك المديرية كانوا يدفعون لهم الضريبة.

ظل النحاس بحوزة أولاد أقوي لثلاثة أجيال - بعد عبد الحميد - ثم انتقل للهبابين الذين أصبحوا الفرع الأقوى والأكثر ثراءاً في القبيلة تحت قيادة زعيمهم وقائدهم العسكري الشيخ أم بدة ود سيماوي. بعد أم بدة تداول النحاس أبناؤه تمساح وعبد السلام وحفيده سيماوي الملقب بـ«جريجير». وبفضل استمرار الزعامة طوال فترة التركية لدى الهبابين، صار الرحّالة يتحدثون عنهم عندما يبغون التعريف بقبيلة دار حامد.

أصبح لكل فرع - في وقتنا الحاضر - شيخه الخاص وليس هناك زعيم موحد للقبيلة (صاحب نحاس)، وأكثر هذه الفروع بداوة هم المجانين لأنهم الأكثر ثراءً، والقسم الأكبر منهم على التخوم الغربية لدار حامد حيث يتجوّلون - في الغالب - حتى شمال غربي المنطقة خلال فصل الأمطار كما يفعل الكبابيش والكواهلة. ومؤخراً - فقط - بدأوا في استصلاح أجزاء من أراضيهم للزراعة، وشيدوا القرى لاستغلال غابات الصمغ، إضافة لذلك فقد إعتمدوا في معاشهم على رعي مواشيهم وأغنامهم، فضلاً عن الإغارة على جيرانهم، وكانت حرفتهم الوحيدة لوقت طويل. هم الآن منفصلين تماماً عن بقية القبيلة[1]، وما زالوا غير مهتدين. هناك فرع مستقل

---

(١) يصفهم التونسي بأنهم قبيلة كبيرة غنية بقطعانها تدفع خراجها لدارفور ويجمعهم مع المحاميد وبني عمران وبني جرار وبعض المسيرية الزرق تحت مسمى فزارة. وصنفهم ناختقال ضمن المحاميد في ودّاي ويصفهم كني (ص ٧٨) كقبيلة قائمة بذاتها وإنهم والمعاليا والكبابيش وبني جرار والزيادية إلتقوا في أم البحر في كردفان، وعندما اشترى شيخهم نحاساً للقبيلة في ١٩٠٦م أعتبر تصرفه حتى من قبل قبيلته تصرفاً مشوباً بالكبر ولم يسمحوا له بضربه.

من المجانين حول الهشابة في شرق كردفان أصبحوا بمرور الوقت منفصلين عن بقية القبيلة تماماً، وأول من لاحظ وجودهم هو البارون فون مولر فيما بين الأعوام ١٨٤٧ - ١٨٤٩م.

تتمثَّل الفروع الرئيسة للمجانين في الآتي:

(أ) عيادية
(١) أولاد جمعة
(٢) أولاد جماع
(٣) أولاد جامعي

(ب) حميدية
(١) تاقولة
(٢) ريوات... الخ

(ج) ناس طيبو
(د) أولاد ماضي
(هـ) أولاد رومية
(و) حيدرية
(ز) غدينات
(ح) أولاد ساعد

(ط) أولاد فضالة
(١) أبو رشيِّد
(٢) مركوك

(ي) مساعيد[1]

ليس للقبيلة وسماً مميزاً للإبل بسم كل فرع وسمه الخاص، ثم يضيف كل بطن علامته المميِّزة.

---

(١) يقال عنهم ليسو مجانين من حيث الأصل والمساعيد المعرفون هم مؤلاء الذين يقطنون على ساحل الجزيرة العربية بالقرب من مويلة وجيان وحوإليها وهم فرع من الحويطات (أنظر برتون في أرض مدين الأول صفحة ٨٧).

الفراحنة:

هم بطن من دار حامد والأكثر ثراءً في إمتلاكهم للأغنام والأراضي، ويحيون حياة الاستقرار، بيد أنهم حديثو عهد بالثراء، وقد أفادوا من وجود العديد من أجود الخيران في أراضيهم ولذا قاموا بريها صناعياً، وهذا قد يدعم القول عن إرتباطهم بمصر، ولهذا السبب آلت لهم الأحواض الصالحة للزراعة. وفروعهم كالآتي:

الشرمة	البريقات
الطُرشة[١]	الفليات
الاقاريب	النعومية
الغُبشان	العوامرة
أولاد حزمة	الشوال
كريمية	

أما الهبابين[2]: والمرامرة فهم أكثر دار حامد بداوة بعد المجانيين، وللفرعين قرى عديدة غرب وشرق الفراحنة - على التوالي - ولا يملكون أي من الخيران. وتتمثَّل بطون الهبابين في الآتية أسماؤهم:

ناس الشيخ [٣]	أولاد حامد
أولاد انيس	أولاد سليمان
أولاد عوانه	الفاس
أولاد سكيران	ناس حمير

---

(١) ورد اسم طرشان في قائمة كيبل عن البدو المصريين وصنفهم بأنهم من أصل بربر كما ذكرهم السيرولسون ضمن شبه البدو من عرب شمال أسوان وهناك طرشان بين أولاد أقوى أيضاً.

(٢) يخلط بالم وويرن بين الهبابين والبقارة من الهبانية وبالرغم من إن مفرد كل منهما هو هباني لكن لا يوجد إرتباط بينهما البتة.

(٣) العلامة المميزة للأسرة الحاكمة هي «جعبة خشم الكلب» شمال الذيل.

أولاد زغاوة	فلاتة
أولاد نكور	أولاد مليت
أم سعدون	نعورة
أبوعمار	ككو
أولاد وسيق	أولاد محمد
الكران	أولاد داير
أولاد بلال	

أما المرامرة فبطونهم كالآتي:

(أ) السمَّينة	(١) ناس هضلول
	(٢) ناس معافي[١]
	(٣) ناس نصار
	(٤) سلام
	(٥) أولاد حاتم
	(٦) ناس بهيل
	(٧) جزيع
	(٨) أبو تنيتم
	(٩) دواشنة
(ب) مصابيح	(١) تُركو
(ج) دار البعج	(١) غبشان
	(٢) ناس أبوعلي
	(٣) كرموسية[٢]

---

(١) نفس الأسمين يظهران وسط النواهية.

(٢) صنف ناختقال الكرموسية كبطن مستقل من فزارة بمعية الزيادية وبقية بطون دار حامد. هناك كرماسية آخرون مع الزيادية حتى اليوم.

وللنواهية ما بين ثلاثين إلى أربعين قرية شمال بارا، وقرى أخرى إلى الشرق جوار أم دم ويحوزون على واحد أوإثنين من الخيران وفروعهم كالآتي:

(أ) أولاد محمد
- (١) أولاد عجيل
- (٢) رشدانة
- (٣) أولاد سعد
- (٤) قنافيد
- (٥) أولاد كريم

(ب) بلالية — (١) البرابيش[1]

(ج) جموعية

(د) مفتح

(هـ) حمدانة

(و) أولاد جمعان — (١) أبوعلوان

(٢) أولاد فريحة

(ز) أولاد عبد الدايم

(ك) أم برور

(ل) نصارية

(م) أولاد معانه

العريفية:

كانوا لوقت طويل في دارفور وربما غربها، وتشربّوا كثيراً بالأعراق الموجودة في تلك النواحي. ويقيمون الآن في الجزء الجنوبي لدار حامد مع الجليدات الذين يقطنون إلى الشرق منهم، وفروعهم هي[2]:

---

(١) أورد بارث قبيلة عربية صغيرة بهذا الاسم تحت زعامة الحجار شمال تمبكتو.

(٢) الأثني عشر فرعاً هي من أربعة أو خمسة أجيال سلفت أما الفروع الثلاثة الرئيسة هي الأقدم.

(أ) عامر	(١) أولاد رمضان (٢) ناس أم برش (٣) الخنسور
(ب) سند	(١) أبو سعود (٢) ناس الضو (٣) ناس كدو (٤) عبد السالم (٥) الحاج (٦) أبو حماد
(ج) عطوة	(١) ناس بلال (٢) ناس بلول (٣) ناس بليل (٤) أبو كسيرة (٥) أبو الرويان

أولاد أقوي:

ويعيشون إلى الجنوب الشرقي عن بقية دار حامد في أم قرفة وشرقاً، بالإضافة إلى إن هناك بعض منهم رحَّالة مستديمون. وفروعهم هي:

أولاد حميد	أولاد جموع
فضلية	عتُّوق
مجلان	أولاد حمود
حجاج	طرشان
أولاد جامع	أولاد ريس

الجليدات:

رغم تصنيفهم ضمن دار حامد، إلا أنهم يعاملون بإزدراء من قبل بقية القبيلة، ويبدو إنهم يمثلون مزيجاً لمهاجرين من قدماء العرب ممن وفدوا لكردفان مع السكان الأصليين من الزنج، بينما يصنِّفهم «ربيل» و«بالم» و«باركنز» وغيرهم ضمن الغديات والجوامعة. مواطنهم الحالية حول جبل أم شديرة في الجزء الجنوبي الغربي لدار حامد، كما مكث الكثيرون منهم في دارفور فيما بين الفاشر ودار حَمَر وذلك في التركية[1]، ولكن بحلول الخراب إبان فترة المهدية لم يتبق إلا القليلين، ومن تبقوا استقروا في كردفان. وبطونهم كالآتي:

ردانا	أولاد والد
ناصرات	أولاد دفين
عكاشية	أم بادرية
أولاد أربود	حربية(٢)

الزيادية:

يتضح من «النسبة» إن الزيادية أقارب حميمين لمجموعة فزارة ايضاً، وورد ذكرهم - على ألسنة الرحَّالة في القرن التاسع عشر مراراً - كأحدي القبائل الرئيسة على السهول الشمالية، ولهم باع في الإغارة على القوافل، والتعارك مع الكبابيش وبني جُرار وحمر على وادي الملك وشرقاً حتى طريق الدبة - الحرازة.

تُقدر ضرائب الزيادية في دارفور - في عام ١٨٨٣م - بألفين وخمسمائة من الجنيهات، أما هؤلاء الذين في كردفان يُقدَّر ربطهم بخمسة وخمسين جنيهاً فقط، بيد أن القبيلة أُفنيت في عهد المهدية. أما الآن فقد استعادت القبيلة اليسير من إزدهارها مع تناسب وجودها فيما بين دارفور وكردفان وذلك بسبب الإضطهاد الذين

(١) يذكرهم بركهارت في دارفور أيضاً في ١٨١٤.

(٢) ظلوا على البداوة حتى العقد الماضي.

تعرَّضت له من قِبَل السلطان علي دينار. لا تزال هناك بطون متبقية من أولاد جابر وأولاد مفضَّل حول مليط والصَيَّاح شمال الفاشر، أما أولاد جربوعة فقد فروا فيما بين الأعوام ١٩٠٤ - ١٩١٣ واستوطَنوا كردفان[1] وهم الآن بأم قورزين على التخوم الجنوبية الغربية لدار حامد، ولما كان لبعضهم ثروات مما تبقي في أيديهم من قطعان، فقد درجوا على قضاء موسم الأمطار بشمال غرب كردفان مع أبناء عمومتهم الرحَّالة من دار حامد والشنابلة. وبطون الزيادية هي:

(أ) أولاد جربوع:

(١) ناس حسن
(٢) ناس أدرق
(٣) ناس شوك
(٤)ناس شيري
(٥) ناس أبوحمام
(٦) عيال سليمان
(٧) عيساوية((٢))
(٨) ناس التوم
(٩) نفايعة
(١٠) ناس كرتوب
(١١) أم دراوة
(١٢) أولادفارس
(١٣) عميرية
(١٤) مسامير
(١٥) قطارنة
(١٦) كرموسية

---

(١) رافقهم في هذه الهجرة في عام ١٩١٣ بعض الجليدات من دارفور.

(٢) يُوجد بعض منهم مع الكبابيش والجوامعة.

(ب) أولاد مفضَّل
- (١) أولاد عوانلة
- (٢) أولاد أمامة
- (٣) أولاد بيبوش
- (٤) أولاد زين
- (٥) أولاد وفي
- (٦) أولاد شهاوين
- (٧) أولاد عواضة
- (٨) أولاد عواضية
- (٩) أولاد جمعون

(ج) أولاد جابر
- (١) عيال سبت النور
- (٢) عيال رقيعة
- (٣) أولاد أبوسهم
- (٤) أولاد تاتون
- (٥) أولاد أبو معالي
- (٦) أولاد حُمود
- (٧) أولادجبارات
- (٨) أولادزيد
- (٩)أولادبربوش أوبرابيش
- (١٠) ناس أم جمعة

ليس للزيادية وسم قبلي مميَّز

بنو جرار:

كان بنو جرار - فيما بين منتصف القرن الثامن عشر حتى منتصف القرن التاسع عشر - بالتحالف مع الحَمَر خصوماً ألداء للكبابيش على مراعي وادي الملك على مدي شمال دارفور وكردفان حتى كجمر. كما إعتادوا قطع طريق القوافل الممتد من

الدبه حتى الحرازه على صحراء بيوضة ونزولاً حتى النيل الأبيض.

ويبدو إن اسم فزاره ينطبق عليهم أكثر من غيرهم من البدو، ولا يُستبعد أن يكون لهم شيء من الروابط الحقة مع فزاره الذين كانوا - إبان القرن الخامس عشر - في صعيد مصر.

ولما كان بنو جرار قد أُزيحوا تدريجياً من كجمر والسهول الشماليه لكردفان على أيدى القبائل البدويه الأخرى -الكبابيش على وجه الخصوص-لذا آثروا التحرُّك جنوباً وإحتراف الزراعه في النيل الأبيض حول «البساطه» فضلاً عن أراضٍ داخليه أخرى بالقرب من «كدمول» في أواسط كردفان. كما درجوا على إرسال قطعانهم للرعي حول «التيوس» حتى شرقي خُرسي.

وللقبيلة - الآن - عدة قرى في مديرية النيل الأبيض، والقليل من القرى حول كدمول. استقر البدو منهم في كردفان مرافقين للكواهلة - أثناء موسم الأمطار - في حلهم وترحالهم، لكن لم يتبق لهم في دارفور أثر في وقتنا الحاضر. وفروع القبيلة الرئيسة كما يلي:

(أ)محابيب

(ب) أولاد ربيعة
- (١) ناس الأحيمر
- (٢) ناس الشعيبة
- (٣) ناس الخلافة

(ج) جبارات[1]
- (١) ناس أبوعة
- (٢) ناس جويد
- (٣) سنوط
- (٤) أم سميرة
- (٥) ناس سالم
- (٦) أولاد جعوت

---

(١) نفس الاسم يتكرر وسط البقارة والزيادية.

(د) أولاد حيلا
- (١) ناس موسي
- (٢) بليلات

(هـ) أبوحجول

(و) أولاد بركات

البزعة:

الإعتقاد السائد هو إن للبزعة صلات قربى وثيقة ببني جرار، لكن الواضح إن تلك العلاقة عرضية، فالبزعة أكثر استقراراً، وأكثر فقراً وأقل عدداً من بني جرار. ولهم العديد من القرى على غابات الصمغ جنوب جبل أم شديرة، وفي كدمول، وعلى تلك المنطقة الجرداء جنوب أم دم حيث يُعد البطيخ المصدر الرئيس للمياه لعدة أشهر في السنة، ثم هناك بعض منهم بالقرب من أبي زبد في غربي كردفان. وبعض هؤلاء الأخيرين يكاد أن يكونوا جميعهم من الرُحّل ويُعرفون باسم «الجعدية»[1]، فضلًا عن إن لهم قرى قليلة بشرقي دارفور حول جبل تسوما. وكان عددهم - قبل قرن - أكثر من اليوم[2]. وتتمثّل فروع القبيلة في كردفان في الآتين:

(أ) محمودية
- (١) حمد الله
- (٢) أولاد ناصر
- (٣)أولاد إحيمر
- (٤) سعيدة
- (٥) أولاد عبد المحمود

(ب) شفيعية

---

(١) ربما كانت لهم صلة مع بني جعد فرع من عكرمة الذين كانوا - في القرن الرابع عشر - حول اسوان.

(٢) قابل بارث «البزعة» على بحيرة تشاد فيما يُعرف الآن بالحدود الشرقية لشمال نيجريا وكانوا قبيلة وثنية مستقلة ذات قوة ونفوذ لهم لغة أو لهجة خاصة بهم وعادات مميزة ولكن بصرف النظر عن تشابة الأسم لا يبدو وإن هناك صلة لهم بالبزعة.

(ج) عبادية أو أبوعباد (١) أولاد حسن
(د) جعدية (٢) أولاد حسين
(١) فارسية
(هـ)نواقية أو نواقات (٢) صبيحات
(٣) أولاد عبد الرحمن
(٤) أولاد البشير
(و) حصنة
(ز) أولاد ضان
(ح) كريمات
(ط) رزقة
(ي) أم تيمان
(ك) فوايدة

الشنابلة:

لاحظ «بركهارت» وجود اسم الشنابلة أو «الشنبلي» مرتبطاً بقبيلة تستوطَن بعض الجبال المتاخمة لدمشق من جهة الجنوب الشرقي ويختلفون - لحد ما - عن الدروز. يقول برتون بأنهم من اللصوص المشهورين وظلوا كذلك على الدوام. حالياً هناك أيضاً شنابلة من البدوين في مصر شرق النهر. وبالتالي ربما يكون الشنابلة الذين في السودان فرعاً لهؤلاء.

والشنابلة قبيلة من رعاة الأبل ويرعون منطقة واحدة شأنهم شأن الكواهلة ودار حامد في كردفان، بيد أن لهم - بالإضافة إلى ذلك - العديد من المستوطَنين بالقرب من النيل الأبيض.

وحسب «النسبة» هم أقارب لمجموعة دار حامد، ويقولون إن روابطهم بهم قد تعمَّقت إبان القرن الثامن عشر، فضلاً عن إن بعضهم استوطَنوا بالقرب من شات

وزريقة - غرب النيل الأبيض[1] - كما انضم آخرون لمجموعة الكبابيش في الشمال. إلتحق بعض الشنابلة بحَمَر ويُعرفون الآن باسم الجخيسات[2]. وهم قوم ذوو ثراء - من بين البدو رعاة الأبل - وينتشرون بدءًا من الأضية حتى فوجا وأم بل ثم - في موسم الأمطار- يتوغَّلون شمالاً.

الفرع الرئيس الذي انضم للكبابيش ظل برفقتهم حتى ظهور المهدية، ثم إنشقوا بمعية الكواهلة وأصبحوا مستقلين منذ ذلك العهد. تتمثَّل بطون الشنابلة في الآتين:

(أ) أم بريش
- (١) عميرة
- (٢) جُعبة

(ز) أولاد هوال
- (١) ناس مرعي
- (٢) ناس معك

(ب) أم عبد الله
- (١) جوارا
- (٢) ناس جمعة
- (٣) ناس أم جاد الكريم

(ح) حمدية

(ط) صبيحات
- (١) أولاد أبو عماير
- (٢) خميساب
- (٣) نافعاب

(ج) أولاد ناصر
- (١) ناس مقبل
- (٢) ناس نكموشة
- (٣) ناس كويعاب

(د) أولاد داني

(هـ) ناس حداد
- (١) ناس سلس
- (٢) ناس فنيحة

(ي) أبو عماير
- (١) نجاجير
- (٢) طيبات
- (٣) ناس ود زين

---

(١) هناك بعض الشنابلة في المسلمية بالجزيرة بيد إن هؤلاء ربما استمدوا اسمهم من شمبول ود مدني. ويُروج محلياً بأن للشنابلة صلات قربي بالحداريب بساحل البحر الأحمر لكن لا يوجد دليل يثبت ذلك.

(٢) تقع قراهم أقصى غرب كردفان وعاصمتهم هي اللعيت أو أبو حبيلات، ولهم شرتاي يرعى شئون القبيلة الإدارية والقضائية.

(و) عوامرة
(١) أولاد فاضل زوراب
(٢) ناس ود عبد الله
(٣) ناس ود نور
(٤) شويحات

(ك) أولاد حشون
(١) ناس نعيم
(٢) أبو رضي
(٣) منعان
(٤) ناس غريرة

تستخدم قبيلة الشنابلة - على إبلهم - وسم «الكرباج» وقد يختلف في الشكل لكنه يُوسم دائماً في الساق الشمال، والمبيَّن بالرسم هو الأكثر شيوعاً من أشكاله. وهو كالآتي: .

المعاليا والمعاقلة:

المعاليا أقارب لمجموعة دار حامد لكنهم أصبحوا مستقلين عنهم تماماً منذ أمد بعيد، وفي أحسن الأحوال هم حلفاء جمعتهم العمومة أكثر من كونهم أخوة إنشقوا عن العائلة الأم.

وتنقسم القبيلة فيما بين دارفور وكردفان، وعلى مشارف الغزو التركي كان ربطهم الضريبي يُقدر في دارفور - بالنسبة للأبالة في الشمال والبقارة في الجنوب - بألف وأربعمائة وخمسون جنيهاً، مقارنة بمبلغ تسعة وأربعين جنيهاً تُجبي من الفرع الموجود في كردفان[1]. وكان التوجُّه لدي المعاليا الكردفانيين - منذ القدم - هو الهروب والنزوح غرباً لتفادي ظلم الأتراك، ولكن بعد إنتهاء التركية والقمع اللاحق لثورة الدراويش، أدَّت بواعث مماثلة لتسرُّب المعاليا من دارفور لكردفان.

بحلول عام ١٩١٦م لم يكن هناك معاليا في شمال دارفور البتة عدا القليلين حول عاصمتهم القديمة - شُكا - في الجنوب الشرقي، أو هؤلاء الذين إلتجأوا للعيش وسط جيرانهم الأقوياء من الرزيقات. لكن بسقوط علي دينار - في ١٩١٦م - بدأت مرحلة الهجرة العكسية من كردفان لدارفور. وبالرغم من إن المعاليا ما زالوا كثيرين في كردفان، إلا إنهم ظلوا حريصين على استعادة مستوطَّناتهم القديمة في دارفور،

(١) يستخدم فرع بشر من العنزة في الجزيرة العربية رسم مماثل أي .

والأرجح إنهم ظلوا مقسَّمين بالتساوي بين المديريتين منذ وقت طويل. وكان موطنهم الرئيس في كردفان حول جبل جليت (كليت) جنوب المجانين وغرب بقية دار حامد، إلا أن هناك الكثيرين سكنوا النهود والأضية وأم روابة[١] والدلنج والأبيض. حيث صار بعضهم مستقرين بيد أن البداوة هي طابعهم العام.

في موسم الأمطار يُوجه المعاليا قطعانهم نحو الشمال الغربي، وفي الصيف تبقي الأغلبية في القرى إلا أن أغلب المواشي تُساق جنوباً للرعي مع البقارة. وتتمثَّل فروع القبيلة في كردفان في الآتي:

(أ) أم حماد[٢]

(١) مكريم (أم كريم)

(أ) عقاربة

(ب) ناس فرج

(ج) أم عجالي

(د) حربية

(هـ) دار الخادم

(و) أولاد أم جمعة

(ز) أولاد خيارة

(ح)أولاد عطاالله

(ط) أولاد أم حامدة

(ي) سرورية

(ك) رشيدات الخ

(ب) أم الحتاشة

(١) خوابير[٣]

(أ) أم فلاح

(ب) جويل

(ج) أولاد رشدات

(د) حديبة

(هـ) خوابير الحمُر

(و) جنابلة

(٢) عليقة

(أ) أبوقصير

---

(١) ربما كان هؤلاء هم الذين سمع عنهم بركهارت بأنهم يعيشون بين الأبيض وديار الشلك.

(٢) ربما يكون بين هؤلاء المعاليا بعض المعاقلة الذين ليسو معاليا حقيقيون البتة.

(٣) لا يوجد أي من هؤلاء في كردفان وبنهاية التركية كانوا واحدة من القبائل النافذة في دارفور.

المعاقلة:

هي القبيلة الأصغر والأكثر استقراراً، ويعتبرهم المعاليا أتباعاً لهم بيد إن القبيلتين تختلفان في أصولها. والمعاقلة في كردفان مستقلون حتى وقتنا الحاضر، ونجدهم حتى في دارفور - التي يشكّلون فيها مجموعة ثانوية - ميالين لهذا الاستقلال. وبطونهم في كردفان كما يلي:

سماعين	دوره
عبادية	تروم
أمامير	ناس سلام
شيلا	أولاد ضاهر
أم سلمان	شليمات
بلال	بشارية
ناس لازم	عيال شنبول
أولاد حسب الله	بشارة
*دار والد	كجابيل
*شرك	أولاد جمعة
*ربيدات	أولاد أبوحماد
*لعاسنة	أم زيادة
*كلبة	عيد الحبيب
*كناكيل	علونة
أولاد حريز	غرير

أي من البطون أعلاه يُصنَّف - نظرياً - إما سماعين أو بشارية، وهناك عمدة لمجموعة سماعين وآخر للبشارية، بيد أن كل عمدة يقع تحت إدارته الكثيرين من أتباع البطن الآخر للقبيلة بحيث لا يمكن وضع فواصل مادية بين المجموعتين.

تجدر الملاحظة بأن مسميات «عبادية» و«بشارية» ربما تشير لإرتباط بالشرق،

* ملحوظة: كل تلك المجموعة من ذوي القربي الوثيقة.

خصوصاً وإن هناك رواية وسط البشارية تقول بأن الحاج بشاري - وهو فقيه من الشرق - تزوَّج بجدتهم خضرة، وإنهم ليسوا عرباً مطلقاً بل أصلهم بجة ولهم عدة أقارب في الصحراء الشرقية. ليس هناك ما يدعو للإفتراض بأن للفرع الآخر من المعاقلة - أي سماعين - إرتباط بالبجة أو إن البشارية - من وجهة النظر الإثنية - ليسوا سوى أجانب.

كل القبيلة تدَّعي تحدُّرها من مجموعة فزارة، ويتضح هذا من النسبة، والوحيدون الذين لاحظت بأنهم يشتركون في هذا الاسم مع فرع المعاقلة من بلي، هم العشيرة الحاكمة من تلك القبيلة في مصر وعلى الساحل العربي بالقرب من «ويق». ومن الجائز أن يكونوا ذوي قربى بالفرع الكبير من بني هلال المسمي بـ«المعقل» التي حرفها ليو أفريكانو لـ«ماشل» (Machill) ومارمول لـ«ماكهويل» (Mahequil). أصلهم من اليمنيين الذين انضموا لمجموعة بني هلال في غزوهم الكبير لبربري.

أما ما يثور من تساؤل عن العلاقة بين معاقلة كردفان وغيرهم من المعاقلة فهو أمر لا يمكن القطع به في وقتنا الحاضر.

دويح أو الدويحية:

دويح قبيلة ثانوية صغيرة تعيش مشتتة من النيل وغرباً، وإبان الاحتلال التركي عاش بعض فقهائهم في ديار الشايقية في شيبا وذاع صيتهم محلياً، إلا أن الشايقية الذين إعتمدوا على رقياهم وتأكيداتهم في إمكانية صد الغُزاة[1]، أقاموا لهم مذبحة جماعية وهدموا قريتهم عندما إكتشفوا إنهم وقعوا ضحايا لتضليل هؤلاء الفقهاء.

يعيش القليل من الدويحية - في وقتنا الحاضر - مشتتين في قرى النيل الأزرق كالمسعودية مثلاً، إلا أن الفرع الرئيس للقبيلة - وهو صغير جداً - يحيا حياة البداوة والترحال برفقة الكواهلة في كردفان على مدار السنة.

---

(١) أي الغزو التركي في ١٨٢١م.

الفرع الرئيس للدويحية في كردفان هم أولاد سالاتي ووسمهم للجمال هو الهلال وهو نفس الرمز الذي يستخدمه فرع دار حامد - بطن من الكبابيش - ويُوسم على الجانب الأيمن للعنق.

المسلمية:

تقول هذه القبيلة بأن لا علاقة لها بالجعليين أو مجموعة جهينة، وإنهم يتحدَّرون من أبي بكر الصديق - الخليفة الأول للمسلمين - وعلى هذا الأساس يطلقون على انفسهم اسم «البكرية» شأنهم شأن المشايخة. ويبدو من النسبة إنهم أقرباء لدار حامد وغيرهم من جهينة، ويقيمون الآن بالجزيرة حيث أسبغوا اسمهم على المركز الذي يقيمون فيه، ثم على جانبي النيل الأبيض فضلاً عن الجزء الشرقي لشمال النيل الأزرق.

والذين يعيشون في المسلمية بالنيل الأزرق، فضلاً عن هؤلاء الذين في النيل الأبيض أصبحوا من الحضر. ومن بطونهم العنافلة والوشكاب وجميعهم على الضفة الغربية للنيل الابيض. ثم الشبيكاب والونيساب والمغيرباب والهباكية وغيرهم على الضفة الشرقية منه. أما هؤلاء الذين على الضفة الشرقية للنيل الأزرق فلديهم القليل من القرى أشهرها أم ضبان[1]، ويزرعون وادي حسيب وغيره من الوديان. وهم متطبِّعون بطابع البداوة وظلوا كذلك حتى حلول القرن التاسع عشر. أما مراعيهم فليست واسعة ولا تكاد تتجاوز الحدود الغربية للبطانة.

وإعتادوا رعي قطعانهم وحفر الحفائر وزراعة الأراضي الداخلية التي تبعد عدة أميال من النيل، لكنهم لم يحصلوا على أية حقوق على شطآن النيل الأزرق كالمرفاعة

---

(١) أم ضبان مشيدة بصفة رئيسة - من الطين، وقد أنشئت قبل سبعين سنة على أيدي الأبراهيماب، أي والد الشيخ العبيد محمد بدر. والأخير كان أحد قادة الدراويش المشهورين وقاضي الخليفة عبدالله. توفي عام ١٩١٥م وبأم ضبان قبتين مدفون بها أسلاف الأسرة. تحرَّف الاسم الآن لأم ضواً بان.

والمهاجرين من المحس.

تتمثَّل ثروتهم الرئيسة في الأغنام والماعز بيد أن لهم أعداد مقدَّرة من المواشي والجمال، ويسمون إبلهم على العنق بوسم يُسمى «الحشّاشة» حسب النموذج



وينقسم القطاع الرعوي من المسلمية على الوجه الآتي:

براهيماب خلفلاب

حماطرة شويماب

حسيناب غسيناب

سهلاب صابراب

بمبوناب رزقات

هضاضيل

الفصل الثالث

تابع مجموعة جهينة
«البقَّارة»

لا تحمل عبارة بقَّارة مدلولاً آخر سوى رعي الماشية، وتُطلق إبتداءً على مجموعة كبيرة من الأقارب ذوي الأصل الواحد من الرُحَّل وأشباههم من القبائل العربية الذين يستوطِّنون ذلك الحزام الغني الكائن في المنطقة التي يمكن تحديدها - بوجه مُجّمل - بجنوب المتوازي الثالث عشر لخط العرض والذي يمتد من النيل الأبيض حتى بحيرة تشاد[1].

والشكل النموذجي للبقاري في صورته المثلى - بوجه عام - إنه يتميَّز بغموض لون البشرة وجمال التقاطيع. عيونهم كعيون الصقر مع لحية متناثرة تتدلى نحو الأمام وشوارب منتصبة الشعر مشذبة. ويرسل الفتية شعورهم في شكل ضفائر من مفرق الشعر إلى الخلف، لكن هذه العادة تلاشت في مراحل لاحقة[2]. ومن عادتهم التسلُّح بحربة كبيرة ذات شفرة طويلة.

تتخذ النساء والفتيات الثيران كركائب، ويحلِّين أعناقهن بعقود كبيرة من العنبر[3]

---

(١) عبارة بقارة تُطلق أحياناً بوجه صحيح على بعض القبائل من رعاة البقر مثل كنانة والحسانية والبديرية في كردفان والمعاليا الخ. لكن هؤلاء ينتمون لمجموعات مختلفة تماماً ولا تصح عليهم التسمية الا في بعض الأحايين تبعاً لنوع أنعامهم. أما اسم بقارة فيقتصر استخدامه في السودان بمعناه الشامل على من جرى حصرهم في هذا الفصل.

(٢) عن المسيرية يقول براون بأنهم يصففون شعورهم إلى الخلف ويشدونها في شكل ذنب العقرب.

(٣) هذه الموضة تشيع وسط نساء الكانمبو أيضاً.

فضلاً عن حُلي فضية تُشبك في مفرق الشعر. أما شعورهن فتُسدل في شكل ضفائر من فوق الرأس ثم تُجدل على شكل ضفائر عرضية على الجبين، ويتزيَّن بحلقان كبيرة على الأذنين مع غرز ما يُسمى بالزمام على الأنف. وتُظهر نساؤهم القليل من الحياء، ولا يتكلَّفن التواضع المبالغ فيه أو الكتمان الذي هو خصلة تمتد من مصر وعلى طول وادي النيل، بل على العكس من ذلك فالفتيات بالرغم من إنهن لا يتجاوزن حد الوقار ويلبسن الرهط ويئتزرن بقطعة فضفاضة من القماش بما يستر سوءتهن من الأمام والخلف، مع ذلك يبقين الصدور والأفخاذ عارية. أما بين الرجال فمن المعتاد ملاحظة هيئة الوجه ونتوء الجبين البارز، والفم العريض والذقن الرفيع الذي يُذكِّر على الفور بالفلاته الذين تثبت الحقائق الراسخة بأن أعداداً كبيرة منهم تعايشوا مع البقارة منذ بواكير هجرتهم لأواسط أفريقيا. ويصح هذا القول - بوجه خاص - على السلامات والحيماد أي بقارة أقصى الغرب الذين يعيشون وسط مجموعات من السكان أغلبهم من الفلاته، ويبدو إن فيهم بطون تنتمي أصلاً للفلاته. ونفس الحال ينطبق على البقارة الشرقيين أيضاً كما سنرى عند تناولنا لقبائل الحوازمة.

إذا استثنينا الشايقية، فالبقارة هم أكثر عرب السودان حباً للقتال وأكثرهم تأصُّلاً في الإغارة وتجارة الرقيق، إذ يعيشون - كما هو حالهم دائماً - على التخوم الشمالية لديار الزنوج، مُشبعين رغبتهم في السلب والنهب كيفما شاءوا ومنذ أمد بعيد دون أن تطالهم يد الحكومة. وذات الخصائص التي جعلت منهم مقاتلين أشاوس وصيادين مهرة، كانت تضعهم دائماً - منذ قدومهم لأفريقيا - في صدام مع حكام تلك المجموعات الحضرية التي تستوطِّن المناطق الواقعة شمالهم مباشرة، ونعني بهؤلاء السلاطين والملوك في برنو ووداَّي ودارفور وكردفان.

في موسم الجفاف يتوجه البقارة بمواشيهم صوب الأنهار في الجنوب، وهناك يمارسون صيد الأفيال ويغيرون على الزنوج، أما في موسم الأمطار فيتراجعون عن المناطق الجنوبية ذات التربة القطنية الناعمة التي تعج بالذبابة، ويتوجَّهون شمالاً نحو المراعي الجيدة على الأراضي الأعلى حيث يزرعون ويرعون قطعانهم. وفي هذا الوقت بالذات يشتبكون مع المستقرين من رعايا تلك السلطنات.

لم يفلح البقارة - بإختلاف بطونهم - إلا في التهرُّب السنوي من الوفاء بالضرائب وتحقيقاً لهذا الغرض إعتادوا الترحال شرقاً أو غرباً في فترات بعينها، على طول الخط الذي تنعدم فيه المقاومة وأصبحت بطونهم المختلفة تنتقل من مكان لآخر ومن قبيلة لأخرى حتى أضحت فكرة تجميعهم ضرباً من المحال.

آثرت فيما يلي من تفاصيل أن أتناول القبائل بحسب مسمياتها الحالية كوحدة، وبناءً على ذلك صُنِّفت بطونها المختلفة. لكن يبدو جلياً من قوائم تلك البطون، مستصحبين الماضي البعيد للبقارة، بأن لا وجود لخط جامد وحقيقي للتمييز بين قبيلة وأخرى.

ففي كردفان - إذا استبعدنا الإضطرابات التي لازمت فترة المهدية - نجد أن هناك حكومة مستقرة لحوالي قرن من الزمان، لذا تبلورت قبائل البقارة - بطريقة أو بأخرى - في شكلها الدائم، أما في دارفور فقد بقيت الأحوال القديمة سائدة كما هي حتى الإطاحة بعلي دينار في العام ١٩١٦م حيث استمر الوضع القديم كما هو، فلجأت العديد من الأسر وباستمرار تنشد حماية الرزيقات الأشدَّاء، بينما آثر آخرون - مثل البني هلبة - الهجرة إلى ودَّاي. شكَّل احتلال دارفور إشارة للكثيرين من البني هلبة وغيرهم من اللاجئين للهجرة العكسية سعياً لاسترداد مراعيهم السابقة.

تبدو قبائل البقارة في أفضل صورها في كردفان حيث إحتفظوا بطابعهم الرجولي، وبقوا على استقلال، بينما تتجلى أسوأ أحوالهم في دارفور - باستثناء الرزيقات - حيث تعرَّضوا للظلم المتلاحق، ونُهبت أموالهم وتحوَّلوا لشبه مستقرين من الكسالي متبلدي الإحساس.

والتقسيم الحالي للبقارة، يبدأ بأقصى الشرق - على ضفاف النيل الأبيض - حيث يُوجد بنو سليم، أما في كردفان فهناك أولاد حميد وفرع من هبانية دارفور - يستوطِّنون جنوب أم روابة وحول تقلي، ثم الحوازمة - بين الابيض والدلنج وتلودي[1]

(١) توجد مستوطنة صغيرة لهم بمركز قاما بالنيل الأزرق.

- والمسيرية - جنوب أبو زبد - وأخيراً الحُمر بين الأضية وبحر العرب. أما في جنوب دارفور يُوجد الرزيقات وفيهم المحاميد والنوايبة كما يُوجد الهبانية والتعايشة وبني هلبة مع القليلين من بني خزام. ثم إلى الشمال يُوجد بعض المسيرية والتعالبة والحوطية والصعدة والترجم وبني حسين وباشر. وفي ودّاي وبرنو وباقرمة، يُوجد بنو هلبة وبنو خزام والنوايبة وبنو راشد (رواشدة) والزيود والسلامات.

ولما كان كل كُتّاب النسبة من النيليين، فقد ترجَّح لدَّي بأن لا علم لهم إلا بالقليل عن هؤلاء البقارة الذين على منأى منهم، وهكذا ظلوا يغفلونهم حيناً أو ينسبونهم لأجداد مجهولي الهوية في أغلب الأحايين. وما يستفيده المرء من النسَّابة التقليديين ويترجَّح صدقه، هو إن كل من البقارة ورعاة الإبل من مجموعة فزارة في الشمال، أصلهم من مجموعة جهينة العظيمة[1]. فضلًا عن إن الذين لا ينتمون لفزارة من هذه المجموعة ليسو كلهم من البقارة، بل ينقسمون - كل قبيلة على حدة - لرعاة ماشية في الجنوب وأبّالة في الشمال. فعلى سبيل المثال، يظهر المحاميد والمهرية كقبائل مستقلة من رعاة الإبل في شمالي دارفور وودّاي. في حين يشكِّل محاميد ومهرية آخرون ثلثي قبيلة الرزيقات في جنوب درافور. ويسهل استنباط كيفية حدوث هذا الوضع. لأن العرب عند دخولهم الدول الوسطى[2] أتوا - دون شك - بجمالهم وأغنامهم، والإفتراض هو ألا تكون بحوزتهم مواشٍ أو القليل منها فقط. ولما كان وجودهم يشكِّل إزعاجاً للأهالي ممن يزرعون الحزام الأوسط بحيث لا يأمنون على قطعانهم، كان من الطبيعي أن يتخيَّروا البقاع شبه القاحلة في الشمال، مع التوجُّه نحو الغابات والبقاع الموجودة في الجنوب. ولما كانت الجمال لا تتحمَّل العيش في الجنوب وهذا يرجع - بالطبع - لوجود ذبابة التسي تسي وغيرها من الحشرات والزواحف السامة، آثر هؤلاء المهاجرون العرب تقليد المواطنين الأصليين،

---

(١) سنرى فيما بعد إن مصطلح جهينة يستخدم بوجه مبهم يشتمل على أعداد من القبائل الغربية ذات الصلة وعلى وجه الخصوص قبيلة حرب.

(٢) يبدو أنهم وطدوا أقدامهم بالدخول مسالمين وليس عنوة.

وهكذا إمتهنوا تربية المواشي. وهذا مجرد رأي عن أحد الأسباب التي أدت لتفرُّع القبيلة الواحدة. لا يُوجد أي وجه لنفي الإفتراض بوجود بواعث أخرى يمكن الأخذ بها كمسببات للوصول لنفس النتيجة. أما من توجُّهوا جنوباً فقد تزاوجوا مع السكان القدماء من الزنوج وأصبحوا أغمق بشرة، بينما إمتزجت المجموعات الشمالية في الغرب - لحد ما - بمجموعات التبو، لكنهم ظلوا محتفظين ببشرتهم الفاتحة.

يثور تساؤل هام يستدعي التوقُّف، وهو، هل وصل البقارة لمواطنهم الحالية عن طريق النيل؟ أم إنهم دخلوا عبر الجنوب أو جنوب شرقي أقاليم تشاد وبرنو ووداّي شمال أفريقيا ومن ثم إنطلقوا شرقاً صوب النيل؟

إن واقعة اعتبارهم لعبد الله الجهني كجدٍ لهم، واعتبارهم لمجموعة فزارة كأبناء عمومة[1] لهو دليل يصب في مصلحة وجهة النظر الأولى. ثم إن هناك دليل أيضاً في مخطوطات «النسبة» السودانية والتي لا تشير لأي هجرة من الجنوب الشرقي. من الناحية الأخرى فإن رواية عبد الله الجهني تختص بالمهاجرين من النيل، فضلاً عن إن بعض البقارة لا يزعمون بوفود أجدادهم من تونس أو فزان مباشرة بإبلهم إلى تلك البلدان الواقعة غرب درافور. وفي معرض شرح أنسابهم وتاريخهم يقول آخرون بأن جداً بعينه هو الذي أحضر القبيلة من برقو «أي وداّي» إلى كردفان، وقيل إن هؤلاء الأسلاف عاشوا منذ حوالي خمسة إلى تسعة أجيال مضت، وإنهم أبناء لهؤلاء الأسلاف الذين أسبغوا اسمهم على تلك الفروع المختلفة. وبالرغم من عدم وجود أي مبرر للشك في إن أعداداً مُعتبرة من العرب قد زحفوا جنوباً قادمين من تونس والجزائر والمغرب صوب أواسط أفريقيا تبعاً لغزو الهلاليين لشمالها، ورغم إن ما ينبغي على المرء الإعتراف به هو أن ذيوع رواية أبوزيد الهلالي ليس لها إلا صدىً محدود لدى قبائل البقارة، مع ذلك ففي حوزتنا أقوال ابن خلدون القاطعة التي تشير لتدافع جهينة في النصف الأول للقرن الرابع عشر عبر أراضي النوبة، ومنها تسرَّبوا وبسرعة نحو الأراضي الداخلية تبعاً لمساقط الأمطار. هناك آراء حديثة تطفو

---

(١) لا توجد مدونات لانساب البقارة لكنها كتبت من روايات شفوية إتسمت بالاختلاف الشديد.

الآن بشدة لصالح النظر القائل بقدوم البقارة من الشرق. فعلى سبيل المثال يقول «بارث» عن «الشوا» - وهو اسم يُطلق على شبه المستقرين من عرب البقارة في برنو وباقرمه وتشاد وبخاصة السلامات - يقول: «ليس هناك أدنى شك في إن هجرة هؤلاء العرب جاءت من الشرق، لقد زحفوا تدريجياً عبر الأجزاء الشرقية لأرض الزنوج» يُلاحظ اختلاف لهجتهم عن لهجة المغاربة تماماً، كما ظلوا محتفظين - في كثير من الأحايين - بجزالة وفصاحة لغة الحجاز. ينقسم هؤلاء الشوا لعدة عوائل أو عشائر تتميَّز عن بعضها البعض، وربما يشكلون في برنو كثافة سكانية تتراوح فيما بين المائتي ألف إلى المائتين وخمسين ألف نسمه، يضيف «بارث» بأن هجرتهم من الشرق ربما تمت تدريجياً ومنذ أوقات موغلة في القدم، لكننا لا نملك - في الوقت الحاضر- أدلة تاريخية قاطعة بشأن هجرة تلك القبائل العربية لبرنو لما قبل زمن إدريس العوام» (١٥٧١ - ١٦٠٣) ميلادية. ثم يستدل بنظام «الدية» - الذي يتبعه كل البدو من عرب السودان - وعدم ختان الأناث كأساس للربط بين عرب الشوا «السلامات» والشرق. وعلى ذات النهج يقسِّم «كاربو» الشوا لمجموعتين واحدة في الشمال والأخرى - مجموعة جهينة - في الشرق، وهو أيضاً يبدي ملاحظته بشأن إطلاق اسم «نوبة» على المسلمين من السكان المحليين - من غير العرب - على أساس إنها تُعطي وزناً للرواية المتداولة بالإقامة المبكِّرة فيما يُعرف الآن بالسودان الإنجليزي المصري. وعلى ذات المنوال فإن تسمية العرب الغربيين للكانمبو بالهمج[1]، يشير بوضوح للإرتباط بقبائل جهينة الذين بلغ عددهم - في القرن السادس عشر - إبان حكم الفونج إثنان وخمسون قبيلة في منطقة سوبا على النيل الأزرق، رغم إن أغلبهم كانوا في الغرب. وفدت مجموعات جهينة الرئيسة في القرن الرابع عشر وما يليه من قرون كرعاة للإبل والأغنام ويبدو إنهم توغَّلوا غرباً حتى برنو ولكننا لا نعلم كم مضى من الزمن

---

(١) يبدو إن كاربو غير ملم بوجود قبيلة تسمى «الهمج» في شرق السودان وبالتالي فشل في تفسير الكلمة وكذلك ناختقال. وعلى أية حال لا يوجد دليل على هجرة الهمج من الشرق للغرب أو العكس في أي وقت من الأوقات وإن كلمة همج لا تعدو أن تكون تعبيراً عربياً صِرفاً للتعريف بغير المتمدنين.

على هذا التوغُّل الذي طال أقصى الجنوب، كما لا نعلم متى تحوَّلوا لبقارة.

أما في كردفان فقد استبقهم جعليو دنقلا ممن استوطَنوا حول الرهد والبركة وتزاوجوا مع النوبة، وربما تحَّول عرب جهينة لمربي ماشية في مناطق غرب كردفان أولاً، ثم في تاريخ لاحق - من خمسة إلى ثمانية أجيال مضت - برزت حركة للعودة شرقاً بسبب السياسات المعادية في الغرب. هكذا آثرت مجموعات مختلفة من البقارة الهجرة للانضمام لبني جلدتهم في جنوب كردفان.

انضمت لعرب البقارة فئات من البربر المستعربين الذين وفدوا من شمال أفريقيا، وربما كان انضمام هؤلاء الوافدين الجدد هو السبب في وجود الرواية - المشكوك فيها أصلاً - والقائلة بعدم قدوم البقارة من النيل بل من تونس. وفي كل الأحوال يفترض صعوبة التوفيق بين كل من رواياتهم عن أبي زيد الهلالي ذات الإرتباط بتونس وحقيقة إن أصل هجرتهم من النيل التي أوجدت رواية «الطريق الكبير» لأبي زيد من الشرق على النيلين الأزرق والأبيض وكردفان. سنتناول فيما يلي من فصول قبائل البقارة من الشرق حتى الغرب.

بنو سليم:

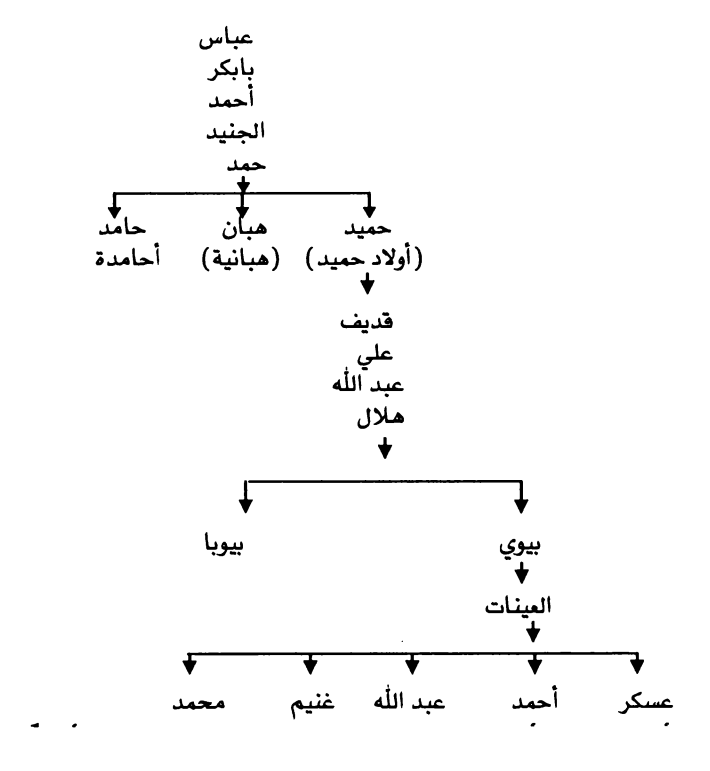
لا تسعفنا النسبة بشيء ذي أهمية عن بني سليم. بيد أن ديارهم الحالية تمتد جنوباً حتى كاكا، وهكذا فهم شمال الشلك والدينكا وجنوب الأحامدة. والراجح إنهم لم يتمكَّنوا إلا خلال القرنين الماضيين فقط من أن يتسيَّدوا شطآن النهر على حساب قبيلتي الشلك والدينكا.

في الخريف تجبرهم الذبابة للتوجه شمالاً أو شرقاً على النهر. وكقبيلة فقد إمتزجوا بكثافة مع الدينكا، ولم يحترفوا الزراعة بل أصبحوا يعتمدون على الدينكا والشلك في الحصول على الغلال. ورغم إنهم من البقارة إلا إنهم - منذ تحرُّكهم نحو النهر - أصبحوا من مربيي الأغنام أكثر من كونهم رعاة للماشية، وبطونهم الرئيسة

هي أم طارف وأولاد محبوب[1].

أولاد حميد:

تقع ديار أولاد حميد حول تقلي، ويدَّعون التحدُّر من الجنيد الجد التقليدي للبقارة، الذي يتحدَّر - بدوره - من بابكر ود العباس، وهو جعلي جاء مهاجراً إلى كردفان. والشجرة التي يبرزونها لإثبات هذا الإدعاء كالآتي[2]:



(١) تاريخهم غير معروف. تحدث باتريك عن حملة وجهت ضدهم في ١٨٥٨ بواسطة الأتراك من كردفان بسبب إمتناعهم عن سداد الضرائب، وأُخذت منهم - تبعاً لذلك -عدة آلاف من المواشي.

(٢) يذكر المؤلف بأنه تحصَّل على القائمة من الكاتب م. ج هويتلي مفتش مركز تقلي في ١٩١٣م.

ويقولون بأن العيان هو أول ناظر للقبيلة، ويبدو إنه عاش في التركية (أي ١٨٢١)، ومن خلفائه الثمانية كان ديدان هو الناظر إبان الثورة المهدية (أي في ١٨٨١).

الأجيال السابقة للجنيد - كما هو وارد لديهم - يُفترض فيها التلفيق رغبة في الإنتماء لقريش، أما من تلوه فربما كانوا أكثر قبولاً. لكن الأسماء «بيوي -وبيايا» ليست أسماء عربية، بل على الأرجح ذات صبغة نوبية[١].

اسم الجنيد وروابط القربي بين أولاد حميد والهبانية هي مجرد تذكرة بشجرة البقارة المعتادة التي تجمع هاتين القبيلتين - دائماً - بالتعايشة.

قال ناختقال عن أولاد حميد في ودّاي وبرنو، بأنهم ذوو قربي بالبلالة. وفي هذا الصدد يقول: «بأنهم هاجروا من الغرب إلى السودان واستقر جزء منهم في فتري، ومن هؤلاء قامت تلك الدولة التي سادت إقليم كوكا وبحيرة فتري وكانم. أنتهج هذا الفرع من أولاد حميد حياة الاستقرار وإمتزج مع الكوكا وتبنى لغتهم إلا إن اللغة العربية تار لسى لا زالت منتشرة بينهم»[٢].

إذن فالمكوِّن العرقي لأولاد حميد بكردفان يدل - جزئياً - على إنهم بقارة أقارب للتعايشة والهبانية، ثم نوبة من أصول تقلاوية في الجزء الآخر. ويبدو إن أجدادهم استقروا حول تقلي إبان التحرُّك الكبير لجهينة بعد أن وجدوا المناصرة من قبل آخرين من بني جنسهم الذين عادوا من البلدان الغربية التي سبق وهاجروا لها إبان بداية استقرار بني جلدتهم في كردفان. وكما هو الحال بالنسبة لأسرة تقلي الحاكمة، فربما خالط أولاد حميد شيء من دماء الدناقلة، مما كان حافذاً كافياً لتطلُّعهم في الانتساب للجعليين. والمحتم إنهم تزاوجوا أو ضموا لمجموعتهم عوائل مختلفة من البقارة الآخرين.

---

(١) يذكر المؤلف بأنه تحصَّل على القائمة من الكاتب م. ج هويتلي مفتش مركز تقلي في ١٩١٣م.

(٢) أنظر رحلة إلى ودّاي ودارفور ناختقال (ترجمتنا) ص (٢٧).

لم تزودنا فترة التركية بأي جديد عنهم سوى المنازعات حول المراعي والقتال العابر فيما بينهم والهبانية، ثم بينهم وفرع الحلفا من الحوازمة. ولم تكن النتيجة - في آخر الأمر - جيدة لأولاد حميد، لانهم بإندلاع الثورة المهدية فقدوا الكثيرين من رجالهم، والجزء الأكبر من قطعانهم. ففي البدء بادروا بمقاومة المهدي لكنهم سرعان ما سُحقوا، وانضم من تبقى للدراويش.

وعند إعادة احتلال السودان عاد المتبقون من أشتات القبيلة لمواطنهم القديمة وهم أكثر قابلية لإعادة ترتيب أوضاعهم.

الهبانية:

الهبانية الذين يعيشون فيما بين الرهد وشركيلا هم فرع لقبيلة بذات الاسم في دارفور، إذ هاجروا من الكلكة التي لا تزال العاصمة الأم للقبيلة من أربعة أو خمسة أجيال سلفت ولهم في كل من كردفان ودارفور العديد من القرى. والهبانية أقل بداوة من معدل بقية البقارة. ومن ناحية الانتساب القبلي هم ذوو روابط وثقى بالتعايشة. وكان لفرع كردفان - إلى ما قبل المهدية - خلافات دائمة تارة مع الجوامعة والجمع والحوازمة وأولاد حميد ومع قبائل تقلي تارة أخرى.

قُدِّر عدد الهبانية - في ١٨٧٦م - بثمانية آلاف نسمه، وعندما أُعيد تقدير ربطهم الضريبي في ١٨٨١م، بلغ المُستحق على فرع كردفان، مبلغ مائتان وخمسة عشر جنيهاً، مقابل ألفين وستمائة وأربعين جنيهاً على هؤلاء الذين في دارفور. لكن مقتضيات الهجرة التي حدثت في السنوات الأخيرة - وبالأخص بالنسبة لبطن الريَّافة - ساوت بين الفرعين.

يقطن الفرع الرئيس للقبيلة على حدود دارفور حيث يحدُّهم الرزيقات من الشرق والتعايشة من الغرب والمساليت من الشمال والدينكا من الجنوب، وتشبه ديارهم - بصفة عامة - دار حمر والرزيقات، إلا أنها تتوغَّل جنوباً. وهكذا فهم

يعانون من الذبابة والطبيعة السبخية للمنطقة، ويزرعون الغلال بمقدار أقل من بقية البقارة الذين يقطنون شرقهم، لذا يعتمدون - لحد كبير - على الأرز البري والدفرة، كما يشيع بينهم صيد الأفيال.

ينقسم الهبانية إلى تارا وسوط، وتُعرف بطون السوط - مجتمعة - باسم الزيادات. ليس هناك خطوط جامدة للتمييز بين فرعي القبيلة في كردفان ودارفور، وأغلبهم - إن لم يكونوا جميعهم - ضمن البطون التي سيرد ذكرها والتي تشيع بين الفرعين على السواء.

(أ) طارة

(١) شيّبة:
- (أ) أولاد حميد
- (ب) نولا
- (ج) حوايلة
- (د) مريرات
- (هـ) هليلات
- (و) سلمانيه
- (ز) أولاد سعود

- (أ) أولاد عايد[1]
- (ب) أولاد زيد
- (ج) أولاد عامر
- (د) أولاد جرجار
- (هـ) الدرابين
- (و) أولاد بيلو
- (ز) الكمارسه
- (ح) أولاد رحيمة
- (ط) أولاد إدريس أو أم إدريس
- (ي) الكجامة
- (ك) المهادة
- (ل) الهديلي

(٢) شيبون:
- (أ) أولاد دلوته
- (ب) أم عقب
- (ج) أولاد معافي

(١) تلك البطون الأثني عشر موجودة في كردفان وكلهم ينتمون إما لشيبة أو شيبون.

(ب) السوط

(١) الريافة:
- (أ) أولاد أبوعياد
- (ب) الفريجات
- (ج) أولاد أبونجاد
- (د) أولاد سعدان
- (هـ) ناس كلبي
- (و) المساعيد

(٢) شبول[١]:
- (أ) الفنات أو القنيات
  - (أ) أولاد أم سنطه[٢]
  - (ب) أولاد سعدان
- (ب) أولاد بركوي
- (ج) أولاد ابو علي
- (د) البدراين

الحوازمة:

ربما تكون قبيلة الحوازمة هي الأكثر إختلاطاً بالأغراب من بين قبائل البقارة الأخرى كما عرف كُتَّاب النسبة، وذلك لأنهم يعيشون معظم شهور السنة وسط قرى البديرية وغيرهم من شبه العرب على تلك المنطقة التي تقع شمال جبال النوبة مباشرة. ولا يعدو فرع الحلفا[٣] من مجموعة الثلاث فروع الرئيسة، أن يكون تحالف لعوائل من التكارير[٤] الوافدين من الغرب والجلابة والهوارة والزنارة من الشمال[٥] والجوامعة والنوبة الذين أرادوا -في عهد الفونج - رعي مواشيهم تحت حماية مسمىل الحوازمة. أما فرع الأسرَّة - ذوو القوة والكثرة - فيُعتبر في كردفان من البديرية.

(١) يُوجد بطن بهذا الاسم وسط المناصير وأشهر أوسام الحمر الغريسية والطوال من الكبابيش يُسمي شبول أيضاً.

(٢) هذان الفرعان الصغيران في كردفان وينتميان أما للريافة أو الشبول.

(٣) يشير اسمهم لحلف عقد بينهم على اليمين كما جرت العادة في الجزيرة العربية.

(٤) تُوجد أشتات لعدة قرى للفلاتة والتكارير في منطقة البديرية - حوازمة جنوب الأبيض.

(٥) كلا القبيلتين ترتبطان أصلاً ببربر شمال أفريقيا فالزنارة بطن من اللعاطة.

ويبدو إن هناك بعض الروابط بين الحوازمة الأصليين وبني حرب الذين يجاورون جهينة في الحجاز، وقد ينطبق هذا الاستنتاج - بنفس القدر - على معظم قبائل البقارة. وكدليل على هذا الإرتباط سنقتبس من كتاب «الحج»[1] لبرتون ما يلي: «بنو حرب هم العشيرة الحاكمة في الأراضي المقدسة الآن،والتي يقسِّمها النسَّابة إلى فرعين كبيرين أولهما بني سليم والثاني المسروح - أي الرحَّالة -، ثم لبني سليم ثمانية فروع هي:

(١) أحمدة (أحمد) ويقال إن لها ثلاثه آلاف وخمسمائة من الرجال وإن فرعها الرئيس هو الحضري.

(٢) حوازِم (حازمي) وهي القبيلة المنافسة وعددهم حوالي ثلاثة آلاف وينقسمون مجدداً إلى (مزيني) و(زهيري).

(٣) ....

(٤) ....

(٥) ....

(٦) محاميد (محمدي) ثمانية آلاف.

(٧) رحالة (رحيلي) ألف نسمة.

(٨) تِمام (تميمي).

قد يكون ورود اسم حوازم أو حوازمة «مفردها حازمي» مجرد مصادفة، لكن عندما نجده مقترناً بالأحامدة والمحاميد وكلا الاسمين لقبائل من البقارة أو شبه البقارة، ثم عبارة «رحَّالة» التي تطابق «رواحلة» - مفردها راحلي - كبطن من الكبابيش (بمن فيهم - كما سنرى - العطوية ذوو الروابط العرقية بالبقارة)، وعندما نتيقن بأن الأحامدة والمحاميد والحوازمة والرواحلة من المجموعات المهمة في كردفان، وإن

(١) حيث ورد إن «حوازم» هم فرع متمرد من حرب بالقرب من المدينة، كما ذكر دوتي «حازم» باعتباره فصيل قديم من حرب.

الكبابيش والبقارة يدعون التحدُّر من عبد الله الجهني، ودون حاجة للتذكير بالتماثل التلقائي - اذا لم يكن تطابقاً - بين مسميات برتون - أي بنو سليم - والبقارة من بني سليم في النيل الأبيض، يتضح إن المجال ضيق للشك حول واقعة إشتمال قبائل البقارة في السودان للكثير من العناصر المشتركة مع بني حرب في الحجاز[1]. وأصل بني حرب من الاسماعليين كفرع لقبيلة هوازن التي تتفرَّع - بدورها - من قيس عيلان. وإثباتاً لواقعة إن بطوناً منهم وفدت إلى مصر، علينا الرجوع لقائمة ولكنسون. ورد في هذه القائمة عن القبائل العربية في شرق النيل أسماء بلي وجهيني - أي جهينة - وحرب وهم على جوار لصيق.

واقعة قول النبي ﷺ بأن أسوأ الأسماء - لدى العرب - هي بني كلب وبني حرب، ربما يفسر عدم إحتفاظ عموم البقارة - وبالأخص الحوازمة - بأيه مخطوطات أو روايات عن علاقتهم ببني حرب.

جميع بطون الحوازمة في كردفان الآن. وتجدر ملاحظة إنعدام توافق المسميات فيما بينهم والبقارة الذين يقطنون الغرب، الأمر الذي كان من الممكن أن يلقي مزيداً من الضوء لتبيان ما إذا كان هناك تداخل أو تزاوج بينهم. أما هؤلاء الحسوبين على الحوازمة باعتبارهم من أصول غير، فقد إمتصتهم القبيلة في شرق وجنوب كردفان. فروع الحوازمة كما يلي:

---

(١) وردُ المقريزي نقلاً من كواترمير (المجلد الثاني ص ١٩١) بأن أولاد حزم هم بطن من فرع سنبس من طيء في مصر، وهكذا فمن المعقول القول بأن الحوازمة الأصليون أو حوازم بطن من طيء تلك القبيلة التي قيل إن المسيرية أيضاً ذوي إرتباط بها. أنظر القائمة (٦) لوستنفيلد حيث يشير «لحزمر» وهو الشخصية الأكبر توافقاً مع كواترمير كقراءة أفضل لاسم حزم حيث تتفق الرؤى بأن المشر أو المشِير ابن لتعالبة وحفيد لنبهان، فإن هذا يتوافق مع مقولة إن مسير جد المسيرية والذي يظهر في النسبة أيضاً كإبن لتعالبة حفيد لنبهان، كفرع من طيء (أنظر المخطوطة د - أ). هكذا يجوز الأعتقاد ما بقيت حقيقة إن بنو حرب إنسلخوا من القبيلة الأصل للتجول جنوباً داخل السودان، انضم آخرون لجهينة أو حرب أو ربما حدث العكس وإنشق الحوازمة من أصلهم للانضمام لطيء. كل الإحتمالات تدخل في إطار الممكن.

- (أ) عبد العال
  - (١) دار جواد
    - (أ) دار بخوتي
    - (ب) دار شلنقو
  - (٢) أولاد غبوش
    - (أ) دار بطحة
    - (ب) أولاد بعشوم
    - (ج) دار دبل
    - (د) المعنات
    - (هـ) أولاد جمعة
  - (٣) داربتي
    - (أ) أولاد أبو آدم
    - (ب) القرعان
  - (٤) دار نِعيلة
- (ب) الحلفا
  - (١) دار علي
  - (٢) دار فايد
  - (٣) الأسّرة
    - (أ) ام ود جازع
    - (ب) أولاد قمر
    - (ج) الزُرق
    - (د) أولاد مشيرق
    - (هـ) أولاد سرار
    - (و) أولاد معدة
    - (ز) دار أجا
  - (٤) أولاد غنيم
    - (أ) دار إيجا
    - (ب) أولاد تدو
    - (ج) دار تنقل
  - (٥) الطوقية

(ج) الروارقة	(١) دار جامع	(أ) الطوال
		(ب) القصار
	(٢) أولاد نوبة[1]	(أ) أولاد رحمة
		(ب) دار بلال
		(ج) الفقرة
	(٣) دلامية	(أ) أولاد تنه
		(ب) سليمانية
		(ج) أم ماجندة
		(د) دار عجول
		(هـ) المؤمنين

يدعي فرع عبد العال - شأنهم شأن الرزيقات والمسيرية والحُمر - التحدًّر من عطيه، ويقولون بأنهم أصل الحوازمة، وقد يكون الأمر كذلك،وبالتالي يمكن التمييز - كما تفصِّل الشجرة - بين هؤلاء المتحدًّرين من جنيد من نسل عطيه من جهة، والذين من نسل حيماد[2] من الجهة الأخرى. وإلى حيماد ينتسب التعايشة والهبانية وبني هلبة، بينما الذين ينتمون لعطية هم الحُمر والرزيقات والمسيرية والحوازمة، لكن عبد العال فيهم الكثير من العناصر الأجنبية كالقرعان مثلاً، شأنهم شأن أي بطن من بطون البقارة.

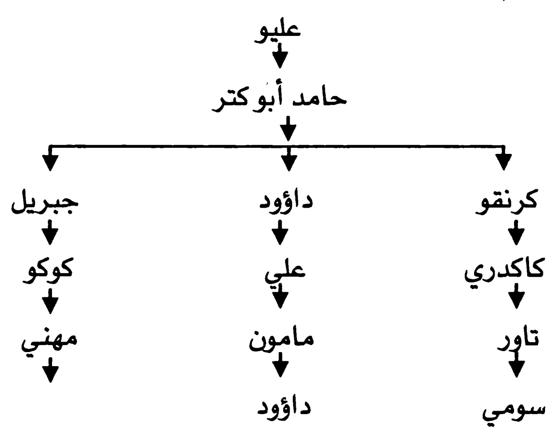
سبق وتناولنا الحلفا، أما الرواوقة فيقول عنهم بقية الحوازمة بأن أكثريتهم - من حيث الأصل - لا ينتمون للقبيلة البته،بل إن بعضهم من بني سليم والبعض

---

(١) قيل إن نوبة هو ابن لسنين ابن كشمة.

(٢) يقول كاربو عن الحيماد بأنهم أهم بطون البقارة المتحدرين من جنيد ويفصّل بطونهم الآتي: «أولاد حميد وأولاد عامر والنمورة والجراحة والسليمانية والتعايشة والنديمية من الهبانية» ويضيف: «هؤلاء الحيماد لا يزالون ذوو صلة بالجعادين والسلامات ويضيف» وينسب للحيماد أيضاً الجعادني والسلامات التي تعتبر إحدى القبائل العريقة الكبيرة في أفريقيا الوسطى بالإضافة للخزام».

الآخر من كنانة، الذين وفدوا من الشرق منذ زمن بعيد وانضموا لبطن عبد العال. والراجح إنهم يحملون الكثير من دماء النوبة أكثر من بقية الفروع، وليس هذا لأن أحد أقسامهم الرئيسة يسمي أولاد نوبة فحسب، بل لأن أسماءهم تُوحي بذلك. فعلى سبيل المثال دعونا نتمعَّن (النسبة) الآتية التي أعطاها زعيمهم داؤود المأمون لمفتش المركز في ١٩١٣م.



يلاحظ ورود الأسماء «كرنقو» و«كاكدري» و«كوكو»، وهي بالقطع من أسماء النوبة، كذلك عليو ليس اسماً عربياً.

يمكننا الحصول على مؤشرات ممتازة تلقي الضوء على التاريخ التقريبي لإنشقاق الحوازمة عني بني جنسهم وذلك باستقراء قوائم أنساب الجيل الحالي. وإن أسماء الأسلاف التي تسمَّت بها الفروع الرئيسة للقبيلة مأخوذة كتلك التي للأبناء أو الأحفاد أو أحفاد الأحفاد من الأصل «حازم»، الذي لا يزال في ذاكرة الكل، بالرغم من عدم استجلاء العلاقة الحقيقية لبعضهم البعض بخلاف أن أصبحت مهمة أي فرد منهم هي إيجاد سبيل للإرتباط بهذه الأسرة التي تتحدَّر من هؤلاء الأجداد التقليديين.

فلنأخذ مثلاً وضع الأربعة فروع البارزة للحوازمة، فبينما يذكر أحدهم - وفقاً للشجرة - ثمانية أجيال بينه و«دِلام» جد الدلامية، يحسب آخر ستة، وغيره يحسب ما بين سبعة وثمانية. ويستوي لدى أولاد نوبة أيضاً، إذ يُقال إن هناك سبعة أجيال

تفصل الشيخ الحالي عن جده « نوبة». وهكذا يمكن للمرء أن يخِّمن بأنه حتى الجيل السابع أو الثامن أو إلى ما قبل مائتين إلى ثلاثمائة سنه لم يأخذ الحوازمة شكل القبيلة المستقلة، بل كان أسلاف الأصول القبلية محسوبين ضمن المسيرية حتى تنامت أعدادهم وقوتهم بالقدر الذي مكّنهم من الإنفصال والتسمي باسم «حوازمة».

المسيرية، الحُمر، التعالبة، الحوطية، الصعدة، الترجم:

كان المسيرية والحُمر - في وقت ما - قبيلة واحدة ويُعرفون باسم المسيرية الزُرق والمسيرية الحُمر، وهكذا يشار لهم في كتب الرحّالة الذين قابلوهم إبان القرن التاسع عشر في دارفور أو إلى الغرب منها. أما في كردفان فقد تمايز القسمان تماماً لدرجة إن الحُمر لم يعودوا يعدُّون أنفسهم مسيرية البتة، بحيث أصبح لكل قبيلة ديارها وشيوخها.

الحُمر:

ينقسم الحُمر إلى عجايرة وفلايتة،ثم ينقسم الفرعان - بدورهما - على النحو الآتي:

العجايرة:

(أ)عيال خير

(١) أولاد كامل (أ) دار موتا

(ب) دار أم شيبة

(ج) دار أم سالم

(د) أولاد كميل الحمرة: (١) أم سالوق، (٢) أم قعر

(هـ) الفيارين

(و) أولاد توبا

(٢) الكلابنة
- (أ) دار نالة
- (ب) غاشم
- (ج) دردمة
- (د) دار نطحة
- (هـ) دار مقيبل

(٣) المزاغنة
- (أ) أبو التيمان
- (ب) عارية
- (ج) دار بخيت
  - (١) دار خنتور
  - (٢) التراكنة

(٤)(الفيارين)[1]
- (أ) أولاد عقلة
- (ب) أولاد أم هاني
- (ج) أولاد عوانة
  - (١) أولاد حامد
  - (٢) أولاد خداعة
  - (٣) أولاد أم رحمة
  - (٤) أولاد أم بلالة
  - (٥) أولاد موسى
- (د) أولاد حمدون
  - (١) أولاد نعيم
  - (٢) أولاد الحمرة
  - (٣) أولاد نلامتة
  - (٤) أولاد أبو صديق
  - (٥) أولاد بركة

---

(١) يظهر هؤلاء كقبيلة منفصلة من الحُمر أو من المسيرية. باقي هذا البطن في دار برقو.

(هـ) أولاد كميل الزرقة

(ب) أولاد عمران

(١) المناعمة
- (أ) أولاد أم جود
- (ب) دار زبالي
- (ج) دار حبيب الله
- (د) دار بنات
- (هـ) دار رحمة
- (و) فاضلية بردان
- (ز) فاضلية صابر

(٢) أولاد عادل
- (أ) أولاد نجاية
- (ب) أولاد أبو جدية
- (ج) أولاد أبو حميد
- (د) أولاد أبو حماد
- (هـ) أولاد أبو إسماعيل
- (و) النواسمة

الفلايتة:

(أ) متانين
- (١) أولاد زيادة[1]
- (٢) الشامية
- (٣) أولاد شبيب
- (٤) أولاد عرفة
- (٥) أولاد عارف
- (٦) الزيود[2]

---

(١) يوجد الزيادات وسط الهبانية.

(٢) سنجدهم كقبيلة منفصلة في الغرب.

(ب) أولاد سرور
- (١) أولاد أم خميس
- (٢) أولاد جمّاع
- (٣) أولاد أم عليان
- (٤) أولاد أم بكوتة
- (٥) أولاد جفير
- (٦) الجرافين[١]

(ج) الجبارات[٢]

(١) الشبعة
- (أ) أولاد أبوهلال
- (ب) أولاد أبوجكاك
- (ج) أولاد أبو عيد
- (د) أولاد محسم
- (هـ) أولاد عيد

(٢) الجُلدة
- (أ) أولاد قرفة
- (ب) أولاد بدران
- (ج) أولاد محمد

(د) السلامات[٣]
- (١) أولاد علي
- (٢) أولاد سعيدي
- (٣) أولاد أبو إدريس
- (٤) الجبابرة
- (٥) أولاد فضل
- (٦) أولاد أبو قديم

---

(١) معظم هؤلاء في دار برقو.

(٢) يوجدون وسط التعايشة كبطن رئيسي. حتى بداية القرن التاسع عشر كانت هناك قبيلة باسم الجبارات في سيناء حول العريش، ثم انتقلت إلى غزة (نعوم شقير تاريخ سيناء ص ١٠٨).

(٣) سنجدهم - فيما بعد -في الغرب كقبيلة قائمة بذاتها.

إذا تمعَّنا في أشجار أنساب الفلايتة على النسق الذي ورد بشأن الحوازمة، يتضح إنهم والعجايرة أصبحوا - بطريقة أو بأخرى - مستقلين عن بقية المسيرية منذ عشرة أجيال سلفت.

تقع منطقة الحُمر أقصى غرب جنوب كردفان إبتداءً من جوار الأُضية حتى بحر العرب (أو بحر الحُمر). يتكوَّن شمال المجلد من سهل رملي عظيم، أما جنوباً تُوجد تربة سوداء تكسوها الغابات الكثيفة، يخترقها حزام رملي. يتنقل الحُمر في موسم الأمطار فيما بين المجلد شمالاً حتى حدود دار حمر. وفي موسم الجفاف يرحلون بمواشيهم جنوباً لبحر العرب حيث يلتحقون بالدينكا.

المسيرية والتعالبة:

المسيرية قبيلة كبيرة وقوية في كردفان أما في دارفور فهم على الشتات. وكانوا في كردفان حتى منتصف القرن الثامن عشر القبيلة السائدة بين قبائل البقارة، ويمتد وجودهم شرقاً حتى شركيلا، لكن مقاومة الحوازمة بالتحالُف مع البديرية وغيرهم أدى لانحسار المسيرية واقتصار إقامتهم على تلك الرقعة التي يشغلونها الآن حول السنوط والمفاورة ووادي الغلَّة.

كانت أعداد المسيرية في دارفور ووداي - إلى ما قبل المهدية - كبيرة للغاية[1] أيضاً، غير إن الدمار الذي لازم تلك الفترة إضافة لصرامة سلاطين دارفور المتعاقبين دفع بالكثيرين منهم للتوجُّه نحو جنوب شرق ودَّاي «أي دار رنُقا». وبمجرد تسيُّد الفرنسيين للشمال فرَّت أعداد منهم نحو مناطق نفوذهم هرباً من قبضة الحكام المحليين. وهم يشكِّلون الآن قدراً معتبراً من لاجئي العرب في «فِتري»[2] ويلاحظ أن أغلب هؤلاء من رعاة للإبل، ولهم سمعة سيئة في النهب والسلب.

---

(١) يعتبرهما التونسي ثالث أكبر قبيلة من عرب ودَّاي من الناحية العددية. وزعامتهم في دومبلي.

(٢) بدأت هذه العملية في ١٩٠٣، وأكبر وأحدث حركة للمسيرية من جنوب شرق ودَّاي لفترى حدثت في ١٩٠٧. ويعتبرهم كاربو وناختقال من جنس السلامات.

أما من تبقوا في دارفور فيحيون حياة شبه الحضر على تلك القرى التي تتحلّق الحمادي وجبل كرو شرقي جبل مرة. وينتمي أغلبهم لفرع الزُرق ويمارسون تربية المواشي والأغنام، وبينهم القليلين من الحُمر فضلاً عن مستوطَنة صغيرة لبعض العركيين من الجزيرة. تتفق النسبة - في عمومها - بأن المسيرية أقارب حميمين للتعالبة، لكن يصعب القطع قولاً بأن هذا التوافق الظاهري للنسَّابة العرب - فيما يتعلق بهذه الجزئية - يشكِّل في حقيقتة توافقاً كلياً، أو إن الرواية الواردة في النسبة ليست صادرة أصلاً من هؤلاء النسَّابة العرب. إن من المدهش حقاً إن هناك قبيلة صغيرة في دارفور تُعرف باسم «التعالبة»، يعيش أفرادها مع المسيرية ثم نجد كاربو يقول عنهم ما يلي: «يتحدَّر التعالبة[1] من تعلب ابن مسير» وإختلاف الاسم لا يعدو أن يكون - دون أدنى شك - تحريفاً «لمسخير ابن تعالبة».

يستوطِّن أغلبية التعالبة على السفوح الكائنة بالركن الجنوبي الشرقي لجبل مرة كبقارة، بيد أن القليلين منهم يعيشون في شمال دارفور كقرويين مع الزغاوة حول هشابة، ويُعتبرون فرعاً من المسيرية. وفروعهم كالآتي:

(أ) أولاد كمونة
- (١) نصيراب
- (٢) أولاد محمد
- (٣) أولاد رجب

(ب) أولاد زياده
- (١) أولاد نور
- (٢) أولاد فكارنه

(ج) أولاد شويح

(د) أولاد عبيد
- (١) بعبيش
- (٢) أولاد بُراس

(١) يوجد التعالبة وسط عرب شمال أفريقيا وكانوا في صحراء نوميديا بالقرب من تاكدمت في القرن السادس عشر، ومورال الذي يصنفهم كفرع للمعاقلة يقدر فرسانهم في الجزائر بأربعة وأربعين ألفاً ولا يزال هناك بعض منهم في نفس الموقع.

(هـ) بنو عاطف

(و) مهادي

(ز) رواينة

(ح) نعيمات

ينقسم المسيرية في كردفان للآتي:

(أ) أولاد أم سليم
- (١) أولاد سليمان
- (٢) أولاد حمودة
- (٣) أولاد أبو زيدان
- (٤) أولاد مصباح
- (٥) أولاد عبده

(ب) الغزايا
- (١) أولاد أم ريدان
- (٢) أولاد خير
- (٣) أولاد بلال
- (٤) أولاد عجمان
- (٥) أولاد عوضة
- (٦) أولاد مسمار
- (٧) الكعوك
- (٨) أولاد أم كرابيج

(ج) الدرع
- (١) أولاد كضم
  - (أ) أولاد فضلة
  - (ب) أولاد دلوت
  - (ج) أولاد غالي
- (٢) أولاد سرير
  - (أ) أبوخريس
  - (ب) أولاد بخات

(د) العنينات
(١) أولاد هجليجة
(٢) أولاد كضيبة
(٣) أولاد هلال
(٤) القرون
(٥) الشكرية
(٦) أولاد نصّار
(٧) أولاد أم فارس

(هـ) أولاد أبو نعمان
(١) أولاد مهدي
(٢) أم مهيوب
(٣) أولاد ضو

(و) الزرق
(١) أولاد غانم
(٢) أبو علوان
(٣) الدريهمات
(٤) بني سعيد
(٥) أولاد حزاني
(٦) أولاد قاعد
(٧) الكرباج
(٨) الجنحات

(ز) أولاد هيبان
(١) أولاد عيسى
(٢) أولاد جبريل
(٣) أولاد الشايب
(٤) أولاد فاتح
(٥) أولاد عودة

يعيش بجوار المسيرية - في دارفور -، إضافة للتعالبة بعض المجموعات الصغيرة للحوطية والصَعَدة وهم ممن يُنسبون لمجموعة البقارة.

الحوطية:

يُعتبر الحوطية أنفسهم فرعاً من المسيرية، وتتفرَّع القبيلة إلى باب وشبيلات. وينقسم الشبيلات - بدورهم - لبطون تتمثَّل في المجموعات التسع الآتية.

أولاد سليمان

أولاد دريس

أولاد نوار

أولاد نيماك

أولاد دفيعة

أولاد غانم

أولاد بركة

أولاد ناصر

أولاد بديراب

الصَعَدة:

ينقسم الصعدة الذين يعيشون شمال الشاواية[1] إلى:

أولاد دايوق

أولاد أحمد

أولاد هلال

أولاد رجب

أولاد عفيصة

النوايات

البدرية

السميرية

---

(١) الكثيرون منهم بمعية الترجم كانوا لقبل عشرة سنوات مضت حول كبكابية وكُلكُل لكنهم هُجِّروا بأوامر من السلطان علي دينار.

الترجم:

يستوطِّن الترجم الجزء الشمالي الشرقي لدارفور، حتى رحَّلهم السلطان علي دينار لشرق جبل مرة حيث يعيشون هناك بمعية عرب بني حسين والحُوطية والتعالبة، كما يجاورهم المستقرون من الفور. تمتهن القبيلة رعي الماشية ويعرِّفون أنفسهم بالعَطَوة «أي المتحدِّرين من عطية». والحال كذلك فهم ينتمون لنفس مجموعة الرزيقات القبلية يُوجد القليلون منهم في دارفور وبنسبة أقل في دار مساليت ووَدَّاي لكن ليس لهم أي وجود في أي مكان آخر وتتمثَّل بطونهم في الآتي:

(أ) درايسة
- (١) أولاد سعيد
- (٢) أولاد سيف
- (٣) بشيرية
- (٤) حسبون
- (٥) أولاد أبو فاطمة
- (٦) حمادية
- (٧) عطوية

(ب) زوايدة
- (١) أولاد أبو هلال
- (٢) أولاد يوجا
- (٣) أولاد سربال
- (٤) أولاد الكوال
- (٥) كانقو
- (٦) خشمية
- (٧) حنشة

الرزيقات:

جميعهم في دارفور وهم القبيلة الأقوى والأكثر ثراءً في البلاد، تقع مناطق استيطانهم أقصى الجنوب الشرقي وشرقهم الحُمر، والدينكا جنوباً، الهبانية غرباً، ثم المعاليا والمستقرين من البرقد والبيقو والداجو شمالاً. وبسبب المزايا الطبيعية لديارهم التي تُحد شمالاً - في موسم الجفاف - بحزام واسع تنعدم فيه المياه، ثم تتحوَّل في موسم الأمطار لأراضٍ سبخية، ولميلهم الطبيعي للقتال فضلاً عن وفرة الخيول، فقد ظلوا مستعدين دائماً لصد أي عدوان يشنَّه علي دينار، ولكن رغم تعوَّدهم منذ مضي مائة وخمسين سنة على التجّوال في جزء كبير من أواسط دارفور، مع ذلك كان يتعذَّر عليهم في عهده التوغُّل أبعد من الدرجة الحادية عشر لخط العرض شمالاً خشية أن يهاجمهم ويصادر مواشيهم استيفاءً لإدعاءات قديمة.

يمارس الرزيقات الزراعة جنوب وشمال شُكا في أبو جابرة وأم مطارق والتهامة وغيرها، وبحلول موسم الجفاف يتوجَّهون بمواشيهم جنوباً حتى بحر العرب حيث يتبادلون الإغارة التقليدية سنوياً مع قبائل الدينكا.

استيلاد السبايا من الدينكا والمندلة «أو البندلة» - ولحد كبير - الشات، أثر بوجه ملحوظ على نقاء الرزيقات العرقي.

أول من شرع بجدَّية في التعامل مع الرزيقات من سلاطين دارفور هو السلطان تيراب وذلك خلال النصف الثاني للقرن الثامن عشر، لكن الرزيقات هزموه وذلك باستدراجه للمناطق السبخية في الجنوب وأحاطوا بقواته من كل جانب. ومنذ تلك الواقعة آثر خلفاؤه من السلاطين عدم إقتفاء أثره سعياً وراء المزيد من الضرائب المقدَّرة على القبيلة. ترتَّب على ذلك أن لجأت أعداد كبيرة من العرب ممن لا حول لهم ولا قوة لتلك القبيلة، وأغلب هؤلاء من الهبانية وبني هلبة والمعاليا وبني خزام. وينقسم الرزيقات للفروع الآتية:

- (أ) المهرية[1]
  - (١) أم ضحية
    - (أ) أم سلمة
    - (ب) أولاد محيميد
    - (ج) أولاد حسن
    - (د) أولاد زويد
    - (هـ) رضيانية
    - (و) عشيشات
  - (٢) أم حمد
    - (أ) ناس عروق
      - (ا) أولاد كدوم
      - (٢) ناس جميع
    - (ب) ناس التوم وأولاد معوان
    - (ج) أولاد قايد
    - (د) أولاد حنان
    - (هـ) بركة
      - (أ) دار حسن
      - (ب) دار كبجا
      - (ج) أولاد أم أزرق
      - (د) دار فضيلة
- (ب) النوايبة
  - (١) أولاد سليمان
  - (٢) دار بلول
  - (٣) رحسة
    - (أ) دار أم فزارة
  - (٤) أولاد سعود
- (ج) المحاميد
  - (١) أولاد شيايق
    - (أ) العطاي
    - (ب) أولاد تاكو
  - (٢) أم سيف الدين
    - (أ) أولاد يسن
    - (ب) أولاد جفيلي
    - (ج) الحناتيش
    - (د) الحراميس
    - (هـ) أولاد أم ليك
    - (و) الشجيرات
    - (ز) الأسَّرة

---

(١) لا تُوجد بينة للرابطة بين هؤلاء والقبائل الحميرية المعروفة بجنوب الجزيرة، مع عدم استبعاد وجود مثل هذه الروابط.

(٣) أولاد زيت
(أ) أولاد بري
(ب) أولاد دقيل
(ج) أولاد كرموش
(د) أولاد جكار

يُلاحظ أن أي من أسماء الفروع الرئيسة الثلاث أعلاه تختص به - بنفس القدر - قبائل كبيرة من رعاة الإبل بشمالي دارفور ووداّي. ورغم إنتماء المحاميد والمهرية والنوايبة الذين في الشمال لنفس الجنس المكوِّن للرزيقات، إلا أن من المستساغ التعامل معهم- في نهاية هذا الفصل[١] - على إنفراد. ما يجدر قوله ونحن نتعرَّض لهذه القبيلة بأنه يستحسن التعامل مع تلك القبائل الثلاث باعتبارها قد توحَّدت في جنوب دارفور لتكوِّن قبيلة الرزيقات بدلاً من اعتبارها كأفرع لتلك القبيلة الجنوبية من البقارة.

التعايشة:

سبق ونوّهنا بأن التعايشة أقارب للهبانية من حيث الأصل، ويدَّعون - مثلهم - التحدُّر من حميد. وبخلاف الاستثناءات التي سنتعرَّض لها فيما بعد، فإن موطنهم هو دارفور. نال اسمهم شهرة كبيرة بفضل إنتماء الخليفة عبد الله التعايشي لهم، الذي نجح في استقدام الآلاف منهم لأم درمان أثناء فترة حكمه كحراس شخصيين وبغرض مناصرته وإعلاء كلمته في مواجهة القبائل النيلية، وكانت دنقلا -لفترة ما - تحت سيطرته التامة.

بعد الإطاحة بالخليفة عاد الكثيرون من التعايشة لدارفور، باستثناء بعضهم الذين استوطَّنوا سنار وكسلا كما استوطَّن القليلون أماكن شتى في البلاد، إضافة لآخرين تجنَّدوا في الهجانة والمشاة.

تقع ديار التعايشة - في دارفور - بين الهبانية شرقاً ودار سلا غرباً والبني هلبة

---

(١) هناك مستوطنة كبيرة للمحاميد أولاد يسن الذين يقعون بين مجموعتين رئيستين من الرزيقات، الجنوبيين والشماليين من الجِّمالة، عاش أولاد يسن يوماً ما جنوب غرب الفاشر حول أبو زريقة تحت شيخ منهم. أصلهم من البقارة.

شمالاً والفراتيت جنوباً، وتتميَّز ديارهم بكثافتها السكانية بوجه ملحوظ حتى وقتنا الحاضر. وفروعهم الرئيسة هي:

(أ) قلادة
- (١) أولاد عامر
  - (أ) البدرية
  - (ب) العدي
  - (ج) البعشومي
- (٢) أولاد تابت
- (٣) أولاد زيد
- (٤) أولاد سلامة
- (٥) الشواشة
- (٦) النجمية
- (٧) الضيابية
- (٨) أولاد البحيلي
- (٩) الدقايلة
- (١٠) البركاوي
- (١١) الشلوحي
- (١٢) الحضرمية
- (١٣) أولاد أبو ملكة (أو أب ملكة)
- (١٤) الهزالين

(ب) عرج
- (١) الجبارات[1]
  - (أ) أم سرة
  - (ب) أولاد جيد
  - (ج) أولاد حسبو
  - (د) أولاد سرحان
  - (هـ) أولاد حمدان
  - (و) أولاد كابد

(١) يعيشون وسط الفلايتة من الحُمر وبني جرار. يصنفهم بارث كأحدي قبائل ودّاي الرئيسة بين بدو الجمّالة. كذلك ذكرهم التونسي في دارفور.

(٢) أم ريدة
(٣) أولاد سنه
(٤) أولاد حميدان
(٥) أم لعاسة
(٦) أولاد عب
(٧) الجرارحة
(٨) الفاطمية
(٩) المطيعية
(١٠) الغزالين
(١١) أولاد سعد
(١٢) أولاد أبو توم

(أ) البلالي
(ب) البلولي
(ج) العميراب
(د) المنصوري

بنو هلبة:

كانت قبيلة بني هلبة حتى سنوات قليلة مضت قوية ذات ثراء لها ديارها الخاصة بمركز «عِد الغنم» جنوب جبل مرة، ثم هناك أفرع صغيرة وهم العلاونة وبعض أولاد جابر يعيشون شرق جبل مرة وجنوب جبل حريز. كما تُوجد قبيلة مستقلة منهم في ودَّاي[١].

في بدايات القرن التاسع عشر، قتل السلطان محمد الفضل (١٧٩٩ - ١٨٣٩) عشرهم وصادر معظم قطعانهم، ثم ما لبثوا أن استعادوا ثروتهم وإزدهارهم، ولكن دارت عليهم الدوائر مرة أخرى في المهدية، وما إن استعادوا أوضاعهم من جديد - بعد الخلاص من حكم الخليفة- سرعان ما وقعوا في القبضة الحديدية لعلي دينار وطلباته التي لا تنقطع

(١) يصنفهم بارث كأحدي قبائل ودّاي الرئيسة بين بدو الجمّالة. كذلك ذكرهم التونسي في دارفور.

من الضرائب والمواشي بدءاً من العام (١٩٠٠م)،ذلك الجور الذي بلغ مداه في العام ١٩٠٩م، مما أجبر قطاعاً كبيراً منهم للجوء لديار الرزيقات وديار سِلا والحُمر.

وبإنهيار حكم علي دينار في مايو ١٩١٦م وجدها البني هلبة فرصة سانحة للإنتقام، فجمعوا شتاتهم وشنوا هجوماً مستهدفين المواشي التي كانت بحوزة كل من السلطان علي دينار والقرويين من الفور وغيرهم ممن يقطنون على حدود المنطقة، وكانوا يتطلّعون - دون شك - لإصابة ثروات جديدة بدلاً عن تلك التي فُقدت من الأجيال السابقة. سارع لاجئو دار سلا - من القبيلة - في العودة لدارفور لتقديم يد العون في سبيل إنجاز هذا العمل الجليل.

ينقسم البني هلبة إلى أولاد جابر وأولاد جبارة وبطون تلك الفروع الرئيسة هي:

(أ) أولاد جابر
- (١) العلوني[1]
- (٢) الزناطيط
- (٣) الحزازيرى
- (٤) الهزاليل
- (٥) المساعية

(ب) أولاد جبارة
- (١) أولاد جمعان
  - (أ) دار نمر
  - (ب) أولاد وادي
  - (ج) أولاد حبيب
  - (د) أولاد صفرة
  - (هـ) أولاد موسي
  - (و) العشارية
  - (ز) العميرية

---

(١) يوجد علاونه وسط الكبابيش وآخرين وسط كنانة. ويوجد نفس الأسم في سيناء (الطور) كفرع للمزاينة (أنظر نعوم شقير تاريخ سيناء ص ١١٢).

- (٢) أولاد علي
  - (أ) أولاد ضِفرة
    - (١) أولاد نعمة
    - (٢) أولاد منونة
    - (٣) أولاد احمد
    - (٤) أولاد بلالة
    - (٥) أولاد الشيخ
    - (٦) أولاد دار كبيدي
  - (ب) عشبور «الشبول»
    - (١) سهارنة
    - (٢) أولاد منيف
    - (٣) أولاد عبد
    - (٤) أولاد الشيخ
- (٣) أولاد غياد
  - (أ) أولاد ضو
  - (ب) أولاد مرج الله
  - (ج) أولاد مرجولية
  - (د) أولاد الرويس
  - (هـ) السليمية
- (٤) بنو مندول
  - (أ) أولاد سالم
  - (ب) كربية
  - (ج) أولاد حِجة
  - (د) أولاد زايد
- (٥) بنو لبيد
  - (أ) أولاد سعيد
  - (ب) أولاد دقين
  - (ج) الأرارمة
  - (د) أولاد أم سراج
  - (هـ) أولاد مُسيد

(٦) أولاد غانم ⎨ (أ) حُمر
(ب) زُرق

يُعتبر بنو هلبة في دارفور - على وجه الخصوص - نوع متدنٍ من العرب، ضِعاف الهمة والبنية، كسالي لدرجة منفِّرة، مفتقرين لأدنى الخصائص المميِّزة للبدو من عربان كردفان.

بنو خزام:

أغلبهم في ودَّاي ودار سِلا، عدا قلة في دارفور يعيشون - حالياً - كلاجئين وسط الرزيقات منذ العام ١٩١٤م. تنتمي القبيلة لمجموعة الحيماد من البقارة، وعن طريقهم يدَّعون الإنتماء لبني مخزوم في الجزيرة العربية[1]. أما في ودَّاي، يُصنِّف المستقرون الذين في الجنوب كـبقارة، والذين في الشمال كأبَّالة. ومنذ العام ١٩٠٤م توجَّهت أعداد منهم بمعية غيرهم من اللاجئين العرب نحو فِتري، كما استقر آخرون مع السلامات في باقرمة وبرنو[2].

ويقسِّم «كاربو» الذين في غرب دارفور إلى البطون الآتية:

(أ) بحاري
(١) أولاد علي
(٢) أولاد عفان
(٣) أم زحيفي
(٤) أولاد أبو فحل
(٥) أولاد زايد
(٦) كنابكة (من المحاميد)
(٧) أولاد مكرم
(٨) أولاد هيبة وغيرهم
⎬ أغلب هؤلاء في باقرمة

(ب) علاليق (أو علاليك)[3]

---

(١) يصنِّفهم كاربو كرابع أكبر قبيلة عربية في ودَّاي.
(٢) يقال إنهم سكنوا برنو حوالي ١٨٣٠.
(٣) بعض هؤلاء في باقرمة أيضاً

تم يذكر كاربو بعض بطون الخزام أيضاً وهم أولاد أبو عسف والعميرات والكبيسات. والأخيرون إضافة لبعض الكنابلة يستوطّنون برنو. يقول خزام دارفور بأنهم أقارب حميمين لبني حسين وينقسمون إلى بحرية وعلاليق، ويتألَّف البحرية - كما يقولون - من الحمودة والجمع كما يتألَّف العلاليق من العميرات والعشيدات والسيف.

بنو حسين:

تنقسم قبيلة بني حسين فيما بين دارفور ووداّي، وهى قبيلة صغيرة، يخيِّم قاطنو دارفور - عند حلول موسم ألامطار- غرب الجنوب الغربي للفاشر بين جبل قُصة ومرة، أما في الصيف فيتوغَّلون جنوباً، وظلوا هكذا حتى رحَّلهم علي دينار منذ حوالي عشرة سنوات. أغلبهم الآن شمال كُلكُل. فروعهم في دارفور كالآتي:

أولاد بلول	أولاد عليان
أولاد موسى	أولاد سالم
أولاد بحر	النوارنة
أولاد راشد	أولاد زيادة
أولاد عقال	أولاد جُرارة
حيطان	أولاد مازن
أولاد سلمة	الأننديين
أولاد بخيت	العلامات

باشر:

هى قبيلة صغيرة من البقَّارة شبه الرُحَّل يعيش أفرادها جنوب الفاشر مباشرة وينتمون لمجموعة الحيماد وبطونهم كالآتي:

أولاد سلطان	أولاد زيد
أولاد الأسد	أولاد شلولي
أولاد حمادية	

هناك فرع من الكبابيش - شمال كردفان - باسم باشر أيضاً ويرجح أن يكونوا - في الأصل - فرعاً لتلك القبيلة في دارفور.

السلامات وبنو راشد والزيود:

هناك القليل مما يمكن أن يُقال عن السلامات وبني راشد «أي الرواشدة» والزيود بسبب عدم استيطانهم كردفان ودارفور عدا القليلين الذين يتعايشون مع قبائل أخرى.

السلامات:

هي إحدى أكبر القبائل في أفريقيا ومواطنهم في برنو ومركز تشاد وباقرمة وجنوبي ودّاي. كانت أعدادهم - في وقت ما - مُعتبرة في دارفور بيد أنهم شُتتوا ودُفعوا غرباً. وهؤلاء الذين في الغرب أغمق بشرة من الذين في الشرق ومشمولون بالاسم العام «شُوا»، وكلهم من البقارة رغم إنهم يربون أعداداً مُعتبرة من الأغنام.

فروعهم الرئيسة هي العيسية وأولاد موسى[1]، وينقسم كل فرع إلى عدة بطون التي تشتمل بدورها على العديد من العناصر الأجنبية عنهم مثل الفلاتة والبلالة.

بنو راشد والزيود:

ويقربون - لحد كبير - لبعضهم البعض، بل إن الزيود يُعتبرون - بحق - فرعاً من بني راشد، خصوصاً وإن استقراء أي نسبة للبقارة نجدها تُظهر الراشد كأسلاف للزيود. تستوطِّن القبيلتان - في وقتنا الحاضر - برنو وودّاي[2] ويعيش القليلون منهم كبدو «أبّالة» في الشمال. وعن هؤلاء الزيود قال ناختقال (بأنهم عرب تطعموا قليلاً بالدم الأسود) بيد أن أغلبهم الآن من البقارة.

---

(١) الاوائل يوجدون بصفة رئيسة في برنو وباقرمة، والأخيرون في ودّاي ومركز تشاد معاً.

(٢) هناك جزء من أولاد راشد وسط المحاميد أي فرع أم جلول في دارفور.

حالياً يمثِّل الزبدة - في ودَّاي - أحد الفروع الثلاثة الرئيسة لبني راشد، وهو الاسم الذي يُطلق ليتضمَّن في مجمله الزيود[1]. والتونسي - الذي قابلهم في غربي ودَّاي في بواكير القرن التاسع عشر - أكد له عقيدهم بأنهم يستمدون اسمهم من المدينة اليمنية زبيد وإنهم حميريون من اليمن. وإن هذا الترابط الوثيق بين الزيود وبني راشد(أو الرواشدة كما يُطلق عليهم دائماً) يربط المجموعة بكاملها مع الزبيدية والرشايدة الموجودين في شرق السودان. وعبارة رشايدة ما هي إلا جمع تكسير - محرَّف - لراشد[2] وقيل إن «رواشدة» هي المقابل لبني راشد. لكن لاستقرار بني راشد والزيود لقرون في غرب السودان تحوَّلت أغلبيتهم لبقَّارة في حين بقي الرشايدة والزبيدية في الشرق - كمهاجرين جدد - على حالهم يرعون الأبل. تقيم نفس المجموعة في سيناء حيث وجدتُ في عام ١٩١٥م بين بطون السواركة السبعة الذين يعيشون شمال شرق الجزيرة، اسمي زيود ورواشدة على التوالي. كذلك هناك القليلين من الزيود المستقرين بين الفلايتة الحُمر في كردفان. وعند تعرُّضنا للحوازمة لفتنا النظر للروابط بين تلك القبيلة وبني حرب، نفس هذا الارتباط يظهر مجدداً في بعض بني راشد على الأقل، لأن الزبيدية (المقابل للزبدة في الغرب) يعدُّون بطناً رئيساً من بني عوف الذين ينتمون لبني حرب[3].

النوايبة والمهرية والمحاميد والعِريقات والعِطيفات: تبقَّت خمسة قبائل من رعاة الإبل في شمال دارفور وودَّاي ممن ينتمون لنفس جنس البقارة. ثلاثة منهم هم النوايبة والمهرية والمحاميد سبق وورد ذكرهم كبطون مكوَّنة لقبيلة الرزيقات الكبيرة في جنوب دارفور. أما المجموعتين الرابعة والخامسة فهي - على التوالي - العِريقات

(١) الفرعان الرئيسان الآخران في ودَّاي يعرفون بأسماء «حميدة» و«أحامدة» و«أزد» أما في برنو فينقسمون إلى «حميدية» و«صوارمة» أما ناختقال في كتابه رحلة إلى ودَّاي ص ٧٢ يصنف الزيده كقبيلة قائمة بذاتها.

(٢) هي مشابهة لتسمية بني منصور بأسم المناصير في النيل ومناصرة في كردفان ودارفور.

(٣) يسميهم برتون «زُبيد» وهم بالقرب من مكة يمثلون - طوائف متعددة من اللصوص المقاتلين «أنظر مؤلفه الحج المجلد الثاني ص١٢٠».

والعِطيفات. وكلهم - على السواء - يدَّعون التحدَّر من جهينة. ووفدت كلا القبيلتين لدارفور ووداَّي في القرن الرابع عشر أو بعد ذلك[1].

قال التونسي عن المحاميد الذين مرَّ بديارهم،« بأنهم قبيلة عظيمة ذات فصائل وبطون وهي صاحبة إبل ونِعم وخيول وغنم ورقيق ولجين ومرجان يحلو لنظر العين»[2] ثم يضيف، بأن ألوانهم تقرب لون المصريين. ثم يذكرهم - عند تناوله لدارفور - ضمن قبائل فزارة الموجودة في الشمال. ويصنِّف ناختقال المهرية والنوايبة والعريقات والعطيفات تحت مُسمى محاميد، ويقول عنهم» هم قبيلة كبيرة ويُقال أن أصلها يرجع للإخوة محمود ومهر ونايب وقريبهم راكال الذي يُسمى عريق أيضاً، ولهم أربعة ألف فارس على الأقل، وهم قوم حمر البشرة ذوو خلق ودين ويتصفون بالجود والكرم ويتحدثون العربية الصِرْفة وتقع مواطنهم شمال غرب ديار الميما. وتتكون القبيلة من عدة بطون وقد عرفت من بين هذه البطون أولاد جلول وأولاد شيخ وأولاد ياسين وأولاد زيد ونيجا وسيف الدين أو سفيان والنوايبة والعريقات والمهرية وأولاد جناب والحمدية والعطيفات»[3].

هذا هو تصنيف ناختقال للبدو من رُعاة الإبل، بيدأن تقييمه لخصائصهم غير دقيق، إذ كانوا دائماً من الغزاة المتأصلين، ماكرين وكذبة. يتميَّزون بعدم التشدُّد في الدين، سريعو الإمتعاض لا يتحكَّمون في إ هتياجهم، وبينهم القليلين من القرعان[4].

لم يعد عدد المحاميد الأبالة - في شمالي دارفور - مُعتبراً منذ ظهور المهدية مقارنة مع هؤلاء الذين يعيشون في أقصى الغرب. لكن في حوالي عام ١٩٠٨م هاجرت

---

(١) يقول كاربو نقلاً عن سلاطين عن أصل النوايبة والمهرية والمحاميد بأنهم أخضعوا لسياسة السلطان محمد الفضل الذي أخضع الرزيقات وهجرَّ الكثيرين منهم لشمال دارفور حيث إندمجوا أخيراً في الثلاث قبائل المذكورة، هذا الرأي خاطئ، إذ يجوز أن يكون محمد الفضل قد هجَّر بعض الرزيقات للشمال لكنهم انضموا فقط لبني جلدتهم وإندمجوا فيهم مجدداً.

(٢) أنظر التونسي الرحلة إلى ودّاي المرجع السابق ص ١٠١.

(٣) أنظر الرحلة إلى دارفور وودّاي - ترجمتنا ص ٤٩١.

(٤) كاربو المجلد الثاني ص ٨٠.

أعداد منهم - أي أولاد شيخ ويُعرفون بأم جلول أيضاً - من ودَّاي لدارفور واستقروا مع الشوطية (ربما الحوطية؟) ومع فرع آخر من أولاد شيخ، شمال الفاشر. ويزعمون بأنهم كانوا في تلك المواقع قبل ثلاثة أو أربعة أجيال سلفت قبل هجرتهم لودَّاي. وفي العام ١٩١٤م هاجر بعضهم شرقاً حتى كردفان، وبوفاة علي دينار في ١٩١٦م عادوا لدارفور.

تتسق بطون المحاميد في شمال دارفور تماماً مع بطون فرع البقارة الذين يُكوِّنون ثلث الرزيقات وبطونهم هي :

(أ) أولاد شايق
(١) أم سيف الدين
(٢) أم جلول — (أ) أولاد جلال
(١) أولاد عيد
ب) أولاد مبلول
(ج) أولاد بليلي
(د) أولاد الرفِّيق
(هـ) أولاد تاكو
(و) أولاد راشد(١)

(ب) أولاد يس: سبق ذكرهم كبقارة هم في موقع وسط بين البقارة الجنوبيين والأبَّالة.

(ج) شوطية

(د) أولاد زيت. جزء منهم أبّاله والآخر بّقارة وموطنهم حول تِنة فيما بين الفاشر وجبل مرة

النوايبة:

ينتمي النوايبة - في الشمال - لنفس الجنس مثلهم مثل المحاميد، لكنهم أقل عدداً ويعيشون بينهم. إضافة لهؤلاء والنوايبة الذين يعيشون وسط الرزيقات في

(١) هؤلاء هم أولاد راشد من ودَّاي الذين انضموا للجلول.

الجنوب، هناك قبيلة مستقلة من النوايبة البقارة في جنوب شرقي ودّاي[1].

المهرية:

يندرجون تحت نفس التصنيف شأنهم شأن المحاميد والنوايبة ويُذكرون عادة بمعيتهم. ويوجدون - في دارفور - فيما بين كتم وجبل مرة، عددهم ليس كبيراً وفروعهم هي:

حمدانية	أولاد قايد
أم أحمد	أولاد بزقي
أولاد هناني	ولاد سعيد
أولاد علي	أولاد داري
أولاد بشارة	

هناك مجموعة مشابهة لهم ويدّعون إنهم مهرية، ونعني بهؤلاء الجمّالة من العطيفات[2] الذين يقطنون حول «مليط» وبمركز «أنكا» في الشمال، وهناك ينقسمون إلى أولاد بركة وأولاد عجيل وأولاد قونا، ويقولون بأن لديهم فرعين أيضاً - الهجايا وأولاد نصر - في ودّاي، ثم العكاكيز مع الرزيقات في جنوب دارفور.

العِريقات:

ينتمون لنفس المجموعة. وكانوا بصفة رئيسة حتى عهد السلطان محمد الفضل بشمالي شرق دارفور، لكنه هاجمهم وشتت شملهم ومنح مراعيهم للمحاميد وغيرهم. هرب المتبقون شمالاً. أغلب العرِيقات الآن جمّالة حول الفاشر وعلى الشمال الغربي. بعضهم الآن في المناطق الداخلة في مركز أنيدي مع البديات، وفي دار تاما. ذكرهم

---

(١) يصنفهم ناختقال بأنهم من رعاة الأبل في ودّاي.

(٢) يستمد اسمهم من «عطفة» (أنظر المخطوطة د - ٢) ويوجد الاسم - شأنهم شأن فرع العنازة - شمال الجزيرة العربية.

التونسي « كقبيلة غنية من البقّارة في جنوب غرب ودّاي ». أما قوله بإشتقاق اسمهم من العراق وبأنهم ذوو صلة ببني لخم وجذام، يرجح أن يكون مجرد تلفيق. ينقسم العريقات في دارفور إلى زبيلات من جهة ومجموعة من الدميسات والناصرية وأولاد كيرو وميناوية من الجهة الأخرى.

شجرة أنساب البقارة

لقد جمعت شجرة أنساب البقارة الآتية من مصادر عدة.

الشجرة (١) جُمعت حوالي عام ١٩٠٦م بواسطة ج. و. ساقار المفتش بمديرية جبال النوبة وهي عبارة عن روايات شفوية مصدرها الحوازمة وقد تم تكييف تهجئة الأسماء.

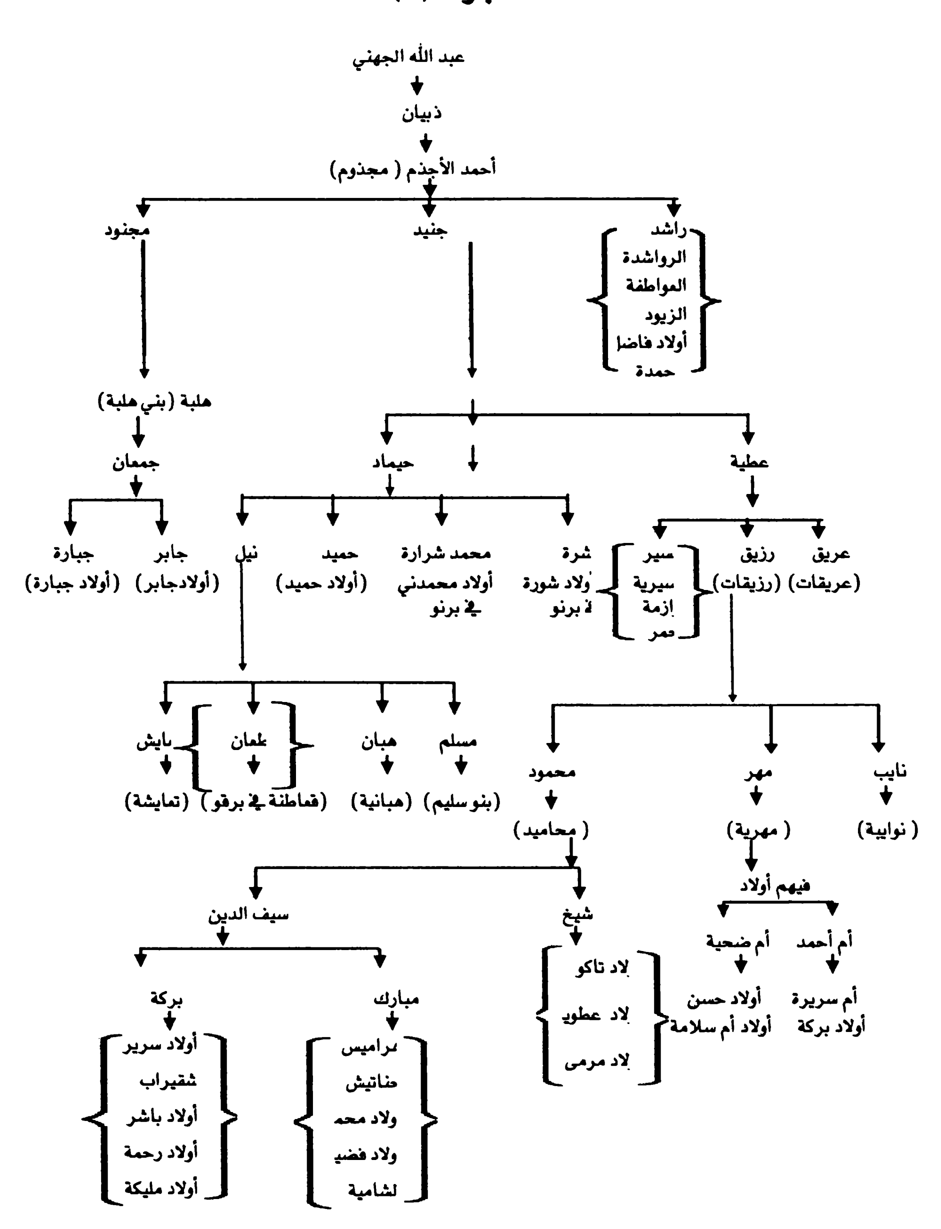
الشجرة (٢) جُمعت لاحقاً بواسطة أ. ل. هادو مفتش جبال النوبة من إفادات شفوية إعتماداً على الحوازمة والحُمر والفلايتة. وقد تم ضبط تهجئة الأسماء أيضاً.

الشجرة (٣) منقولة من كتاب السودان الإنجليزي المصري (١ - ٣٣٤) مصدرها.. عبد الرحمن شيخ الجبارات من التعايشة وتُركت تهجئة الأسماء دون تعديل.

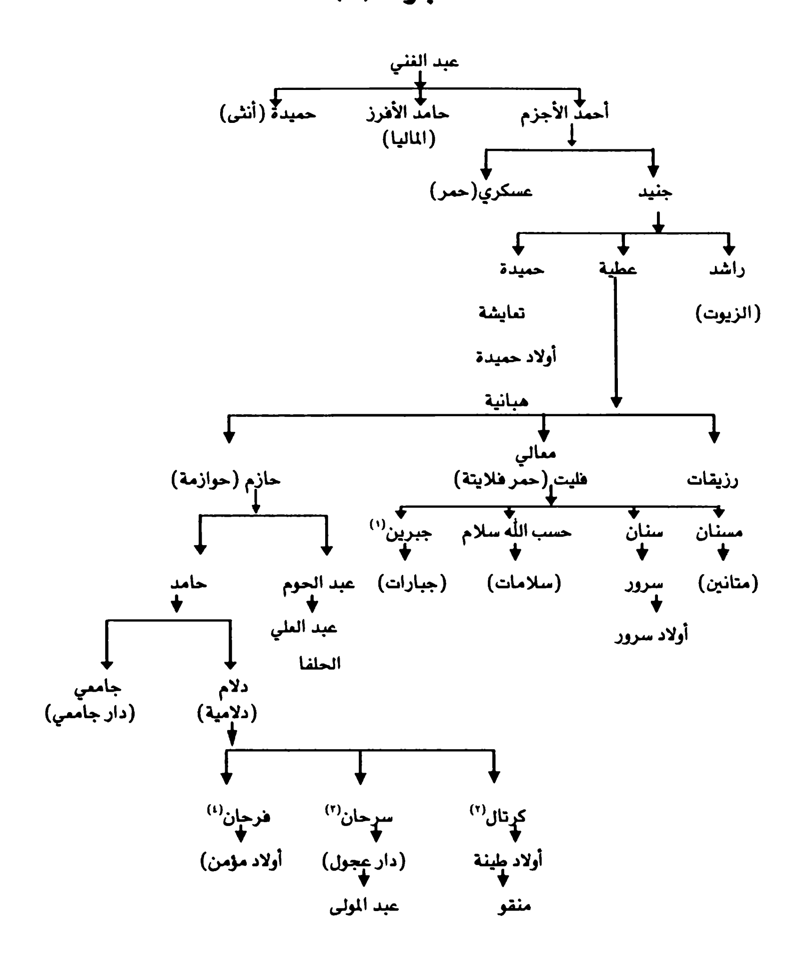
الشجرة (٤) مأخوذة من تاريخ العالم ص ٥٨٥ للدكتور هلموت المأخوذة أساساً من ناختقال وتُركت تهجئة الأسماء دون تعديل.

الشجرة (٥) أعددتها بنفسي من روايات شفوية زودني بها ناظر الحُمر من الفلايتة ولمزيد من التفاصيل أنظر كتابنا القبائل (١٤٥ - ١٤٨).

الشجرة (١)

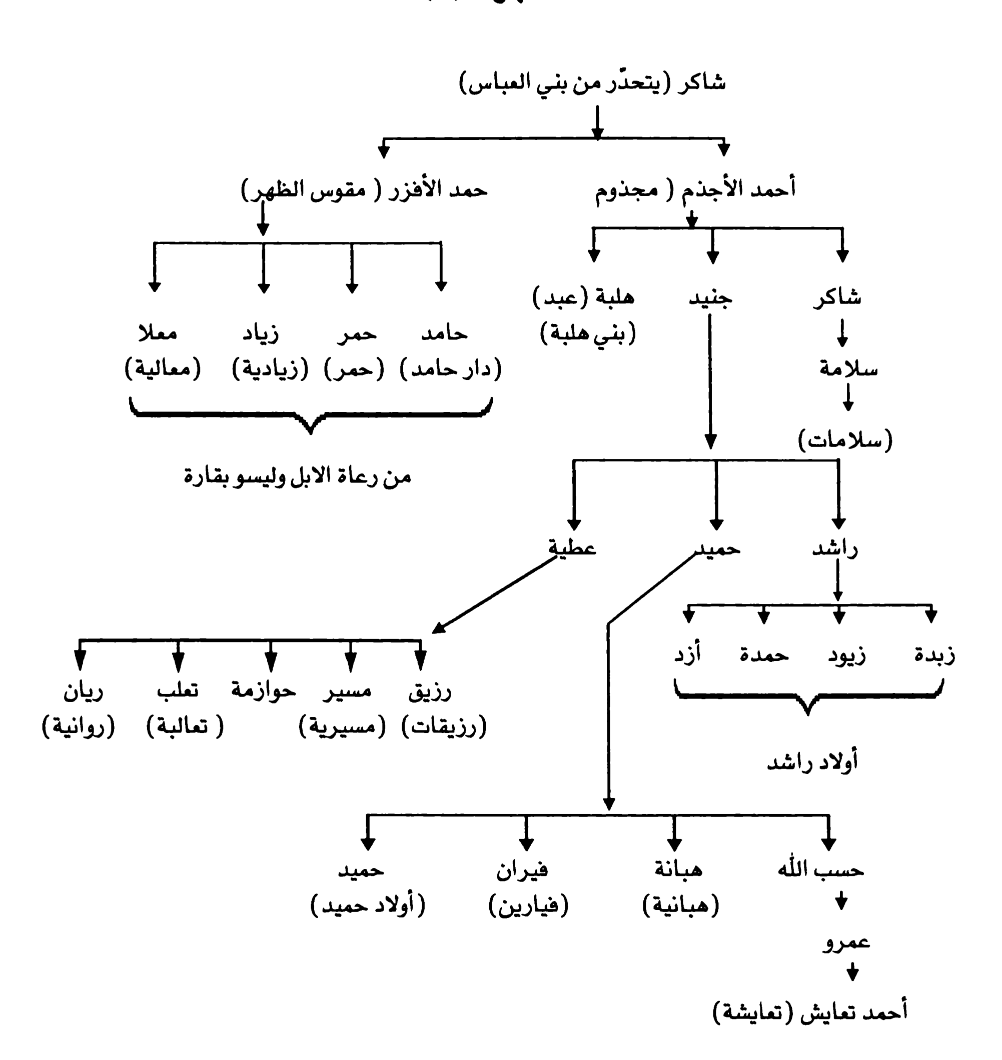

عبد الله الجهني
ذبيان
أحمد الأجذم (مجذوم)
مجنود
جنيد
راشد
الرواشدة
المواطفة
الزيود
أولاد فاضل
حمدة
هلبة (بني هلبة
جمعان
حيماد
عطية
جبارة
(أولاد جبارة)
جابر
(أولادجابر)
نيل
حميد
(أولاد حميد)
محمد شرارة
أولاد محمدني
في برنو
شرة
ولاد شورة
لا برنو
سير
سيرية
إزمة
عمر
رزيق
(رزيقات)
عريق
(عريقات)
بايش
(تمايشة)
علمان
(قماطنة في برقو)
هبان
(هبانية)
مسلم
(بنو سليم)
محمود
(محاميد)
مهر
(مهرية)
نايب
(نوايبة)
فيهم أولاد
أم ضحية
أم أحمد
أولاد حسن
أولاد أم سلامة
أم سريرة
أولاد بركة
سيف الدين
شيخ
لاد تاكو
لاد عطوي
لاد مرمى
بركة
أولاد سرير
شقيراب
أولاد باشر
أولاد رحمة
أولاد مليكة
مبارك
مراميس
حناتيش
ولاد محمد
ولاد فضيل
لشامية

الشجرة (٢)



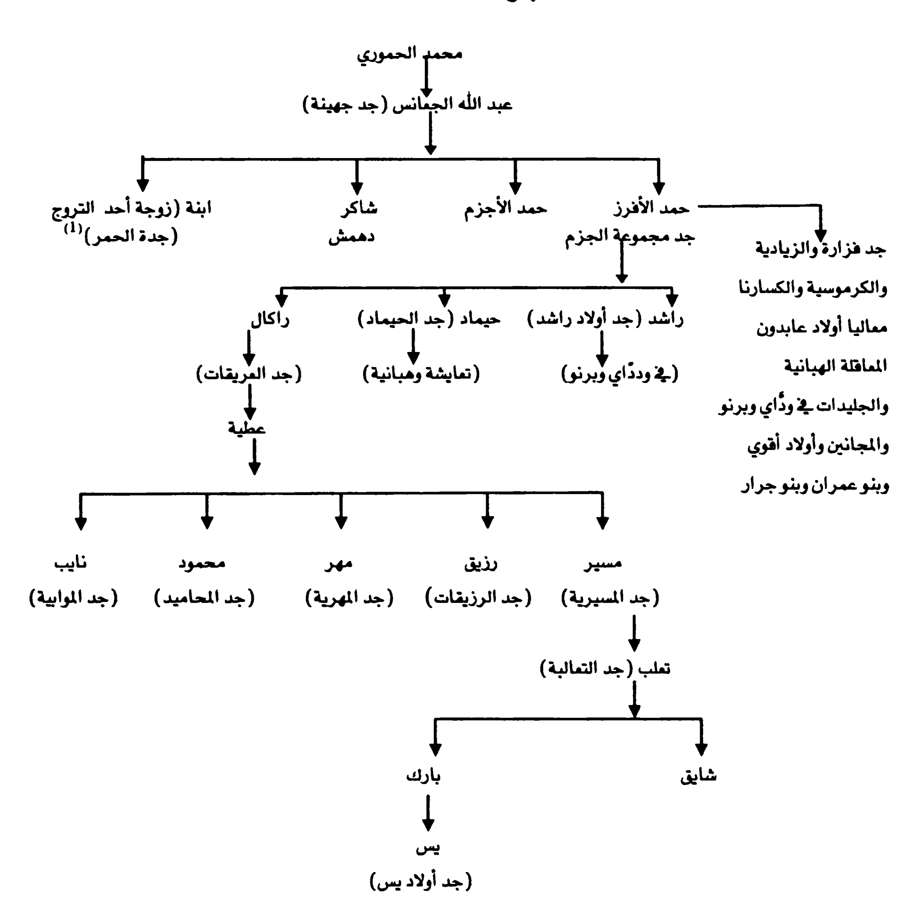
١-هاجر من الجزيرة العربية لبرقو.
٢-الجيل التاسع من الآن
٣-توأم
٤-من إحدى عشر جيلاً

الشجرة (٣)



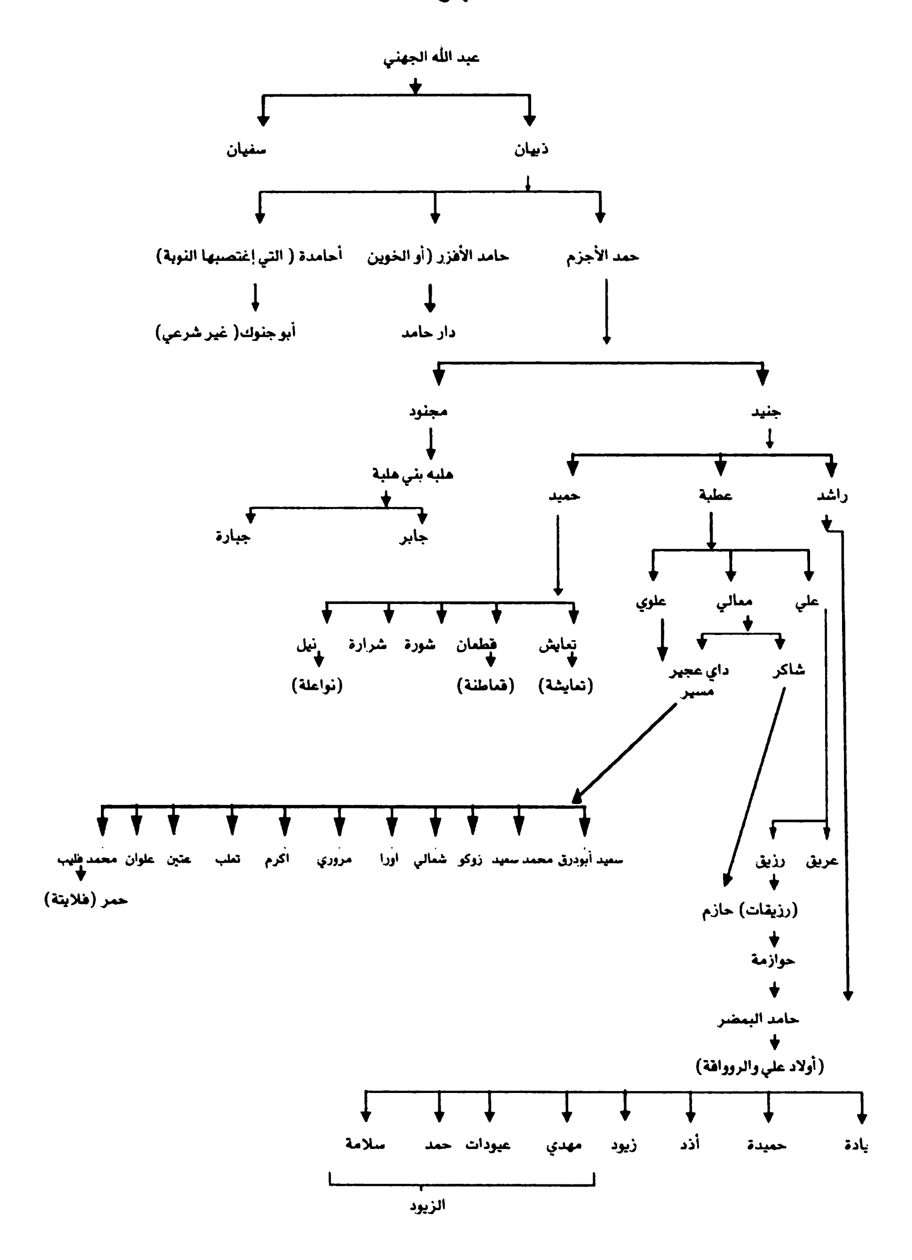
شاكر (يتحدّر من بني العباس)
أحمد الأجذم (مجذوم
حمد الأفزر (مقوس الظهر)
شاكر
جنيد
هلبة (عبد)
(بني هلبة)
سلامة
(سلامات)
حامد
(دار حامد)
حمر
(حمر)
زياد
(زيادية)
معلا
(معالية)
من رعاة الابل وليسو بقارة
راشد
حميد
عطية
زبدة
زيود
حمدة
أزد
أولاد راشد
رزيق
(رزيقات)
مسير
(مسيرية)
حوازمة
تعلب
(تعالبة)
ريان
(روانية)
حسب الله
هبانة
(هبانية)
فيران
(فيارين)
حميد
(أولاد حميد)
عمرو
أحمد تعايش (تعايشة)

الشجرة (٤)



1-ملحوظة: - المقصود المسيرية الحُمر وليس الحَمر

الشجرة (٥)


عبد الله الجهني
ذبيان
سفيان
حمد الأجزم
حامد الأفزر (أو الخوين
أحامدة (التي إغتصبها النوبة)
دار حامد
أبو جنوك(غير شرعي)
جنيد
مجنود
هلبه بني هلبة
جابر
جبارة
راشد
عطية
حميد
علي
معالي
علوي
شاكر
داي عجبر
مسير
تعايش
(تعايشة)
قطعان
(قطاطنة)
شورة
شرارة
نيل
(نواعلة)
سعيد أبودرق
محمد سعيد
زوكو
شمالي
اورا
مروري
اكرم
تعلب
عتين
علوان
محمد ظهب
حمر (فلايتة)
عريق
رزيق
(رزيقات) حازم
حوازمة
حامد البمضر
(أولاد علي والرووافة)
يادة
حميدة
أذد
زيود
مهدي
عيودات
حمد
سلامة
الزيود

الفصل الرابع

تابع مجموعة جهينة

(أ) الكبابيش

ربما تشكِّل قبيلة الكبابيش الدراسة الأكثر إثارة من ناحية المكَّون العرقي أكثر من أي قبيلة سودانية أخرى. هم الآن متجانسو الخواص - ظاهرياً - ينضوي كيانهم القبلي تحت قيادة شيخ كبير (ناظر)، يخضع له شيوخ البطون والأفراد على حد سواء. وقبيلة الكبابيش هي الأكبر والأكثر ثراءً وسط قبائل البدو من الأبَّالة في البلاد، وهكذا فهم قبيلة بحق وحقيقة. ورغماً عن ذلك هم في الواقع مجموعة عناصر عربية متباينة الخواص تطعَّمت - لحد ما - بالدماء الحامية (بجة - بربر) مع بعض الدماء الزنجية (العبيد) بيد أن جوهرهم أكثر عروبة من أغلبية قبائل الرُحَّل وأنقى من أي قبيلة حضرية أخرى بالضرورة.

إن تطوُّر القبيلة لمستواها الحالي ناتج عن التزايد المتلاحق الذي حدث على مدى عدة قرون، ويعزى السبب الرئيس لهذا التطوُّر للخصائص الجغرافية التي تتمتع بها ديار الكبابيش، ويشمل هذا جميع الأراضي المرتفعة التي تشكِّل خطوط أم بادر وكجمر وكتول وأم أندرابة الحدود الجنوبية لها.

تُحد بادية الكبابيش شمالاً بالصحراء، ودرجوا على التجُّول غرباً إلى ما بعد وادي الملك حتى حدود دارفور، أما شرقاً فيتجهون في موسم الجفاف بقطعانهم نحو وادي المقدم. كما يُوجد فرع كبير للقبيلة في مديرية دنقلا الذين لا زالوا ولحد كبير على بداوتهم بيد أن لهم بعض المزارع على وادي النيل. للقبيلة - في كردفان - أماكن

معيَّنة للزراعة تجاور مناهل المياه الرئيسة، لكن المزارعين ليسوا سوى مجموعة ممن آثروا القعود عن الباقين لمباشرة هذا الغرض، بينما تستمر بقية القبيلة أجمعها في ممارسة الرعي بالمناطق الباطنة، أو موسمياً بالنسبة للفقراء الذين يملكون القليل من الأغنام والماعز.

تتسم ديارهم بالصلاحية لتربية الجمال والأغنام فضلاً عن قابليتها لتربية الماشية في جزئها الجنوبي. تتراءى تلك البلاد بالنسبة للعارف بمثل هذه الاراضي التي تموج بالبقاع الصخرية المتناثرة هنا وهناك، والزاخرة بالعديد من الوديان الخصبة المشبَّعة بالمياه السطحية التي تتخللها بعض النتوءات الجبلية، تتراءى كما لو كانت قطعة من مرتفعات نجد إقتطعت من أصلها وبُسطت في ديار الكبابيش.

بعد أن تخطى العرب وحلفاؤهم من جهينة - في بدايات القرن الرابع عشر - عقبة مملكة دنقلا المسيحية، وزحفت جهينة ومناصروها نحو السودان، ووجدوا الصحراء الشرقية تعج بغيرهم من العرب والبجة، اتجهوا لتلك البقاع الملائمة والأقل وعورة، غربي النهر. سبقت الإشارة إلى أن تلك البقاع لم تكن خالية من السكان من قبل بل وجد العرب على تلك التلال مجموعات الزنوج الحاميين من التبو، فضلاً عن مستوطَنات للنوبة، ويبدو إنهم إحتاجوا لعدة قرون لإحكام سيطرتهم على تلك السهول. أما بشأن سلسلة الجبال من الحرازة حتى كاجا، فلم يعمدوا لاحتلالها بل لم يتمكَّنوا من ذلك إلا من خمسة أو ستة أجيال مضت، حيث استأصلوا شأفة النوبة تماماً من على تلك الجبال الهائلة غير المأهولة الآن والتي تقع إلى الشمال، والمشمولة ضمن ديار الكبابيش الحالية.

اسم كبابيش- مفردها كباشي - مُستمد - كالمعتاد من جد وهمي يُسمى (كبش) والأرجح إن الاسم يقترن بـ«الكبش»[1]. أما متى تم تبنِّي هذا الاسم

---

(١) يظهر في النسبة كأبن لأفزر الذي يتحدر من عبد الله الجهني، والقصد هو ربط الكبابيش بفزارة ومجموعة جهينة.

فليس هناك من دليل. مسميات بعض البطون، والقليل الذي نعلمه عن تاريخهم السابق يؤيد ما يمكن أن يخلص إليه المرء في كل الأحوال، بناء على الأسس التاريخية القائلة بأنهم أتوا - أصلاً - من الجزء الشمالي للحجاز. فعلى سبيل المثال فرع القبيلة الذي يستوطّن حول أم أندرابة وأم سدر - وهم مجموعة من رعاة الأغنام - يتحدَّرون من أولاد عُقبة، وتقول الروايات بأنهم أصل الكبابيش[1]، وقد تولّوا الشياخة لحوالي عشرة أجيال مضت حتى أزاحهم الربيقات، ثم قيل أيضاً عن أولاد عقبة الذين عبروا لمصر من الجزيرة العربية، بأن بعضهم مرَّ عبر طرابلس، ثم اختلطوا أخيراً بطبقة الفلاتة بغرب أفريقيا، بينما كوَّن آخرون قبيلة أولاد علي العظيمة في الصحراء الليبية،ك ما استقر جزء ثالث في الصحراء السورية.

وهذا يكفي للربط بين أولاد عُقبة في كردفان مع بني عُقبة الذين لا يزالون يعيشون وسط الحويطات على الساحل الغربي حول «مكنة» و«مويلة» و«زيبة»، ثم في رِفقه دائمة مع المزاينة في سيناء[2].

سبق وتعرَّضنا في فصول سابقة لأولاد عُقبة بحسبانهم فرع من بني جذام. والدكتور «والن» الذي وصف ديارهم في عام ١٨٤٨م بأنها قرب العقبة، استدلَّ بعدة مراجع عربية عن ماضيهم القديم.

منها ما قاله عنهم ابن فضل الله العمري[3] (١٣٠١ - ١٣٤٨م)، بأنهم كانوا يتولَّون مرافقة قوافل الحج لجزء من الطريق بين العقبة والمدينة، ويؤيد ابن خلدون هذا النظر ويفيد بوجود بعض منهم في غرب أفريقيا، كما يُوجد آخرون جوار

---

(١) يُقال إن الرواحلة وأولاد عون هم أول البطون التي إلتحقت بهم، وتبع هؤلاء - بناء على رواية مبهمة للغاية - السراجاب وأولاد هوال والنواراب.

(٢) يقول المؤلف بأنه وجد بني عقبة في نفس المواقع المذكورة عند زيارته لساحل الجزيرة العربية مع فرقة البحر الأحمر في ١٩١٥.

(٣) يشير له والن كمؤلف لمسالك الأبصار. كما يعرف بأبو العباس شهاب الدين أحمد أيضاً.

طرابلس، ثم يتحدَّث عن بني واصل في مصر «كفرع من بني عُقبة بن مغربة بن جذام من القحطانية».

نقل بنو عُقبة لـ«والن» بأن مقاطعتهم كانت في سالف الأزمان مديدة جداً، ثم في بداية الإسلام إنقسموا إلى مسالمة وبني عمرو، وبيَّنوا له كيف إنهم أُخرجوا تدريجياً من مقاطعتهم في أقصى الشمال بواسطة الحويطات.

يفيدنا برتون وبشكل مطوَّل كيف إنهم بعد سنوات من الجهاد ضد الغرباء أُجبروا - أي بني عُقبة - للتصالح مع الحويطات على شروط مجحفة[1] وغير مشرِّفة، منها أن يتنازلوا عن إمتياز مرافقتهم للحجيج، كما يشير لقصة حربهم في بواكير القرن السادس عشر مع المعزة و(البلي) الذين إلى الجنوب منهم.

أما هؤلاء الذين توجهُّوا لمصر، انضم أغلبهم لبني هلال ويظهرون كأحد بطون تلك المجموعة الكبيرة كما فصَّل ذلك ابن خلدون والمقريزي.

كذلك أشار إليهم «ليو أفريكانو» (١٤٩٥ - ١٥٥٢م) باسم (هقبان) بقوله «مملكة هقبان هي الجار التالي لإقليم مليان، ويتسلمون جُعلاً معيناً من سلطان تونس. وهم قوم أهماج بدائيون، يفتقرون لابسط معاني الإنسانية. تبلغ قوتهم حوالي الألف خمسمائة من الفرسان». بيد أنه لا توجد أدلة على تاريخ هجرتهم أو الطريق الذي سلكوه لكردفان.

هناك فرع كبير للكبابيش الأبالة من ذوي الثراء يُسمون العطوية، (مفردها عطوي). وصيغة عطوية تعادل بني عطية، ولا يداخلني إلا قليل شك في إمكان ربط هؤلاء القوم بعطيات أو بدو (العطوانية) في «طيبة»[2]،

---

(١) يقول برتون «إن هذه الشروط المجحفة تم تحديدها قبل خمسة وعشرين سنة سلفت أي حوالي ١٨٥٠م».

(٢) يقول عنهم كلبل بأنهم بربر أصليون ويجمعهم مع بني واصل (أنظر مؤلفه ص ٥ و٨).

ومع بني عطية في الجزيرة العربية الذين يتردد اسمهم مراراً مقترناً بجهينة وفزارة وبني هلال.

وإن واقعة استخدام العطوية في كردفان للوسم (Y)، واستخدام بني عطية للوسم.

(⅄) في الجزيرة العربية لهو تعزيز للإعتقاد[1] فحسب.

عند الغزو الهلالي - مع عدم إغفال دور فزارة وإشتراكهم فيه أيضاً - كان بنو عطية وقتها مصنفين كفرع من الأثبيج - أكبر فروع بني هلال - الذين استوطّنوا محافظة القسطنطينية في الجزائر. يقول ابن خلدون بأنهم ضعفوا واندثروا، والحال كذلك فإذا انشق عدد كبير من بني هلال وهاجروا للسودان فإن هذا لا يجافي الحقيقة. على أيه حال كان هناك حوالي الثلاثة آلاف منهم في القسطنطينية وحوالي الخمسمائة في الصحراء حيث يُحسبون هناك ضمن البربر.

أما العطوية فيُعتبرون في كردفان - من حيث الأصل - كواهلة بيد أن الأمر لا يتجاوز حقيقة إنهم - أي العطوية - وفدوا بمعية الكواهلة عند انضمامهم لمجموعة الكبابيش. هناك عطوية آخرون من رعاة الماشية يستوطّنون أقصى الجنوب بين الرزيقات البقارة، وقد سبق ورأينا إن عطية هو الأكثر شهرة وقبولاً من بين أسلاف البقارة.

النوارب:

هم الفرع الحاكم والأكثر ثراءً في الكبابيش، ويدّعون الانتساب لركابية «العفاض»

(١) لا يزال هناك الكثيرين من بني عطية في الجزيرة العربية وقدرهم بالتقريب - في ١٨٦٢ - بستة ألف نسمة ويحدد موقعهم بشمال الحجاز بين الجوف ومويلة وقال إنهم وحرب يقطعون طريق الحجاج للمدينة ويصفهم دوتي بأنهم أتباع لحائل ويعيشون مع جهينة بالقرب من تيماء، وقد قابلهم وليم مع المعازة في حسمة شرق مويلة وفي تبوك.

في دنقلا. أما السراجاب فيُقال إنهم كنانة، والبرارة من الجعليين[1]، أما أولاد سليمان فيُقال بأنهم ينتمون لقبيلة كبيرة تحمل نفس الاسم سبق لها واستقرت بين سرت العظيم وفزّان، وروّعت - في القرن التاسع عشر - ممالك برقو وبرنو وكانم[2]. أما أولاد عون فهم فرع من رُعاة الأغنام حول جبرة، يرجح إنهم كانوا - قبل عدة أجيال مضت -جزءاً من الشايقية العونية.

يقول العوايدة إن جدهم فقيه ذائع الصيت يُدعى (عايد) أصله من عدن. ولما كانت مخطوطات الأنساب خالية من اسمهم يصبح المرء ميالاً للإعتقاد بحداثة هجرتهم لأفريقيا. وبمجرد هجرتهم استوعبوا عوائل من البجة والكنوز والشايقية[3] الموجودين بينهم. لكن الراجح إن العوايدة الأصليين الذين استوعبوا تلك العوائل الأجنبية عنهم يشتركون في الأصل مع عايداب دنقلا الذين سبق والتقيناهم مع الشايقية ثم مع البديرية.

استقر العوايدة - في وقت ما - مع رفاعة في الشرق بين الرهد والدندر وعطبرة، وبقيت أعداد منهم هناك حتى وقتنا الحاضر[4]، لكن الغالبية العظمى عبروا النهر - الأرجح عند بداية القرن التاسع عشر تقريباً - وانضموا للكبابيش[5].

وتتمثّل فروع الكبابيش في الآتي:

---

(١) الأرجح انهم انضموا حديثاً للكبابيش وهم الوحيدون من بين البطون المختلفة الذين يوسمون جمالهم بالجانب الأيسر..

(٢) أستقروا في تشاد الآن وذوو طابع ليبي.

(٣) من فرع العدلاناب.

(٤) يقول المؤلف بأن البطون الوحيدة التي قابلها هي الكنزاب والموسياب في عد العوايده بمركز الكاملين.

(٥) تقسيمهم لزرق وبيض يرجع للون جمالهم وليس لهم. والجمال غامقة اللون تنتشر وسط قبائل الجنوب والوسط في الجزيرة العربية وهي حرب ومطير وعتيبان.

- (أ) نوراب[1]
  - (١) ربيقات
    - (أ) أيابيد
    - (ب) دريواب
    - (ج) فروخاب
    - (د) إحيمراب
    - (هـ) باتعاب
    - (و) أم سريح
  - (٢) دار كبير
  - (٣) دار أم بخيت
  - (٤) أولاد الكير
  - (٥) نقادة
  - (٦) دار سعيد
  - (٧) كبيشاب
  - (٨) أولاد عوض السيد
  - (٩) أولاد نواي
  - (١٠) حواراب(٢)
    - (أ) ناس ود يوسف
    - (ب) مساعيد
    - (ج) ناس ود شطحان
    - (د) ناس ود دقوشين
    - (أ) أولاد دابو
    - (ب) أولاد علي
    - (ج) رحودة
- (ب) أولاد حوال
  - (١) دار حامد
  - (٢) دار محمود

---

(١) تتضمن قائمة باركنز الأحامدة وجهينة والكواهلة والبطاحين والشنابلة والقريات والغزايا أيضاً بيد إنهم جميعاً تركوا القبيلة، فيما عدا قسم واحد من تلك القبائل الذي بقي في حمي الكبابيش حتى الآن.

(٢) يتضمَّن هؤلاء عناصر من الدواليب (ركابية أو دناقلة).

(ج) أولاد عون[1]
- (١) لبابيس
- (٢) براشة
- (٣) قروناب
- (٤) دار الحاج
- (٥) تماسيح
- (٦) لكيرتاب

(د) أولاد طريف
- (١) سريقات
- (٢) عيشاب
- (٣) علاونة[2]
- (٤) جرامدة

(هـ) غليان

(و) طوال[3]

(ز) عوايدة
- (١) العوايدة الرزق
  - (أ) ناس ولد رحمة
  - (ب) ناس ولد مقبول
  - (ج) ناس ولد هلالي
  - (د) ناس ولد رابح
  - (هـ) ناس ولد بشير
  - (و) ناس ولد النعمة
- (٢) العوايدة البيض
  - (أ) بشاراب
  - (ب) عدلاناب
  - (ج) سنوناب

---

(١) الأرجح إن أصولهم ترجع للشايقية،راجع اللبابيس وسط الفور في غير هذا الموضع. هناك من يُدعون أولاد عونة من بدو مصر.

(٢) راجع بطون هلبة وكنانة.

(٣) يرتبطون بالرفاعيين من جهة ومع الشبارقة من جهة أخرى وسمهم، الشبول أو الشيبا.

(ح) عطوية
(١) فارساب
(٢) بقراب
(٣) دار علي — (أ) دار سليمان
(٤) منوفلاب
(٥) كفار
(٦) شجياب

(ط) أولاد عقبة
(١) درياب
(٢) دار علي
(٣) شليواب
(٤) حامداب
(٥) دار عمر
(٦) دار أبو نسيعة
(٧) كراسوب
(٨) شناشين
(٩) دار محمد
(١٠) سعدلاب[١] أو سعادية

(ي) برارة[٢]
(١) أم أغيبش
(٢) ناس عطيرنا
(٣) عصيفير
(٤) ناس ودمطر
(٥) دارعلي
(٦) زراقنة

(١) الأرجح إنهم محس.
(٢) جعليون.

(ك) سراجاب[1]
- (١) دار ساعد
- (٢) جنادبة
- (٣) دقيمية
- (٤) محمداب
- (٥) ناس ود الفزاري
- (٦) الغجيرية
- (٧) شخوناب

(ل) رواحلة
- (١) دار أبو جنة
- (٢) دار جامع
- (٣) نشابة
- (٤) مسراب
- (٥) جقاديل
- (٦) عويضاب

(م) حماداب
- (١) رهوداب
- (٢) تريقات
- (٣) بشارة

(ن) أولاد سليمان
- (١) غناواب
- (٢) أباطين
- (٣) دارمساعد
- (٤) أولاد حمد الله

(ث) باشر[2]

(خ) عيساوية[3]

---

(١) كنانة.

(٢) هناك قبيلة صغيرة مستقلة بذات الاسم من شبه البدو في دارفور وهم من رعاة الأبل يعيشون جنوب الفاشر مباشرة.

(٣) أصلهم من الجموعية وأعدادهم قليلة وهم ملتحقون ببطون الكبابيش الشرقيين.

جميع بطون الكبابيش أعلاه بكردفان، أما الذين سيرد ذكرهم فيما هم بعد أم ماتو وهي العشيرة الحاكمة والأكبر في مديرية دنقلا، هناك أعداد منهم من الحضر إلا أن أغلبيتهم من الرُحَّل الذين يحتلون وادي الكاب غربي النهر. وفيهم الكثير من عناصر المحس وغيرهم من الدناقلة.

(أ) أم متو[1]
- (١) غديراب
- (٢) بلولاب
- (٣) عزوزاب
- (٤) دار أحمد
- (٥) أم كلبه

(ب) مريساب
(ج) جنجناب
(د) عوايدة
(هـ) بيعوضاب
(و) إحيمراب
(ز) بليلات
(ح) دار بشوت
(ط) دلاديم
(ي) دار حامد

سبق وذكرنا بأن النوراب هم الفرع الحاكم حالياً، وقد تولّوا هذا الأمر منذ أن تخلي كربان - من الربيقات - عن الشياخة لإبن أخته «كِرادم» من النوراب[2] والذي داوم خلفاؤه على توارثها منذ ذلك الوقت واحد تلو الآخر رغم إن الخلافة. لا تنتقل من الأب للإبن دائماً. جاء أول ذكر للكبابيش على لسان بروس (١٧٦٨ - ١٧٧٣م)

---

(١) يرجعون لأصل واحد مع السراجاب.

(٢) تجدر ملاحظة عادة توريث ابن الأخت القديمة السائدة في دنقلا.

رغم إن هناك قلة من الرحّالة الذين زاروا السودان قبله. إلا أن مدوناتهم - عنهم - جاءت شحيحة، ومع ذلك ليس في وسع المرء إفتراض عدم إسباغ اسم «كبابيش» على القبيلة لسنين عدداً.

يقول «بروس» عن ود عجيب الذي كان يجبي الضرائب من بدو صحراء بيوضة إنابة عن حاكم سنار الآتي: «إن هذا يحدث بالرغم من إن بني جرار وبني فزارة والكبابيش نجحوا مؤخراً في طرد عرب بيوضة القدماء[1]، الذين يتظاهرون الآن بأنهم أناس من كردفان فقط . ثم يضيف بأن الطريق عبر بيوضة أصبح غير مطروق بسبب إن بني جرار وبني فزارة والكبابيش الذين يأتون من جهة الغرب من نواحي كردفان خوفاً من الأحصنة السوداء»[2]. فضلًا عن إنهم احتلوا كل الآبار. الكبابيش قبيلة كبيرة جداً وتمتد ديارهم شمالاً داخل صحراء سليمة الكبرى وحتى تخوم مصر. يقول «براون» بأنهم غزوا - في أيامه - مناطق بئر المالحة (أي بئر النطرون)، كما درجوا على نهب القوافل الآتية من مصر. كما قال التونسي بأنهم عاونوا هاشم سلطان المسبعات بكردفان في حربه ضد تيراب سلطان دارفور وذلك في خواتيم القرن الثامن عشر.

يقول بركهارت - في معرض حديثة عن دنقلا في ١٨١٣م - «تقيم قبيلة الكبابيش البدوية في المنطقة مداومين الإغارة على دارفور حيث يجلبون الرقيق من هناك». كما ذكرهم «كليوود» في ١٨٢١م كمصدِّرين للملح من شمال كردفان. وعند الاحتلال التركي تظاهروا بالخضوع بيد أنهم إمتنعوا عن دفع الضرائب.

ظل الكبابيش في التركية منهمكين بشدة في التجارة المتنقلة، لكنهم تعرَّضوا للخديعة وإغتيال الأموال دون رحمة أو شفقة من قِبل الأتراك الذين كانت لهم الغَلبة - دائماً - في إغتصاب قطعان الكبابيش عندما يضطرون - أثناء موسم الجفاف

---

(١) الأرجح أن المعنيين هم القريات.

(٢) الأرجح إنهم فرسان الفور، الذين كانوا - وقتها - يسودون شمال كردفان.

- لنزول النهر وغيره من مناهل المياه المعروفة[1].

إعتقل المهدي زعيمهم الكبير التوم في ١٨٨٣م وضرب عنقه، بينما انضمت أعداد من فروع القبيلة للدراويش. توغَّل النوارب وقليلين غيرهم في الصحراء تحت قيادة صالح بيه فضل الله متحدِّين السلطة. قُتل صالح بيه في ١٨٨٧م بالقرب من جبل العين ولم ينجح الكبابيش - حتى إعادة احتلال السودان - في أن يكوِّنوا كياناً متماسكاً، بل تجمَّعوا بعد ذلك في الصحاري وإغتنموا فرصة عدم الاستقرار وهاجموا حَمر والزيادية - خصومهم التقليديين - الذين انضموا للدراويش، وهكذا زادوا ثرواتهم من الماشية، أما الزعيم الحالي للقبيلة - التي أصبحت الآن أغنى من أي وقت مضي - هو علي ابن التوم الذي قُتل في ١٨٨٣.

نختم حديثنا عن الكبابيش بأن جل ما يُعرف عنهم في وقتنا الحاضر هو إنهم انتشروا بقدر كبير كمجموعة مترابطة من رعاة الإبل الذين يجوبون السهول الواقعة فيما بين دنقلا ودارفور، والفرق الأساسي بين حال القبيلة في وقتنا الحاضر وما كان عليه في القرن التاسع عشر أو قبله، هو استئثارهم بتلك المراعي الرحبة دون منافسة من قبل القبائل الأخرى.

أُجبر بنو جرار على التوغُّل جنوباً وأصبحوا من شبه الحضر. كذلك شيد دار حامد قرى في ديارهم عدا قلة منهم ظلوا يرتادون مراعي الكبابيش. بالنسبة للزيادية فقد إنتقصت أعدادهم، وتبقى القليلون يمتهنون الرعي مع دار حامد في كردفان، والبقية الباقية إما من المستقرين أو في دارفور.

---

(١) أنظر بالم وباركنز حيث يقول الأخير يُجبى من الكبابيش - في كردفان - ألفي جمل كضريبة، تغيرت الآن إلى حمولة أربعة ألف من الجمال المحملة بالصمغ من الأبيض إلى دنقلا، زائداً مائة من الخيول وألفين من الدولارات فئة الخمسة عشر قرشاً، وقدر معين من الأغنام وقيمة خمسين من الرقيق. زعيم القبيلة سالم فضل الله قابل محمد علي باشا بالخرطوم في ١٨٣٨ - ١٨٣٩ ونال بعض الإمتيازات التي لم تكن ذات قيمة. وفي ١٨٥٨ بناء على ما أورده باترك بلغت الضريبة السنوية التي تدفعها القبيلة لمصر خمسة ألف جمل (أنظر باترك في أعالي مصر ص ٣٢٨)..

أما الهواوير فهم على وفاق وود مع الكبابيش ويرعون بمعيتهم أينما طاب لهم المرعى. تلك الغارات التي تقع على حساب أهماج البديات والقرعان والميدوب من شمال دارفور تدور شمالاً في وادي الملك أثناء فصل الشتاء. حالياً بدلاً من الميل لحياة أكثر استقراراً فإن الكبابيش - بزيادة قطعانهم تحت الرعاية البريطانية - لم يتبدلوا البته إلا لقوم أكثر بداوة.

المغاربة أو المغربيين:

المغاربة أو المغاربيين أصلها «مغاربة» ومفردها (مغربي أو مغربيين)، وبالتعبير اللاتيني «مورس»، ثم بالإنجلكانية «مور»، ومن المغرب الأقصى ظهر الاسم مراكش. وفي الواقع لا يصح الإفتراض - في كل الأحوال - بأن هجرة كل المغاربة إلى مصر والسودان كانت من المغرب، بل من المستبعد أن يكونوا قد وفدوا من هناك، باستثناء فئة بعينها من طبقة التجار.

ينطبق هذا الاسم بطريقة مبهمة خصوصاً أثناء الفترة الأخيرة للمماليك وإبان فترة محمد علي باشا، إذ كان يُطلق على جميع قبائل البدو الذين يستوطِّنون غرب مصر. وعلى سبيل المثال فلنأخذ من بركهات ما يلي: «كان معبد أبو سمبل يُستغل كمأوى للاجئين من أهالي «باليان» وجيرانهم من الإعراب ضد البدو من قبائل «المغربيين» الذين إعتادوا الإغارة على تلك المناطق بإنتظام»[1]. ينتمي هؤلاء القوم للقبائل التي تستوطِّن فيما بين الواحة الكبرى وسيوط. وعند إنطلاقتهم يأوون أولاً لأرقو ومن هناك يبدأون النهب بحيث يستهدفون كل القرى التي على ضفة النهر الغربية، ومن ثم يعرجون على المحس والسكوت وبطن الحجر ووادي حلفا. ويتألف الفريق - عادة - من حوالي المائة وخمسين فارساً وأعداداً من الهجانة. لا يجرؤ أي من النوبيين على إعتراضهم بل بالعكس من ذلك يخف الحكام للإحتفاء

(١) يعلق بركهارت في غير هذا الموضع قائلاً «بأن أصل العرب الذين يقطنون طيبة والمناطق المجاورة مغاربة».

بهم ويمنحونهم بعض الهدايا عندما يبلغون المنطقة المقابلة للدر. وكانت غارات تلك القبائل إحدى الأسباب الرئيسة لبقاء الجزء الأعظم من الضفة الغربية للنيل مهجوراً.

ومن هؤلاء المغاربة كان جيش إسماعيل باشا وكذلك جيش الدفتردار، حيث استقدموا بأعداد كبيرة تمهيداً لاحتلال السودان، وواقعة إن العنصر البربري ربما كان قوياً كالعنصر العربي وسط هؤلاء المغاربة، سيتضح في فصول لاحقة، لكن ليس هناك سبب - في هذا الصدد - لاعتبار مصطلح «عرب» أقل إنطباقاً عليهم دون سائر قبائل البدو في شمال السودان.

إبان الحكم التركي تدفقت أمواج من هؤلاء المغاربة نحو السودان، حيث آثروا جميعاً البقاء للعمل كمشاة غير نظاميين وشُرط، كما تم تجنيدهم في حملات جلب الرقيق وجباية الضرائب[1] الخ، ترتَّب على ذلك أن استقرت أعداد منهم في المدن والقرى ممتهنين التجارة والزراعة. بيد أن هذا لا ينفي بأن هناك هجرة للكثيرين من المغاربة نحو السودان قبل الاحتلال التركي حيث استقروا في النيل الأزرق وغيره من المناطق، وكان هؤلاء - وإلى حد ما - أداة جذب للقليلين ممن وفدوا مؤخراً لاستيطان نفس المركز. وجد كليوود المرافق لحملة إسماعيل باشا هؤلاء المغاربة السودانيين مستقرين في سوبا وود الشايب والكاملين وأبو عشر، وكلها مناطق تبعد عن الخرطوم[2] بحوالي المائة ميل. لا تزال هناك قبيلة كبيرة من المغاربة رعاة الإبل فيما بين سوبا وأبودليق والبطانة، ظلت مستقرة هناك من عدة أجيال خلت[3]. لا تتوافق هذه القبيلة من حيث الملامح أو أسلوب الحياة مع أسلاف هؤلاء العُمَّار من المغربيين أو المغاربة الذين وفدوا للسودان في القرن

---

(١) لمزيد من التفاصل راجع بالم الصفحات ٢٠٧ و٢١٢ وويرن الصفحات ١٣٨ و١٣٩.

(٢) يسميهم العرب المغاربة.

(٣) القليلون منهم إستقروا في الجزيرة أيضاً بالقرب من المناقل وما جاورها.

التاسع عشر وما تلاه. يتميَّز الأخيرون[1] بحمرتهم الشاحبة المتوافقة مع سمات القبائل المراكشية سكان ساحل شمال أفريقيا، في حين يصعب تمييز بدو المغاربة السودانين عن بقية رُصفائهم من البدو الآخرين. وبصرف النظر عن أي شيء، هم أغمق لوناً.

يدعي هؤلاء المغاربة - بصيغة مبهمة - التحدُّر من أحمد زروق شريف الطائفة الشاذلية في تونس، وقد أيَّد كتُّاب النسبة هذه الإدعاءات. الشجرة الوحيدة ذات التفاصيل التي عُرضت عليَّ، كانت في حيازة العمدة فج النور من فرع الدسيساب الذي يتتبع أسلافه عبر سلسلة من الأسياد - ضمنهم أحمد زروق - صعوداً حتى الإمام علي في الجيل الثاني بعد الثلاثين، بيد أنه لا يوجد سبب للإفتراض بأن ما جاء في الشجرة هو في كل الأحوال مجرد تفاصيل ملفقة[2].

الرواية التقليدية للقبيلة تفيد بأنهم هاجروا من جوار «فز» منذ حوالي خمسمائة سنة أو في تاريخ معاصر لمملكة سوبا، ولذلك يدَّعون أحقيتهم في المزيد من الأراضي المطرية إلى ما وراء قرية سوبا، وفي سبيل تبرير حقوقهم في الزراعة أمام موظفي الحكومة، يدَّعون بأنهم أول من حاز تلك الأراضي منذ مملكة علوة المسيحية، علماً بأنه لا يُوجد ما ينفي روايتهم، بل إن المرء قد يجد بينة مقبولة في سيرة عبد الله ود حسونة المغربي التي تفيد بأن بعض منهم كانوا هناك منذ القرن السادس عشر. يؤكد اللون الداكن الإقامة الطويلة في الجنوب لدرجة التصوُّر بأن بعض أجدادهم كانوا يوماً ما سكَّاناً لتلك النُزل التي وصفها ابن سليم - في خواتيم القرن العاشر الميلادي - وقال بأنها كانت مشغولة بمسلمين من سوبا. وتتمثَّل الفروع الرئيسة لبدو المغاربة في الآتي:

---

(١) يُوجد في الفاشر - على وجه الخصوص - مجمع تجاري كبير للمغاربة الذين يُطلق عليهم اسم «فزان».

(٢) مما يدعو للإستغراب فإن فج النور نفسه يحمل نفس التركيبة الغامقة والسمات إليهودية الأخاذة ذات الملامح المغربية الحديثة وقد يرجع ذلك للمحافظة الصارمة على دماء الأسرة الحاكمة من أي إختلاط بالدماء السودانية الصِرفة.

كبيدلاب		كراديس		
دريساب	بصفة رئيسة	سعباب	بصفة رئيسة في الجزيرة	
حسوباب[١]	شرق الخرطوم	جدياب		
عقرباب		فضالاب		
عوضلاب		مقيبلاب		
علواب				
بياضة	بين	فرحاب	بجوار أبو دليق	
ترابيون	أبودليق	نوراب		
حسبلاب	وعلوان	أرويحاب		
كوقلاب				

وسم الجمال لدى هؤلاء المغاربة يُسمى «التميسيح» - تصغير لتسماح - وهو خط أفقي تحت العين اليمنى ويعني تمساحاً مستلقياً على شاطئ النيل[٢].

الحَمَر[3]:

لا تعطي «النسبة» كثير تفاصيل عن الحَمر، والقليل الذي جادت به يشوبه التناقض. فبينما يؤكد أحد الآراء بأنهم فرع من بني تميم، هناك رأي آخر يقول بأنهم خليط من بني أُميه وبني العباس والعنج والأشراف والفور. كما إن هناك روايتين[٤] أخريتين تنسبهم لمجموعة جهينة.

أما ما يتداول وسط فرع الغريسية من القبيلة هو إنهم حميِّريون من اليمن وفدوا إلى السودان في زمن الحجاج بن يوسف، أي في النصف الأول للقرن السابع،

(١) أي المتحدرين من ود حسوبة الوارد ذكره.

(٢) قارن بالهواوير والكبابيش حيث تضم كلتا القبيلتين بطن بأسم «تماسيح».

(٣) أغلب المعلومات مأخوذة من كتاب للمؤلف بعنوان « قبائل شمال وأواسط كردفان.

(٤) نجد - في موضع آخر - بعض الحمر مصنفين مع البقارة.

ويُقال إنهم عبروا البحر الأحمر وسكنوا التاكا «كسلا» أولاً ثم تحرَّكوا نحو النيل الأزرق ثم توجَّهوا - بعد حين - نحو دارفور[١] حيث اتخذوا منها موطناً دائماً.

وواقعة إنتقالهم للتاكا يُعطي دليلاً وحيداً معضَّداً للرواية القائلة بإرتباطهم بعرب الحُمران الموجودين في هذا المركز. ثم التطابُق بين اسم أشهر أوسامهم للجمال « الشبول» مع وسم فرع الشبول من المناصير - الذين ينسبهم السير ولسون للعبابدة - يعطي مقداراً يسيراً من البيِّنة - في صالح إدعائهم بالدخول عن طريق البحر الأحمر أيضاً[٢].

ظل إلمامنا بتاريخهم في دارفور - على وجه الخصوص - أمراً غامضاً حتى بداية القرن الأخير حيث قويت شوكتهم تحت قيادة المدعو الحاج منعم[٣] من فرع العساكرة. إن من الراجح صعوبة التسليم بأنهم شكَّلوا كياناً قبلياً في السابق على أساس الأصل العرقي، وهكذا يمكن القول بأنهم مزيج لمجموعات مختلفة من الأعراب آثروا استيطان تلك البقاع شحيحة المياه التي يمكن استغلالها في إنتاج محاصيل وفيرة، لكن باستخدام البطيخ والمياه المخزَّنة في جزوع أشجار التبلدي المجوفة إبان موسم الأمطار كمصدر رئيسي للمياه.

هناك اختلاف واسع وسط الحَمَر حول ما إذا كان مكي الابن، أم إبراهيم المليح ابن حفيد الحاج منعم هو المبتكر الأول لفكرة تجويف أشجار التبلدي[٤] واستخدامها

---

(١) تشمل دارفور - آنذاك - ما يُعرف الآن بغرب كردفان، أي المنطقة الواقعة غرب النهود. ظل الحمر لزمن طويل جوار أم شنقة، على جانبي حدودها الحالية وتُعرف أم شنقة الآن بالشريف كباشي.

(٢) كذلك بني فضل ذوو قربي المناصير بينهم بطن بأسم حضارمة (أي حداريب).

(٣) قابله ربيل في كردفان في ١٨٢٤.

(٤) لعدة أجيال كانت هناك آبار في أم شنقة الإ إن المنطقة الواقعة شرقها كانت جرداء حتى حوالي منتصف القرن التاسع عشر حيث بدأ إستغلال شجر التبلدي. لم تكن هناك أبار في النهود حتى ثورة الدراويش. يسمي التبلدي في غرب السودان بأسم «حُمر» لحُمرة لحاه. وهكذا فإن القبيلة التي لها إهتمام خاص بهذه الشجرة يجب أن تسمى «حَمر» بيد إن الأمر قد يكون مصادفة (الرأي للمؤلف)، أما من جانبنا فإننا نري إن الرأي لا سند له خصوصاً إذا قارنا الحَمر بالحمران في شرق السودان فأين التبلدي هناك؟.

كصهريج للمياه. غاية ما في الأمر إنهم استصلحوا تلك البقاع الشاسعة وسكنوها حتى يومنا هذا، بعد أن كانت - قبل سكناهم لها - جدباء غير ذات جدوى. لكن أحياناً يصادف المرء - وغالباً في الغرب وليس الشرق - شجرة مُعمِّرة يختلف وضع فوهتها عن أسلوب حَمَر في تجويف جزوع التبلدي. وتُنسب هذه الهندسة المختلفة للعنج، وبالتالي فالإفتراض المنطقي هو إن استخدام أشجار التبلدي كخزان للمياه ممارسة قديمة إندثرت ثم أحياها الحَمَر بحسب مقتضيات التوسُّع. ولما كان توغُّلهم شرقاً فإن هذا يقطع باستيلائهم على أراضٍ بكر.

بمجرد أن إشتد عود القبيلة إنقسمت لفرعين، «عساكرة ودقاقيم»، ثم بعدها بقليل - والأرجح أثناء احتلال الأتراك لكردفان - توجَّه القسم الأكبر لهذين الفرعين نحو الشرق نتيجة للتنازع مع القبائل العربية الأخرى التي تستوطِّن شرق دارفور من جهة، ولعدم كفاية أراضيهم من الجهة الأخرى. هؤلاء الذين تخلَّفوا حول أم شنقه والمراكز التي تُعرف باسم الدم جمد[١] والزرنخ[٢] وغيرها أصبحوا مستقلين تحت إدارة دارفور.

توجَّهت بقية القبيلة شرقاً واستقرَّت عائلة الحاج منعم - بصفة دائمة - حول فرشاحة، وجماعة شيخ الدقاقيم « الدود» أقصى الغرب. لكنهم ظلوا رحُّلاً فيما بين الأضية وفوجا، ثم شرقاً حتى أبوحراز وجبل أبو سنون، وفي الخريف يتوغَّلون أبعد للرعي في الأراضي الممتدة علي طول وادي الملك مع الكبابيش وبني جُرار والزيادية ودارحامد، بل حتى الإغارة شرقاً ليبلغوا صحراء بيوضة. نتج عن ذلك أن وجد حَمر أنفسهم في كل عام - أثناء فصلي الخريف والشتاء - في سلسلة من الإشتباكات القبلية المحدودة والغزوات والتي تُمجد في حكاياتهم كحرب. وأهم تلك المعارك

---

(١) ربما الأشارة لمعركة بعينها سال فيها الدم حتى تجمد في الأرض.

(٢) زارها ناختقال في طريقه من الغرب لمصر وسجل عنها ذكرياته. راجع مؤلفه الصحراء السودانية المجلد الرابع بيد أن مركزي الدم جمد والزرنخ يتبعان الآن لكردفان.

وأكثرها تعدداً تلك التي كانت مع الكبابيش الذين كانوا على عداء مُحكم معهم[١].

تعاظمت قوة حَمر وتسارعت حتى إعتبرهم «إنسور» - في عام ١٨٧٦م - القبيلة الأكثر ثراءً بين كل العرب في هذا الجزء من أفريقيا، حيث تجاوزت عدديتهم رصفائهم من بدو الكبابيش، بل قد يساوون تلك القبيلة جمعاء بما فيهم هؤلاء الذين يستوطَنون ضفاف النيل تقريباً. فقد الحَمَر - إبان حكم الدراويش - كل ثرواتهم تقريباً وعند إعادة الاحتلال غنم الكبابيش الكثير مما تبقى بأيديهم من ثروات.

يُعد الحَمَر من المستقرين الآن، ومع ذلك فهم ذوو ثراء معقول بما في أيديهم من إبل وأغنام، فضلاً عن حيازتهم لمساحات واسعة من غابات الصمغ والحقول شمال الأضية وأبو زبد وأبو حراز وغرب أبو سنون والمزروب. لم يتبقَّ منهم في دارفور سوى مستوطَنة صغيرة من السحانين - أي أولاد سحنون- الذين يُقال إنهم حَمر يساكنون الزغاوة في الشمال حول الهشابة. يخضع كل من العساكرة والدقاقيم والغريسية - الذين إنشقوا مؤخراً عن الدقاقيم فيما بين الأعوام ١٨٧٣ - ١٨٧٧م - لإدارة ناظر منفصل.

ينقسم الحَمر إلى الآتي:

(1) العساكرة

(أ) الغشيمات
- (١) أولاد جميع
  - (أ) أولاد معيز
  - (ب) شنابير
  - (ج) غرارة
  - (د) مرازيق[٢]

---

(١) تعرف بحرب العقال.

(٢) جمع مرزوق، أي أولاد مرزوق، يُوجد نفس الاسم بين المحس والجوامعة لا يزال هناك حي من أحياء النهود بأسم مرازيق.

(٢) سديرات
(٣) أولاد معالي
(٤) أولاد قاسي
(٥) أولاد علي

(ب) بني بدر
(١) مرامرة[١]
(٢) سعدات
(أ) ملاحة
(أ) أولاد غنوم
(ب) محلحل
(ج) ناس زيد
(د) ناس الصول
(هـ) ناس مطلوب

(ج) الخمسات
(١) ميامين
(أ) أولاد صبوح
(ب) بدرانية
(٢) مناضير
(٣) جخيسات[٢]
(أ) أم حيسن
(ب) أولاد ذياب
(ج) أبوضان
(د) مراحيل
(هـ) ناس مَوُار
(٤) منانة
(٥) خريسات

---

(١) أصلهم دار حامد.
(٢) أصلهم شنابلة عوامرة.

- (د) الطُرادات
  - (١) أولاد دامع
    - (أ) الصبيحات
      - (١) ناس سودري
    - (ب) جلدة
    - (ج) تيايسة
      - (١) أولاد علي
      - (٢) جوابرة
      - (٣) نوارة
      - (٤) عباسية
    - (د) فواضل
- (هـ) غنيمة[1]
  - (١) ناس أبوجبل
  - (٢) ناس علي
  - (٣) ناس بلال
  - (٤) ناس جموع[2]
    - (و) نواقيات
    - (ز) أولاد خضرة
    - (ح) عبادية
      - (أ) ناس أبو جمعة
      - (ب) جريني

(2) الدقاقيم

- (أ) الوايلية[3]
  - (١) ناس هازل
  - (٢) ناس الحُر
  - (٣) ناس أبو حميدان
  - (٤) ناس حمير

---

(١) أصلهم جوامعة.

(٢) جوامعة.

(٣) يقال إنهم ذوو علاقة بالكواهلة على الا يخلط بينهم والوليا. هناك بني وائل في غرب دارفور أيضاً.

(٥) ناس حروش
(٦) ناس راحة
(٧) ناس أبوعُويِّن
(٨) أبو جمانين

(ب) ناس أبو زيد
- (١) ناس صاري
  - (أ) ناس جبر
  - (ب) أولاد صبيح
- (٢) ناس عبد السلام
- (٣) ناس فرج الله
- (٤) ناس أبو تنو

(ج) الشعيبات

(د) أولاد شضوان

(هـ) أولاد عامر

(و) أولاد برغاصي

(ز) أولاد سحاية
- (١) ناس الصود
- (٢) ناس فريوة
- (٣) ناس ربيح
- (٤) ناس أبو نعمر
- (٥) ناس مسلم
- (٦) ناس خلا

(ج) الجمعانية
- (أ) ناس جبر
- (ب) الغرقة

(3) الغريسية

(أ) الحداحدة
- (١) أولاد حماد
- (٢) أولاد أم بطينين

(٣) دبوبة
(٤) أولاد شريف
(٥) أولاد نمر
(٦) براعيم

(ب) أولاد شقان
(١) ناس إسماعيل
(٢) أم كسيبة
(٣) ناس نصر
(٤) ناس أبو مراكح
(٥) ناس محمد
(٦) حُمران

(ج) أولاد جويد
(١) ناس أبوهجيوة
(٢) ناس طرفة
(٣) أولاد عادي
(٤) هبابيش
(٥) ناس مرمي
(٦) سعدية
(٧) أولاد جابر
(٨) ناس سحاريف

(د) الصبحة[١]

(١) ليسو حمر أصلاً رغم أنهم تابعين لهم، يقال إن أصلهم كروبات.

الفصل الخامس

مجموعة الكواهلة[1]

الثابت في الروايات إن الكواهلة ذوو صلة بالزبير بن العوام - من قبيلة قُصي - وهي إحدى القبائل الأكثر شهرة والرائدة في إعتناقها للإسلام والتي تعرضًت للذبح في معركة الجمل (٦٥٦م).

ومما لا شك فيه إن نواة هذه القبيلة دخلت السودان عن طريق البحر الأحمر، إلا أن تاريخ هجرتهم مجهول. أول من أورد ذكرهم هو ابن بطوطة وقال بأنهم يقطنون المنطقة حول سواكن في العام ١٣٥٣م، ويتحدثون لسان البجة.

الشائع عند البشارين والعبابدة، وبقدر ما يدعون الإنتماء العربي، فإنهم يتحدًّثون عن قبائلهم بحسبانها متحدًّرة من «كاهل»، وبالمقابل يقابلهم الكواهلة، بأسباغ اسم «كواهلة» على البشاريين والعبابدة، وأحياناً يضيفون حتى البني عامر أو أم عرعر (الأمرأر)[2]. وعلى أية حال هناك شيء من الشك حول وجود بذرة عربية فاعلة مشتركة بين تلك القبائل الثلاث.

الكواهلة مشتتون بشدة - في وقتنا الحاضر - لكنهم إنقسموا لمجموعتين رئيستين، أهمها وأكثرها ترابطاً الفرع الذي في كردفان. وهم من البدو رعاة الإبل ذوو

---

(١) اسم كاهل ليس بغريب في الجزيرة العربية، فقد أورد وستنفليد خمسة أشخاص بهذا الاسم، ومن أحدهم وهو خالد بن أسد يتحدًّر الكاهلية (أبو الفدا ص ١٩٦ - ١٩٧) ولكن لا شيء خلاف ذلك يربط بين هؤلاء والكواهلة الموجودون في السودان الآن.

(٢) ولكنسون ص ٣٨٦ وتريموكس المجلد الأول ص ١٦٩ يذكرون على التوالي اسم «قواليهم» و«كوالي» بين بطون العبابدة الرئيسة وفي قائمة مستر جينكس براملي يوجد اسم «قوالية».

الثراء الواسع. وحتى المهدية كان الكواهلة فرعاً من الكبابيش، والأرجح إن توجههم غرباً وإلتحاقهم بهذه القبيلة كان قبل فترة وجيزة من الاحتلال التركي فقط، إذ من غير الراجح أن يكون ذلك قبل فترة أبعد وإلا لانصهروا - بمرّ السنين - فيها[1].

أما المجموعة الرئيسة الأخرى للكواهلة، فبالرغم من إنهم الأكثر عدداً إلا أنهم يشكّلون كياناً أقل تماسكاً. وبينما ظلت فروع منهم على البداوة في جنوب سنار وعلى شواطئ نهر عطبرة والدندر والرهد، هناك آخرون يحيون حياة الاستقرار بعد أن شيَدوا القرى على النيل الأبيض والجزيرة ثم شرقاً حتى حدود الحبشة.

الرحّالة الذين زاروا السودان - خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر - تناولوا سيرة الكواهلة كأحدى القبائل الرئيسة في شرق النيل الأزرق[2].

ذكر بركهارت وكليوود بأن شهدت الفترة فيما بين الأعوام ١٨١٤ - ١٨١٩م قتالاً دامياً بين الكواهلة بمعية الشكرية، ضد قبائل الجعليين شرق شندي وعلى نهر عطبرة. وتتمثّل بطون الكواهلة بكردفان في الآتي:

(أ) دار حامد
- (١) حشونة
- (٢) أولاد جريس
- (٣) أولاد شنيتير
- (٤) أولاد زيد

(ب) البراقنة

(ج) الحليفة
- (١) ناس ود المطيرق
- (٢) ناس ود الأزرق

(د) البداريون
- (١) أولاد رحال
- (٢) أولاد عربي

---

(١) يقال أن العطوية أصلهم من الكواهلة لكن الراجح إنهم انضموا للكبابيش من زمن بعيد قبل بقية الكواهلة وبالتالي إندمجوا في القبيلة ولم يهجروها في المهدية.

(٢) هناك القليلين من بدو القهيماب في مركز بربر ايضاً.

(هـ) العبابدة
- (١) ناس ود مسيك
- (٢) ناس باب
- (٣) أم راضي
- (٤) نفر

(و) أم عمار

(ز) دار بحر
- (١) أولاد الشيخ
- (٢) أولاد الدبيد

(ح) البقيراب
- (١) أولاد سليمان
- (٢) أولاد ادم
- (٣) قرون

(ط) الجهيماب

(ي) الغزايا
- (١) العُمارات
- (٢) أولاد طريف

(ك) النفيدية
- (١) العتيياب
- (٢) الملكاب
- (٣) الكوارة

وبالتمعُّن في هذه البطون يتضح إن العديدين ليسو من الكواهلة أصلاً، ففرع العبابدة الأثرياء، هم في الأصل شُعبة من قبيلة في الصحراء الشرقية تحمل نفس الاسم، لكن ما تجدر ملاحظته هو توليهم للشياخة على كل القبيلة لجيلين[١].

أما دار حامد أصحاب الشياخة الحاليين وأكثر فروع القبيلة ثراءً، ينتمون أصلاً لمجموعة جهينة وقد انضموا لقبيلة الكواهلة بعد مجيئها لكردفان.

يقضي الكواهلة - الذين في الغرب - موسم الجفاف (أي من ديسمبر حتى

---

(١) أحدهم جاد الله بلولة في أيام المهدية، وابنه عبد الله، بعد إنتهاء المهدية حتى ١٩١٠.

يونيو) في الخيران جوار بارا إلا إذا تمكّنوا من حفر الآبار في أم بادر، وفي هذه الحالة يرجئون تراجعهم نحو الجنوب الشرقي لشهر أو شهرين. كما إعتادوا رعي قطعانهم في الخيران وحوإليها دون مقابل، ولكن ولما لم تكن لهم حقوق ملكية، فإنهم يُجبرون لسداد مقابل الماء الذي ينهلونه من الآبار. ليس للكواهلة إهتمام بالزراعة[1]، وعند هطول الأمطار تتحرّك القبيلة إلى الشمال الغربي نحو المناطق المجاورة لوادي الملك، ويظلون هناك بحسب ما يقتضي توافر الماء والكلأ[2].

لا تختلف بطون الكواهلة في الشرق - من حيث الأصول - عن بني جلدتهم في الغرب. وينقسمون إلى ثلاثة عشر فرعاً بحيث ينتمي كل فرع لأحد أبناء كاهل، ويشوب أسماء هؤلاء الثلاثة عشر إبناً بعض الاختلاف. لكن من غير المجدي محاولة التصنيف الدقيق لمجموعة تلك البطون تحت مسمياتهم. أكثر البطون إشتهاراً هم.

البراقنة - بصفة رئيسة في كردفان

الكمالاب

الكميلاب - وهم مجموعة صغيرة من البدو وبعضهم يقطنون في مركز بربر

المرغوماب - يوجد فرع منهم مع الشكرية بالقرب من أبو دليق

الدليقاب

الاساودة

الحسانية

الجميلية

الغزالاب

---

(١) المزارع الوحيدة للكواهلة غرب النيل الأبيض تلك التي تخص بعض المستقرين من العبابده وغيرهم في مديرية النيل الأبيض.

(٢) المستوطنة الوحيدة للكواهلة في جبال النوبة بالقرب من جبل قدير وأصلهم من العبيد الفارين أو المُحررين لكنهم ليسو من الكواهلة الأصليين.

العرواب - بصفة رئيسة على النيل الأبيض على الضفة الغربية جنوب الجموعية

السنيطاب

اللبابيس

الحميدانية

العمرية

الكرامية

الجبالية

البدارين - بصفة رئيسة في مركز كردفان والنيل الأبيض

الشراعنة - مستقرين في الجزيرة

العبابدة

البشارين

عطوية - الآن فرع من الكبابيش

يزيداب - أو يزيدية أو بني يزيد - وهم فرع صغير جداً سبق وصادفت مضاربهم بالقرب من العيدج ويعيشون تحت جناح مسلمية أم ضبان

نفيدية - ويُوجدون بصفة رئيسة في مديرية بربر، وبعضهم مستقرين بالجزيرة.

فوايدة(١)

شدايدة

غزايا

سعودية

كواملة

---

(١) يظهر اسم الفوايدة والسلاطنة مع الجرابعة كأسماء لبطون في شبه جزيرة سيناء، كما يظهر الأسم الأول أيضاً بين شبه البدو من أعراب شمال أسوان الذين ذكرهم السير ولسون.

وإليه

جلالية

باقيا

خلايفة

مطارفة

سلاطنة

محمداب

قريشاب

نوراب[1]

رميتاب

بني سعيد

محمدية - على ضفة النيل الأبيض، وهم أثرياء بمواشيهم وأغنامهم.

أحامدة. يتعين أن نعطي اعتباراً خاصاً لفرعين[2] ممن ورد ذكرهما وهما الأحامدة والحسانية.

الأحامدة:

يظهر الأحامدة في النسبة كجعليين أحياناً، وهنا يُعتبرون أقارب حميمين للجوامعة والجمع. بينما تُظهرهم نسبة الكواهلة كشعبة منهم[3]، كما يضمهم

(1) أو نواراب.

(2) في الشجرة الملحقة بالمخطوطة (ج - ١) سنجد بعد أسماء البطون الأصغر للكواهلة أيضاً.

(3) كان هناك بعض الحمدة في ١٨١٤ في مركز شندي والذين علم بركهارت بأنه معترف بأن لهم علاقة بعرب بنفس الاسم يعيشون بالقرب من الأقصر والكرنك في صعيد مصر وهكذا سميت الأقصر بالحمدي (بركهارت الرجع السابق ص ٣٤٥).

البقارة لشجرة أنسابهم، لكنهم يعتبرونهم الأدنى مرتبة. فعلى سبيل المثال يتحدث الحُمر والفلايتة عن «أحامدة» -التي إغتصبها النوبة - كجدة للأحامدة. كما يدعي الحمدة - من الرفاعيين - بتحدُّر الأحامدة من جدهم. أما أكثر الروايات شيوعاً والتي تجد القبول، تقول بأن «حمد جد الأحامدة» كاهلي وإنه لسبب ما أنكر قبيلته لذلك لُقب بـ«النويكر» تصغيراً لـ«ناكر».

والأحامدة قبيلة من شبه البدو بعضهم في الجزء الشمالي للجزيرة بمديريتي النيل الأزرق والأبيض، ثم إلى الشرق من النيل الأزرق. بينما أصبح البعض الآخر أكثر استقراراً وحصلوا على بقاع مُعتبرة في المناطق الواقعة غرب النيل الأبيض جنوبي كوستي.

استقر الكثيرون منهم بصفة مستديمة على القرى، إلا أن السواد الأعظم للمجموعة التي في أقصى الشرق يتوغَّلون إبان فصل الأمطار شرقاً لزراعة الوديان فيما بين النهر والبطانة وللرعي، وبمجرد أن تخلو من الكلأ سرعان ما يتراجعون للنهر. أثناء هذا التراجع إعتادوا التشاجر مع الحسانية والبطاحين، وببلوغهم النيل الأزرق يتشاجرون - بالمثل - مع المسلمية والمحس وغيرهم لذات الأسباب. وأينما وُجد الأحامدة - بالأخص في الشرق - تجدهم متفسخين - قليلاً - عاكسين نموذجاً وضيعاً للعرب. يملك الأحامدة أعداداً معقولة من المواشي والكثير من الأغنام والماعز مع القليل من قطعان الإبل.

بعض الأحامدة الذين تحت إدارة النيل الأبيض كانوا قبل المهدية في الغرب والشمال، مكوِّنين فرعاً من الكبابيش، بيد أن التحالف بين القبيلتين الذي لا يعدو أن يكون زائفاً ونفعياً، سرعان ما إنفَّض. والآن باستثناء فئة قليلة، ليس هناك أحامدة على سهول شمال كردفان.

هناك أحامدة آخرون إمتزجوا بأولاد حميد، فضلاً عن غيرهم من البقارة فيما بين النيل الأبيض وجبل الداير، لكن أغلبهم استقروا الآن في (الدار) جنوب كوستي. وهذه هي فروع الأحامدة:

رزيقاب	وهم علي ضفتي النيل الازرق ولكن بصفة رئيسة في الشرق	زريقاب	في النيل الأبيض
صبحاب		مغامسة	
براريج		شواراب	
عديفاب		سهوات	
غدايين		شلكية	
كسيباب		ضواياب	
مُعلا			
زماماب			

وتيداب - في عطبرة

جمعاناب - في مركز قيلي شرق وشمال الخرطوم

الحسانية والحسينات:

بالرغم من الخسائر الجسيمة التي مُنيت بها قبيلة الحسانية أثناء المهدية، ظلت من أكبر القبائل المنضوية - عرقياً - تحت مسمى «كواهلة». لكنهم الآن مستقلون عن أصلهم العام. وينقسمون لمجموعتين أولاهما في مديرية النيل الأبيض وهم كُثر. أما هؤلاء الذين على الضفة الغربية فهم - بصفة رئيسة - من رعاة الماشية، ولا يتوغَّلون في المناطق الداخلية أبعد من النهر كثيراً حيث يمتلكون قطعاناً كبيرة، ويشكِّلون جزءاً كبيراً من الكيان السكاني فيما بين القطينة والدويم.

أما هؤلاء الذين على الضفة الشرقية فمن شبه البدو وحرفتهم رعي الإبل والماشية والأغنام فضلاً عن إنهم يزرعون أرضاً نهرية مديدة. يشكِّل الآتية أسماؤهم بعض فروعهم :

عميرية	قشقشاب	جميلية	ناقياب
رحماب	مغاوير	كاسراب	حويلتاب
غلاماب	نجاجير	كريمباب	جنوكة

رافداب حواويت رميلاب جوداب

أما المجموعة الثانية للحسانية فيتجولون بعيداً بقطعان إبلهم وأغنامهم مع القليل من المواشي خارج ديارهم نحو الشمال والشمال الشرقي وشمال غرب وشرق تقاطع النيلين حتى صحراء بيوضة وجبل الجلف وجقدول- من جهة - ثم إلى البطانة من الجهة الأخرى. أما في بربر ففيهم الكرافيش والنجاجير والبليلاب والحمداب والحميداب.... الخ.

أما الحسينات[1] فأغلبهم في النيل الأبيض وينقسمون إلى بوازي وشتاوية والفرعان من شبه الرُحَّل.

(١) ويُطلق عليهم اسم حسنات أيضاً.

الفصل السادس

كنانة ودغيم

يدَّعي كنانة الذين في السودان بأنهم فرع لقبيلة كنانة الشهيرة بالجزيرة العربية. وليس هناك سبب للتشكيك في وجود أسس وجيهه لدعم هذا الإدعاء، لكن هل سبق لأسلافهم العرب أن كوَّنوا فرع كنانة الذين سبق والتقيناهم في مصر، أم إنهم هاجروا مستقلين تماماً عبر البحر الأحمر فهي أمور ليست مؤكدة. بيد أن الإفتراض الأخير هو الأرجح والأكثر إتساقاً مع رواياتهم.

أما في السودان أصبحت أغلبيتهم الآن من البقارة مربي الماشية والخيول، ويقسَّمهم النهر لفرعين رئيسين، الفرع الأول - وهو الأكبر - يملكون المواشي والجمال والأغنام ويستوطِّنون جنوب سنجة على ضفتي النهر بمعية مجموعة رفاعة. وفي موسم الأمطار يتوجَّهون شمالاً نحو البطانة هرباً من الذبابة - من جهة - ثم إلى مركز سقادي وموية من جهة أخرى، ويندرج هؤلاء تحت مجموعات ثلاث هي السراجية وأبو ريحان والكواتيل[١].

الفرع الآخر من كنانة يمتهنون رعي المواشي والأغنام في كردفان على مساحات تبلغ حتى ديار الحوازمة، ثم شق فرعاً منهم طريقه جنوباً لداخل منطقة الشلك واستقر على الضفة الغربية للنيل جنوباً حتى المتوازي العاشر لخط العرض.

الفروع الرئيسة لكنانة بحسب ما استقينا من رجال القبيلة في كردفان هي:

---

(١) هناك بطن من البشاريين (عالياب) في الصحراء الشرقية يُسمون بالكواتيل ايضاً. والواضح إن هناك توافق بين اسم السراجية مع بطن السراجاب من الكبابيش الذين يدعون التحدُّر من كنانة.

(أ) السواراب	(١) أولاد يسن	أغلبهم في الجزيرة
	(٢) زوايدة	
	(٣) إصيبع	
(ب) سراجية	(١) أولاد دالي[1]	بصفة رئيسة في الجزيرة
	(٢) أم بلال	
	(٣) أولاد روية	
	(٤) زيدان	
	(٥) نامية	في الجزيرة
	(٦) هبيلية	
	(٨) أبو ريحان	
	(٧) كواتيل	في الجزيرة
	(٩) جليراب	
	(١٠) بليلاب	
(ج) أصالعة[2]	(١) أولاد جبران	
	(٢) أولاد حزيل	في الجزيرة وقليلين
	(٣) سعودية	في كردفان
	(٤) عمارية	
	(٥) أولاد رشيد	
(د) داؤودية	(١) مناصير	(أ) ناس حمدوك - في الجزيرة
(هـ) فهرية		
(و) علاونة[3]		

(١) بعضهم يقيمون بالقرب من تقلي والبقية مع باقي القبيلة في كردفان، ومع الأوائل القليلين من بطن السواراب أيضاً.

(٢) أوردهم بركهارت (الأصالع) على أساس إنهم في ودّاي وغربها.

(٣) يُوجد نفس الاسم وسط الكبابيش والبني هلبة.

وتذكر الروايات بأن جدهم هو السيد أحمد زبد البحر، وهو فقيه من مكة من ذرية حمزة أصغر أبناء عبد المطلب جد النبي ﷺ ، وبعد وفاته تشاجر منصور - أحد أبنائه - مع شقيقة الأصغر عبد الله، ومن وقتها أُطلق عليه لقب «الحردان». دخل منصور السودان من مصر عن طريق النيل. وأهداه كل من الجموعية والمحس - في دنقلا - زوجة. أنجب ستة أبناء هم يس وعلي أبو الفاهرة وحمد الأصلع وسوار وإدريس سراج وعلوان. وهؤلاء هم أجداد كنانة الموجودين في السودان حالياً. يُستثني من هؤلاء الداوودية الذين يتحدَّرون من (عبد الله). ويُقال بأن الكبابيش السراجاب أصلهم من ذرية إدريس سراج أيضاً.

قيل إن الوافدين الأوائل منهم للسودان، استقروا - بصفة دائمة - بجبل كرن جنوب تقلي، وترتَّب على ذلك أن دخلوا في نزاعات مع فرع الكواهلة الذين يقيمون في تلك المنطقة وأقصوهم جنوباً. وباستقراء نسب كنانة يتضح إن منصور عاش منذ ستة عشر جيلاً سلفت، وسبعة عشر جيلاً بعد عبد المطلب.

يبدو إن بعضاً من كنانة هاجروا - في بواكير القرن الرابع عشر - من الجزيرة العربية لمصر، وشقوا طريقهم نحو أعالي النهر حتى دنقلا حيث أقاموا لبعض الوقت وتزاوجوا هناك، ثم إنقسموا لعدة فروع متباينة فيما بعد. توجَّه فرع منهم جنوباً للانضمام لبني جلدتهم، كما انضم فرع آخر للكبابيش.

دغيم:

لا تُوجد في مخطوطات الأنساب شجرة نسب لدغيم، ولم يرد ذكرهم سوي مرة واحدة في المخطوطة (د ٢). سبق لإبن بطوطة أن عبر الصحراء الواقعة بين قوص وعيذاب في العام الهجري ٧٢٥هـ (١٣٢٥م) برفقة فريق من دغيم لكنه لم يذكر شيئاً عنهم.

كانت القبيلة وإلى ما قبل المهدية تستوطَّن النيل الأبيض، وفي عام ١٨٨١م

انضمت للمهدي بمعية كنانة[1] إلا أنهم أُبيدو في معركة أبو طليح «أبو كلية» في العام ١٨٨٥م ولم تقم لهم قائمة بعد ذلك.

(١) الأمير الشهير علي ود حلو في المهدية هو واحد من أفراد قبيلة دغيم.

الفصل السابع

الركابية

الركابية مجموعة عربية متميِّزة استقرت في دنقلا ثم تفرَّقت - في السودان - لأماكن شتى، لكنهم لا يعترفون بأنهم دناقلة، ويفاخرون بنبل أصلهم، ويقولون بأن جدهم هو الشريف غلام الله بن عايد - من ذرية الحسين بن علي ابن أبي طالب - الذي هاجر واستقر في دنقلا حوالي النصف الأول من القرن الرابع عشر وتولي تدريس السكان المحليين، وكان دخوله لدنقلا من اليمن بطريق البحر الأحمر.

سبق ورأينا إدعاء فرع النوارب من الكبابيش بأنهم شُعبة من الركابية، هناك أيضاً أُسرة كبيرة في كردفان لكنهم متفرقين ويُعرفون باسم الدواليب المتحدِّرين من دوليب، - سكان جبل الحرازة وجنوباً حتى خُرسي وبارا[1] - يطلقون على أنفسهم اسم ركابية أيضاً. كوَّن هؤلاء الدواليب في - بداية القرن الثامن عشر - مستوطَّنة في شمال كردفان، وسرعان ما نالوا السيادة الفعلية على الجبال الشمالية، وتزوَّجوا من بنات النوبة والشبارقة. وهكذا ساهموا في إيجاد هذا الخليط الحالي[2].

هناك أيضاً آخرون ممن يُسمون ركابية وذوو قرباهم من دنقلا، يرجح إنهم استقروا في الحرازة وأبو تبر وأم درق ثم جنوباً، وذلك قبل زمن طويل من الهجرة الرئيسة للدواليب، لكن يصعب تمييز هذه الهجرة عن هجرة الدناقلة الذين سبق

---

(١) هناك بعض منهم متداخلين مع بطن الحواراب من الكبابيش أيضاً.

(٢) تحدث عنهم كنى ووصفهم بالبربر أو إنهم دناقلة من الدبة سكنوا جبال شمال كردفان ويتحدثون لغة الدناقلة مخلوطة بلغة الزغاوة والكنجارة، ثم وصف بروان - مؤخراً في القرن الثامن عشر - سكان الحرازة بأن أغلبهم ذوي بشرة مشربة بالحمرة.

ولمَّحنا بأنهم يتقاطرون باستمرار إلى كردفان تحت مسميات «بديرية» و«جوابرة » yلخ ويستدعي الأمر تجاهلهم هنا

الدواليب - الذين في كردفان - قوم ذوو ذكاء وكفاءة. وظلوا خلال الحكم التركي من الثقاة لدرجة أن عُينوا كموظفين صغار وجباة ضرائب. والمعلوم إن زعيم الدواليب - في الحرازة - نال الزعامة على الجبال الشمالية، وشغل عدد من أفراد أسرته مراكز مماثلة في الحرازة وغرباً حتى جبال كاجا. هناك ركابية آخرون نزحوا لأصقاع أخرى من السودان، مثل أهالي ود عشيب «العشيباب» الذين يدَّعون التحدَّر من فقيه ركابي إنفصل عن أصل القبيلة في دنقلا في بدايات القرن السابع عشر[1] وأقام في تلك البقعة. ولما حظيت به القبيلة من تبجيل بسبب إشتمالها على العديد من الفقهاء، نال هذا الفقيه - بدوره - الإحترام والتبجيل.

الدنقلاوي الصِرف الذي يحاول إثبات طيب أصله يُعرِّف نفسه بأنه ركابي.

(١) وردت ترجمة علي ود عشيب في المخطوطة (د - ٣). هنالك مجموعة صغيرة من بدو العشيباب في مركز الدامر (مديرية بربر آنذاك) لكن يقال أنَّهم فرع من أم عرعر.

الفصل الثامن

الهواوير والجلابة الهوارة والواحية والكروبات

تعَّرضنا في فصول سابقة لسيرة البربر والهوارة الذين استقروا في صعيد مصر وتحوَّلوا لحضر، ورأينا كيف كانوا - في زمن بركهارت - يحتلُّون ضفتي النهر، وكيف كانوا ينعمون بالثراء والازدهار. وظلوا حتى عهد محمد علي في أوج قوتهم، ويرجع هذا- بصفة رئيسة - لتفرُّد فرسانهم الذين لا يعترفون بأي سلطان إلا سلطان زعمائهم المباشرين. إدعت أُسرة الزعيم الكبير هُمام أبو يوسف حق حكم صعيد مصر - جنوب أسيوط - مما أجبر المماليك للتخلي عن تلك المنطقة بموجب معاهدة. لم يكتف هُمام بذلك بل مد سلطانه نحو شمال النوبة التي قام بزيارتها حتى بلاد المحس ولعدة مرات.

وُصف حُكم الهوارة بالجور[1]، وإقترن بالإبتزاز خصوصاً في مواجهة الأقباط حيث استعبد الكثيرين. وقبل عهد حكم محمد علي هاجم المماليك همُام وألحقوا به الهزيمة وقتلوه، لكنهم لم يتمكّنوا من إخضاع كل القبيلة التي ظلت قوية إلى ما بعد سقوط المماليك حتى قضى عليهم إبراهيم باشا الذي ذبح ألفين منهم.

الهواوير:

ينتمي بدو الهواوير - في دنقلا - لنفس الجنس، وظلوا محافظين على تقاليد أجدادهم من البربر. والهواوير قبيلة كبيرة ذات ثراء بما لديها من إبل. يتوجه

---

(١) على العكس فقد سمع دينون - الذي رافق حملة نابليون - عن همام كنصير للمظلوم وشهد عهده العصر الذهبي للعرب في صعيد مصر.

الهواوير في موسم الأمطار نحو الغرب والشمال الغربي بمعية الكبابيش. وفروعهم الرئيسة هي:

حرارين	هماسين	تماسيح[1]
موالكة	صالحاب	عامراى
رُباب	جوتاب	فكاكين
حُبازاب	فزاراب	عباساب

الجلابة الهوارة:

يكثر الجلابة الهوارة في دارفور عنهم في كردفان. وتقع قراهم - في كردفان - فيما بين الابيض وبارا، فضلاً عن مركز أم روابة. ويقولون بأن أجدادهم وفدوا من صعيد مصر، كما يدَّعون بأنهم ذوو صلة بالهواوير. والأراضي التي بحوزتهم تحصَّلوا عليها من الجوامعة منذ ثمانية إلى تسعة أجيال سلفت. أما من ناحية التكوين فهم ذوو بشرة غامقة، متفسخون، لا يشبهون هواوير الشمال ذوو البشرة الفاتحة الذين يستخفون بهم. أقسامهم في كردفان هي:

كوامنة
عداوية
كيراب
ولاد كيسان

ويرجح من اسم «جلابة» إنهم دخلوا كباعة جائلين، أما الآن فأغلب الموجودين في دارفور يعملون بالتجارة، وهناك يعيشون بالقرب من العاصمة الفاشر، لكنهم لا يزالون يذكرون أصلهم المتحدِّر من صعيد مصر شأنهم شأن أقاربهم في كردفان. وفرعهم الرئيس هو الواحية.

---

(١) قارن الاسم بوسم المغاربة في النيل الأزرق وبربر.

الكروبات:

يُعتبر الكروبات أقارب للجلابة الهوارة أو بالأحرى جنساً مطابقاً لهم. ويُنسبون لغرب السودان - كردفان ودارفور - وتستوطّن الأغلبية العظمى شمال غربي دارفور بالقرب من حدود القِمر.

يقول ناختقال بأنهم سكنوا ديار القِمر في فترة ما حتى أجلاهم الفور من هناك. ويصنِّفهم هو وبارث ضمن عرب ودَّاي، ويقول ناختقال بأنهم يدَّعون الإنتماء للأصل اليمني. أما الذين في دارفور فيدَّعون التحدُّر من بني شيبة في الجزيرة العربية، وتتمثَّل بطونهم في الآتي:

أبو أم بكر
أولاد الفكي
أولاد أبو آمنة
أولاد فيني
أولاد مسكين

هناك آخرون بمنطقة شركيلا بشرق كردفان. كما يُقال بأن فرع الصبحة من حَمر كردفان - حول أم بل - ينتمون لهم. كما يقول أهالي كاجا - بشمال كردفان - بأن في جبالهم مستوطَّنات للكروبات بمعية البرقد وذلك منذ حوالي قرن من الزمان.

الفصل التاسع

العبابدة[1] والقراريش

العبابدة:

العبابدة قبيلة بصعيد مصر، وبما إن لهم عدة فروع في السودان، فإننا سنكتفي بالوجيز عنهم فقط. بحكم جوار العبابدة للبشاريين وتزاوُجهم معهم، كان من الطبيعي أن يُعتبروا من أصل واحد، لكن العبابدة - من حيث التكوين - أكثر عروبة من كافة العناصر البجاوية الأخرى[2]. ويمثلون - في الواقع - العرب الذين استقروا في زبيد قبل هيمنة المسلمين على السودان. نقل العبابدة الذين كانوا بمركز شندي لبركهارت بأنهم وعبابدة مصر من (ذرية سليمان) وهو عربي من بني هلال. ولا يُوجد ما يبرر إنكار قرابتهم لهذه القبيلة، ويبدو إنهم قد تزاوجوا - كما هو متوقع - مع أولاد كنز[3]. حدودهم الشمالية بالتقريب هي طريق قنا القصير. والجزء الأكبر من القبيلة يترددون دائماً على المنطقة الواقعة شرق الأقصر ودراو وأسوان وشمالي عتباي[4].

---

(١) عبادي تعني مسيحي نسطوري أيضاً (أنظر المسعودي ص ٢٤٧ - ٢٥١).

(٢) يقول كروفوت (ص ٥) بأن العبابدة - كمتحدثين للتبداويت - تعلموها من البشاريين. يعتقد كواترمير (المجلد الثاني ص ١٥٨) بأن أصولهم ترجع - على الأرجح - للبجة القدماء.

(٣) يقول بركهارت (ص ١٤٥) عن الكنوز أي الهجين الحديث لأولاد كنز «المألوف إنهم يتزاوجون مع عرب العبابدة» يقول بلزوني (١٨١٥) بأن العبابده لا يتزاوجون مع بعضهم أبداً.

(٤) يقول بلزوني عن ديارهم بأنها تمتد من جوار السويس حتى بلاد البشاريين على ساحل البحر الأحمر وراء خط العرض ٢٣ درجة.

ينقسم العبابدة لثلاثة مجموعات رئيسة هي العشباب والفقرا والعبوديين أو الشناتير. والعشباب هم الأقوى والأكثر عدداً من بين تلك الفروع. وينتسبون ومجموعة العبوديين «أي الشناتير»[١] لمصر[٢].

أما المليكاب فهم أشهر بطون الفقرا والكثيرون منهم داخل حدود السودان، رغم وجود آخرين إلى ما وراء الحدود حول دراو[٣]، سيطر هذا الفرع - منذ زمن يصعب تحديده - على حركة النقل بالجمال في بطن الحجر - بين كورسكو وأبو حمد - وبهذا أصبحوا من الأثرياء. هناك القليل من العشباب والعبوديين[٤] يعيشون بينهم.

هناك مستوطَنة مُعتبرة للعبابدة[٥] أيضاً من مجموعة أكثر إختلاطاً بمن يساكنونهم من الجعليين بمنطقة الحوش على بعد عدة أميال غرب شندي، ويبلغ عددهم حوالي الثمانمائة وخمسين رجلاً، ويملكون حوالي ألفي رأس من الجمال فضلاً عن ثلاثة وثلاثين ألفاً من الأغنام والماعز. كان هناك عدد من حضر العبابدة في دنقلا حتى العقد الثاني من القرن التاسع عشر، حيث نالوا - هناك - ثروات طائلة ونفوذاً واسعاً، إلا إن المماليك أجبروهم على التراجع نحو مصر.

القراريش: القراريش ذوو قرابة بالعبابدة رغم بُعد تلك العلاقة. استوطَن جزء

---

(١) بعضهم يصنف الشناتير كبطن من العبوديين والبعض الآخر يصنف العبوديين كبطن من الشناتير. تعني شناتير بالحميرية «القِرط».

(٢) يذكر بركهارت (ص ١٤٩) أفراد من العشباب (عشباب) بأنهم إستقروا في النيل بالنوبة وتصاهروا مع السكان.

(٣) دراو هي العاصمة الأسمية لعبد العظيم بيه الخليفة أحد أشهر شيوخ العبابدة لكن أكثر إقامته في بربر. (أنظر بركهارت ص ٢١١ و٣٤٥).

(٤) كان لإسماعيل باشا في حملته عام ١٨٢١ سبعمائة من غير النظاميين، ويصفهم كليوود بأنهم أسوأ أنواع الجنود، تعودوا على التجارة والأرشاد أكثر من كونهم جنود.

(٥) يشملون الحسناب والمجاذيب والسلمانية والكنزاب والحريراب والبشاراب والمكابراب الخ.

منهم - حتى عهد قريب - صعيد مصر[1]، إلا أن الأغلبية يرعون جمالهم ومواشيهم في الصحراء الواقعة غرب دنقلا وجنوبي خط عرض حلفا. هناك آخرون مضي وقت طويل على استقرارهم بالنيل وتحديداً جنوب ديار المحس وفي جزيرة أرقو.

يقول «بركهارت» - عام ١٨١٣م - «لهؤلاء البدوين علاقة بعيدة بالعبابدة، ويرعون مواشيهم على الضفاف غير المأهولة للنهر، وعلى جُزره الممتَّدة من الدر جنوباً حتى المحس ودنقلا، وبأعداد تفوق أعداد النوبة. هم قوم فقراء لكن برغم ذلك يرفضون تزويج بناتهم للنوبيين، هكذا حافظوا على نقائهم العرقي. أغلب القراريش الآن في خدمة حكام النوبة كجنود وحُرَّاس وقادة، ويرافقونهم في رحلاتهم لمناطق نفوذهم، ومن خصائصهم الأمانة والكرم». يضيف بركهارت بأن هناك آخرين يعملون كمرشدين للتجار أو يعتاشون على جمع «السنا»[2] و«الملح» من الصحراء.

---

(١) هناك قرارشة بالقرب من الطور بشبه جزيرة سيناء وينقسمون لنصيرات وأولاد بنهي (نعوم شقير تاريخ سيناء ص ١١٢-١١٣).

(٢) أي نبات السنمكة الذي يستخدم كعقاقير طبية.

الفصل العاشر

القِريات

القريات قبيلة صغيرة من رعاة الإبل وينتمون لمجموعة البدو. لا يختلفون في طباعهم عن جيرانهم من الكبابيش والهواوير في الغرب. لا يظهر اسم «قريات» في النسبة ويبدو إن القبيلة لا تعدو أن تكون - في حقيقتها - تجمُّعاً لفئات من العرب متبايني الخواص الذين استوعبوا بعض الأجناس الأكثر قِدماً.

كانت مراعيهم وما زالت غرب وشمال أم درمان شرقي وادي المقدَّم، لكنهم عملياً يتوغَّلون أكثر نحو الغرب إبان موسم الأمطار. يتبقى القليلون منهم - على مدار السنة - في الأراضي الداخلية كالصافية. لا يُوجد بينهم حضر وليس لهم اراضٍ على النهر.

يُوحي الاسم بأن صرحهم القبلي يرتكز على السكان المقيمين حول جبل قرِّى - مركز العبدلاب القديم - جوار شلال السبلوقة، ومُجمل ما تطوَّع به أفراد القبيلة من معلومات ووفقاً لوجهة نظرهم يمكن القول بأن أصلهم من العنج[1]. وفروعهم الرئيسة هي العدالين والمحيمداب والسنيطاب.

يميل القريات للتصاهر مع الهواوير بكثرة، وما تجدر ملاحظته هو تطابق وسمهم - على أعناق الإبل - مع وسم الهواوير.

---

(١) يقول المؤلف بأنه عند استجوابه للقريات انكروا وجود أي علاقة بين اسمي قري وقريات.

الفصل الحادي عشر

المحس الجنوبيون[1]

يسكن المحس الأصليون منطقة الشلالات فيما بين دنقلا وحلفا. وهم - بالطبع - ليسوا عرب بالمعنى الدقيق للاسم. مع ذلك فإن أعداداً منهم استقروا جنوباً خصوصاً في دنقلا وبربر والخرطوم ومديرية النيل الأزرق وتشرَّبوا - نتيجة للتزاوُج - بخصائص العرب بحيث أصبح تصنيفهم - ضمن عرب السودان - يتجاوز ما يُسبغ على غيرهم من بقية قبائل الحضر.

المحس الأصليون أصلهم برابرة، بيد أن الأخيرين يحملون الكثير من الدماء الزنجية والقليل من العنصر العربي كذلك الذي يجري - على سبيل المثال - في عروق البرابرة في شمال حلفا أو في دنقلا[2]، سبق وشرحنا من قبل بأن مرد عزلتهم يعود - بصفة رئيسة - للموقع الجغرافي. ولكن يبدو إن قلة من العرب لا بد أن يكونوا قد شقوا طريقهم لمنطقة المحس، مما أعطاهم تبريراً للإدعاء بالتحدَّر من قريش[3] أو الأنصار.

وفي حقبة مبكرة - إبان تأسيس مملكة الفونج تقريباً - هجر بعض هؤلاء المحس ديارهم الأصلية متظاهرين بالتحدَّر من أصل شريف[4]. متسلحين بقدر ما

---

(١) المعني بالمحس الجنوبيون هؤلاء الذين هاجروا من الشمال وتسربوا نحو أواسط السودان.

(٢) يصفهم بركهارت بأنهم سود البشرة تماماً وشفاهم كشفاه الزنوج عدا الأنف وتكوين عظام الوجنات (المرجع السابق ص ٥٨).

(٣) ذكر بركهارت بأن هناك بطن من قريش يُسمون المحس (أنظر بركهارت ص ٦٤ و١٣٣).

(٤) يدعون بأنهم خزرج، أي بين مجموعة الأنصار الذين إستقروا في صعيد مصر.

من التعليم، حيث نصَّبوا أنفسهم كأولياء وسط هذه المجموعات الأكثر جهلاً من العرب والفونج والنوبة في الجنوب. وهكذا بدأ استقرار المحس في النيل الأزرق وحول الخرطوم والعيلفون حيث يُوجد ضريح شيخ إدريس ود الأرباب الذي أصبح مزاراً لأحفاده من كترانج[١] والرقيبة والكاملين[٢] وكلكول[٣] وجزيرة توتي والحلفايا[٤] الخ.

سهَّل هذا الوضع من تملُّكهم للأراضي الخصبة على ضفاف النهر والتزاوُّج مع مختلف بطون جهينة الذين يمتهنون الرعي والزراعة المطرية في الأراضي الباطنة. تكرر نفس هذا الموقف في كردفان حيث إنتهز المهاجرون من الدناقلة فرصة جهل البدو من العرب بالري الصناعي والأعمال اليدوية - باستثناء ما يؤديه عبيدهم - فإمتلكوا أفضل أراضي الخيران على حساب قبيلة دار حامد. وعلى نفس المنوال سبق المحس مجموعات الرفاعيين إلى النيل الأزرق. وفي الحالتين كانت المحصَّلة النهائية شيء من الغيرة والقليل من المنازعات. ورغم إن المحس ظلوا - دائماً وأبداً - من الحضر، إلا أنهم يُقسِّمون أنفسهم - نظرياً - وعلى نهج العرب، إلى بطون مما سيرد ذكرهم، وأصلهم من المهاجرين ويعيشون جنوب بربر.

(١) قردقاب
(١) محمداب يوجدون في جزيرة توتي
(٢) بركات والعيلفون والبشاقرة شرق والشقلة وألتي

(٢) صباحاب
(أ) داخلاب - في النوبة
(٣) عوناب- في البشاقرة غرب وفي منطقة الخرطوم قبل إعمارها من قبل

---

(١) يُقال إن آخر تفسير للفظ «كترانج» يدل على إنه مرتبط بالعنج. وإن خرائب الطوب الأحمر القديمة التي تقع على بعد ميل أو ميلين من القرية هي مجرد ركامات بلا شكل معين.

(٢) يُقال إن المحس المقيمون هنا يُعرفون بالفرانيب بيد إن الاسم إندثر الآن والاسم الصحيح هو الكامنين. العيلفون وكترانج والكاملين ذكرهما يونسيت في ١٦٩٨ (ص ١٧).

(٣) يقال أن الزناقلة سبقوا المحس لهذا الموقع.

(٤) يقال أن بعض المحس انضموا لأولاد عقبة من الكبابيش.

خورشيد باشا

(٤) مكيناب - بجزيرة توتي

(٥) خوجلاب- في القبة وفي جزيرة توتي

(٦) واوسي- في مركز الجيلي شمال الخرطوم

(٧) جني الحاج - في الجزيرة

(٨) أولاد فلاتة - في كترانج

(٩) أولاد مانع - في الرقيبة

مذكرة حول تقاليد الدفن في النيل الأزرق

هناك أنواع رائجة من وسائل دفن الموتى أدنى النيل الأزرق لا يستخدمها الفونج وقد تكون ذات أصول نوبية «بربرية» نتيجة لاستقرار المحس في تلك الأنحاء. وفي مقالة لـ«بكت» في مجلة القاهرة العلمية العدد ٥٩ - أغسطس ١٩١١م، يقول «بعد دفن الجثمان يُجرى إحتفال لسبعة ايام، ثم يُعاد هذا الإحتفال بعد أربعين يوماً. وفي هذه المرة يجلب أي من الحاضرين حصي من الصحراء التي حولهم، ثم يتلو شيخ القرية القرآن على هذا الحصي، ثم يلقي كل منهم حصيته على القبر حتى تتم تغطيته تماماً. تُوضع - بعد ذلك - أواني الماء على رأس كل مقبرة ويجدد أقارب المتوفى تزويدها بالماء، كما يُغرز بجوارها فرعاً من النخيل.

في النيل الأزرق - جوار الكاملين - تُوضع جرار الماء في القبور على ذات المنوال وتظل ممتلئة لعدة أسابيع بعد الدفن، ثم تُهمل بعد ذلك.

يفسر الأهالي هذه العادة بتفسيرين: أولهما إن هذا الفعل يُحسب لمصلحة المتوفى «أي حسنة» لله تعالى لأن الطيور عادة ما تطفئ ظمأها من هذه الجرار، وثانيهما هي إن وجود الماء يخفف من حرارة المدفن.

فيما يتعلق برمي الحصي على المقبرة يُراعى العرف ولكن بإختلافات هامة. ويمكننا إيراد ثلاثة نماذج لذلك:

١- ففي حلة النوبة: - فيما بين الكاملين والخرطوم - حيث السكان من المحس والجعليين والعايداب والحضور والكواهلة والرفاعيين والشبارقة، تقع المدافن في ذات الموقع الذي تخيَّره قدماء الأهالي. ومقابر الأجيال الحالية تُغطي بحصي دائري الشكل أصغر حجماً باستثناء هؤلاء الذين قُبروا حديثاً. وبالسؤال عن أسباب هذا الاستثناء يقول القرويون، لكي تُوضع الأحجار على المقبرة يجب أن يمضي على الدفن سبعة أشهر. فإذا حالت ظروف قاهرة دون إجراء هذا التقليد في موعده المحدد، يجري في الشهر التاسع بدلاً عن السابع. أما إذا لم يُجر في الشهر التاسع يكون الوقت قد فات. فإذا أُجرى في ثمانية أشهر - مثلاً - يصبح الأمر من غير ذى جدوى. لا يجوز للرجال أو الصبية أو العذراوات نثر تلك الأحجار على القبر بل تقتصر المشاركة على المتزوجات من نساء القرية. ليس للفكي «الفقيه» دور في هذه المراسم، كما لا تُوجد مراسم معيَّنة ينبغي مراعاتها. فضلاً عن عدم وجود إحتفالات ملازمة لتلك الطقوس. ويُقال إن هذه العادات مُتبعة في كل القرى المجاورة.

٢- حلة كترانج: - وهي على بعد خمسة أميال من النوبة على الضفة الأخرى للنهر، سكانها من الرفاعيين، وتقع قرية المحس على بعد ميل أو نحوه. وبالسؤال عن عادة نثر الحصي على المقابر يقول الأهالي بأنها تُنثر عادة بعد إنقضاء سبعة أو تسعة أشهر لا أكثر ولا أقل، وتباشر هذه العادات المعمِّرات من النساء دون غيرهن.

أما في العيلفون فيجريها الرجال، غير إن هذه العادات لا تُعرف في أي مكان آخر. تُجرى تلك الطقوس أثناء شروق الشمس، ويقدم أقرب أقرباء المتوفى بعض الدهن للمسنات من النساء مع ذبح كبش كقربان. وأثناء ممارسة النسوة لتلك الطقوس يبدون خاليات البال، يتضاحكن مع بعضهن البعض. أما الكبش فيجب أن يُؤكل فوراً ثم تُرفع الفاتحة. قد يساهم القرويون في هذا الإحتفال ببعض مخزونهم من الغلال، فإذا كان الشخص فقيراً جداً بحيث يعجز عن المساهمة في الإحتفال، يمتنع عليه جلب الحجارة التي تنثر على القبر.

٣-العيلفون: - بين الخرطوم وحلة النوبة - سكانها من المحس الذين يدَّعون التحدُّر من رجل الدين شيخ إدريس الأرباب. يقول الأهالي، بأن من عادتهم نثر الحصي على المقابر بعد إحدى عشر شهراً. فإذا لم يتم ذلك بتمام الإحدى عشر شهراً ينتهي الأمر بفوات الميعاد. يباشر تلك المراسم - هنا - الرجال لا النساء.

الفصل الثاني عشر

عرب الحُمران

الحُمران مجتمع صغير جداً على الحدود الحبشية، لكنهم نالوا شهرة واسعة على ضوء ما أورده عنهم «السير صمويل بيكر»، إذ قابل هؤلاء الجبابرة حَمَلة السيوف في عام ١٨٦١م على نهر سيتيت، وتحدَّث عن شجاعتهم التي لا تُضاهى وبراعتهم في إصطياد الأفيال.

أول إشارة لهم كانت في القرن الماضي لبروس. صحيح إنه لم يذكرهم بالاسم إلا أن الأوصاف التي ذكرها وإطلاق اسم «عجاجيد» عليهم، ونعتهم بصائدي الأفيال - وهو النشاط الذي يشتهرون به حتى الآن - يثبت بأنهم المعنيون. ويضيف - أثناء حديثه عنهم - بأن لهم ملامح أوروبية متسقة وشعر سبيبي، لونهم غامق[١]. وكانوا أعداء ألداء لقبيلة الشنقالة.

ويصفهم «مانسفليد باركنز» بأنهم من أصل بشاري، ولا يزالون يتحدَّثون لغة الهدندوة كما لو كانت لغتهم الأم، والغالب إنهم بطن من البشاريين لعدم وجود أية فوارق بينهم.

يقول «بيكر»: يختلف عرب الحُمران عن بقية القبائل بالطول الزائد للشعر الذي يُسدل في شكل ضفائر من منتصف الرأس ويُصفف في شكل ضفائر طويلة. وعادة يحملون درقات مستديرة من جلود أفراس النهر. والحمران ليسو بالقبيلة الكبيرة وسكنهم المستديم على ضفاف نهر سيتيت بالقرب من تقاطعه مع نهر

---

(١) لاحظ بيكر أيضاً غموض ألوانهم (أنظر ص ١٧٤) ويصفهم باركنز بذوي اللون البونزي العميق.

عطبرة. والراجح إن عددهم الحالي لا يتجاوز بضع مئات من الأنفس لأن الأغلبية أُبيدت إبان حكم الدراويش. لا يزال المتبقون منهم نماردة كبار كما كان آباؤهم، ودرجوا على التباهي بأنسابهم ونقائهم العربي بما يفوق كل القبائل المحيطة بهم.

يدعي الحُمران بأنهم هاجروا من الحجاز وإن أصلهم نبيل. وإذا جاز الوثوق بالمخطوطة (د - ٦) تكون القبيلة فرع من بني حرب. ورغم إن المخطوطة (ب - أ) لا تُعطي تفاصيل وافية عنهم، مع ذلك تُصنِّفهم - ببساطة - ضمن حَمر أي من مجموعة جهينة التي يُلاحظ إختلاطها الواسع ببني حرب على الدوام.

الفصل الثالث عشر

الرشايدة والزبيدية

الرشايدة من مهاجري الجزيرة العربية الحديثين والذين عبرت أعداد منهم البحر الأحمر في عام ١٨٤٦م واتخذوا مواطنهم بين طوكر والحدود الأرترية. ثم شق بعضهم طريقه غرباً. يرعى الرشايدة إبلهم في عطبرة وبربر. وحتى ثورة الدراويش كانوا من أثرياء الناس، بيد أنهم نُهبوا إبان تلك الجائحة وفر الباقون والتجأوا لمصوع. وبعد إعادة احتلال السودان عادوا لعطبرة والقاش، ومنذ ذلك الوقت انضمت لهم مجموعات مُعتبرة من بني جلدتهم الذين وفدوا من الحجاز وأرتريا.

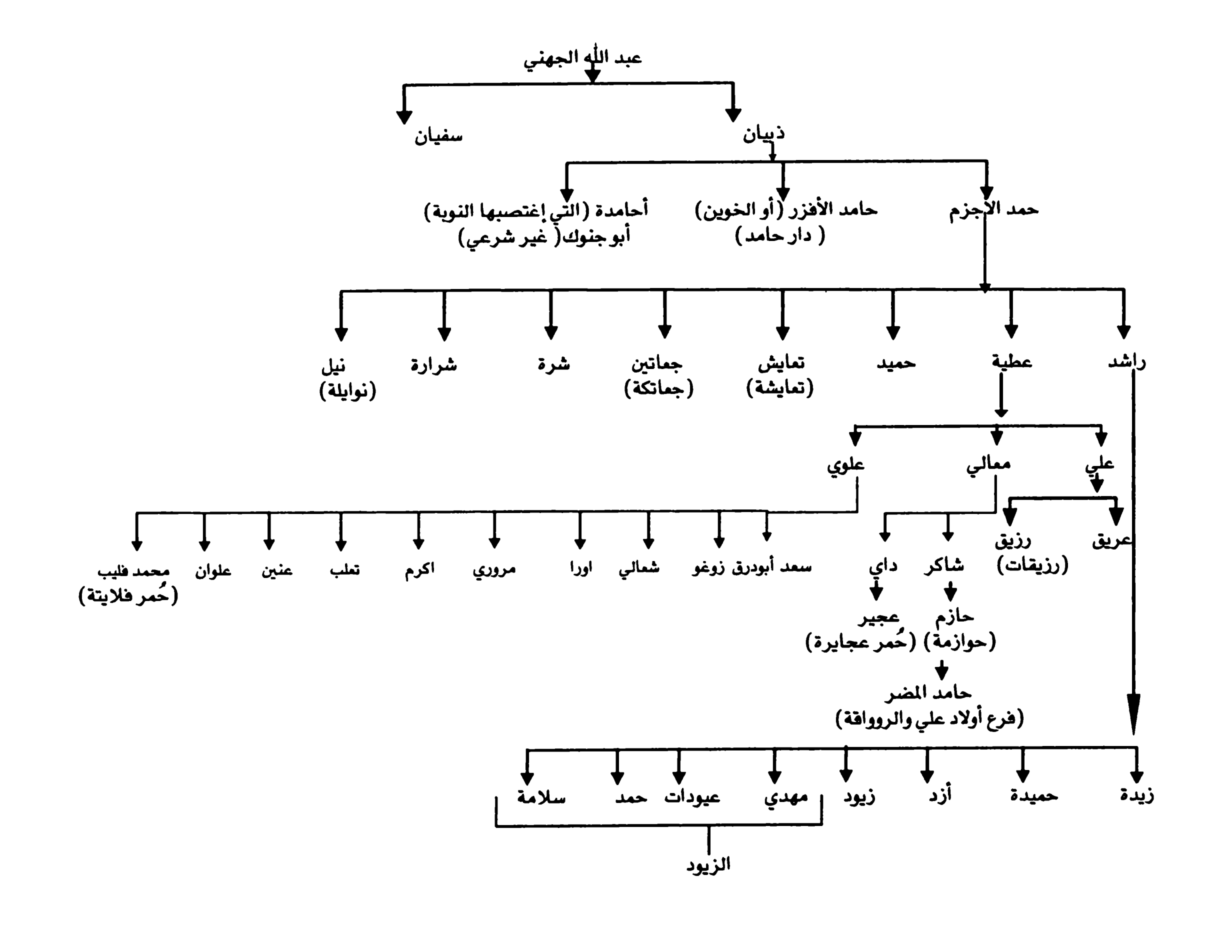
والرشايدة بدو من رُعاة الإبل، ويبلغ عددهم في البحر الأحمر وبربر[١] - حتى وقتنا الحاضر - ما بين الألف والألفين من الرجال.

أما الزبيدية بشرق السودان فيُعتبرون - مقارنة بمن سبقوهم - أحدث مهاجري الجزيرة العربية ،وموطنهم الرئيس حول ميناء رابق - وكر القراصنة المعروف - فيما بين ينبع وجدة وتجاورهم من الشمال قبيلة جهينة.

سبق وقلنا - عند تناولنا لبني راشد والبقارة من الزيود في ودّاي وبرنو - بأن بني راشد يشملون الزيود، وإن أحد فروعهم الرئيسة هم الزبدة الذين يدّعون الإنتماء للأصول الحميرية. التعرُّف على أسماء «بني راشد» و«رواشدة» و«رشايدة»

---

(١) البطن الموجود في بربر هم الزنيمات الذين ينقسمون بدورهم إلى دوي وعايد وحلمات ودوي براغيث وحويجات وكزازية وعوازم وعرينات. أما هؤلاء الذين في البحر الأحمر ينقسمون إلى دوي وعامري وشناتير وجلادين وبراطيخ الذين ينقسمون بدورهم إلى منافير وعميرات.



عبد الله الجهني
سفيان
ذبيان
حمد الأجزم
حامد الأفزر (أو الخوين)
(دار حامد)
أحامدة (التي إغتصبها النوبة)
أبو جنوك(غير شرعي)
راشد
عطية
حميد
تمايش
(تمايشة)
جماتين
(جماتكة)
شرة
شرارة
نيل
(نوايلة)
علي
معالي
علوي
عريق
رزيق
(رزيقات)
شاكر
داي
حازم
(حوازمة)
عجير
(حُمر عجايرة)
حامد المضر
(فرع أولاد علي والرووافة)
سعد أبودرق زوغو
شمالي
اورا
مروري
اكرم
تعلب
عنين
علوان
محمد فليب
(حُمر فلايتة)
زيدة
حميدة
أزد
زيود
مهدي
عيودات
حمد
سلامة
الزيود

سبق التنويه له، فضلاً عن حقيقة هجرة الزبيدية من الجزيرة العربية، وبأنهم فرع من بني حرب الذين كانوا - على الدوام - جيراناً لجهينة. ثم أوضحنا كيف إنهم رافقوا جهينة في أعدادٍ كبيرة للسودان وكّونوا بمعيتهم مجموعات البقارة بما لا يستدعي الإعادة.

من الواضح إن تقاطر الرشايدة والزبيدية نحو شرق السودان لا يرجع لعهود حديثة فقط بل بدأت هذه الهجرة من عدة قرون سلفت عندما عبر أجداد بني راشد والزيود إلى أفريقيا. وبدلاً عن الاستقرار في الشرق تسربّوا عبر كردفان ودارفور تاركين أعداداً معينة من بني جلدتهم بين البقارة في تلك البقاع، ثم استوطّنوا برنو ووداّي.

اسم «زبيدية» قديم جداً ومُستمد من مدينة زبيد في اليمن، المدينة التي ربما استمدت اسمها من «جبادي»، تلك القبيلة التي ذكرها «بلني» ووصف أفرادها بأنهم سكان الساحل الغربي للبحر الأحمر في القرن الأول بعد الميلاد.

يتميَّز وسم جِمال الزبيدية بالغرابة حيث يُوضع في المؤخرة. وهو وسم معروف ومتطابق في شرق وغرب السودان. ولا تزال النقطة التي على الوسم مُستخدمة من قبل بني صخر في الجزيرة العربية

تمتاز جمال الزبيدية بخصائص مميزة جداً ويسهل التعرُّف عليها، فهي صغيرة كثيفة الشعر، بنية غامقة، ضامرة، قصيرة الأرجل، تمتاز بالقدرة على الحمل والنقل.

الحداريب والحضور:

الحداريب:

ويُنطق اسمهم مُحرَّفاً فيما بين حداريب وحداربة وحضارمة. ويُعزى هذا الاختلاف لقلب حرف «الضاد» «دال». أجمعت النسبة بأنهم وفدوا من حضرموت في بداية ظهور الإسلام، واستقروا على ساحل البحر الأحمر مع البجة

جوار سواكن. وهذا كل ما ورد بشان أصولهم. وعنهم يقول بركهارت: «سكان سواكن شأنهم شأن جميع القاطنين على سواحل البحر الأحمر ينتمون لأعراق شتى، والواضح إن أصول الأسر الرئيسة لعرب سواكن تعود لحضرموت، وتحديداً مدينة شاهر ميناؤهم التي على المحيط الهندي وذلك منذ حوالي قرن من الزمان. بينما يقول آخرون بإنهم وفدوا من حضرموت بعد ظهور الإسلام مباشرة، ومنهم استعار سكان المدينة اسم (حداريب) بما في ذلك الأجانب. لكن للأهالي خطأ فاصلاً للتمييز بين الحداريب الحقيقين - أي أهالي حضرموت - وغيرهم ممن يُطلق عليهم السواكنية».

ويضيف بركهارت «بأن أهالي حضرموت يشتهرون بالهجرة وأن لهم مستوطنات كبيرة في كل مدن اليمن والحجاز، وإليهم يتنمي أغلب أهالي جدة والطبقات الدنيا من سكان مكة.

كانت حكومة سواكن - وقت زيارة بركهارت - برئاسة أمير من الحداربة، تم إختياره من بين عوائل الأشراف الخمس من قبيلة «الأرتيقة». يرتبط الأمير - اسمياً - بالباشا في جدة ويباشر من المهام المتعلِّقة بشئون القبيلة ما لا يكاد يذكر، إذ يقتصر دوره الرئيس على تحصيل المكسوس.

يتولى رعاية شئون القبيلة شيخها الخاص، وهو على علاقة سيئة بقبائل البجة التي في الداخل. قال بركهارت - عند تعرُّضه لشندي - «بأن أغلب التجار الذين يترددون على سوق شندي هم أناس من سواكن أو من يُطلق عليهم - في هذا الجزء من أفريقيا - اسم (حداريب) أو (حضارمة)، ويرجع أصلهم لحضرموت جنوب الجزيرة العربية». ويُضيف بأن قوافلهم تغشي سنار والابيض أيضاً.

الحداريب رحَّالة عظماء، درج الكثيرون منهم على التجوُّل شرق حضرموت حتى جاوا والهند بدلاً عن التوجه غرباً نحو أفريقيا. ويقول زومر «إن مجموعة كبيرة من الحضارمة هاجروا للأرخبيل الهولندي قبل أكثر من قرن وشاع التزاوُج بينهم والجاويين. وإنطبع إسلام شرق الهند الهولندية بطابعهم.

الحضور[1]:

يقول عنهم المسعودي بأنهم شعب قديم في الجزيرة العربية، ذوو بأس، مجهولو الموطن، ولخطاياهم خصهم الله -إبان فترة الجاهلية - بنبي مُرسل فقتلوه، طلب

(١) جاء في المسعودي المجلد الثاني ص ١٥٠ ما يلي «أما بنو حضورا وكانت أمة عظيمة ذات بطش وشدة فغلبت على كثير من الأرض والممالك، وقد تنازع الناس فيهم: فمنهم من ألحقهم بمن ذكرنا من العرب البائدة ممن سمينا، ومنهم من رأى إنهم من ولد يافث بن نوح، وقيل في أنسابهم غير ما ذكرنا من الوجوه، وقد كان الله عز وجل بعث إليهم شعيب ابن مهدم بن حضورا بن عدي نبياً ناهياً عما كانوا عليه، وهذا غير شعيب بن نويل بن رعويل بن مر بن عنقاء بن مدين بن إبراهيم الخليل صاحب مدين المتزوج ابنته موسى بن عمران المقدم ذكره، وبينهما مئون من السنين، وقد كان بين موسى بن عمران وبين المسيح ألف نبي، ولما بُعث إلى حضورا واشتد كفرهم جدَّ نبيهم شعيب بن مهدم في دعائهم وخوَّفهم وتوعَّدهم، فقتلوه من بعد ظهور معجزات. كانت له دلائل أظهرها الله على يديه تدل على صدقه وتثبت حجته على قومه، فلم يضيع الله دمه، ولم يكذب وعيده، فأوحى الله تعالي إلى نبي كان في عصره - وهو برخيا بن أخبيا بن رزنائيل بن شالتان - وكان من سبط يهوذا بن اسرائيل بن اسحاق بن إبراهيم الخليل عليه السلام - أن يأتي بختنصر - وكان بالشام - وقيل: غيره من الملوك، فيأمره أن يغزو العرب الذين لا أغلاق لبيوتهم، فلما أتى برخيا ذلك الملك قال له الملك صدقت، لي سبع ليالٍ أؤمر في نومي بما ذكرت، وأنادي بمجيئك إلي، وأبشر بخطابك، ويقال لي ما أمرتني به، وأن انتصر للنبي المقتول الفريد (المظلوم) فسار إليهم في جنوده وغشي دارهم في عساكره، وصاح بهم صائح من السماء وقد إستعدوا لحربه من حيث عمَّ الصوت جميعهم وهو يقول.

سيُغلب قوم غالبوا الله جهرة وإن كايدوه كان أقوى وأكيدا
كذاك يضل الله من كان قلبه مريضاً ومن والى النفاق وألحدا

فلما سمعوا ذلك علموا إن الأمر قد نزل بهم، فإنفضت جنودهم، وتفرَّقت جموعهم، وولت كتائبهم (يتراكضون) وأخذهم السيف فحُصدوا أجمعين. وقد ذكر إن في قصة هلكهم قال الله عز وجل من قائل «فلما أحسُّو بأسنا اذ هم منها يركضون» وقد تنوزع في ديارهم والموضع الذي كانوا فيه، فمن الناس من رأى أنهم كانوا بأرض السماوة، وأنها كانت عمائر متصله ذات جنان ومياه متدفقه وذلك بين العراق والشام إلى حد الحجاز، وهى الآن ديار خراب براري وقفار، ومنهم من رأى إن ديارهم كانت (بلاد جند قنسرين إلى تل ماسح إلى خناصرة) إلى بلاد سوريا، وهذه المدن في هذا الوقت مضافة إلى أعمال حلب من بلاد قنسرين من أرض الشام.

النبي «باروخ» من «بختنصر» معاقبتهم، فهاجمهم وشتت شملهم.

واسم حضور لا يرمز - في وقتنا الحاضر - إلا لتجار من العرب وفدوا من خارج السودان، يقيم بعضهم في قرية النوبة بالنيل الأزرق، ويُقال إنهم «هوارة». هناك حضور آخرون في «ألتي» وغيرها من قرى النيل الأزرق. وقيل إن قرية «أربجي» كانت مأهولة بهم قبل أن يدمَّرها الشكرية، كما قيل بأن مؤسسها حجازي بن معين جد الجليلاب في «ودراوه» حضري ولا علاقة له بجهينة التي يدَّعي أحفاده الانتساب لها.

وإليهم ينتمي الدافرية والدخيناب والفقداب والفارساب والجاراب والكرنجاب وآخرون غيرهم من الأقليات الموجودة في تلك الأنحاء مثل الجليلاب الذين يدَّعون التحدَّر من جد مشترك، أي حجازي بن معين. والأرجح - كما يستدل من الاسم - إن أصل الحضور الحقيقيين من الحداريب رغم اختلاف الاسم، ومع ذلك أصبح اسمهم أكثر شمولاً وإبهاماً.

..... وتم بحمد الله....